
جائزة
نوبل للآداب
2018
الرواية الحائزة
على جائزة
مان بوكر الدولية
2018
"... الخيال السردي الذي
يصوِّر بشغفٍ موسوعيٍّ
عبورَ الحدود بوصفه شكلًا
من أشكال الحياة".
لجنة تحكيم جائزة نوبل
رحَّالة
أولغا توكارتشوك
ترجمة: إيهاب عبد الحميد
التنوير

الحائزة على جائزة نوبل للآداب

أولغا توكارتشوك

رحَّالة

رواية

ترجمة: إيهاب عبد الحميد



الكتاب: رحَّالة/ رواية

المؤلف: أولغا توكارتشوك

ترجمة: إيهاب عبد الحميد

عدد الصفحات: 376 صفحة

الترقيم الدولي: 9786144721018

الطبعة الأولى: 2019

دار التنوير للطباعة والنشر

مصر: القاهرة–وسط البلد –19 عبد السلام عارف (البستان سابقًا) –الدور 8 – شقة 32

هاتف: 0020223921332

بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

لبنان: بيروت – بئر حسن - سنتر كريستال، الهزيم – الطابق الثالث -

هاتف: 009611843340

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر – 1001 تونس.

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

تُرجمت هذه الرواية عن النسخة الإنكليزية التي أنجزَتها المترجمة جينيفر كروفت Jennifer Croft بعنوان Flights، وحصدت عنها جائزة البوكر الدولية للعام 2018 مع الكاتبة أولغا توكارتشوك Olga Tokarczuk.

وقد اخترنا عنوان «رحَّالة» استنادًا إلى العنوان الأصلي البولندي للرواية: Bieguni.

وفي أثناء العمل على المراجعة، فازت المؤلفة بجائزة نوبل للآداب.

ها أنا ذا

عمري بضع سنوات. أجلس على حافة الشباك، محاطة بألعاب مبعثرة وأبراج مكعبات مقلوبة، ودمىً بأعين جاحظة. البيت مظلم، والهواء في الغرف يبرد ببطء، يُعتم. لا أحد هنا سواي، لقد غادروا، رحلوا، وإن لا يزال بالإمكان سماع أصواتهم تحتضر، تلك الخشخشة، أصداء وقع أقدامهم، ضحكة بعيدة. من النافذة، ساحة الدار خاوية. الظلام ينتشر برقة من السماء، يهبط على كل شيء مثل نداوة سوداء.

أسوأ ما في الأمر هو السكون، مرئي، كثيف - غبشة تجلب القشعريرة، والضوء الشاحب المنبعث من مصابيح بخار الصوديوم يغوص في رحلة الظلام بعد بضع أقدام، لا أكثر، من منبعه.

لا شيء يحدث - زحفُ الظلام ينقطع عند باب البيت، وجلّبة الأفول تهمَد، تصنع قشرة سميكة كتلك التي تتكون على سطح الحليب البارد. الخطوط الخارجية للبنايات تمتد أمام خلفية السماء إلى اللانهاية، تفقد على مهل زواياها الحادة، أركانها، حوافها. الضوء يُعتم فيأخذ معه الهواء - لا يبقى شيء للتنفس. الآن يتسرب الظلام إلى داخل جلدي. لقد تكوّرَتِ الأصوات على نفسها، ساحبة أعينها الشبيهة بأعين الحلزون: لقد غادرت أوركسترا العالم، تبخرت في ظلام الحديقة.

ذلك المساء هو حدُّ العالم، وقد تصادف كوني هنا، بلا قصد، وأنا ألعب، لا أبحث عن أي شيء. لقد اكتشفته لأنني تُركت من دون رقابة لبرهة. واضحٌ أنني رأيت نفسي الآن في شرَك، ولا أستطيع الخروج. عمري بضع سنوات، أجلس على حافة الشباك، وأنظر إلى ساحة الدار قارسة البرودة في الخارج. الأضواء في مطبخ المدرسة انطفأت. الجميع غادروا. كل الأبواب موصدة، الكوَات مغلقة، ستائر الإعتام مسدّلة. أود لو أغادر، لكن ما من مكان أذهب إليه. وجودي ذاته هو الشيء الوحيد الذي له حدود مميزة الآن، حدود ترتعش وتترقرق، وإبان ذلك تؤلم. وفجأة أعرف: ما من أحد يستطيع أن يفعل شيئًا الآن، ها أنا ذا.

العالَم في رأسك

أول رحلة قمت بها في حياتي كانت عبر الحقول، سيرًا على الأقدام. لزمهم وقت طويل لملاحظة غيابي، ما يعني أنني استطعت قطع مسافة معتبرة طويتُ الحديقة طولًا وعرضًا، بل وسرت -في الطرق الترابية وسط الذرة والمروج الرطبة الزاخرة بـ«زهور الحقل»، وتقسمها القنوات إلى مربعات- وصولًا إلى النهر. مع أن النهر بالطبع كان متغلغلًا في ذلك الوادي، يتسرّب تحت لحاف الأرض ويلعق الحقول بألسنته.

تسلقت -بصعوبة- سدًّا على ضفة النهر، فاستطعت رؤية شريط رقراق، طريق ظل ينساب خارج الإطار، خارج العالم. إذا كنتَ محظوظًا، ربما استطعت أن تحظى بلمحة من قارب هناك، واحد من تلك القوارب المسطحة الهائلة المنزلقة على سطح النهر في هذا الاتجاه أو ذاك، غافلة عن الشواطئ، عن الأشجار، عن الناس الواقفين فوق السد، معالم غير موثوقة، ربما، لا تستحق الملاحظة، مجرّد جمهور لحركة القوارب، الأنيقة والبهيّة. كنت أحلم بالعمل على متن قارب مثل تلك عندما أكبر - أو الأفضل، أن أصبح واحدًا من تلك القوارب.

ليس نهرًا كبيرًا، هو نهر الـ«أودر» فحسب، لكنني أنا، أيضًا، كنت صغيرة وقتها. كان نهرًا يحتل مكانًا وسط تراتبية الأنهار، الأمر الذي راجعته بعد ذلك على الخرائط- نهر صغير، لكنه موجود، على الرغم من ذلك، أشبه بكونتيسة في بلاط «ملكة الأمازون [1] ». لكنه بالنسبة إليّ كان يكفي ويزيد. بدا لي هائلًا. ينساب على هواه، بلا عراقيل تُذكر، ميال للفيضان، غير متوقع. من حين لآخر، على طول ضفافه، كان يقابل عائقًا تحت السطح، فتتشكل دوامات. لكن النهر كان ينساب بخيلاء، لا ينشغل إلا بمقاصده الخفية وراء الأفق، في مكان بعيد، هناك في الشمال. لم يكن بوسعك أن تركز عينيك على المياه، إذ كانت ترفع أنظارك إلى ما وراء الأفق، إلى أن تفقد توازنك.

عن نفسي، لم يعرني النهر أدنى انتباه، بالطبع، مهتمًا بنفسه فقط، بتلك المياه المتغيرة، الطوّافة التي لا يمكن - كما تعلّمت لاحقًا- أن تنزلها مرتين.

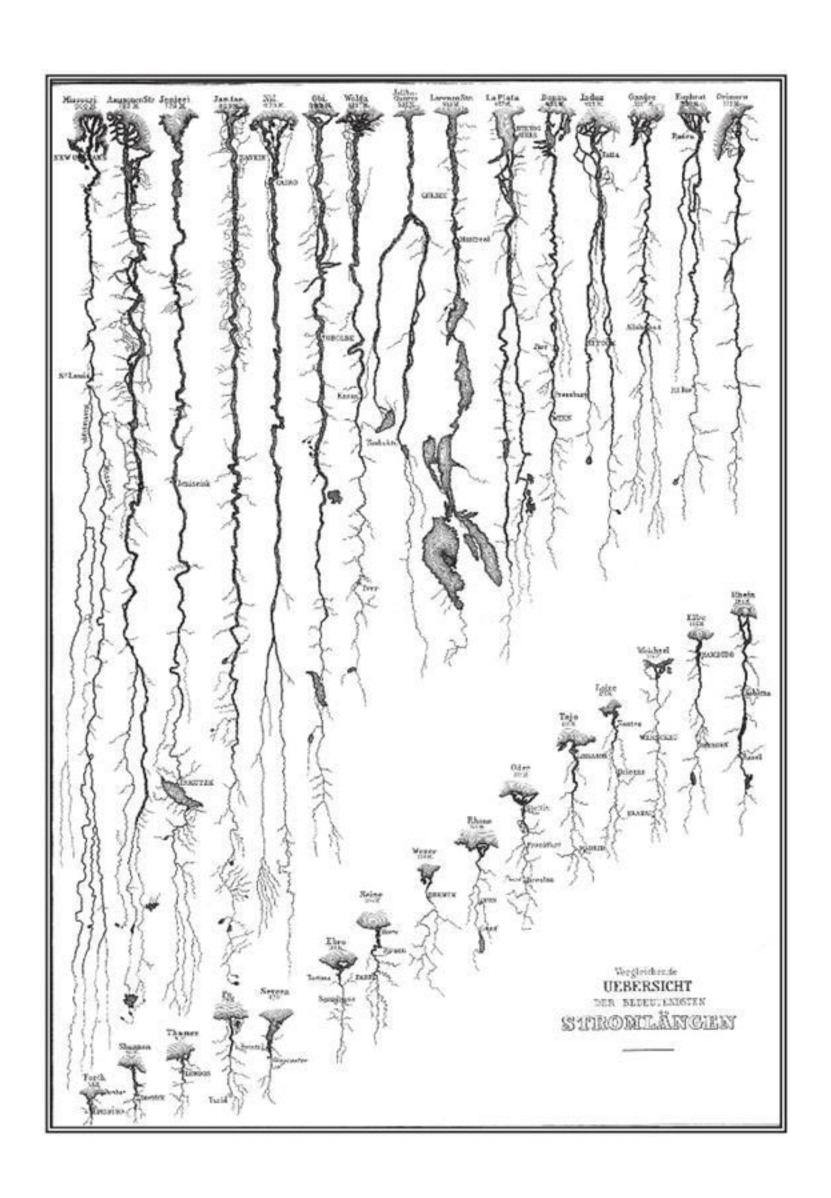
كان يتقاضى ثمنًا باهظًا كل عام لكي يحمل ثقل هذه القوارب - ففي كل عام كان شخصٌ يغرق في النهر، سواء أكان طفلًا نزل ليأخذ غطسةً في نهارٍ صيفيٍ حار، أو مخمورًا انتهى به الحال بصورة ما فوق الجسر وعلى الرغم من وجود درابزين، سقط في المياه. كان البحث عن الغرقى يجري دائمًا مصحوبًا بكثير من الأبهة والبهرجة، حيث يقف كل من في الجوار منتظرين بأنفاس متهدجة. كانوا يجلبون غواصين وقوارب عسكرية، وبحسب

حكايات البالغين التي سمعناها عفوًا كانت الأجسام تستخرج منتفخة وشاحبة- لقد شطفتهم المياه مزيلةً عنهم الحياة، مموهة ملامح وجوههم إلى حدّ أن أحبابهم يجدون صعوبة في التعرف على جثامينهم.

واقفةً هناك فوق السد على الضفة، أحدّق في التيار، أدركت أن الشيء المتحرك -رغم كل المخاطر- يظل دائمًا أفضل من الشيء المستكين؛ أن التغير يظل دائمًا أنبل من الديمومة؛ أن الساكن سيتفكك ويتحلل، يتحول إلى تراب، بينما المتحرك قادرٌ على البقاء إلى أبد الأبدين. من وقتها، أصبح النهر مثل إبرة مغروزة في محيطي الذي كان آمنًا ومستقرًا حتى وقتها، في المنظر الطبيعي المؤلف من الحديقة، والصوبات الزراعية بخضرواتها التي تنمو في صفوف صغيرة حزينة والرصيف بألواحه الأسمنتية حيث كنا نذهب لنلعب الحجلة. انغرزت هذه الإبرة بكامل طولها، راسمةً بعدًا ثالثًا رأسيًا؛ كان المنظر الطبيعي لطفولتي مخروقًا بقوّة وتبين أنه ليس أكثر من لعبة مطاطيّة ينفلت منها الهواء، بهسيس مسموع.

لم يكن والداي من النوع المحب للاستقرار. كانا يتحركان من مكان إلى مكان، مرّة تلو مرّة، حتى لبثوا في نهاية المطاف لفترةٍ طويلةٍ نسبيًا بالقرب من مدرسةٍ ريفيةٍ، بعيدةٍ عن أي طريقٍ لائقٍ أو محطةِ قطارات. ثم أصبح السفر يعني، ببساطة، اجتياز أخاديد الحقول المحروثة، ودخول البلدة الصغيرة القريبة، والتسوّق، وإنهاء معاملات في مكتب الحي. كان الحلاق في الميدان الرئيسي بجوار «دار البلدية» دائمًا هناك في المريلة نفسها، مغسولة ومبيضة بلا طائل لأن صبغة شعر الزبائن خلّفت عليها بقعًا تشبه كتابةً يدويّةً، تشبه حروفًا صينيةً. كانت أمي تذهب لصبغ شعرها، وأبي ينتظرها في «نيو كافيه»، جالسًا إلى إحدى الطاولتين الصغيرتين في الخارج. كان يقرأ الصحيفة المحلية حيث القسم الأكثر إثارة دائمًا هو ذلك الذي يحوي تقارير الشرطة، سرقات برطمانات الخيار المخلّل والمربّى من الأقبية.

ثم تأتي الأعياد، والسياحة الخجولة، وسيارات «سكودا» المكتظة بالأغراض. رحلات أعدت منذ زمن طويل، خُططت في أمسيات بواكير الربيع عندما توقف الثلج أو كاد، وإن كانت الأرض لم تستعد حواسَها بعد؛ كان عليك الانتظار ريثما تُسلِّم نفسها في نهاية المطاف للمعزقة والمحراث، ريثما يصبح بإمكانك أن تزرع فيها من جديد، ومنذ تلك اللحظة فصاعدًا ستشغل الأرض كل وقتهم، من الصبح إلى العشيّة.



Missouri
Nil
Wolga
La Plata
Indus
Ganges
Rhein
Elbe
Weichsel
Loire
Tajo
Oder
Rhone
Weser
Seine
Ebro
Severn
Thames
Shannon
Forth
Vergleichende
UEBERSICHT
STROMLÄNGEN

جيلهم كان جيل المنازل المتنقلة، يُقطرون وراءهم بيتًا بديلًا كاملًا متكاملًا. موقد يُعمّر بالغاز، طاولات وكراس صغيرة قابلة للطي حبل بلاستيكي لنشر الغسيل ليجف عندما يتوقفون، وبعض المشابك الخشبية. مفارش طاولات من المشمَّع. عُدّة رحلات جاهزة: صحون بلاستيكية ملونة، أدوات مائدة رشاشات ملح وفلفل، وأكواب.

عند لحظةٍ ما، في سوق للأغراض المستعملة كان هو وأمي يحبان زيارته على وجه الخصوص (إذ لم يكونا مهتمين، مثلًا، بأن تُلتقط لهم الصور أمام الكنائس أو المعالم الأثرية)، كان أبي قد اشترى غلاية جيش - أداة نحاسية، وعاء له أنبوب في وسطه تملأه بالهشيم الذي تشعل فيه النار. ومع أن الكهرباء كانت متوفرة في مواقع التخييم، كان يُسخّن الماء في هذا القدر المُبقبق الذي ينبعث منه الدخان. يركع فوق الغلاية الساخنة فخورًا بقرقرة الماء وهو يغلي، ويصب لنا فوق أكياس الشاي بدوي حقيقي.

كانا ينزلان في الأماكن المحدّدة، في مواقع تخييم حيث يمكثان دائمًا برفقة آخرين يشبهونهما، ينخرطان في محادثات مفعمة بالحيوية مع الجيران محاطين بجوارب عُلّقت لتجف على حبال الخيمة. كانت مسارات تلك الرحلات تُحدّد بمساعدة الكتيبات الإرشادية التي تُعيّن بدقة فائقة جميع المعالم السياحية. في الصباح سباحة في البحر أو البحيرة، وبعد الظهر جولة وسط تاريخ المدينة، تُختَتَم بعشاء، غالبًا من برطمانات زجاجية: يخنة الغولاش، كفتة في صوص الطماطم. لم يكن عليك إلا طهو الباستا أو الأرز. كانت النفقات تُضغط دائمًا، كان الزلوتي البولندي ضعيفًا- مِلّيم العالم. كان الناس يبحثون عن مكان يتيح لهم الحصول على كهرباء ثم يشدون الرِحال على استحياء، وإن ظلت الرحلات داخل المدار الميتافيزيقي للديار. لم يكونا مسافرين حقيقيين: كانا يغادران لكي يرجعا. ويشعران بالارتياح لدى عودتهما، بإحساس أنهما استوفيا التزامًا ما، كانا يرجعان لاستلام الخطابات والفواتير التي تُكدّس في خزانة الأدراج. لغسيل كل تلك الملابس المتسخة، لإضجار أصدقائهما حتى الموت بصُورهما بينما يحاول الجميع إخفاء تثاؤبهم. هذه صورتنا في «كاركاسون». وهنا زوجتي أمام الأكروبوليس.

بعدها، يعيشان حياة مستقرة على مدار السنة التالية يتركان شيئًا في المساء فيعودان إليه في الصباح، ملابسهما مشبعة برائحة شقتهما، أقدامهما تنحُل بلا كللٍ دربًا في السجادة.

تلك الحياة ليست لي. مؤكد أنني لم أرث ذلك الجين، أيًّا كان، الذي يجعلك حين تقضي بعض الوقت في مكانٍ ما تسارع بضرب جذورك فيه. لقد حاولت، مراتٍ عدّة، لكن جذوري كانت دائمًا ضحلة: أوهي نسمة تطيح بي على الفور. لا أعرف كيف أنبت نفسي. إنني ببساطة لا أمتلك تلك القدرة التي تُميّز الخضروات. لا أستطيع استخلاص المواد الغذائية من التربة. أنا أنتايس الضد[2]. طاقتي تستمد من الحركة من رجرجة الحافلات، قعقعة الطائرات، اهتزاز القطارات والعبارات.

أتمتع ببُنية عملية. جسدي ضئيل. مضغوط، معدتي مكتنزة، صغيرة، غير متطلبة. رئتاي وكتفاي قويّة، لا أتعاطى أي أدوية - ولا حتى حبوب منع الحمل. ولا أضع نظارة. أقصُّ شعري بماكينة الجز، مرة كل ثلاثة أشهر، ولا أضع أي «مكياج» تقريبًا. أسناني بصحة جيدة، ربما غير منتظمة قليلًا، لكنها سليمة، وليس عندي إلا حشوة واحدة، أظنها في الناب السفلي الأيسر. كبدي يعمل في النطاق الطبيعي. وكذلك بنكرياسي. كليتاي اليمنى واليسرى في حالة ممتازة. شرياني الأورطي البطني طبيعي. مثانتي تعمل. الهيموغلوبين 12.7. خلايا الدم البيضاء 4.5. الهيماتوكريت (مكداس الدم) 41.6. الصفائح الدموية 228. الكولسترول 204. الكرياتينين 1.0. البيلوروبين 4.2. وهكذا. حاصل ذكائي IQ -إذا كنت تعول على هذه الأشياء- 121: مقبول. مهارات الاستدلال المكاني عندي متطورة على نحو خاص، ذاكرة فوتوغرافية تقريبًا، ولو أن تناظر المخ عندي سيئ، الشخصية غير مستقرة، أو غير موثوقة بالكامل. السنّ مسألة في رأسك فقط. الجندر مسألة نحويّة. أشتري كتبي في نسخ ذات أغلفة ورقيّة، حتى أستطيع تركها من دون ندم على رصيف المحطة، ليأخذها شخص آخر. أنا لا أجمع أي شيء.

أتممت دراستي، لكنني لم أتقن حينها أي صنعة، وهو ما أندم عليه: جدي الأكبر كان نسَّاجًا، يُبيّض الملابس المنسوجة بفردها على سفح التل، عاريةً تحت أشعة الشمس الحامية. كنت سأتعامل جيدًا مع مزج خيوط السُدى بخيوط اللحمة، لكن لا وجود لنَولٍ محمول. النسج أحد فنون القبائل المقيمة. عندما أسافر، أطرّز بالتريكو. للأسف، مؤخرًا، منعت بعض خطوط الطيران استخدام إبر التريكو والكروشيه على متن طائراتها. لم أتعلم قطُّ، كما أقول، أي عمل محدد، ومع ذلك ورغم ما كان والداي يقولانه لي دائمًا، استطعت أن أتدبر أمري، بالعمل في وظائف مختلفة أثناء ارتحالي، ظللت طافيةً على السطح.

عندما عاد والداي إلى المدينة بعد تجربتهما التي استمرت لعشرين سنة، بعد أن ضجّا أخيرًا من موجات القحط والصقيع، من الطعام الصحي الذي يظل متوعّكًا طيلة الشتاء في قبوهما، من الصوف المجزوز من أغنامهما من دون هوادة، والمحشور داخل أفواه الألحفة والوسائد الفاغرة، أعطياني قليلًا من النقود، وانطلقتُ في أولى رحلاتي.

عمل في وظائف غريبة أينما حللتُ. في مصنع دولي في ضواحي حاضرة كبيرة جمعتُ هوائيات اليخوت الفارهة. كنت واحدةً من كثيرين مثلي. كنا نتقاضى أجورنا تحت الطاولة، ولا يسألنا أحد قط من أين أتينا أو ما هي خططنا للمستقبل. كل جمعة كنا نتسلم نقودنا، ومن لا يرغب في البقاء بعدها لا يأتي يوم الاثنين التالي بكل بساطة. كان ثمة خريجو مدارس يأخذون فاصلًا قبل التقديم للجامعة. مهاجرون لا يزالون في الطريق إلى ذلك البلد الجميل الشاعري الذين كانوا متأكدين من وجوده في مكان ما في «الغرب»، حيث الناس أخوة وأخوات، وحيث تلعب الدولة القوية دور الوالد. هاربون من أسرهم- من الزوجة والزوج، الأب والأم، التعساء في الحب، المشوَشون، السوداويون، أولئك الذين يشعرون بالبرد طوال

الوقت. أولئك الهاربون من القانون لأنهم لم يستطيعوا سداد ديونهم. جوّالة، صعاليك. مجانين سينتهي بهم الحال في المستشفى حين يصيبهم المرض المرة القادمة، ومن هناك سوف يرحَلون إلى مساقط رؤوسهم استنادًا إلى قوانين ولوائح يكتنفها الغموض.

شخص واحد كان يعمل هناك بصورة دائمة، رجل هندي ظل هناك لسنوات، وإن كان وضعه في حقيقة الأمر لا يختلف عن أوضاعنا. لم يكن لديه تأمين ولا إجازات مدفوعة. كان يعمل في صمت، في صبر، في سكون. لم يأتِ متأخرًا قط. لم يشعر بحاجة للحصول على إجازة قطّ. حاولت أن أقنع بعض الأشخاص بتكوين نقابة عمالية - كانت تلك أيام «التضامن»- ولو لأجله فقط، لكنه لم يرغب في ذلك. مع ذلك فقد تأثر باهتمامي به، فبدأ يشاطرني الكاري الحار الذي كان يجلبه في عمود حفظ الطعام كل يوم. لم أعد أتذكر اسمه. عملتُ نادلة، وخادمة في فندقٍ راقٍ، ومربية. بعتُ الكتب. بعتُ التذاكر. عُيّنتُ في مسرح صغير لموسم واحد لكي أعمل في حجرة الملابس، قاضيةً ذلك الشتاء الطويل وأنا ألتمس الدفء في الكواليس وسط أزياء ثقيلة، وأردية حريرية، وشعور مستعارة. فور إتمام دراساتي، عملت أيضًا مدرسة، ومستشارة لإعادة التأهيل، و-مؤخرًا- في مكتبة. كلما استطعت توفير أي قدر من النقود، كنت أمضي في طريقي من جديد.

رأسك في العالم

درست علم النفس في مدينة شيوعية كبيرة كئيبة. كان قسمنا يقع في مبنى كان في السابق مقرًا لإحدى وحدات النخبة الألمانية S.S أثناء الحرب. أنشئ ذلك الجزء من المدينة على أطلال الغيتو، وهو ما تستطيع رؤيته - إذا أمعنت النظر- أن الحي بأكمله يعلو بارتفاع متر تقريبًا عن بقية البلدة. مترٌ كاملٌ من الأنقاض. لم أشعر فقط بالراحة هناك؛ بين المباني الشيوعية الجديدة والميادين التعيسة، كانت الرياح تعصف دائمًا، وكان الهواء الصقيعي قارسًا على نحو خاص، يلسعك في وجهك. لقد ظل، رغم أنه بُنيَ من جديد، مكانًا ينتمي للأموات. ما زالت تراودني أحلام عن المبنى الذي كنت أتلقى فيه دروسي - أروقته الواسعة التي تبدو وكأنها نُحتت داخل الحجر، ثم سوّاها الناس بأقدامهم؛ الحواف البالية لدرجات السلالم الدرابزينات المصقولة بأيادي الناس، آثار مطبوعة في الفضاء. ربما لذلك السبب صرنا مسكونين بهذه الأشباح.

عندما كنا نضع جرذانا في متاهة، كان أحدها دائمًا يبدي سلوكًا يتناقض مع النظرية، لا يعبأ بتاتًا بفرضيّاتنا الحاذقة. كان يقف على قائمتيه الخلفيتين الصغيرتين، غير مبال على الإطلاق بالجائزة التي تنتظره في نهاية طريقنا التجريبي؛ يحتقر منافع ارتباط «بافلوف» الشرطي، ويعايننا بنظرة متفحصة ثم يستدير، أو يشرع في استكشاف غير متعجل للمتاهة. يبدأ في البحث عن شيء ما في الممرات الجانبية، محاولًا جذب انتباهنا. يطلق صريرًا، مشوّشًا، إلى أن تكسر الفتيات القواعد ويخرجنه من المتاهة، ويمسكنه بأيديهن.

كانت عضلات الضفدع الميت، المفلطح، تنقبض وتنبسط على إيقاع النبضات الكهربية، إنما بطريقة لم تُوصّف بعد في كتبنا المدرسية - كان يومئ لنا، تصدر أطرافه إشارات متوعدة وهازئة، إشارات تُناقض إيماننا المقدس بالبراءة الميكانيكية لردود الأفعال الانعكاسية الفسيولوجية.

هنا علمونا أن العالم قابل للتوصيف، بل والتفسير، عبر الإجابات البسيطة على الأسئلة الذكية، أن العالم في جوهره هامد وميّت، تحكمه قوانين بسيطة نسبيًا - يلزم تفسيرها وشرحها للجمهور الأفضل بمساعدة الرسوم البيانية. كان يُطلب منا أن تجري التجارب، أن نصيغ الفرضيات. أن نتحقق. عرّفونا بأسرار الإحصائيات، علمونا أن نؤمن بأننا نستطيع، حين نستعين بهذه الأداة، أن نَصِف كل أفاعيل العالم بلا أدنى خطأ- أن تسعين بالمئة أهم من خمسة.

لكن إن كنت أعرف الآن أي شيء، فهو أن من يبحث عن النظام ينبغي عليه أن يظل

بعيدًا عن علم النفس. لتلجأ إلى الفسيولوجيا أو اللاهوت بدلًا من ذلك، حيث ستحظى على الأقل بسندٍ راسخ -سواء في المادة أو الروح بدلًا من أراضي علم النفس الزلقة. النفس موضوع دراسة بالغ الهشاشة.

وقد تبين صحة ما كان يقوله بعض الناس عن علم النفس، إنه ميدان دراسي لا تختاره لأجل الوظيفة التي تريدها، أو من باب الفضول أو كرسالة لمساعدة الأخرين، بل تختاره لسبب آخر بسيط للغاية. أعتقد بأننا جميعًا كنا نعاني من خللٍ دفين ما، ولو أننا جميعًا كنا، بلا شك، نُعطي انطباع الشبان الأصحاء الأذكياء وقد أخفي هذا الخلل، مُوِّه ببراعة أثناء امتحانات القبول الخاصة بناء كرة من المشاعر المتشابكة المشوّشة، مثل تلك الأورام التي تظهر أحيانًا في الجسد البشري والتي يمكنك رؤيتها في أي متحف للتشريح الباثولوجي يحترم نفسه. مع ذلك، ربما كان ممتحنونا من عينتنا نفسها، ومن يعرف لأي سبب اختارونا؟ في تلك الحالة، سنكون ورثتهم المباشرين. عندما ناقشنا، في سنتنا الثانية، وظيفة الآليات الدفاعية وشعرنا بالتواضع أمام قوة ذلك الجزء من نفوسنا، بدأنا نفهم أنه لولا التسويق، والتسامي، والإنكار - كل تلك الخدع الصغيرة التي نَترُك نفسنا نؤدّيها. لو كنا نرى العالم بدلًا من ذلك على حقيقته، من دون شيء يحمينا، بأمانة وشجاعة لانكسرت قلوبنا.

ما تعلمناه في الجامعة أننا مجبولون من دفاعات، من تروس ودروع، أننا مُدُن لا يتكوّن معمارها، في جوهره، إلا من جدران، متاريس، معاقل: «دول خندقية».

كل اختبار، واستبيان، ودراسة كنا نجريها أيضًا على بعضنا البعض، وهكذا عندما اجتزنا سنتنا الثالثة أصبح لدي اسم لأزمتي الداخلية؛ كان الأمر أشبه باستكشاف اسمي السري، الاسم الذي يمنح للمرء عندما يبدأ حياة جديدة.

لم أمارس الصنعة التي تمرّنتُ عليها طويلًا. أثناء إحدى رحلاتي الاستكشافية، عندما عَلِقت في مدينة كبيرة بلا نقود وصرتُ أعمل خادمة، شرعت في تأليف كتاب. كان قصة للمسافرين، الغرض منها أن تُقرأ في القطار - من ذلك النوع الذي يمكن أن أكتبه لنفسي لكي أقرأه. كتاب أشبه بوجبة خفيفة من لقمتين، تستطيع ابتلاعه مرة واحدة.

استطعت التركيز وأصبحت لبعض الوقت أشبه بأذن عملاقة تنصت للدمدمات والأصداء والهمسات، الأصوات البعيدة التي ترشح عبر الجدران. لكنني لم أصبح كاتبة حقيقية قطّ. نجحت الحياة دائمًا في مراوغتي. لن أعثر أبدًا على آثارها، على الجلد الذي تطرحه عن جسدها. كلما حددتُ موضعها، أجدها وقد مضت بالفعل إلى مكان آخر. ولا أرى إلا علامات على أنها كانت هنا، مثل تلك الخربشات على جذوع الأشجار في الحدائق التي لا تدل إلا على وجودٍ عابر لشخص ما. في كتابتي، كانت الحياة تتحول إلى قصص غير

مكتملة، حكايات حُلمية، تظهر من بعيد في مناظر بانورامية مفككة، أو في مقاطع عرضية. وهكذا يصبح الوصول إلى أي استنتاجات بشأن الصورة الكلية أشبه بالمستحيل.

أي شخص سبق وحاول كتابة رواية يعرف أنها مهمة مضنية، بل وإحدى أسوأ طُرق شغل الوقت. عليك أن تبقى داخل نفسك طوال الوقت، في حبس انفرادي. الكتابة ذُهان تحت السيطرة، بارانويا وسواسيّة لا تعمل إلا بعد تقييدها بالأغلال، ليس لها أي علاقة بريشات الكتابة ولا بحمّالات أرداف الفساتين، ولا بالأقنعة التنكرية البهيجة التي يقرنها الناس بها عادة، بل هي مسربلة بمريلة جزّار ومنتعلةً حذاءً مطاطيًا، في يدها سكين لنزع الأحشاء. من قبو الكتابة هذا، لا تَرى إلا أقدام المارّة، لا تسمع إلا قرع كعوبهم. بين الحين والآخر يتوقف أحدهم وينحني ليلقي نظرة عبر النافذة عندها تحظى بلمحة من وجه بشري، بل وربما تتبادلان بضع كلمات. لكن الذهن بالأساس يكون مشغولًا كثيرًا بعمله ذاته، مسرحية تؤديها الذات للذات داخل خزانة أعاجيب مرتجلة، متسرعة، يسكنها المؤلف والشخصية الراوي والقارئ، الشخصُ الذي يَصِف والشخص الذي يُوصَف، وتصبح تلك الأقدام، والأحذية، والكعوب، والوجوه، آجلًا أم عاجلًا، مجرد عناصر في ذلك العمل.

لست نادمة على إعجابي بهذه المهنة الغريبة: لم أكن لأصبح عالمة نفس جيدة. لم أعرف قط كيف أفسر، كيف أستدعي صور العائلة من أعماق أفكار شخص ما. واعترافات الأخرين في غالب الأحيان تضجرني ببساطة، وإن كان الاعتراف بذلك يؤلمني حقًا. لكن للأمانة، كنتُ كثيرًا ما أفضل أن تنقلب العلاقة وأبدأ أنا في الحديث لهم عن نفسي. كان عليّ أن أنتبه لكيلا أشد إحدى المريضات من كفها فجأة وأقاطعها في منتصف جملتها: «لا أصدقك! أنا أتصرف بشكل مختلف تمامًا! طيب. لن تصدقي الحلم الذي رأيتُه بالأمس!». أو: «ماذا تعرف عن الأرق يا سيدي؟ وهذا ما تسميه نوبة هلع؟ لا بد أنك تمزح. دعني أخبرك إذا عن نوبة الهلع التي أصابتني مؤخرًا...».

لم أعرف كيف أنصت. لم ألاحظ الحدود؛ كنت أنزلق إلى حالة «تحويل». لا أؤمن بالإحصائيات ولا بالتحقق من النظريات[3]. دائمًا ما أعتبر المسلمة القائلة بأن للشخص الواحد شخصية واحدة تبسيطية بشكل فائق. لدي نزوعٌ لتمويه ما يبدو واضحًا ومساءلة الحُجج المنيعة على التفنيد - كانت تلك عادة عندي، يوغا عقلية منحرفة، الاستمتاع الماكر بتجربة الحركة الداخلية. كنتُ أفحص بتشكك كل رأي، أقلبه في فمي، حتى يتبين لي ما توقعتُه: لا صحة لأي رأي منها، كلها أراء زائفة، مقلدة. لم أرغب في اعتناق آراء ثابتة، فهي أشبه بالوزن الزائد في رحلات الطيران في المناقشات، أكون في هذا الجانب مرّة وفي الجانب الآخر المرة التالية. وهو ما لا يُحبّب فيَّ محاوري قط. كنت شاهدة على ظاهرة غريبة تحدث في عقلي: كلما وجدتُ حُججًا لشيء ما، خطر لي مزيد من الحُجج ضد ذلك الشيء أيضًا، وكلما ارتبطتُ بتلك الحُجج المؤيدة، بدت الحُجج المعارضة أكثر فتنة

وجاذبية.

كيف يفترض بي أن أحلل الآخرين بينما يصعب عليّ أنا نفسي اجتياز كل هذه الاختبارات؟ اختبارات تحديد الشخصية، والاستطلاعات، والأعمدة الكثيرة لأسئلة الاختيار من متعدد، كنت أجدها كلها شديدة الصعوبة. وقد لاحظت إعاقتي تلك على الفور، ولهذا السبب في الجامعة، كلما كنا نحلل بعضنا البعض من أجل التمرين، كنت أعطي كل إجاباتي عشوائيًا، أول ما يخطر ببالي. والنتيجة أن ملامح شخصيتي تكون الأغرب دائمًا - منحنياتٌ على محاور متقاطعة. «هل تعتقدين بأن أفضل قرار هو القرار الأسهل في تغييره؟». هل أعتقد ذلك؟ قرار من أي نوع؟ تغيير؟ متى؟ أسهل بأي طريقة؟ «عندما تدخلين غرفة ما، هل تميلين للتوجه إلى الوسط أم إلى الأطراف؟». أي غرفة؟ ومتى؟ هل الغرفة خاوية، أم فيها أرائك من القطيفة؟ ماذا عن النوافذ؟ أي منظر تطل عليه؟ سؤال الكتاب: «هل أفضّل قراءة كتاب عن الذهاب إلى حفلة؟» أم إن الأمر يتوقف أيضًا على نوع الكتاب ونوع الحفلة؟

يا لها من منهجيّة! يُفترض ضمنًا أن الناس لا يعرفون أنفسهم، لكن إذا زوّدناهم بأسئلة ذكية بما يكفي، سيتمكنون من اكتشاف أنفسهم. يَطرحون سؤالًا على أنفسهم، ويجيبون لأنفسهم. وسيكشفون لأنفسهم لا شعوريًا- ذلك السر الذي لم يعرفوا عنه أي شيء حتى اللحظة.

ثم هناك ذلك الافتراض الآخر، وهو افتراض خطير على نحو مرعب -أننا ثابتون، وأن ردود أفعالنا قابلة للتوقع.

متلازمة أعراض

سجل سفرياتي سيكون في الحقيقة سجلًا لعلةٍ مَرَضيةٍ. أعاني من متلازمة يمكن العثور عليها بسهولة في أطلس المتلازمات السريرية تزداد وتيرتها -على الأقل وفقًا للأدبيات- بمعدل أكبر فأكبر. والأفضل أن نلقي نظرة على تلك الطبعة القديمة (المنشورة في السبعينيات) من كتاب «المتلازمات السريرية»، وهو أشبه بإنسيكلوبيديا للمتلازمات المرضية. كما أنه بالنسبة لي، معين لا ينضب للإلهام. فمن يجرؤ على وصف الناس كوحدات متكاملة من الناحية الموضوعية والعمومية على حدٍّ سواء؟ من ذا الذي سيوظف فكرة «الشخصية» بتلك القناعة؟ من ذا الذي سيراكمها فوق بعضها ليخرج بأنماط مقنعة؟ لا أظن. فكرة متلازمة الأمراض تناسب «علم نفس السفر» مثلما يناسب القفاز اليد. المتلازمة صغيرة، محمولة، لا تُثقلها النظرية، مجزأة. يمكنك استخدامها لوصف شيءٍ ما ثم طرحها جانبًا. أداة معرفية تستخدم لمرة واحدة ثم تلقى بعيدًا.

متلازمتي تُسمى «متلازمة التطهر التكراري [من السموم]». ويتلخص وصفها، من دون تزيين أو تزويق، في إصرار وعي المرء على العودة إلى صور بعينها، أو حتى على البحث الهوسي عن تلك الصور. إنها تنويعة على «متلازمة العالم الخسيس»، التي وصفت باستفاضة نسبية في الدراسات النفسية العصبية كنوع معين من العدوى تسببه وسائل الإعلام. إنها علّة مَرَضية بورجوازية بامتياز، فيما أظن. يقضي المرضى ساعات طويلة أمام التلفزيون، يُنقرون بأصابعهم على أزرار جهاز التحكم عن بعد، يقلبون في القنوات كلها إلى أن يعثروا على قنوات تبث أكثر الأخبار فظاعة: حروب، وأوبئة، وكوارث. ثم، مفتونين بما يرونه، لا يستطيعون إبعاد أنظارهم.

الأعراض نفسها ليست خطيرة، وتسمح للمرء بأن يعيش حياة طبيعية طالما ظل قادرًا على الحفاظ على مسافة شعورية ما. هذه المتلازمة التعسة لا شفاء منها؛ يعجز العلم فيها إلا عن تأكيد وجودها المؤسف. عندما ينتهي الحال بالمرضى، وقد انزعجوا من سلوكهم ذاته إلى عيادات الأطباء النفسيين، يطلب منهم أن يحاولوا عيش حياة صحية أكثر - التوقف عن شرب القهوة والكحوليات، النوم في غرفة جيدة التهوية، ممارسة البستنة، أو النسج، أو التطريز.

مجموعة أعراضي تتمحور حول انجذابي لكل ما هو فاسد، معيب، منقوص، معطوب. أجدني مهتمة بكل شكل قد يتَّخذه هذا، أخطاء في صناعة غرض ما، طُرق مسدودة. ما كان يفترض أن يتطور لكنه لم يتطور لسببٍ ما أو العكس، ما تمدّد متجاوزًا نطاق تصميمه. أي شيء ينحرف عن النمط السائد، أي شيء أصغر من الطبيعي أو أكبر من الطبيعي، متضخم

أو ناقص، بشع ومقزز. الأشكال التي لا تكترث بالتناظر، التي تنمو بطريقة أسِّية، تطفح وتفيض، تنبثق هنا وهناك، أو على العكس، التي تتقلص إلى وحدة مفردة. لا تعنيني الأنماط التي يُحقق فيها الإحصائيون ويدققون، تلك التي يحتفي بها الجميع بابتسامة مألوفة وراضية على وجوههم. أشعر بالضعف تجاه العجائب والمسوخ. أؤمن، على نحو راسخ، موجع، أنه في تلك المسوخ يشق «الوجود» طريقه إلى السطح ويكشف عن طبيعته الحقيقية. كشفٌ ناتجٌ عن ضربة حظ. عبارة «لا تؤاخذني» يقولها شخص شعر بالحرج، خياطة لباس داخلي تظهر من تحت تنورة أنيقة متعددة الثنيات. الهيكل المعدني البشع الذي ينطُّ فجأة من التنجيد المخملي، انبثاق نابض من داخل كرسي وثير يفضح أوهام الطراوة.

خزانة الأعاجيب

لم أكن قطّ من عشاق المتاحف الفنية، بل كنت لأستبدلها بكل سعادة بخزائن الأعاجيب، حيث مجموعات تتألف من النادر، والمتفرد، والغريب، والمسخي. الأشياء التي توجد في ظلال وعينا، والتي عندما تنظر إليها، تندفع هاربة من مجال إبصارك. أجل، أنا مصابة يقينًا بهذه المتلازمة التعسة. لا تجذبني المقتنيات المعروضة في وسط القاعة، بل أنجذب أكثر إلى الأماكن الأصغر حجمًا بالقرب من المستشفيات، الأغراض التي تُنقل عادة إلى القباء باعتبارها لا تستحق العرض في المواقع المرموقة، باعتبارها تثير قدرًا من الريبة حول أذواق من قاموا بجمعها من الأساس. سمندل بذيلين، وجهه لأعلى في برطمانٍ مستطيل، بانتظار يوم دينونته - فكل الكائنات سوف تبعث يوم القيامة في نهاية المطاف. كُلية درفيل في الفورمالدهايد. جمجمة خروف، شاذةً شذوذًا فائقًا بأربع آذان وأربع عيون وفمين، جميلة مثل تمثال إله قديم ذي طبيعة مزدوجة. جنين بشري يشبه مسبحة من الخرز وبطاقة مكتوب عليها بخط مُنمّق باللغة اللاتينية Fetus aethiopis 5 mensium (جنين إثيوبي 5 شهور). مسوخ الطبيعة تلك المجموعة على مرّ الأعوام، مزدوجة الرؤوس وعديمة الرؤوس، تطفو بكسل في محلول فورمالدهايد، أو خذ مثلًا حالة Cephalothoracopagus monosymetro (توأم ملتصق مُتّحدُ الرأس والصدر)، المعروضة حتى يومنا هذا في أحد متاحف بنسلفانيا، حيث التشكل الباثولوجي لجنين برأس واحد وجسدين يشكك في أساسات المنطق بالتأكيد على أن ١=2. وأخيرًا، عيّنة مطبخية: تفاحات من عام 1848، تستقر داخل الكحول، كل واحدة منها غريبة، شائهة الشكل واضح أن شخصًا ما لاحظ أن مسوخ الطبيعة هذه تستحق الخلود، وأن المختلف وحده هو ما يبقى.

إلى تلك الأشياء أشدّ الرحال في أسفاري، ببطء إنما بثقة، متتبعةً أثر أخطاء الخلق وزلاته.

لقد تعلمت الكتابة في القطارات والفنادق وقاعات الانتظار. على طاولات المقاعد في الطائرات. أسجل ملاحظات على الغداء، تحت الطاولة، أو في الحمام. أكتب في بيوت الدّرَج في المتاحف، في المقاهي، في السيارة على جانب الطريق السريع. أخربش الأشياء على مزقٍ من الورق، في كراسات، على بطاقات بريدية على يدي الأخرى، على مناديل، على حواف الكتب. عادة تكون جملًا قصيرة، صورًا صغيرة، لكن أحيانًا أنسخ مقتطفات من الصحف. أحيانًا تشقُ هيئةٌ ما طريقها من وسط الزحام، فأنحرف عن مساري لألاحقها لبرهة، أبدأ في تتبع قصتها. إنها طريقة جيدة؛ وأنا بارعة فيها. مع مضي السنين، أصبح الزمن حليفًا لي، كما هو حليف لكل امرأة - لقد أصبحت غير مرئية، شفافة، أستطيع أن

أتجول مثل شبح، أن أنظر من فوق أكتاف الناس، أن أسترق السمع لنقاشاتهم وأراقبهم في نومهم ورؤوسهم على حقائب ظهورهم أو وهم يكلّمون أنفسهم، غافلين عن حضوري، لا يحركون إلا شفاههم، مشكلين كلمات سرعان ما أنطقها بدلًا منهم.

الرؤية معرفة

كل حَجّة من حَجّاتي ترمي إلى حَجّة أخرى. هكذا يكون الحَجُّ مُقطّعًا، مُجزّأً.

هنا، مثلًا، نرى مجموعة من العظام - إنما فقط العظام التي يشوبها خلل ما: أعمدة فقريّة مُقوّسة وضلوع ملتفة، انتزعت من أجساد لا بد أنها كانت مشوهة هي الأخرى، ثم عُولجت، وجففت، بل ولُمّعت. ثمة رقم صغير بجوار كل عظمة لمساعدة الناظر على الوصول إلى وصف للمرض في دليل لم يعد موجودًا منذ وقت طويل. فأي قدرة على الصمود، في نهاية المطاف يتمتع بها الورق مقارنة بالعظام؟ كان الأجدر بهم أن يكتبوا على العمود الفقري مباشرة.

وهنا نرى عظمة فخذ نَشرها فضوليٌ ما طوليًا، لكي يختلس نظرة إلى دواخلها. هذا الشخص المذكور لا بد أنه أحبط من النتيجة، لأنه عاد وربط النصفين معًا بخيوط القنّب وأرجع عظمة الفخذ إلى الخزانة الزجاجية، وقد انشغل عقله بالفعل بشيء آخر.

تحتوي خزانة العرض على عشرات الأشخاص الذين لا تربط بينهم أي علاقة، يفصل بينهم المكان والزمان - وهم الآن في هذا المستراح الجميل، الفسيح والجاف، جيد الإضاءة، محكوم عليهم بالسجن الأبدي في متحف، ولا بد أنهم موضع حسي لتلك العظام التي علقت في مباريات مصارعة أبدية مع الأرض. لكن أليسَ من بينها - عظام الكاثوليك، ربما- من يستبد بها القلق، متسائلة كيف سيعثر عليها يوم القيامة، كيف ستستطيع، وهي في هذا الشتات، أن ترجع لبناء تلك الأجساد التي اقترفت الذنوب وعملت صالح الأعمال؟

جماجم بأورام من كل شكل متصوّر، مثقوبة بطلق ناري أو بغير طلق ناري، أو ضامرة. عظام أياد خرّبها التهاب المفاصل. ذراع بكسور متعدّدة انجبرت بعدها على نحو طبيعي، عشوائي، ألم طويل الأجل، فتحجر.

عظام طويلة أقصر من اللازم وعظام قصيرة أطول من اللازم، سُلّية، مغطاة بتشكيلة من التحويرات، تبدو معها وكأنها ألجية أشجار قوّتها الخنافس. جماجم بشرية بائسة، مضاءة من الخلف في خزانات زجاجية فيكتورية، حيث تكشر عن أسنانها في ابتسامات عريضة. هذه الجمجمة، على سبيل المثال، بها ثقب كبير في منتصف الجبهة، لكن أسنانها لطيفة. من يعرف إن كان ذلك الثقب قاتلًا. ليس بالضرورة. ذات مرة اخترق قضيب حديدي رأس رجل، مهندس سكك حديدية، لكنه ظل على قيد الحياة لسنين طويلة بذلك الجرح؛ غني عن القول أن تلك الحادثة جاءت على طبق من فضة للمشتغلين بعلم النفس العصبي إذ أظهرت للقاصي والداني أننا نوجد بالأساس عبر أدمغتنا. لم يمُت، لكنه تغير بالكامل. أصبح شخصًا

آخر كما يقولون. ولأننا معتمدون على أدمغتنا، دعونا نمضي مباشرة إلى اليسار، في زواق الأدمغة. ها نحن ذا! شقائق نعمان كريميّة اللون في محاليل، كبيرة وصغيرة، بعضها ذكي ألمعي وبعضها لا يستطيع العدّ إلى اثنين.

بعد ذلك يأتي القسم المخصص للأجنّة، أقزام ضئيلة. هنا ترى الدمى الصغيرة، أصغر العينات حجمًا - كل شيء مُنَمنَم، حيث البرطمان الصغير يتسع لشخص كامل. الأصغر سنًا منها، المُضغات، التي لا تكاد تُرى بالعين المجردة، تشبه أسماكًا صغيرة، ضفادع صغيرة معلقة من شعرة حصان، طافية وسط وفرة من الفورمالدهايد. أما الأكبر فتعرض تناسق الجسد البشري، تعليبه المذهل. كسرات صغيرة ليست بشريّة بعد، صغار شبه إنسانيين، لم تعبر حيواتهم قطّ الحدود السحريّة للرُجحان يحوزون الشكل الصحيح، لكن نُموّهم لم يكتمل قطّ إلى أرواح - ربما يرتبط حضور الروح على نحو ما بحجم القالب. فيهم بدأت المادة، بعنادٍ وسنان، تتأهب للحياة، لمراكمة الأنسجة وتشغيل الأعضاء وتدوير الأنظمة، كان العمل في العيون قد بدأ، والرئات تُعدُّ وتُجهز، وإن ظل النور والهواء بعيدًا المنال.

الصف التالي يعرض الأعضاء نفسها، لكنها الآن كاملة النمو، سعيدة بأن أتاحت لها الظروف الوصول إلى أبعادها الكاملة. أبعادها الكاملة؟ كيف عرفت الحجم الذي يفترض بها الوصول إليه؛ كيف عرفت متى تتوقف؟ بعضها لم يتوقف: تلك الأمعاء ظلت تنمو وتنمو، وكان من الصعب على أساتذتنا أن يعثروا على برطمان يتسع لها. بل والأصعب أن نتخيل كيف كان ليتسع لها بطن هذا الرجل المعرّف على البطاقة بالأحرف الأولى.

القلب. كل أسراره كشفت على نحو قاطع - إنه تلك الخثرة بشعة المنظر التي لا يزيد حجمها عن قبضة اليد، لونها بني فاتح مترّب. لاحظ، رجاء، أن ذلك، في الحقيقة، هو لون أجسادنا: بني رمادي، قبيح. لن نرغب في حوائط منزل أو سيارة لها ذلك اللون. إنه لون الدواخل، الظلمة، الأماكن التي لا يصلها النور، حيث تختبئ المادة وسط البلل عن أنظار الآخرين، فما من سبب يدعوها للتباهي بنفسها. الإفراط الوحيد الذي يمكن تحمّله ذهب إلى الدم: الدّمُ تحذير. حَمَارةُ إنذار بأن الكسوة الخارجية للجسد قد خُرقت. أن اتصال الأنسجة قد انقطع.

في الحقيقة، ما من لون بداخلنا. عندما يضخ القلب الدم على النحو المفترض، يبدو الدم تمامًا مثل المُخاط.

سبع سنوات من الرحلات

«كل سنة ننطلق في رحلة، ظللنا نفعل ذلك لسبع سنوات، منذ أن تزوجنا»، هكذا قال الشاب في القطار. كان يرتدي معطفًا أسود، طويلًا، أنيقًا، ويحمل حقيبة مستندات صلبة تشبه نوعًا ما شنطة فضيات مائدة فاخرة.

كان يقول: «لدينا أطنان من الصور، نحفظها بطريقة منظمة. جنوب فرنسا، تونس، تركيا، إيطاليا، كريت، كرواتيا - بل وإسكندنافيا». قال إنهما عادة يتفرجان على الصُور عدّة مرات: أولًا مع العائلة، ثم في المكتب، ثم مع الأصدقاء، وبعدها تُحفظ الصور بأمان في ملفات بلاستيكية، مثل دليل في خزانة محقق - دليل على أنهما كانا هناك.

سارحًا في أفكاره، راح ينظر من النافذة على المنظر الطبيعي الذي بدا وكأنه يهرع متجهًا صوب مكان ما. ألم يفكر قطّ في معنى عبارة «كنا هناك» من الأساس؟ أين ذهب هذان الأسبوعان في فرنسا؟ هذان الأسبوعان اللذان بات بالإمكان حشرُهما اليوم في بضع ذكريات فحسب. الإحساس المفاجئ بالجوع بجوار جدران المدينة القروسطية وألقُ المساء في مقهى سقفه مغطىً بتعريشة عنب. ماذا حدث للنرويج؟ لم يبق منها إلا مياه البحيرة الباردة في ذلك النهار اللانهائي، ثم فرحة البيرة التي أُقتنصت قبل إغلاق المتجر مباشرة، أو النظرة الأولى الآسرة للزقاق البحري.

«الأشياء التي رأيتها صارت ملكًا لي»، هكذا استنتج الشاب الذي عاد من سَرحته فجأة، وهو يضرب فخذه بكفه.

إرشادات سيوران[4]

رجلٌ آخر - لطيف، خجول - كان يسافر للعمل دائمًا رفقة كتاب لـ«سيوران»، أحد تلك الكتب المؤلفة من نصوص شديدة القصر. في الفنادق، كان يُبقيه على طاولة فراشه، وكل صباح إبان استيقاظه يفتحه كيفما اتفق ويعثر على المبدأ الإرشادي ليومه الآتي. كان يؤمن بأن الفنادق في أوروبا يجب أن ترفع كل نسخ الكتاب المقدس وتضع محلها سيوران بأسرع ما يمكن. من رومانيا وحتى فرنسا. إنه في سبيل التنبؤ بالمستقبل، لم يعد الكتاب المقدس مجديًا. فما فائدة الآية التالية مثلًا، حين تظهر مصادفة في جمعة ما من أبريل أو أربعاء ما من ديسمبر: «جميعُ أواني المسكن في كُلّ خِدمتِه وجميعُ أوتاده وجميعُ أوتادِ الدارِ من نُحاس». (سفر الخروج، 19:27)؟ كيف يفترض بنا أن نفهم هذا؟ على أي حال، قال إنه ليس مصرًا على سيوران في حدّ ذاته. وتابع وقد لاح التحدّي في عينيه: «خُذي راحتك في اقتراح شيء آخر».

لم يَخطُر شيءٌ ببالي. أخرج من حقيبة ظهره مجلّدًا نحيلًا باليًا، فتحه على صفحة عشوائية. وأشرق وجهه.

«بدلًا من الاهتمام بوجوه العابرين، أراقب أقدامهم، فيتقلص كل هؤلاء المشغولين إلى خطواتٍ متعجلة - باتجاه ماذا؟ وكان واضحًا لي أن مهمتنا هي أن نحفر في التراب بحثًا عن لغزٍ عارٍ من أي شيء جادّ».

كونيكي: الماء (I)

إنه الضُّحى، لا يعرف الساعة بالضبط -لم يكن قد نظر في ساعته- لكنه لم ينتظر، بحسب ما يظن، أكثر من خمس عشرة دقيقة. يسترخي في كرسيه ويغمض عينيه نصف إغماضة؛ الصمتُ ثاقب مثل ضوضاء دؤوبة مجلجلة. لا يستطيع استجماع أفكاره. لم يدرك بعد أن صوت الصمت أشبه بجرس إنذار. يُرجع كرسيه إلى الخلف بعيدًا عن عجلة القيادة ويُمدّد ساقيه. رأسه ثقيل، يسحب جسده معه إلى أسفل في الهواء الساخن الأبيض. لن يتحرك. سينتظر وحسب.

لا بد أنه دخّن سيجارة، بل وربما سيجارتين. بعد بضع دقائق يخرج من السيارة ليذهب ويتبوّل في مصرف. يعتقد أنه لم ير أحدًا في الجوار، وإن لم يعد متأكدًا الآن. ثم يعود ليدخل السيارة ويرتشف جرعة ماء كبيرة من زجاجة بلاستيكية. أخيرًا، يبدأ صبره في النفاد. يضرب نفير السيارة، بقوة. الصوت الذي يصم الآذان يثير ومضة غضب تعيده إلى أرض الواقع. الآن، بعد ذلك التنفيس، يرى كل شيء بوضوح أكبر كثيرًا، فيعود ليخرج من السيارة ويمضي في أعقابهما، متخيلًا بذهن شارد الكلمات التي سينطق بها حالًا: «ماذا كنتِ تفعلين كل ذلك الوقت بحق الجحيم؟ فيم كنتِ تفكرين؟».

إنها أيكة زيتون، يابسة كالحجر. العشب ينهرسُ تحت قدميه. ثمة شجيرات من التوت الأسود البرّي بين أشجار الزيتون المغضّنة؛ فروعٌ نابتة تحاول الانسلال إلى الدرب واقتناص ساقه. القمامة في كل مكان، كلينكس، تلك الفوط المقرفة، غائط بشري يعج بالذباب. الناس الآخرون أيضًا يتوقفون على جانب الطريق لقضاء حاجاتهم، لا يشغلون بالهم بالدخول في عمق الأحراش؛ يكونون على عجلة من أمرهم، حتى هنا.

لا ريح. لا شمس. السماء البيضاء الساكنة تشبه مظلّة خيمة. الجو حار رطب، وجزيئات الماء تتحاك مع بعضها البعض في الهواء، والمكان كله يفوح برائحة البحر - رائحة الكهرباء، الأوزون، السَّمَك.

ثمة حركة ما، لكنها ليست هناك وسط الأشجار العجفاء - بل هنا، تحت قدميه. تَخرج خنفساء سوداء عملاقة إلى الدرب: تجسّ الهواء للحظة بقرنيها، تتمهّل، واضح أنها تبيّنت حضورًا بشريًا. السماء البيضاء تنعكس على درَقة الخنفساء الناصعة مثل لطخة حليبيّة، وللحظة يشعر كونيكي كأنه مُراقَب بعين غريبة على الأرض لا تنتمي إلى أي شخص، عين منسلخة ولا مبالية. ينخس كونيكي الأرض برفق بمقدّمة صندله. تمرق الخنفساء عابرة الدرب الضيق، تُهسهِس في العشب المتيبس. تختفي وسط التوت الأسود. هكذا...

كانت قد قالت: «أوقف السيارة». عندما أوقفها خرجت وفتحت الباب الخلفي. حرّرت ابنها من مقعده الصغير، وأمسكت بيده، وقادته إلى الخارج، لم يرغب كونيكي في الخروج - كان نعسانًا، مُتعبًا، مع أنهم لم يقطعوا إلا بضع أميال حتى الآن. بل وحتى لم يُعنَ بالنظر إليهما من طرف عينه؛ لم يعرف أن عليه أن يراقب. الآن يحاول أن يسترجع تلك الصورة المُغبشة أن يجعلها أكثر حدة، أن يقربها من عينيه - أن يثبتها في مكانها. يراقبهما وهما يبتعدان عنه، هناك في الدرب المُطقطق. يبدو، في ما يظن، أنها ترتدي بنطلونًا فاتحًا من الكتان وتي شيرت أسود. ابنهما يرتدي تي شيرت من التريكو مرسوم عليه فيل، والحقيقة أنه متأكد من ذلك لأنه هو من ألبسه ذلك الصباح.

في طريقهما، يتكلّمان، لكنه لا يسمعهما: لم يعرف أن عليه أن ينصت. ثم يختفيان وسط أشجار الزيتون. لا يعرف كم يستغرق كل هذا، لكن ليس طويلًا. ربع ساعة، ربما أكثر قليلًا. يفقد الوقت. لم ينظر في ساعته. لم يعرف أن عليه أن يتابع الوقت.

كان ينزعج عندما تسأله فيم يفكر. دائمًا يجيب: «لا شيء»، لكنها لا تصدّقه قطّ. تقول لا يمكنك ألا تفكر. تثور نقمتها. لكنه يستطيع وهنا يشعر كونيكي بشيء يشبه الرضا. ألا يفكر في أي شيء. يعرف كيف يفعل ذلك.

لكنه يتوقف فجأة في منتصف دغل التوت الأسود، يقف بلا حراك، وكأن جسده، الممطوط باتجاه السوق الأرضية للتوت الأسود، قد اكتشف عَرَضًا نقطة ارتكاز جديدة. يختلط السكون بأزيز الذباب وهدير أفكاره. للحظة يرى نفسه من أعلى رجل يرتدي بنطلونًا فضفاضًا عاديًا وتي شيرت أبيض وله ضلعة صغيرة في مؤخرة رأسه، بين أجمّة الأحراش، دخيل، ضيف في بيت رجل آخر. رجل تحت النيران، ألقي به وسط تبادل قصير للنيران في خضم معركة بين السماء اللاهبة والأرض المشققة. يصاب بالهلع؛ يرغب الآن في الاختباء في الركض عائدًا إلى السيارة، لكن جسده يتجاهله - لا يستطيع تحريك قدمه، لا يستطيع إجبار نفسه على العودة إلى الحركة. لا يستطيع إجبار نفسه على اتخاذ خطوة واحدة. لقد قُطعَت الصلات. قدمه في صندله مرساة تُبقيه ملتصقًا بالأرض. واعيًا، باذلًا قصارى جهده، مندهشًا من نفسه، ينجح في إجبار قدمه على التقدم مجددًا. ما من سبيل آخر للخروج من هذا الفضاء الحار اللامحدود.

وصلوا يوم 14 أغسطس. تحرّكت العبَّارة من مدينة «سبليت» ممتلئةً بالركاب - سياح كثر، وإن كان معظمهم محليون، كان المحليون يحملون أكياس تسوق كل شيء كان أرخص في البر الرئيسي. الجزر شحيحة الإنتاج. كان من السهل تمييز السياح عن غيرهم، فعندما بدأت الشمس غوصَها المحتوم في البحر، عبروا إلى ميمنة السفينة وصوّبوا كاميراتهم إليها.

مرّت السفينة بطيئًا بجزر متفرقة، ثم بدا وكأنها خرجت إلى عرض البحر. إحساسٌ بغيض، لحظة هلع عابرة، هوجاء.

لم يجدوا عناء في العثور على نُزُل الضيوف الذي سيقيمون فيه، اسمه «بوسيدون». يملكه رجل ملتح اسمه برانكو يرتدي تي شيرت عليه صَدَفة. أصر على رفع الكلفة في الحديث معهم وربتَّ على ظهر كونيكي بألفة وهو يقودهم عبر البيت الحجري الضيق صعودًا سلم الدَّرج إلى شقتهم، التي عرضها عليهم بفخر واضح. سيتمتعون بغرفتي نوم ومطبخ صغير في الزاوية مع أثاث تقليدي، دواليب ملابس من ألواح الألياف المضغوطة. النوافذ تطل على الشاطئ والبحر المفتوح. من إحدى النوافذ، كانت هناك صبارة أمريكية في أوج تفتحها - الزهرة، المثبتة على جذع قوي، تنتصب بظفر فوق سطح الماء.

يسحب خريطة للجزر ويفكر في الخيارات. لعلها تشوشت وعادت ببساطة إلى الطريق في موضع آخر. لعلها الآن تقف في مكان آخر. بل وربما تستوقف سيارة وتمضي - إلى أين؟ وفقًا للخريطة، يمتد الطريق في خط متعرج عبر الجزيرة بأكملها، ما يتيح لك السير على طول الطريق من دون أن تنزل إلى البحر. على هذا النحو ذهبوا إلى بلدة «فيس» قبل بضعة أيام.

يضع الخريطة على كرسيها، فوق حقيبة يدها، ويشرع في القيادة. يسير ببطء، باحثًا عنهما بين أشجار الزيتون. لكن عند نقطة ما يتغير المنظر: تفسح أيكة الزيتون الطريق لأراض صخرية مقفرة تعج بالحشائش اليابسة والتوت الأسود. حجر جيري عارٍ كأسنان عملاقة معلقة من فم وحش برّي ما. يستدير عائدًا بعد بضعة كيلومترات. الآن، يرى عن يمينه مزارع عنب خضراء على نحو مذهل، وداخلها، بين حين وآخر، تنتصب ظِلَّةُ أدواتٍ صغيرة مبنية من الحجر، قاتمة وخاوية. السيناريو الأفضل أن تكون قد ضلت الطريق، لكن ماذا لو كان مكروه أصابها، هي أو ابنهما - الجو مكتوم للغاية، حارٌّ للغاية. ربما يحتاجان إلى عناية عاجلة، وبدلًا من أن يفعل شيئًا لهما، ها هو يقود السيارة ذهابًا وإيابًا على الطريق. يا له من أبله، هكذا يفكر - كيف لم يخطر هذا بباله من قبل؟ يبدأ قلبه في الخفقان بقوة. ماذا لو أصيبت بضربة شمس؟ ماذا لو كُسرت ساقها؟

يرجع ويضرب النفير بضع مرات. تمرُّ به سيارتان ألمانيتان. يراجع الوقت: لقد مرت ساعة ونصف، ما يعني أن العبَّارة قد غادرت. العبَّارة البيضاء المتسلطة ستبتلع كل السيارات، تُغلق أبوابها الخلفية، وتنطلق لتشق البحر. دقيقة بعد دقيقة، سوف يفصل بينهما بحر لا مبال لا يَني يتسع. يشعر كونيكي بنذير شؤم يجفف ريقه، إحساس بشيء له صلة ما بالقمامة الملقاة على جانب الطريق، بالذباب والفضلات البشرية. لقد فهم. لقد رحلا. هما الاثنان. يعرف أنهما ليسا وسط أشجار الزيتون، ومع ذلك يجري على الدرب الجاف وينادي عليهما، وهو يعرف أنهما لن يُجيبا.

إنها ساعة قيلولة بعد الغداء في جزيرة «فيس»، والبلدة الصغيرة خاوية تقريبًا. على الشاطئ، بجوار الطريق مباشرة، ثمة ثلاث نساء يطير طائرة ورقية زرقاء فاتحة. يعاينهن بنظرة فاحصة فور أن يركن سيارته. إحداهن ترتدي بنطلونًا كريمي اللون ضيقًا وملتصقًا بأردافها الكبيرة.

يرى برانكو جالسًا على مقهى صغير، بصحبة رجلين آخرين. يشربون الأفسنت مثل الويسكي، بالثلج. يبتسم برانكو متفاجئًا لدى رؤيته.

يسأله: «هل نسيت شيئًا؟».

يقدمون له كرسيًا، لكنه لا يجلس. يريد أن يخبرهم بكل شيء على نحو مرتّب، وينتقل إلى الحديث بالإنكليزية وهو يتساءل في الوقت نفسه، في جزء آخر من عقله، وكأنه في فيلم، ماذا يفعل المرء في موقف كهذا، يقول إنهما رحلا - جاغودا وابنه. يشرح متى، وأين. يقول إنه بحث عنهما ولم يجدهما. ثم يسأله برانكو.

«هل تشاجرتما؟».

يقول لا، وهذا صحيح. يتجرع الرجلان الآخران كأسيهما دفعة واحدة. لا يمانع في تناول كأس هو نفسه. يستشعر مذاقه، حلو وحامض، على لسانه. يتناول برانكو ببطء علبة سجائر وقدّاحة من على الطاولة. ينهض الآخران، بدورهما، مترددين، وكأنهما يهيئان نفسيهما لمعركة - أو لعلهما يفضلان البقاء هنا، في حِمى هذه المظلة. سيذهبون جميعًا، لكن كونيكي يصر على إبلاغ الشرطة أولًا. يتردد برانكو. لحيته السوداء تتخللها أشعة من الشعيرات الرمادية. على تي شيرته الأصفر، تبدأ رسمة الصَدَفة وكلمة «صَدَفة» المكتوبة بالأحمر.

«ربما نزلت الماء».

ربما. توصلوا إلى اتفاق: برانكو وكونيكي سيرجعان إلى ذلك المكان على الطريق بينما يذهب الرجلان الآخران إلى نقطة الشرطة للاتصال ببلدة «فيس»: يشرح برانكو أن «كوميتسا» نفسها فيها شرطي واحد. الأكواب المحتوية على الثلج الذائب لا تزال قائمة على الطاولة.

لم يجد كونيكي صعوبة في التعرف على المكان الذي توقفوا فيه، حيث ركن سيارته من قبل. بدا له أن عُمرًا طويلًا قد مرّ. الزمن يمرّ بصورة مختلفة، ثقيلة ولاذعة متعاقبة. الشمس تظهر من وراء السحاب الأبيض، وفجأة يصبح الجو حارًا.

«نفير»، يقولها برانكو، فيضغط كونيكي على النفير.

الصوت طويل، أسيان، مثل صوت حيوان. ثم يتوقف، يتشظّى إلى أصداء صغيرة وكأنها

أصوات زيز الحصاد.

يسيران وسط شجيرات الزيتون، مطلقين صيحات من حين لآخر. لا يلتقيان مجددًا إلى أن يصلا إلى مزارع العنب، ثم بعد حديث قصير يقرران تفقد المنطقة بكاملها. يمشطان صفوفًا يتمدّد الظل على نصفها منادين باسم المرأة المفقودة: «جاغودا، جاغودا!». يخطر لكونيكي أن اسم زوجته يعني «عِنَبة» في لغتهم البولندية. إنه اسم شائع لدرجة أنه لم يفكر فيه حتى اللحظة. فجأة يتهيّأ له أنه يشارك في طقس قديم من نوع ما، مشوّش، شنيع. حبات العنب معلقة من الشجيرات في عناقيد منتفخة، بنفسجية داكنة، حلمات شاذة، تكاثرت أضعافًا مضاعفة، وهو يجول في متاهة مورقة، صارخًا، «جاغودا! جاغودا!». لمن يقولها؟ عمّن يبحث؟

عليه أن يتوقف لثانية، يشعر بوخزة في جنبه. ينحني على نفسه بين صفوف النباتات. يدفن رأسه وسط البرودة الظليلة، النباتات الوارفة تكتم صوت برانكو، ينخفض حتى يصمُت أخيرًا، الآن يسمع كونيكي أزيز الذباب - وشيش السكون المألوف.

وراء مزارع العنب ثمة مزارع أخرى، يفصلها عن الأولى درب ضيّق لا أكثر. يتوقفان، ويجري برانكو مكالمة لشخص ما بهاتفه المحمول. يكرر كلمة «زوجة» و«طفل» بالكرواتية - هاتان هما الكلمتان الوحيدتان اللتان يفهمهما كونيكي لأنهما تشبهان نظيرتيهما البولنديتين. تتحول الشمس إلى اللون البرتقالي، هائلة منتفخة، تتراجع قوّتها أمام أعينهما. قريبًا سيكون بمقدورهما النظر إليها مباشرة. في الأثناء، تكتسب مزارع العنب لونًا أخضر شديد الدكنة. هيئتان بشريتان صغيرتان تقفان عاجزتين في ذلك البحر الأخضر المُقلّم.

بحلول الغسق، يكون الطريق قد انشغل ببعض السيارات وتكتُّل صغير من الرجال. كونيكي يجلس في سيارة مكتوب عليها «شرطة»، وبمساعدة برانكو، يرد على الأسئلة الاعتباطية - كما تبدو له التي يسألها له شرطي كبير متعرّق. يحاول الحديث بإنكليزية بسيطة: «توقفنا. نَزلَت مع الطفل. ذهبا إلى هناك» -يشير بيده- «ثم انتظرتُ، قل خمس عشرة دقيقة. ثم أقرر الخروج والبحث عنهما. لا أجدهما. لا أعرف ماذا حدث». يعطون له ماءً معدنيًا فاترًا، يشربه على جرعات يائسة. «لقد ضاعا». ثم يضيف مجددا: «ضاعا». يطلب الشرطي شخصًا ما بهاتفه. «مستحيل أن تضيع هنا يا صديقي»، يقولها له وهو ينتظر الطرف الآخر، كلمة «صديقي» تباغت كونيكي. الووكي توكي الخاص بالشرطي يقول شيئًا ما. أمامهم ساعة أخرى قبل أن ينطلقوا، في تشكيل متباعد، باتجاه قلب الجزيرة.

في تلك الأثناء، تغطس الشمس المنتفخة وراء مزارع العنب، وعندما ينتهون من صعود الطريق الطويل إلى القمة، تكون قد وصلت إلى البحر. وشاءوا أم أبوا يتابعون انسحابها المسرحي من المشهد. في النهاية يشغلون المصابيح اليدوية. في الظلام الذي عمَّ الآن،

ينزلون إلى ساحل الجزيرة المنحدر، المليء بشروم صغيرة، يتفحصون اثنين منها؛ شيّدت على كل منهما بيوت حجرية صغيرة يسكنها السياح غريبو الأطوار الذين لا يحبون الفنادق ويفضلون أن يدفعوا أكثر لكي لا يتمتعوا بماء جار أو كهرباء. أناسٌ يستخدمون مواقد حجرية للطهو أو يجلبون معهم اسطوانات غاز. يصطادون السمك، الذي ينتقل مباشرة من البحر إلى الشواية. لا، لم ير أي منهم امرأة بصحبة طفل. إنهم على وشك تناول العشاء - على الطاولة خبز، وجبن، وزيتون، والسمك المسكين الذي كان مستغرقًا، حتى عصر ذلك اليوم، في تمارين بحريّة غافلة. بين حين وآخر يهاتف برانكو الفندق في «كوميتسا» -بطلب من كونيكي- إذ يفكر أنها ربما ضلت الطريق وعادت في النهاية من مسار آخر. لكن برانكو يكتفي بعد كل مهاتفة بأن يربت على ظهره فحسب.

نحو منتصف الليل يتفرّق حشد الرجال. بينهم الرجلان اللذان سبق لكونيكي رؤيتهما حول طاولة برانكو في «كوميتسا». الآن، وهما يستأذنان في الانصراف، يقدّمان نفسيهما: دراغو ورومان، يسيرون معًا إلى السيارة. كونيكي ممتن لما قدماه من عون، ولا يعرف كيف يظهر ذلك، لقد نسي كيف يقول «شكرًا» بالكرواتية؛ لا بد وأنها أشبه بكلمة «رجيكويه» في البولندية. ربما «دييكويو» أو «دييكويي»، لكنه لا يعرف. بقليل من حسن النية لا بد وأنهم يستطيعون التوافق على لغة مختلطة، مجموعة من الكلمات السلافية المتشابهة السهلة، تُستخدم بلا قواعد نحوية بدلًا من السقوط في حبائل نسخة جافة ومبسّطة من الإنكليزية.

تلك الليلة يأتي قارب إلى منزله. عليهم إخلاء المكان - هناك فيضان. لقد وصلت المياه بالفعل إلى الطابق الثاني لبعض المباني في المطبخ تشق المياه طريقها عبر اللُّحَمَات بين بلاطات الأرضية، منسابة في جداول دافئة من المقابس الكهربائية. الكتب تنتفخ بالرطوبة. يفتح أحدها فيرى الحروف تسيل مثل مساحيق الزينة مخلفة صفحات فارغة، مغبشة. ثم يدرك أن الجميع غادروا بالفعل، وقد أقلَّهم قارب جاء في وقت سابق، وأنه الوحيد المتبقي.

في نومه يسمع قطرات الماء تتقاطر بكسل من السماء، متأهبة لأن تتحوّل إلى وابل عنيف قصير العمر.

بندِكتوس

أبريل على الطريق السريع، ولحظات الشمس الحمراء على الأسفلت، العالم بأسره تزيّنُه لمعة لطيفة من الأمطار التي تهاطلت مؤخرًا -كعكة عيد الفصح. أقوسد سيارتي يوم «الجمعة العظيمة»، في الغسق، من هولندا إلى بلجيكا -لا أعرف في أي بلد أنا الآن، فالحدود تلاشت؛ طمست من قلة الاستخدام. في الراديو قدّاس جنائزي، مع ترنيمة «بندكتوس» (مبارك من جاء باسم الرب)، الأنوار أضيئت بطول الطريق السريع، وكأنما لتُعزّز بالبركة التي تحل عليّ قسرًا من الراديو.

لكن في الحقيقة لا بد أن ذلك لا يعني أي شيء سوى أنني سأنجح في بلوغ بلجيكا، حيث، لحسن حظ المسافرين، كل الطرق السريعة مضاءةٌ جيدًا.

بانوبِتِيكون

ال-«بانوبتيكون» وال-«ووندركامر»[5]، كما عرفت من دليل مُتحفي، هما ثنائي موقر سابق في وجوده على المتاحف نفسها. كانا يعرضان مجموعات من كل أنواع الأعاجيب جلبها أصحابها معهم من رحلاتهم لأماكن دانية وقصيّة.

ويجب ألا ننسى أيضًا أن «بنثام» اختار لفظة «بانوبِتِيكون» كاسمٍ للنظام الألمعي لمراقبة السجون؛ كان هدفه إنشاء فضاء يضمن أن يظل كل سجين مرئيًا طوال الوقت، من دون انقطاع[6].

كونيكي: الماء (II)

«الجزيرة ليست كبيرة هكذا»، تقول جورجيكا زوجة برانكو وهي تملأ فنجانه بقهوة ثقيلة، قوية.

الجميع لا ينفون يرددون هذا وكأنها كلمة «مانترا». يفهم كونيكي. لم يكن بحاجة لأن يخبروه، على أي حال، أن الجزيرة أصغر من أن يختفي عليها أي شخص. فطولها لا يزيد على عشرة كيلومترات إلا قليلًا، وفيها بلدتان حقيقيتان فحسب. «فيس» و«كوميتسا». كل شبر في الجزيرة متاح للتفتيش. الأمر أشبه بالبحث في درج. علاوة على أن الجميع يعرفون بعضهم بعضًا، في كلتا البلدتين. ثم إن الليالي دافئة، والأعناب مكتنزة على العناقيد، والتين أوشك على النضوج. حتى إن كانا قد ضلا الطريق بشكل ما، سيكونان بخير - لن يتجمدا من البرد أو يموتا من الجوع، ومن غير المحتمل أن يكونا سقطا فريسة لوحوش برية أيضًا. سيقضيان، ببساطة، ليلة دافئة على الحشائش التي شققتها الشمس، تحت شجرة زيتون، على خلفية من دمدمة البحر. الطريق لا يُبعد عن أي مكان أكثر من ثلاثة أو أربعة كيلومترات. والبيوت الحجرية الصغيرة التي تستضيف براميل النبيذ والمكابس تنتصب في الحقول على مسافات متقاربة، بعضها مجهز بالمون، والشموع. على الإفطار سيتناولان أعنابًا وافرة العصارة، أو وجبة عادية مع السياح في الشروم الصغيرة.

ينزلون إلى الفندق، حيث ينتظرهم شرطي. إنه شرطي آخر، أصغر سنًا، وللحظة يراود كونيكي أمل في استقبال خبر جيّد، لكنه يجد الشرطي الشاب يطلب منه جواز سفره. يدون معلومات كونيكي، بحرص، وبدقة وإذ يفعل ذلك يخبره أنهم قرروا توسيع نطاق بحثهم إلى البر الرئيسي أيضًا - إلى «سبليت»، وإلى الجزر المجاورة.

يشرح له: «لربما لحقت بالعبَّارة على الشط».

«ليس معها أي نقود»، يقولها كونيكي، بالبولندية، ثم بالإنكليزية. «لا تقود. هنا، كل شيء». يُمسك حقيبة يدها أمام الشرطي، مخرجًا محفظتها الحمراء، المطرزة بحبات خرز صغيرة. يفتحها ويعرضها عليه. يهز الشرطي كتفيه ويكتب عنوانهما في بولندا.

«والولد، كم كان عمره؟».

يقول كونيكي: «ثلاثة».

يقودون على الطريق الأفعواني عائدين إلى المكان نفسه، الجو يعد بنهار حارّ ومتوهج، كل شيء وضاح وكأنها صورة اُلتقطت في إضاءة ساطعة. بحلول الظهيرة ستكون كل الأشكال قد اختفت منها. يتساءل كونيكي إن كان بإمكانهم إجراء البحث من أعلى، من مروحية، باعتبار أن الجزيرة حاسرة تمامًا تقريبًا. ثم يتساءل عن تلك الرُقاقات التي يستطيعون وضعها في الحيوانات، الطيور المهاجرة، اللقالق والكركيات، ومع ذلك ليس لديهم ما يكفي للبشر. يجب على كل فرد حيازة إحدى تلك الرقاقات، من أجل أمانهم؛ ساعتها تستطيع تتبع أثر كل حركة بشرية على الإنترنت - طُرق، استراحات، عندما يضل الناس الطريق. كم من حياة يمكن إنقاذها! يستطيع أن يرى بأم العين شاشة الكمبيوتر بخطوطها المشفرة لونيًا التي تشير إلى مختلف الناس، آثار مطردة، علامات. دوائر وإهليليجات، متاهات. ربما، أيضًا، أرقام 8 غير مكتملة، ربما لوالب ناقصة تنقطع على حين غرّة.

ثمة كلب. كلب أسود من فصيلة الراعي: يقدّمون له كنزتها من المقعد الخلفي. يتشمّم الكلب حول السيارة ثم ينطلق داخل أيكة الزيتون. يشعر كونيكي بدفقة حماسة: ستتكشف الأمور، الآن. يركضون خلف الكلب. يتوقف عند البقعة التي لا بد تبوّلا فيها، لكن لا يبدو لهما أثر. يبدو الكلب سعيدًا بنفسه. لكن هيا، أيها الكلب، ليس هذا هو المطلوب! أين الناس؟ أين ذهبا؟ لا يفهم الكلب ماذا يريدون منه، لكنه ينطلق ثانية بتردد، إلى أحد الأجناب الآن، ثم على الطريق، مبتعدًا عن بساتين العنب.

إذا فقد سارت على الطريق الرئيسي، يفكر كونيكي. لا بد وأنها تشوّشت. لعلها واصلت طريقها لتنتظره على بعد بضع مئات من الأمتار من هنا. ألم تسمع نفير السيارة؟ ثم ماذا؟ ربما أقلها أحدهم بسيارته، لكنهما لم يرجعا بعد، فأين يمكن أن يكون ذلك الشخص أخذهما؟ شخص ما. غامض، مشوّش الملامح، جسم عريض المنكبين. رقبة عريضة. اختطاف. أيكون قد أفقدهما وعيهما وحشرهما في صندوق السيارة؟ ربما أخذهما معه على العبارة، إلى البر الرئيسي، ولعلهما الآن في زغرب أو ميونخ، أو في أي مكان. لكن كيف له أن يعبر الحدود ومعه شخصان فاقدا الوعي في صندوق سيارته؟

لكن الكلب ينعطف الآن إلى المَسيل الفارغ الذي يتفرع قطريًا عن الطريق، إلى الصدع الحجري، العميق، راكضًا إلى أسفل بين تلك الأحجار إلى أعماقه. تستطيع أن ترى مزرعة عنب صغيرة مهملة هناك بالأسفل، وداخل المزرعة، كوخ حجري يبدو مثل كشك مغطى بصفائح معدنية مموجة يعلوها الصدأ. وأمام بابه تقبع كومة من سُويقات العنب الجافة، لعلها من أجل النار. يهيم الكلب حول البيت، دائرًا ودائرًا ثم يعود إلى الباب. لكن الباب موصد بقفل. يأخذون لحظة لكي يستوعبوا الأمر. على عتبة الباب عيدان أطاحتها الريح. واضح أنه ما من أحد دخل هناك. ينظر الشرطي إلى الداخل من وراء السُخام على النوافذ ثم يشرع في الطرق عليها، بقوة أكبر فأكبر، حتى يهشمها. ثم ينظر الجميع إلى الداخل، وتضربهم

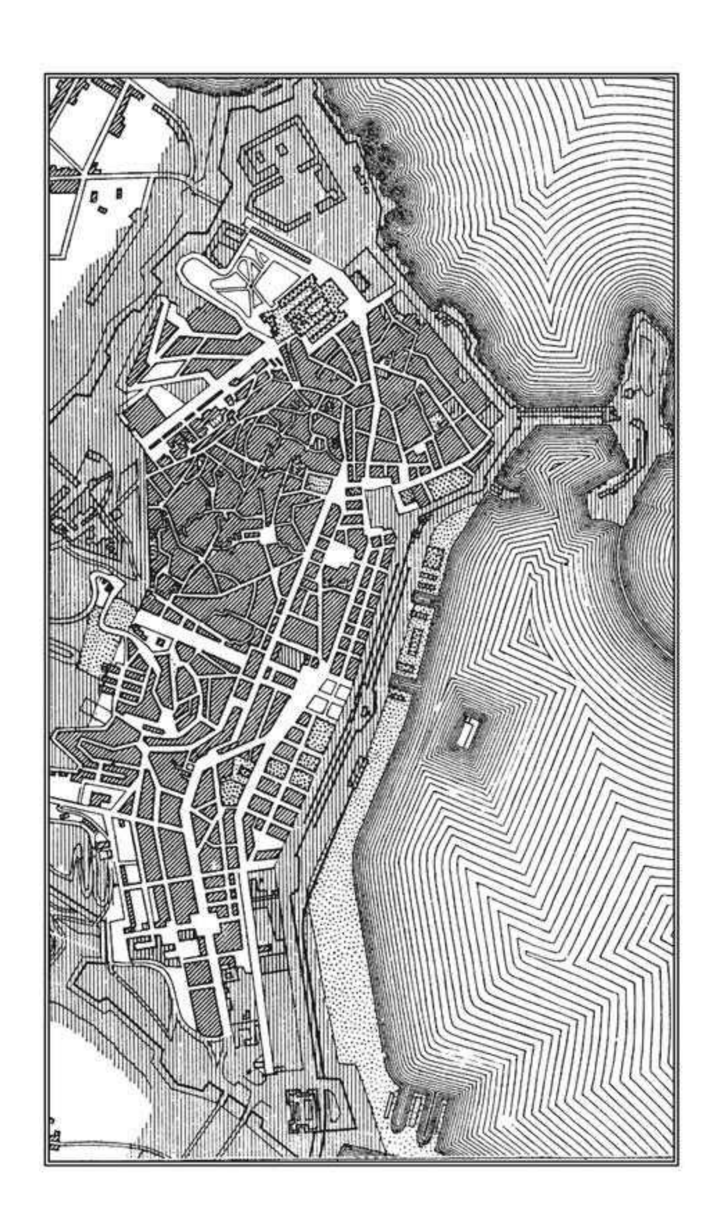
في اللحظة نفسها تلك الرائحة الشاملة للعفونة والبحر.

يخشخش الووكي توكي، يسقون الكلب، ثم يجعلونه يشم الكنزة ثانية. الآن يدور حول الكوخ ثلاث مرات، يعود إلى الطريق، ثم، بعد قَدرٍ من التردد، يواصل السير في الاتجاه نفسه صوب الصخور الجرداء العارية إلا من حشائش جافة متفرقة. البحر مرئي من الجروف الصخرية. يتجمع فريق البحث، يواجه المياه.

يفقد الكلب الأثر، يستدير، يتمدد في منتصف الدرب. To je zato jer je po noci padala kiša، يقولها أحدهم، ويفهم كونيكي، محللًا الكرواتية عبر بولنديته، إنهم يتكلمون عن أمطار ليلة أمس.

يأتي برانكو ويصحبه إلى غداء متأخر. تظل الشرطة هناك بينما برانكو وكونيكي ينزلان إلى «كوميتسا». لا يتكلّمان تقريبًا. يفكر كونيكي أن برانكو لا يعرف ماذا يقول له، وبلغة أجنبية أيضًا. لذا لا بأس، فليبق صامتًا. يطلبان سمكًا مقليًّا في مطعم على البحر مباشرة؛ ليس مطعمًا حتى، مجرد مكان يخصّ بعض أصدقاء برانكو. يعرف الجميع هنا. وجميعهم يبدون متشابهين، بملامح حادة، وكأنما نحتتها الريح، قبيله من ذئاب البحر. يصب له برانكو بعض النبيذ ويحاول إقناعه بأن يشرب. يتجرع كأسه هو الآخر. ثم لا يسمح له بأن يحاسب على أي شيء.

يتلقى مكالمة هاتفية. بعدها يشرح بيانكو: «لقد استطاعوا تأمين مروحية، طائرة. الشرطة».



يرسمان خطة للهجوم، ويتفقان على الإبحار في قارب برانكو بطول سواحل الجزيرة. يهاتف كونيكي والديه في بولندا. يسمع صوت والده الخشن المألوف. يقول له إنهم مضطرون للبقاء ثلاثة أيام أخرى. لن يخبره بالحقيقة. الجميع بخير، فقط عليهم البقاء. ثم يهاتف العمل، يقول إنه صادف مسألة صغيرة، ويسأل إن كان بإمكانه من الإجازة لثلاثة أيام أخرى. لا يعرف لماذا يقول ثلاثة أيام.

ينتظر برانكو على الرصيف. يظهر برانكو مرتديًا التي شيرت نفسه، المرسوم عليه صَدَفة حمراء، لكن كونيكي سرعان ما يتبيّن أنه تي شيرت مختلف، جديد، نظيف. لا بد أن لديه عددًا منه. يعثران على قارب الصيد الصغير وسط المراكب العديدة الراسية. على جنبه، حروف زرقاء مكتوبة بطريقة خرقاء تعلن اسمه: «نبتون». فجأة يتذكر كونيكي أن العبارة التي استقلوها للوصول إلى هنا اسمها «بوسيدون». وكثير من الأشياء، كثير من الحانات، كثير من المتاجر، كثير من القوارب، تحمل اسم «بوسيدون» أو «نبتون». لا بد أن البحر يلفظ هذين الاسمين مثلما يلفظ الأصداف التي ضاقت على ساكنيها. كيف تحصل على حقوق ملكية فكريّة من إله؟ يتساءل كونيكي. ماذا يمكن أن تدفع مقابلها؟

يستقرّان داخل قارب الصيد، صغير، مضغوط. في الواقع هو زورق آلي به كابينة صغيرة مرقعة من ألواح خشبية. هنا يُخزن برانكو زجاجات المياه، الفارغة والمملوءة على حد سواء. بعضها يحتوي على نبيذ من مزارع العنب الخاصة به - أبيض، جيد، قوي، كل فرد هنا لديه مزرعة عنب خاصة ونبيذ خاص. محرك القارب محفوظ في الكابينة، أيضًا، لكن برانكو يرفعه الآن إلى الخارج ويثبته في مؤخرة القارب. يدور في المحاولة الثالثة، الآن لكي يتكلّما عليهما تبادل الصراخ. هدير المحرك يصم الآذان، ومع ذلك بعد لحظة واحدة يعتاد العقل عليه، كما يعتاد في الشتاء على الملابس الثقيلة التي تفصل الجسد عن بقية العالم. ببطء، يتراجع الشرم، والمرفأ، يغطسان وسط الضوضاء. يلمح كونيكي الشقة التي كانوا يقيمون فيها، نافذة المطبخ وزهرة الصبار الأمريكي التي تنطلق بلهفة صوت السماء مثل لعبة نارية تجمدت في مكانها بعد إطلاقها، قذفٌ مظفّر.

يرى كل شيء يتقلص ويتداخل: البيوت تتحول إلى خط داكن متعرّج؛ المرفأ إلى لطخة بيضاء انطبعت عليها رسوم شراعات مصغرّة، بينما التلال العالية تُشرف على البلدة، جرداء، رمادية، مبرقشة بخضرة مزارع العنب. يزداد حجمها حتى تصير هائلة. من الداخل، من الطريق، بدت الجزيرة صغيرة، بيد أن قوّتها اتضحت الآن: جلمود صلب على شكل مخروط عملاق، قبضة مرفوعة من جوف المياه.

عندما ينعطفان يسارًا، خارجين من الخليج إلى البحر المفتوح، يبدو ساحل الجزيرة مدوخًا، خطيرًا.

تحملهم ذرى الأمواج البيضاء التي تضرب الصخور وتضطرب الطيور من حضور القارب. عندما يشغلان المحرك ثانية، تفزع الطيور وتحلق بعيدًا. ثمة، أيضًا خط رأسي يشق السماء إلى نصفين. طائرة نفاثة تنطلق صوت الجنوب.

يتحرك القارب. يشعل برانكو سيجارتين ويعطي واحدة لكونيكي، التدخين صعب: قطيرات ماء صغيرة دقيقة تتناثر من أسفل مقدّمة القارب وتهبط على كل شيء.

يصرخ برانكو: «انظر إلى الماء. إلى كل شيء يسبح».

يقتربان من خليج به كهف، فيلمحان مروحيّة، تطير في الجانب الآخر. ينهض برانكو واقفًا في وسط القارب ويلوح بيديه. ينظر كونيكي إلى الطائرة العمودية، مستبشرًا. الجزيرة ليست كبيرة، هكذا يفكر للمرة المئة؛ من أعلى لا يمكن لأي شيء أن يخفي عن أنظار هذا اليعسوب الميكانيكي الهائل، كل شيء سيكون واضحًا مثل الأنف على الوجه.

يصرخ في برانكو: «هيا نذهب إلى بوسيدون»، لكن برانكو يبدو غير مقتنع.

يرد صراخه: «لا طريق من هناك».

لكن القارب يستدير ببطء. يدخلان الخليج الصغير بين الصخور بعد إطفاء المحرك.

يفكر كونيكي: هذا الجزء من الجزيرة يجب أن يُسمّى بوسيدون أيضًا، مثل كل شيء آخر. لقد ابتنى الإله لنفسه كاتدرائيات هنا: مماش، ومغارات، وأعمدة، ومنصات ترتيل. كانت أشكالها غير قابلة للتنبؤ، إيقاعاتها متنوعة ومتفاوتة. صخور سوداء بركانيّة تتلألأ بالرطوبة وكأنها مغطاة بمعدن داكن نادر. الآن، في الغسق، تبدو الهياكل كلها حزينة على نحو مروع - كان هذا هجرانًا حقيقيًا: ما من أحد صلى هنا من قبل. فجأة يشعر كونيكي بأنه يرى النماذج الأولية للكنائس المشيدة بيد الإنسان، أنه يتعين على كل الجولات السياحية أن تأتي إلى هنا قبل زيارة كاتدرائية «رانس» أو «شارتر». يريد أن يشارك هذا الاكتشاف مع برانكو، لكن ضجيج المحرك العالي لا يسمح لهما بالكلام. يرى قاربًا آخر، أكبر حجمًا، مكتوب عليه كلمتا «شرطة سبليت». يُبحر بحذاء خط الساحل المنحدر. يلتقي القاربان، ويتكلّم برانكو مع رجال الشرطة. ليس لهما أثر، لا شيء. أو هكذا يفهم كونيكي، على الأقل، لأن النشاز الميكانيكي يُغرق محادثتهم. لا بد أنهم يقرأون شفاه بعضهم بعضًا، ويفسرون الهزات الرقيقة العاجزة لأكتافهم، التي لا تُناسب قمصانهم الشرطية البيضاء المزينة بالكتفيات. يوضحون لهم أن عليهما الرجوع، لأن الظلام سيحل قريبًا. هذا هو كل ما يسمعه كونيكي: «ارجعوا». يضغط برانكو بقدمه على دواسة البنزين، فيعلو صوت أشبه بالانفجار. يتيبس الماء. تنتشر أمواج صغيرة مثل قشعريرة على سطح البحر.

التوجه إلى الجزيرة الآن يختلف تمامًا عنه في النهار. أول ما تقع أعينهما عليه أضواء متلألئة تزداد تمايزًا مع كل ثانية، مشكلة صفوفًا. تتكاثر في الظلام المخيم، تصير منفصلة

مختلفة - أضواء اليخوت الواصلة إلى الشط مختلفة عن الأضواء في نوافذ البيوت؛ نور اللافتات وواجهات المتاجر مختلف عن نور مصابيح السيارات المتغيرة. منظر آمن العالم أنيس.

أخيرا يطفئ برانكو المحرّك، وينزلق القارب بجنبه إلى الساحل. فجأة يحتكّان بالصخر - لقد وصلا إلى شاطئ البلدة الصغير، بجوار الفندق مباشرة، على مسافة بعيدة من المرسى. الآن يفهم كونيكي السبب. بجوار الطريق المنحدر، على الشاطئ مباشرة، ثمة سيارة شرطة، ورجلان بقميصين أبيضين واضح أنهما في انتظارهما.

يقول برانكو، وهو يربط القارب: «لا بد أنهما يريدان الكلام معك». كونيكي تخونه قواه - إنه مرعوب مما قد يسمعه. إنهما وجدّا الجثتين. هذا ما يُرعبه. يتجه إليهما بركبتين واهنين.

لكن الحمد لله. مجرد استجواب عادي. لا، لا جديد. لكن وقتًا طويلًا قد مرّ الآن وصارت المسألة جدّية. يسلكون الطريق نفسه - الطريق الوحيد إلى «فيس»، إلى مركز الشرطة. الظلام الآن كامل، لكن يبدو أنهم يعرفون الطريق جيدًا لأنهم لا يخفَفون سرعتهم حتى عند المنعطفات. يمرون سريعًا بالمكان الذي فقدهما فيه.

هناك رجال جدد الآن في المركز، ينتظرون وصوله. مترجم، رجل وسيم، طويل، يتحدّث البولندية -لنكون صرحاء- على نحو سيّئ، رغم أنهم جاءوا به خصيصًا من «سبليت»، وضابط. يسألونه بعض الأسئلة الروتينية، تلقائيًا تقريبًا، وتدريجيًا يُدرك أنه صار مشتبهًا به.

يقلونه إلى الفندق. يخرج ويتجه إلى المدخل. يتظاهر بالدخول لكنه لا يدخل. ينتظر في الممر الصغير المظلم إلى أن يبتعدوا بالسيارة، إلى أن يتلاشى ضجيج المحرك، ثم يخرج إلى الشارع. يتجه إلى كتلة الأضواء الكثيفة، إلى الكورنيش بجوار المرسى حيث المقاهي والمطاعم. لكن الوقت متأخر الآن، ورغم أنه يوم جمعة لم يبق هناك إلا القليلين؛ لا بد أنها الواحدة أو الثانية صباحًا الآن. يبحث عن برانكو بين الزبائن القليلين الجالسين إلى الطاولات، لكنه لا يجده هناك، لا يرى ذلك التي شيرت ذا الصَدَفة. هناك بعض الإيطاليين، عائلة كاملة، ينهون وجبتهم، ويرى أيضًا رجلين أكبر سنا، يشربان شيئًا من شفاطة ويحذقان في العائلة الإيطالية الصاخبة. ثمة امرأتان بشعر فاتح، متواجهتان على نحو حميم، كتفاهما متلامسان، غارقتان في محادثتهما. رجال محليّون، صيادون، هذا الثنائي، يا لها من راحة ألا يعيره أحدّ أدنى اهتمام. يمشي على حافة تل، على الساحل مباشرة، يشم رائحة السمك ويشعر بالنسيم المملح، الدافئ، القادم من البحر. يشعر برغبة في الاستدارة والعودة من أحد الشوارع الخلفية التي تصل إلى بيت برانكو، لكنه لا يستطيع إرغام نفسه على فعل ذلك حقا. لا بد أنهم نائمون. لذا يجلس إلى طاولة صغيرة على حافة باحة المقهى. يتجاهله النادل.

يراقب الرجال المحتشدين حول الطاولة المجاورة. يجلبون كرسيًا إضافيًا. هم خمسة. ويجلسون. حتى قبل أن يأتي النادل، قبل أن يطلبوا أي مشروب، يربط بينهم جلف غير مرئي، غير مسموع.

إنهم من أعمار مختلفة، اثنان منهم بلحية كثيفة، ومع ذلك فكل اختلافاتهم تكاد تختفي وسط الدائرة التي شكلوها بالفعل على نحو تلقائي. يتكلّمون، لكن لا يهم ماذا يقولون - يبدو وكأنهم يتمرنون على أغنية سوف يغنونها معًا، يجربون أصواتهم. ضحكاتهم تملأ الفضاء داخل الدائرة - النكات، حتى المبتذلة منها، مناسبة تمامًا، بل ومطلوبة. إنه ضحك خفيض، متذبذب، يقهر الفضاء ويجعل السياح على الطاولة المجاورة يلوذون بالصمت - وقد فزعت المرأتان في منتصف العمر فجأة. ضحكهم يجتذب نظرات فضولية.

إنهم يهيئون جمهورهم. ظهورُ النادل بصينية المشروبات يصير استهلالًا، بينما يصير النادل نفسه، وهو مجرد صبي، مدير مراسمهم الغافل، معلنًا بدء الرقصة، الأوبرا. تزداد حيويّتهم لدى رؤيته؛ ترتفع يدُ شخص لتشير له أن يضع الأشياء - تحل لحظة صمت، ثم تُرفع حواف الاكواب إلى الشفاه. بعضهم -بخاصة نافذو الصبر يعجزون عن مقاومة إغماض عيونهم، تمامًا كما في الكنيسة عندما يضع الكاهن الرقاقة البيضاء بإجلال على اللسان الممدود. العالم جاهز لأن يُقلّب رأسًا على عقب - وجود الأرض تحت أقدامنا والسقف فوق رؤوسنا مجرد عرف سائد، الجسد لم يعد منتميًا لنفسه فحسب، بل صار جزءًا من سلسلة الحياة مقطعًا من دورة حيّة. الآن، أيضًا، ترتحل الأكواب إلى الشفاه، لحظة إفراغها غير مرئيّة، تحدث في طلقات سريعة متتالية، بجاذبية خاطفة. من الآن فصاعدًا سيتمسك الرجال بها - بالأكواب. ستبدأ الأجساد الجالسة حول الطاولة في رسم حلقاتها، قمم الرؤوس ترسم دوائر في الهواء، صغيرة أولًا، ثم أكبر. ستتقاطع، متتبعة نغمات جديدة. في النهاية، سترفع الأيدي، تختبر قوتها في الهواء أولًا، بإيماءات توضح كلماتهم، ثم ستتشرُد إلى أذرع الرفاق، إلى ظهورهم وأكتافهم، مربّتة ومشجعة. ستكون، في واقع الأمر، إيماءاتُ حب. هذا التآخي بطريق الأيدي والظهور ليس تطفليًا، بل هو رقص من نوع ما.

ينظر كونيكي في حسد. يود لو يغادر الظلال وينضم إليهم. لم يسبق له أن شهد شيئًا بهذه القوة. إنه أكثر تآلفًا مع الشمال، حيث المجتمع الذكوري أكثر خجلًا لكن، هنا في الجنوب، حيث الخمر وأشعة الشمس تفتح الأجساد أسرع وبقدر أقل من الحياء، تصبح تلك الرقصة حقيقية حقًا. بعد ساعة واحدة يدفع أول الأجساد نفسه بعيدًا عن الطاولة ويتشبث بمسندي الكرسي.

يشعر كونيكي بخبطة على ظهره من المخلب الدافئ النسيم الليل، خبطة تدفعه باتجاه الطاولات وكأنها تحثه على المضي قدمًا: «هيا، هيا الآن». يود لو ينضم إليهم، حيثما ذهبوا، أينما كان ذلك. يود لو يأخذونه معهم.

يعود عبر الجانب غير المضاء من الكورنيش إلى فندقه الصغير، حريصًا على ألا يعبر خط الظلمة. قبل دخول بيت الأرج الضيق، المكتوم، يستنشق بعض الهواء ويقف ساكنًا للحظة. ثم يصعد الأرج، متحسسًا كل درجة في الظلام، ويرتمي فورًا على فراشه بملابسه، على بطنه، وذراعاه مفرودان على الجانبين، وكأن أحدهم أطلق النار على ظهره، وكأنه قد فكر في الرصاصة للحظة، ثم مات.

ينهض بعد بضع ساعات - ساعتين، ثلاث، لأن الظلام لا يزال سائدًا، ومن دون تفكير يرجع إلى السيارة. ينطلق جرس الإنذار، وتومض السيارة بتفهم وكأنها كانت وحيدة. يخرج كونيكي حقائبهم من صندوق السيارة بشكل عشوائي. يحملها ويصعد الدرج ويسقطها على الأرض في المطبخ وغرفة النوم. حقيبتا سفرٍ وطن من الأغراض، أكياس، سلال، بما فيها سلة طعامهما على الطريق، زعانف في كيس بلاستيكي، أقنعة، مظلة فرشات للشاطئ، وصندوق به النبيذ الذي اشتروه من الجزيرة، وأجفار، ذلك المعجون المصنوع من الفلفل الأحمر الذي أحباه كثيرًا، ثم بعض برطمانات زيت الزيتون. يضيء كل الأنوار ويجلس وسط هذه الفوضى، ثم يتناول حقيبة يدها ويفرغ محتوياتها بعناية على طاولة المطبخ. يجلس هناك ويحدّق في هذه الكومة من الأغراض المثيرة للشفقة وكأنه أمام «لعبة التقاط الأعواد» وقد تلّخبطت وتعقدت، وجاء الدور عليه - ليستخلص عودًا واحدًا من دون تحريك أي أعواد أخرى، بعد لحظة تردد، يلتقط أحمر شفاه ويسحب غطاءه. أحمر داكن، جديد تقريبًا. لم تستخدمه كثيرًا، يتشممه. له شذىً لطيف، يصعب تحديد ماذا يُشبه بالضبط. يزداد جرأة، يتناول كل غرض ويضعه جانبًا، جواز سفرها، قديم، بغلاف أزرق - إنها أصفر كثيرًا في الصورة، بشعر طويل، مسترسل، وغزة. توقيعها على الصفحة الأخيرة مغبش - كثيرًا ما يستوقفان على الحدود. مفكرة سوداء صغيرة مغلقة بشريط مطاطي. يفتحها ويتصفحها - ملاحظات، رسم السترة، عمود من الأرقام، بطاقة حانة في «بولانيكا»، على ظهرها رقم هاتف، خصلة شعر، شعر داكن، ليست حتى خصلة، ليست أكثر من بضع عشرات من الشعرات المفردة. يضعها جانبًا. ثم يفحص كل شيء عن قرب. حقيبة أدوات تجميل مصنوعة من نسيج هندي غرائبي، تحتوي على قلم أخضر داكن، علبة خلّت تقريبًا من المسحوق، قشره خضراء مقاومة للماء، برّاية أقلام بلاستيكية، مُلمع شفاه، ملقط، سلسلة صغيرة مسودة مقطوعة. كذلك يصادف تذكرة متحف في «تروغير»، وعلى ظهرها كلمة أجنبية؛ يُقرّب الورقة الصغيرة من عينيه ويتمكن من قراءتها: καιρός، يظنها تُقرأ «كايروس»، لكنه ليس متأكدًا، ولا يعرف معناها. ثم رمل يملأ قاع الحقيبة.

هناك هاتفها المحمول، الذي أوشكت بطاريته على النفاد. يراجع سجل مكالماتها الأخيرة - يظهر له رقمه، في معظم المكالمات، لكن هناك أرقاما أخرى أيضًا لا يعرف أصحابها، رقمان أو ثلاثة. هناك رسالة واحدة فقط في صندوقها البريدي منه هو، عندما تاها عن بعضهما في «تروغير». **أنا بجوار الفسقية في الميدان الرئيسي**، مجدّد رسائلها المرسلة

فارغ. يرجع إلى القائمة الرئيسية، فيتراءى أمامه للحظة ما يشبه نمطًا واضحًا على الشاشة، ثم يختفي.

ثمة عبوة من الفوط الصحية. قلم رصاص، قلمان جافان، أحدهما أصفر «بك»، والأخر مكتوب على جنبه فندق «ميركيور». عملات فضية، بولندية وسنتات يورو. محفظتها، فيها أوراق نقدية كرواتية -ليست كثيرة وعشرة زلوتي بولندي. بطاقة الفيزا الخاصة بها. مفكرة برتقالية صغيرة، متسخة الحواف، دبوس شعر نحاسي عليه رسم يبدو عتيقًا، مكسور في ما يبدو. قطعتان من حلوى «كوبيكو». كاميرا رقمية بحافظة سوداء مشبك غسيل. مشبك ورق أبيض. غلاف قطعة من العلكة الذهبية. فتات. رمل.

يضعها جميعًا على سطح المنضدة الأسود المطفي، كل غرض على مسافة متساوية من كل غرض آخر. يذهب إلى الحوض ويشرب بعض الماء. يرجع إلى الطاولة ويشعل سيجارة. ثم يشرع في التقاط صور بكاميراها، صورة لكل غرض على حدة. يصوّر ببطء بوقار، يُقرّب العدسة بقدر الإمكان، يستخدم الفلاش. الشيء الوحيد الذي يأسف له أن الكاميرا الصغيرة لا تستطيع التقاط صورة لنفسها. فهي الأخرى دليل، في نهاية المطاف. ثم ينتقل إلى الرواق حيث الأكياس وحقيبتا السفر، ويلتقط صورة لكل منها. لكنه لا يتوقف عند ذلك الحد، بل يفرغ حقيبتي السفر ويشرع في التقاط صور لكل قطعة ملابس، كل حذاء، كل شول وكل كتاب. ألعاب الصبي. بل ويخرج الملابس المتسخة من أكياسها البلاستيكية ويلتقط صورة لهذه الكومة المشوشة بدورها.

يصادف زجاجة «راكيا» صغيرة ويتجرعها في رشفة واحدة، والكاميرا لا تزال في يده، ثم يلتقط صورة للزجاجة الفارغة.

كان الصبحُ قد أصبح وهو ينطلق بسيارته صوب «فيس». معه السندويتشات الجافة التي كانت قد أعدّتها لأجل الطريق. كان الأبد قد ذاب بفعل الحرارة، وتغلغل في مسام الخبز، مخلفًا طبقة زيتية متلألئة، وصار الجبن يابسًا ونصف شفاف مثل البلاستيك. يأكل اثنين من السندويتشات وهو يغادر «كوميتسا»؛ يمسح يديه في بنطلونه. يمضي بطيئًا، حذرًا، مراقبًا جانبي الطريق، مراقبا كل ما يمر به، مراعيًا أن دمه مخلوط بالكحول. لكنه يشعر بنفسه جديرا بالثقة مثل ألة، قويا مثل محرك. لا ينظر إلى الخلف، وإن كان يعرف أن المحيط وراءه يرتفع، مترًا بعد متر. الهواء نقي إلى درجة أنك قد ترى الطريق أمامك حتى إيطاليا من أعلى نقطة في الجزيرة. الآن يتوقف في الخلجان الصغيرة ويعاين محيطها، كل مزقة ورق، كل قطعة قمامة. لديه أيضًا المنظار الميداني الخاص ببرانكو - بهذه الطريقة يستطيع مسح المنحدرات. يرى مرتفعات صخرية مغطاة بطبقة من المهاد العضوي المسفوع، حشائش باهتة اللون؛ يرى شجيرات التوت الأسود الخالدة، وقد أدكنتها الشمس، متشبثة بالصخور بأهدابها الطويلة. أشجار زيتون برية، مستنزفة، بجذوع ملتوية إلى أعلى جدران

حجرية صغيرة وسط بساتين العنب، أنشئت قبل أن يهجرها أصحابها.

بعد ساعة أو نحو ذلك يتوجه صعودًا إلى «فيس»، ببطء، مثل دورية شرطية. يمر بالسوبرماركت الصغير حيث ذهبا لشراء البقالة - نبيذ في الأغلب. ثم يجد نفسه في البلدة.

لقد رست العبارة بالفعل على الرصيف. إنها ضخمة، بحجم بناية، جلمود طاف. «بوسيدون». أبوابها الهائلة فتحت على مصراعيها، وطابور من السيارات والناس نصف النائمين قد تشكل ويوشك على البدء في التقدم إلى الأمام. يقف كونيكي بجوار الدرابزين ويتفحص الناس الذين يشترون التذاكر. بعضهم من السياح الجوالة، بينهم فتاة جميلة في عمامة زاهية الألوان؛ ينظر إليها لأنه لا يستطيع أن يشيح ببصره. بالقرب منها يقف رجل طويل بوسامة إسكندنافية. ثمة نساء وأطفال، غالبا من سكان الجزيرة، بلا أمتعة؛ رجل في بدلة يمسك بحقيبة مستندات. هناك زوجان - هي مستكينة في صدره، عيناها مغمضتان، وكأنها تحاول استكمال نومة ليلية لم تكتمل. والعديد من السيارات - بينها سيارة مكدسة لعينها، بلوحات معدنية ألمانية وسيارتان إيطاليتان. وشاحنات الجزيرة، تغادر لجلب الخبز، والخضروات، والبريد. لا بد للجزيرة من أن تعيش بشكل ما. يختلس كونيكي النظر سرًا إلى داخل السيارات.

يبدأ الطابور في التحرك، تبتلع العبارة الناس والسيارات، ولا أحد يحتج، مثل قطيع من العجول. تتقدم جماعة من الفرنسيين على دراجات بخارية خمس دراجات، آخر الركاب، يختفون بالخنوع نفسه بين فكي ال-«بوسيدون».

ينتظر كونيكي حتى تنغلق الأبواب بهذا الأنين الميكانيكي. يُغلق الرجل الذي يبيع التذاكر نافذته ويخرج ليدخن سيجارة. يشهد الرجلان جلبة العبارة المفاجئة وابتعادها عن الشاطئ.

يقول إنه يبحث عن امرأة وطفل، يخرج جواز سفرها ويضعه أمام وجهه.

يزر بائع التذاكر عينيه وهو ينظر إلى صورة الجواز. يقول شيئًا بالكرواتية بمعنى: «لقد سألتني الشرطة عنها بالفعل. لم يرها أحد هنا». يسحب نفسا من سيجارته ويضيف: «إنها ليست جزيرة كبيرة، علينا أن نتذكر ذلك».

فجأة يقبض على كتف كونيكي وكأنهما صديقان قديمان.

«قهوة؟»، ويومئ باتجاه المقهى الصغير على المرفأ، الذي فتح أبوابه للتو.

بالطبع، قهوة. لم لا؟

يجلس كونيكي إلى الطاولة الصغيرة، وبعد لحظة يرجع بائع التذاكر ومعه قهوة إسبرسو مضاعفة، يشربان في صمت.

يقول بائع التذاكر: «لا تقلق. لا يمكن لأي شخص أن يضيع هنا». يقول شيئًا آخر ويفرد

يديه إلى الأمام، الأصابع مفرودة، والكف مخدّد بخطوط سميكة، بينما كونيكي يترجم كرواتيته ببطء إلى البولندية: «كلنا مميزون، الواحد منا يبرز وسط الأخرين مثل إبهام متورم في كف»، أو شيء من هذا القبيل.

يجلب بائع التذاكر لكونيكي لفافة فيها قطعة لحم وبعض الخس. يمضي بعيدًا، تاركًا كونيكي وحده مع قهوته غير المنتهية. فور مغادرته، تهرب نشجةً قصيرة من كونيكي، اللفافة تشبه لقمة واحدة كبيرة، يبتلعها. ليس لها طعم.

صورة الإبهام المتوزم تتلكأ في عقله. في عينِ من نبرز؟ من يفترض به أن ينظر إليهم، في تلك الجزيرة وسط البحر، متتبعًا خيوط الطرق الممهدة من مرفأ إلى مرفأ، إلى بضعة آلاف من الأشخاص، محليين وسياح، ذائبين في الحرارة، في حركة دائمة؟ تومض صور الأقمار الصناعية في عقله - يقولون إنها تتيح لك قراءة المكتوب على علبة كبريت فيها. هل هذا ممكن؟ إذا لا بد أنك تستطيع أيضًا من أعلى أن تعرف أن رأسه آخذًا في الصَلَع. السماء الباردة الهائلة مملوءة بعيونٍ متحركة الأقمار الصناعية التي لا تكل.

يرجع إلى السيارة غير مقبرة صغيرة بالقرب من الكنيسة. كل القبور تواجه البحر، كما في مسرح دائري، لكي يراقب الموتى الإيقاع التكراري البطيء للمرفأ. ربما تُبهجهم العبَّارة البيضاء، بل لعلهم يظنونها رئيس ملائكة يرافق الأرواح في ذلك الممر عبر الهواء.

يلاحظ كونيكي بضعة أسماء تتكرر مرة بعد مرة. الناس هنا لا بد يُشبهون القطط المحلية، في حالهم، يدورون بين بضع عائلات ولا يغادرون تلك الدائرة إلا في ما نَدَر، لم يتوقف إلا مرة - يري شاهد قبرٍ صغير عليه صفان من الحروف لا غير:

Zorka 9 II 21-17 II 54

Sretan 29 I 54- 17 VII 54

للحظة يبحث في هذه التواريخ عن نسق جبري، تبدو له مثل شفرة. أم وابنها. تراجيديا التقطتها تواريخ، مكتوبة على مراحل. تتابع.

وهنا تنتهي المدينة. إنه متقب، والسخونة وصلت إلى أوجها، والعرق الآن يُغرق عينيه. وبينما يصعد مجددًا بسيارته إلى قلب الجزيرة، يرى كيف تحولها الشمس الحادة إلى مكان هو الأكثر قساوة على سطح الأرض، السخونة تتكتِك مثل قنبلة موقوتة.

في مركز الشرطة تُقدّم له البيرة، وكأن الضباط يريدون إخفاء عجزهم تحت تلك الرغوة

البيضاء. «لم يرهما أحد»، يقولها رجل جسيم، وهو يُدير المروحة بكياسة صوب كونيكي.

يسأل كونيكي، وهو يقف بمدخل الباب: «ماذا نفعل الأن؟»

يقول الضابط: «يجب أن تحصل على بعض الراحة».

لكن كونيكي يظل في المركز ويسترق السمع لكل مكالماتهم الهاتفية، لكل خشخشات أجهزة الووكي توكي، الفتخمة بمعان خفيّة، حتى يأتي برانكو أخيرًا لأجله، ويصحبه لتناول الغداء. لا ينطقان تقريبا. ثم يطلب منه أن ينزله عند الفندق، إنه ضعيف ويرقد على السرير بكامل ملابسه. يشمّ عرقه، رائحة الخوف البشعة.

يرقد هناك على ظهره، في ملابسه، بين الأغراض التي أفرغها من حقيبة يدها. عيناه تتفحصان بانتباه تشكيلاتها، تموضعاتها، الاتجاهات التي تشير إليها، الأشكال التي تصنعها. قد تكون علامة؛ رسالة له، بخصوص زوجته وطفله، لكن قبل كل شيء بخصوصه هو. لا يتعرف على الكتابة، لا يتعرف على تلك الرموز - لم تكتبها يد بشرية، هو متأكد من هذا. علاقتها به واضحة، وحقيقة أنه يُنظر إليها فهفة وحقيقة أنه يراها لغزًا عظيمًا: إنه يستطيع أن ينظر ويرى - أنه موجود.

كل مكان ولا مكان

كلما انطلقت في أي رحلة كانت، أختفي عن الرادار. لا أحد يعرف مكاني. في النقطة التي غادرتُ منها؟ أم في النقطة التي أتوجه إليها؟ هل ثمة مكان وسّط؟ هل أشبه ذلك اليوم الذي يضيع منك عندما تسافر شرقًا وتلك الليلة التي تستعيدُها من الغرب؟ هل أخضعُ لقانون فيزياء الكوانتم الموقر القائل بأن الجزيء يمكن أن يوجد في مكانين في اللحظة نفسها؟ أم لقانون آخر لم يبرهن، بل ولم نفكر فيه بعد، يقول إنك تستطيع أن تكون غير موجود في مكان واحد مرتين؟

أظن أن الكثيرين مثلي. أشخاصٌ ليسوا حولنا، اختفوا. يظهرون فجأة في مبنى الوصول ويشرعون في الوجود عندما يختم موظفو الهجرة جوازات سفرهم، أو عندما يسلّمهم موظفو الاستقبال المهذبون في أي فندق كان مفتاح غرفتهم. لا بد أنهم الآن أصبحوا على دراية بعدم استقرارهم واعتماديتهم على الأماكن، على أوقات اليوم، على اللغة، أو على مدينة ما وجوّها. سيولة، حركية، إيهام. تلك هي بالضبط الصفات التي تجعلنا متحضرين. البرابرة لا يسافرون. هم ببساطة يذهبون إلى وجهات معينة أو يشنّون غارات.

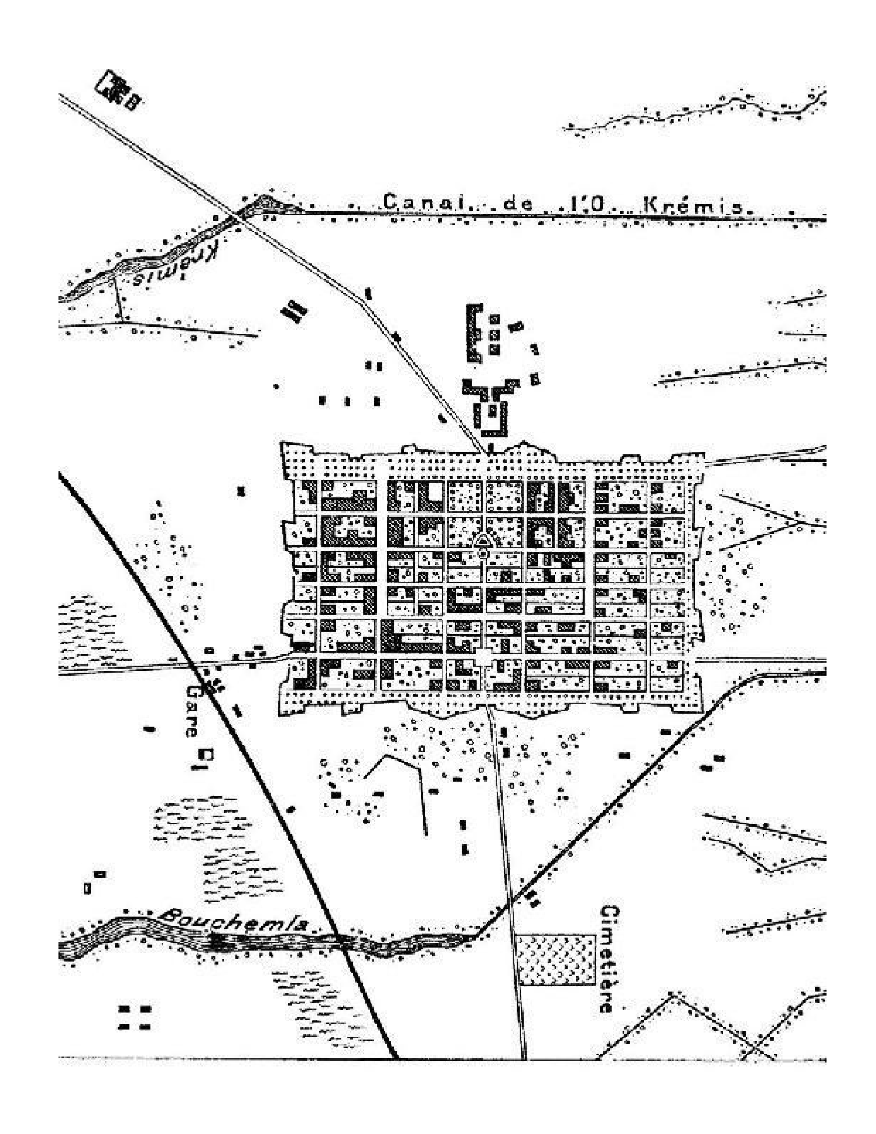
هذا الرأي تشاطرني إياه امرأة تُقدّم لي شاي أعشاب من تُرمس بينما ننتظر الحافلة من محطة القطار إلى المطار، يداها مزينتان بالحناء في تصميم معقد تزداد قراءته صعوبة يومًا بعد يوم. فور أن نستقل الحافلة تعرض نظريتها عن الزمن. تقول إن الشعوب المقيمة المزارعين، يفضلون مباهج الزمن الدائري، الذي فيه كل عَرَض وحَدَث يجب أن يعود إلى مبتدأه، يلتف ثانية على نفسه بصورة جنينية ويكرر عملية البلوغ والموت. لكن البدو والتجار، عندما كانوا ينطلقون في رحلاتهم، كانوا بحاجة إلى ابتداع زمن يلائمهم، زمن يستجيب على نحو أفضل لاحتياجات أسفارهم. ذلك الزمن هو زمن خطي، عمليٌّ أكثر لأنه قادر على قياس التقدّم صوب هدف أو وجهة، يزداد بنسب مئوية. كل لحظة متفرّدة: لا يمكن لأي لحظة أن تتكرر أبدًا. هذه الفكرة تفضل المجازفة، عيش الحياة إلى أقصاها، اقتناص اليوم. مع ذلك فهو ابتكار مرير: عندما يكون التغير عبر الزمن غير قابل للانعكاس، يصبح الفقد والحزن أمورًا يومية. لهذا السبب لن تسمعهم قطّ ينطقون بكلمة «عقيم» أو «فارغ».

«جهد عقيم. كلام فارغ»، تضحك المرأة، وهي تضع يدها المزينة فوق رأسها. تقول إن الطريقة الوحيدة للبقاء في هذا الزمن الممتد، الخطّي هو أن تحافظ على مسافة معقولة، مثلما في رقصة تقوم على الاقتراب والتراجع، خطوة إلى الأمام، خطوة إلى الخلف، خطوة إلى اليسار، خطوة إلى اليمين - خطوات يسهل تذكرها. وكلما كبر العالم، زادت المسافات

المتاحة لتلك الرقصة، الهجرة عبر سبعة بحار، عبر لغتين، عبر دين كامل.

لكنني أنظر إلى الزمن بطريقة مختلفة. الزمن الخاصّ بكل مسافر هو مجموعة أزمنة في زمن واحد، تشكيلة واسعة. إنه زمن جزيري، أرخبيلات من النظام وسط محيط من الفوضى؛ إنه الزمن الذي تنتجه الساعات في محطات القطارات، زمن مختلف في كل مكان؛ زمن تقليدي، زمن متوسط، يجب ألا يأخذه أحد على محمل الجد. الساعات تختفي على الطائرة المحلّقة عاليًا الفجرُ ينسحب سريعًا، يكاد يلحق به العصر والمساء. الزمن المحموم للمدن الكبرى التي تزورها لفترة قصيرة، فترغب في السقوط في براثن مسائها، والزمن الكسول للبراري المهجورة حين تُرى من السماء.

أعتقد كذلك أن العالم يمكن أن يدرج داخل أي مُتّسع، في أخدود من أخاديد الدماغ، في الغدة الصنوبرية - بل ويمكنه أن يكون مجرد خثرة في الحلق، هذا الكوكب. في الحقيقة، تستطيع أن تسعله من صدرك وتبصقه بعيدًا.



Canal de l'O. Krémis
Krémis
Gare
Bouchemla
Cimetière

مطارات

المطارات العملاقة تجمعنا معًا على وعد الربط برحلتنا التالية: إنها منظومة نقل وجداول زمنية في خدمة الحركة. لكن حتى إن لم نكن بصدد الذهاب إلى أي مكان في الأيام التالية، تظل تلك الفضاءات جديرة بالمعرفة.

في سابق الأيام كانت في الضواحي، مُلحقة بالمدن، مثل محطات القطارات. بيد أن المطارات انعتقت الآن، وأصبحت اليوم تمتلك هويتها الخاصة، الكاملة المتكاملة. وقريبا قد نقول إن المدن هي التي تلحق بالمطارات، كأماكن للعمل والنوم. ففي نهاية المطاف، وكما هو معروف، لا تحدثُ الحياة الحقيقية إلا في الحركة.

فبأي حق ننظر إلى المطارات بوصفها أدنى درجة من المدن الحقيقية، في أيامنا هذه؟ إنها تحتوي على مراكز للمؤتمرات، ومعارض فنية مثيرة، ومهرجانات، وحفلات إطلاق لمختلف المنتجات. تحتوي على حدائق ومتنزهات؛ إنها تُثقّف: في مطار «سخيبول» في أمستردام تستطيع رؤية نُسخ ممتازة من أعمال رامبرانت، وثمة مطار في آسيا يحتوي على متحف للأديان - فكرة خرافية. ونحن نجد سبيلنا لفنادق جيدة وتشكيلة واسعة من المطاعم والبارات داخل المطارات. ثمة متاجر صغيرة ومحلات سوبرماركت ومولات للتسوق حيث تستطيع تأمين لا العتاد اللازم للطريق فقط، وإنما الهدايا أيضًا، بصورة مسبقة، كيلا تضيع وقتًا فور وصولك إلى وجهتك. ثمّة صالات للألعاب الرياضية وأماكن توفر لك تدليكًا تقليديًا وشرقيًا على حد سواء، مصففو شعر ومندوبو خدمة عملاء من بنوك وشركات هواتف محمولة. وبعد تلبية احتياجات أجسادنا، نستطيع الانتقال إلى المَدد الروحاني في المُصلّيات وأماكن التأمل العديدة التي توفرها المطارات. أحيانًا تستضيف قراءات وتوقيعات كتب لأجل المسافرين. في مكان ما في حقيبة ظهري، لا زلت أحتفظ ببرنامج إحدى تلك الفعاليات: «تاريخ وأسس علم نفس السفر»، «تطور التشريح في القرن السابع عشر».

كل شيء مضاء جيّدًا. المماشي المتحركة تُسهل هجرة المسافرين من صالة إلى أخرى ليتمكنوا من الانتقال، من ثم، من مطار إلى آخر (أحيانًا المسافة ست عشرة ساعة طيران!) بينما يضمن فريق عمل حصيف تسيير تلك الآلية بلا أي أخطاء.

إنها أكثر من مجرد مراكز التجميع المسافرين: إنها جنس خاص من المدينة الدولة، حيث المكان ثابت، بينما المواطنون في حالة تدفق. إنها جمهوريات- مطارات، أعضاء في اتحاد عالمي للمطارات، ورغم أنها لم تُمثل بعد في الأمم المتحدة، فالمسألة مسألة وقت لا أكثر. إنها مثال على منظومة تحوز فيها السياسات الداخلية أهمية أقل من العلاقات ببقية

المطارات أعضاء الاتحاد - فهؤلاء الأعضاء وحدهم هم من يضمنون لها علة وجودها. مثال على نظام مُنفتح، حيث يظهر الدستور جليًا على كل تذكرة، وحيث بطاقة ركوب كل مسافر هي تحقيق شخصيته الوحيد بوصفه مواطنًا.

عدد السكان هنا يختلف دائمًا بصورة كبيرة. واللافت أن التعداد يزداد في أجواء الضباب والعواصف. ولكي يشعر المواطنون بالراحة في أي مكان، عليهم ألا يلفتوا الأنظار كثيرًا. أحيانًا، بينما يسير المرء على ممشى متحرّك، يمر بأخوة وأخوات في السفر، من قد يعطون انطباعًا بأنهم محفوظون في الفورمالدهايد، وكأن الجميع يحدّقون في الجميع من داخل نواقيس زجاجية. في جمهورية المطار، عنوانك هو مقعدك على الطائرة: 7D، مثلًا، أو 16A. تلك المماشي المتحركة الغفيرة تحملنا بعيدًا في اتجاهات مختلفة، بعض المسافرين في عباءات وقبعات، والبعض في شورتات وقمصان هاواي، عيون شوشتها الثلوج أو خدود أدكنتها الشمس، مشبعين برطوبة الشمال، برائحة أوراق الشجر العطنة والأرض الرخوة، أو حاملين رمل الصحراء في تجاويف نعالهم. البعض بلون برونزي، أو أسمر، أو محروق، وآخرون لهم بياض فلورسنتي يغشي الأبصار. أناسٌ يحلقون رؤوسهم وأخرون لا يقصّون شعورهم قطّ. الطويل الضخم، مثل ذلك الرجل، والقصير النحيف مثل تلك المرأة التي لا تبلغ خصره طولًا.

كذلك، فللمطارات موسيقاها التصويرية الخاصة سيمفونية من محركات الطائرات، بعض الأصوات البسيطة التي تنتشر في الفضاء خالية من الإيقاع، كورال أرثوذوكسي ثنائي المحركات، مقام موسيقي موحِش، موسيقى تحت حمراء تحت سوداء، موسيقى «لارغو» بطيئة، قائمة على وتر واحد يضجر حتى نفسه. قدّاس جنائزي يبدأ بالاستهلال القوي للإقلاع ويختتم بـ«آمين» الهبوط.

العودة إلى الجذور

نُزُل الشباب يجب أن تُحاكم على انحيازها العفوي: لسبب ما لا تقدم الإقامة إلا لصغار السن. يختلف الحيّز العمري المقبول من نُزُلٍ إلى آخر، لكن الشخص الأربعيني لن يجد مكانًا في أي منها. فلماذا يلقى الشباب مثل هذه المعاملة المتميزة؟ ألا يكفي أن السماء تغدق عليهم بمزايا البيولوجيا ذاتها؟

دعونا نأخذ مثلًا هؤلاء الرحالة المتجولين، أصحاب حقائب الظهر، الذين يشكلون الغالبية العظمى من روّاد النزل: إنهم أقوياء وطوال القامة -رجالهم ونساؤهم- لهم بشرة صافية، متوهجة، ونادرًا ما يدخنون، إن دخنوا أصلًا، ناهيك عن تعاطي المخدرات، باستثناء سيجارة محشوّة من حين إلى آخر على أبعد تقدير. يسافرون بمواصلات صديقة للبيئة - بعبارة أخرى، عن طريق البرّ: قطارات ليلية، حافلات مسافات طويلة مكدسة بالركاب. في بعض البلدان يسافرون بالتطفل. يصلون إلى النُزُل ليلًا، وبينما يتناولون عشاءهم يشرعون جميعًا في تبادل «أسئلة السفر الثلاثة»: من أين أنت؟ من أين أتيت؟ إلى أين تذهب؟ السؤال الأول يُحدّد المحور الرأسي، بينما يوطّد السؤالان التاليان المحورين الأفقيّين. هكذا يستطيع هؤلاء الجوالة اختلاق ما يشبه نظامًا إحداثيًا: وعندما يحدّد كل منهم موقع الآخر على تلك الخريطة، يخلدون في سلام إلى النوم.

الرجل الذي قابلته في القطار كان قد شدّ الرحال، مثل الكثيرين منهم، بحثًا عن جذوره. كانت رحلته معقدة: جدّته لأمه يهودية روسية، وجدّه بولندي من «فيلنيوس» (ليتوانيا حاليًا)؛ غادرا روسيا مع جيش الجنرال أندرس وهاجرا إلى كندا بعد الحرب. أما من جانب أبيه، فكان جدّه إسبانيًا، وجدّته أمريكية من السكان الأصليين لا أتذكر اسم قبيلتها.

كان في بداية رحلته، وبدا فريسة لمشاعر طاغية.

أحجام السفر

في أيامنا هذه، كل صيدلية تحترم نفسها تقدم لزبائنها تشكيلة خاصة من مستحضرات التجميل في عبوات مناسبة للسفر. بل إن بعض الأماكن تخصص ممرات بأكملها لذلك. هنا، يستطيع المرء الحصول على أي شيء وكل شيء قد يريده في رحلته: شامبو، أنبوب صابون سائل لغسل ملابسك الداخلية في مغسلة غرفة الفندق، فرشاة أسنان تستطيع طيها نصفين، دهانات واقية من الشمس، مستحضرات طاردة للحشرات، مماسح لتلميع الأحذية (كل درجات الألوان متوفرة)، مجموعات من منتجات النظافة الشخصية النسائية، كريمات للقدم، كريمات لليد. السمة المميزة التي تجمع بين تلك الأغراض هي حجمها - إنها مُنَمَنمات، أنابيب وبرطمانات ضئيلة، قوارير بالغة الصغر بحجم الإبهام: أصغر عُدة خياطة تحتوي على ثلاث إبر، وخمس بكرات خيوط صغيرة بمختلف الألوان، كل منها بطول ثلاثة أمتار، وزرّين أبيضين للطوارئ ودبوس مشبك. ومن أكثر تلك الأغراض نفعًا مثبت الشعر الخاص بالمسافرين، عبوة صغيرة لا تزيد في حجمها عن كف يد امرأة.

يبدو وكأن صناعة مستحضرات التجميل تنظر إلى ظاهرة السفر بوصفها حياة استقرار معكوسة في مرآة إنما بصورة مصغرة، نسخة ضئيلة وظريفة من الأصل.

مانو دي جيوفاني باتيستا[7]

العالم مليء بالأشياء. وتقتضي الحكمة تقليصه، بدلًا من توسيعه أو تكبيره. سنكون بحال أفضل إن حشرناه مجددًا في صفحته الصغيرة - «بانوبتِيكون» محمول لا يسمح لنا بالتلصص عليه إلا في عصريّات السبت، بعد انتهاء مهماتنا اليومية، بعدما نتأكد من توفر ملابس داخلية نظيفة لنرتديها، قمصان مكوية مشدودة على مساند الكراسي، الأرضيات مدعوكة، كعكة القهوة تبرد على حافة النافذة. نستطيع اختلاس النظر إلى ما بداخله عبر ثقب صغير مثلما في «الفوتوبلاستيكون» مسرح الصور المجسمة في وارسو، مبدين دهشتنا لكل تفصيلة من تفصيلاته.

لكنني أخشى أن يكون الأوان قد فات.

ما من خيار أمامنا الآن إلا أن نتعلم كيف نختار بلا نهاية. أن نتعلم كيف نُصبح مثل رفيق سفر التقيتُه ذات مرّة في قطار ليلي أخبرني أنه من حين إلى آخر يرجع إلى متحف اللوفر فقط ليرى لوحة واحدة يعتبرها جديرة بالمشاهدة، ليوحنا المعمدان. يقف أمامها وحسب، يتطلع إليها، متفرسًا في إصبع القديس المرفوع.

الأصل والنسخة

قال رجل التقنيّة في كافيتريا ذلك المتحف أن لا شيء يجلب إليه ذلك الشعور العظيم بالرضا مثل أن يكون في حضرة عمل فني أصلي. ثم أصر أنه كلما زادت عدد النسخ في العالم، زاد الأصل قوّة، قوّة تقترب أحيانًا من السطوة الهائلة التي يتمتع بها الأثر المقدّس. فالفريد جليل، كونه مهدّدًا بخطر الخراب المحدّق. وجاء التأكيد على تلك الكلمات في صورة حشدٍ صغير من السياح الذين وقفوا، بتركيز متوهج، يتبتّلون أمام لوحة لليوناردو دافينشي. ومن حين لآخر، عندما يعجز أحدهم عن مواصلة النظر إليها، تتناهى نقرة مسموعة من كاميرا، صوتها يشبه «آمين» منطوقة بلغة رقمية جديدة.

قطارات للجبناء

ثمة قطارات مصممة للنوم. تتكوّن، بالكامل، من مقصورات نوم وعربة مقهى واحدة، ليست عربة مطعم حتى، لأن المقهى فيه الكفاية. هذا النوع من القطارات يسافر، على سبيل المثال، من «شتتين» إلى «فروتسلاف» (في بولندا). يغادر الساعة 10:30 مساء ويصل الساعة 7 صباحًا، ولو أن الرحلة نفسها ليست بهذا الطول، نحو 300 كيلومتر فقط، ويمكنك قطعها في خمس ساعات. لكن الفكرة ليست دائمًا في الوصول أسرع: فالشركة تهتم براحة ركابها. يتوقف القطار في الحقول، وسط الضباب الليلي، فندق كامل على عجلات. لا معنى للتسابق مع الليل.

ثمة قطار ممتاز من برلين إلى باريس. ومن بودابست إلى بلغراد. ومن بوخارست إلى زيورخ.

أشعر وكأن تلك القطارات ابتكرت خصيصًا لمن يخافون الطيران. الأمر محرج بعض الشيء - الأفضل ألا تعترف بأنك تستقلها. وهي لا تظهر في الإعلانات بهذا القدر. إنها قطارات للزبائن الثابتين على العهد، لتلك النسبة تعسة الحظ من السكان التي تصاب بأزمة قلبية مع كل إقلاع وكل هبوط. لأصحاب الأيدي المتعرّقة الذين يكوّرون منديلًا ورقيًا بعد آخر في يأس، ولأولئك الذين يشدون أكمام مضيفات الطيران.

هاته القطارات تنتظر بتواضع على الهامش، متوارية عن الأنظار. (مثلًا، القطار من «هامبرغ» إلى «كراكوف»، الذي ينطلق من محطة «ألتونا»، والذي يختفي وراء اللوحات الكبيرة وغيرها من الوسائل الإعلانية). من يستقلون أحد تلك القطارات للمرة الأولى تجدهم يهيمون في المحطة لبعض الوقت قبل أن يعثروا عليه، يصعد الركاب فرادى ومن دون صَخب. في الجيوب الخارجية لحقائب السفر ثمة منامات وشباشب، وحقائب أدوات زينة، وسدادات أذن. الملابس تُعلّق بحرص على خطاطيف خاصة، وعلى أحواض الغسيل الضئيلة، المحصورة داخل خزانات تنتظم عُدة غسل الأسنان. وسرعان ما يأتي المحصّل لتسجيل طلبات العشاء. قهوة أم شاي؟ هذا أقصى قدر من الحرية تحصل عليه في السكك الحديدية. لو استقلّ أولئك الركاب واحدة من تلك الرحلات الجوية الرخيصة، لوصلوا إلى مقصدهم في غضون ساعة، ولكلفهم ذلك نقودًا أقل أيضًا. كانوا سيقضون الليل بين أحضان أحبائهم المشتاقين، يتناولون الإفطار في أحد المطاعم في شارع لا أدري ماذا، حيث يقدم المحار. كونشرتو مسائي لموتسارت في كاتدرائية. نزهة على ضفاف النهر. عوضًا عن ذلك، عليهم الاستسلام بالكامل للزمن الذي يقتضيه السفر على السكة الحديد، عليهم أن يقطعوا شخصيًا كل كيلومتر جريًا على عادات أسلافهم الغابرة، أن يعتلوا كل

جسر ويعبروا كل قنطرة ونفق في تلك الرحلة البرية. لا شيء يفوّت، لا شيء يغفل. كل ملليمتر من الطريق تلمسه العجلات، يكون للحظة جزءًا من خطّ تماسها، وهذا أمر لا يتكرر، تموضع لا يمكن تكراره - للعجلة والقضبان، للزمن والمكان، متفرّد في الكون كله.

فور أن ينطلق قطار الجبناء هذا في ظلام الليل ومن دون سابق إنذار- يبدأ البار في الامتلاء. يجتذب رجالًا في بدلات جاءوا لتناول كأسين سريعين أو «باينت» من البيرة يساعدهم على النوم، رجال مثليون متأنقون تتنقل عيونهم رائحة غادية مثل الصنَج في أصابع راقصة فلامنكو، مشجعو كرة قدم وحدانيون، معزولون عن أصدقائهم الذين اختاروا الطيران- مزعزعون مثل شاةٍ شرَدت عن القطيع؛ صديقات تجاوزن الأربعين تركن أزواجهن المُملين بحثًا عن بعض الإثارة. ببطء، تتقلّص المساحة أكثر فأكثر، ويتصرف الركاب وكأنهم جماعة كبيرة واحدة، وأحيانًا يُعرّفهم النادل الدمث بعضهم ببعض: «هذا الرجل يسافر معنا كل أسبوع»؛ «تيد الرجل الذي يقول إنه لن ينام لكنه يكون أول من يشخر»: «الراكب الذي يسافر كل أسبوع ليرى زوجته - لا بدّ أنه يحبها حقًا»؛ «السيدة "لن أسافر في هذا القطار ثانية أبدًا"».

في منتصف الليل، وبينما يشق القطار سهول بلجيكا أو «لوبوش» (في بولندا)، وبينما تتكاثف الشبورة الليلية وتُغبش كل شيء، تستضيف عربة المقهى جولة ثانية من الزوار: ركاب مرهقون، مؤرّقون، لا يخجلون من التجول بالشباشب وبلا جوارب. ينضمون إلى الآخرين وكأنهم يضعون أنفسهم في يدي القدر - ليكن ما يكون.

لكن يبدو لي أن الأشياء الوحيدة التي يمكن أن تقع لهم هي أشياء في صالحهم. في نهاية المطاف، هم الآن في مكان متحرك، يمضي عبر فضاء أسود؛ إنهم محمولون على الليل. لا يعرفون أحدًا ولا يتعرف عليهم أحد. يهربون من حيواتهم، ثم إليها يرجعون في أمان وسلام.

شقة مهجورة

الشقة لا تفهم ما حدث. الشقة تظن أن صاحبها قد مات. منذ أن صفع الباب، منذ أن دار المفتاح في القفل، خمدت كل الأصوات، تماهت تدرجاتها واختلطت حوافها، صارت مثل لطخات مبهمة. الفضاء يتكثف، غير مستغل، لا تزعجه نسمة هواء، ولا حفيف ستارة، وفي هذا السكون التام تبدأ أشكال تجريبيّة في التبلور على استحياء، أشكال معلقة للحظة بين أرض المدخل وسقفه.

بالطبع لا شيء يخلق من عدم الآن - كيف لذلك أن يحدث؟ إنها مجرد تقليد للأشكال المألوفة، تمتزج في لفائف فوارة شبيهة بالبثور، تحتفظ بحدودها الثانية لا أكثر. إنها حلقات مفرَدة، إيماءات منعزلة، مثل أثر قدم على سجادة ناعمة ينطبعُ دائمًا وأبدًا في المكان نفسه بالضبط، ثم يختفي. أو مثل يد على طاولة، تتحرك وكأنها تكتب، وإن كانت الحركات غير مفهومة لأنها تحدث من دون قلم، من دون ورق، من دون كتابة، من دون حتّى بقية الجسد.

كتاب الخزي

لم تكن صديقتي. قابلتُها في مطار استوكهولم، المطار الوحيد في العالم الذي له أرضيات خشبية؛ باركيه جميل من البلوط الداكن ألواحه منسجمة بعناية - التقدير الأدنى سيقول إنها استهلكت عدّة هكتارات من الغابات الشمالية.

كانت تجلس بجواري. فردت ساقيها وأراحتهما على حقيبة ظهر سوداء. لم تكن تقرأ، لم تكن تستمع إلى الموسيقى - كانت فقط تطوي يديها على بطنها وتحدّق إلى الأمام مباشرة. أحببتُ سكينتها، مستكينة تمامًا للانتظار. عندما حدّقت فيها بشكل أكثر وضوحًا، انزلقت نظرتُها بعيدًا عن نظرتي وهبطت على تلك الأرضية المصقولة. قلتُ أول ما خطر ببالي من دون تفكير، إن استخدام الخشب لتبليط أرضية مطار هو نوع من الإسراف.

أجابتني: «يقولون إن عليك التضحية بكائن حي عندما تُشيّدين مطارًا. لدرء الكوارث».

مضيفو الطائرة كانوا يواجهون مشكلة ما عند البوابة. تبيَّن - كما أعلنوا للمنتظرين- أن طائرتنا محجوزة بالزيادة. بسبب خلل ما في النظام، كان هناك عدد أكبر من المقرر في قائمة الركاب. خطأ حاسوبي، وراء هذا الستار يحتجب القدَر هذه الأيام، عرضوا أن يدفعوا لشخصين مئتي يورو، وليلة في فندق المطار، ووجبة عشاء إذا وافقا على السفر في اليوم التالي.

راح الناس يتبادلون النظرات في توتُر. قال أحدهم، لنقترع بالعصي على ذلك! وضحك شخص آخر، ثم حل صمت مربك. لم يرغب أحد في البقاء، وهو أمر مفهوم: نحن لا نعيش في الفراغ، لدينا أماكن يجب أن نتواجد فيها، علينا أن نزور طبيب الأسنان غدًا، لدينا أصدقاء مدعوون إلى العشاء.

نظرت إلى حذائي. لم أكن في عجلة من أمري، لم أضطر قطّ إلى أن أكون في مكان محدد في وقت محدّد. أترك الزمن يراقبني، لا أراقبه أنا. علاوة على ذلك - هناك طرق مختلفة لكسب لقمة العيش، لكن هاكَ بعد كامل آخر للتوظيف انفتح أمامنا، لعلّه توظيف المستقبل، توظيف لعله سيدرأ البطالة والإنتاج المفرط للهدر، تنحَّ جانبًا، احصل على أجرك اليومي بمجرد البقاء في فندق، تناول بعض القهوة في الصباح وإفطارًا من بوفيه مفتوح، استغل تلك التشكيلة الواسعة من أصناف الزبادي على طاولة المقبلات المتنوعة. لِم لا؟ نهضتُ واتجهت إلى المُضيفة العصبيّة. ثم نهضت امرأة أخرى كانت تجلس إلى جواري وجاءت بدورها.

قالت: «لِمَ لا؟».

لسوء الحظ، طارت حقائبنا من دوننا. أخذتنا حافلة مكوكية إلى الفندق، حيث أعطيت لنا غرفتان متجاورتان صغيرتان ومريحتان. لم تكن معنا حقائب تفرغها، فقط فرشاة أسنان وزوجان من الملابس الداخلية النظيفة - كنا على الكفاف. إضافة إلى كريم للوجه وكتاب كبير، كتاب تشويق. ومفكرة. سيكون أمامي وقت كاف لتدوين ملاحظات عن كل شيء، لوصف المرأة: طويلة القامة، جميلة القوام، وركاها عريضان بعض الشيء، يداها رقيقتان. شعرها المموج الكثيف مربوط كذيل حصان، لكنه جامح، وخصلاتٌ منه تهفهف فوق رأسها مثل هالة فضية - شعرها رمادي بالكامل. لكنها تمتلك وجها منمّشًا، مشرقًا، شابًا. لا بد أنها سويدية. السويديات يَمُلن إلى صبغ شعورهن.

اتفقنا على اللقاء في الطابق السفلي، في البار، ذلك المساء، بعد أن نأخذ حمامًا فاخرًا ونُلقي نظرة على القنوات المختلفة في التلفزيون.

طلبنا نبيذًا أبيض، وبعد التمهيدات المهذبة، بما في ذلك «أسئلة السفر الثلاثة»، انتقلنا إلى موضوعات أكثر أهمية. بدأت أنا بإخبارها قليلًا عن تِرحالاتي، لكن وأنا أتكلم خامرني انطباع أنها تنصت من باب التهذيب. وجعلني هذا أفقد الدافع، إذ قدّرت أن لديها قصّة أكثر إثارة، فأعطيتها الكلمة.

كانت تجمع الأدلة، هكذا قالت، بل وحصلت على منحة لذلك من الاتحاد الأوروبي، ولو أنها لا تغطي أسفارها، لذا كان عليها الاقتراض من والدها - الذي تُوفي بعد ذلك. أزاحت خصلة صغيرة ملفوفة من الشعر الرمادي من على جبهتها (قررت يقينًا أنها في الخامسة والأربعين على أقصى تقدير)، وطلبنا سَلَطة مقابل إيصالي رحلتنا، الخيار الوحيد المتاح مقابل الإيصال كان سَلَطة «نِسواز». كانت تزرُّ عينيها وهي تتكلم، ما أضفى على كلماتها مسحة تهكميّة، ولعل ذلك منعني، في الدقائق الأولى، من تحديد إن كانت جادة أم لا. قالت إن العالم يبدو من النظرة الأولى شديد التنوع. أينما حللت وجدت أنواعًا مختلفة من البشر، ثقافات مختلفة، مُدنًا شيدت وفقًا لعادة محلية، باستخدام مواد مختلفة، أسقف مختلفة ونوافذ مختلفة وباحات مختلفة. هنا طَعَنَت قطعة من جبن الفيتا بشوكتها وراحت تُدورها في الهواء.

قالت: «لكن لا تنخدعي بالتنوع، فهو سطحي، محض خداع بصري. في الحقيقة، كل الأماكن متشابهة. في ما يخص الحيوانات. في ما يخص كيفية تعاملنا مع الحيوانات».

بهدوء، وكأنها تُكرر محاضرة حفظتها عن ظهر قلب، بدأت تُعدد: الكلاب مشدودة بسلاسل في الشمس القائظة، تتلهف على شربة ماء - جِراء مسلسلة بقوة حتى أنها عندما تبلغ من العمر شهرين تكون عاجزة حتى عن المشي؛ النعاج تلد في الحقول، في الشتاء في

الثلج، وكل ما يفعله المزارعون هو تأمين عربات كبيرة لشحن الحِملان المتجمدة؛ سرطانات البحر تحفظ في أحواض المطاعم حتى يستطيع الزبون أن يحكم عليها بنقرة من سبابته، بالموت سلقًا، بينما تُربّي مطاعم أخرى الكلاب في مستودعاتها - لحم الكلاب يعيد الفحولة، في نهاية المطاف؛ الدجاجات في أقفاص تُعرَّف بعدد البيض الذي تضعه، تُحقّز بكيماويات طوال حيواتها القصيرة؛ الناس ينظمون مصارعات للكلاب؛ الرئيسيّات تُحقن بالأمراض؛ مستحضرات التجميل تُجرّب على الأرانب، معاطف الفراء تصنع من أجنة الخراف - وقالت كل ذلك من دون أن يطرف لها جفن، وهي تُقحم حبات الزيتون في فمها.

قلت: «لا، لا. لا أستطيع سماع هذا الكلام».

وهكذا أنزَلَت حقيبتها، المصنوعة من مِزَق القماش، عن ظهر كرسيها، وأخرجت من داخلها ملفًا من أوراق مصورة على الطابعة ومغلفة بالبلاستيك. ناولتني إياها من فوق الطاولة الصغيرة. تصفحتُ الصفحات الغامقة بتردد، كان النص على عمودين، مثلما في الإنسيكلوبيديا أو الكتاب المقدس، مطبوعات صغيرة، هوامش. «تقارير عن العار»، وعنوان موقعها الإلكتروني. ألقي نظرة فعرفت على الفور أنني لن أقرأ أيًّا من هذا. مع ذلك، دسست المادة في حقيبة ظهري.

قالت: «هذا ما أفعله».

ثم، على زجاجة نبيذنا الثانية، أخبرتني عن المرة التي أصيبت فيها بدوار المرتفعات أثناء رحلة لها إلى التِبت وكادت تموت. ثم عالجتها امرأة محلية كانت تضرب الطبل وتمزج مستحضراتها العشبيّة.

كان كلامنا حرًا ذلك المساء، لسانانا -اللذان كانا مشتاقين للجمل الطويلة والحكايات- شحَّمهما النبيذ الأبيض، وذهبنا إلى الفراش متأخرًا.

في الصباح التالي على الإفطار في فندقنا، مالت ألكسندرا -كان ذلك اسم المرأة الغاضبة- على الكرواسون وقالت:

«عندما تنظرين إلى الحيوان، تستطيعين رؤية الرب. كل يوم يُضحّي الرب بنفسه من أجلنا، يموت مرة بعد مرة، يُطعمنا بجسده، يكسونا بجلده، يسمح لنا أن نختبر عقاقيرنا عليه لكي نعيش حياة أطول وأفضل. هكذا يظهر محبته، ينعم علينا بصداقته وحُبّه».

تجمدتُ، محدّقة في فمها، وقد تحرّكت مشاعري، لا لهذا الكشف، وإنما للنبرة التي قيل بها - نبرة رائقة هادئة. وللسكين الذي كان يلتمع وهو يفرد طبقات الزبد على الدواخل المنفوشة لقطعة الكرواسون في يدها رائحًا غاديًا، بمنهجيّة، بعناد.

«بإمكانك أن تجدي الدليل في "خنت"».

أخرجت بطاقة بريدية من حقيبتها المُرقّعة ورَمَتها على صحني.

تناولتها وحاولتُ استخلاص معنىً ما وسط التفاصيل الوفيرة؛ لكن لعلي كنت بحاجة إلى نظارة مكبرة.

قالت ألكسندرا: «أي شخص يستطيع أن يرى ذلك. في وسط المدينة ثمة كاتدرائية، وهناك، على المذبح، سترين لوحة جميلة هائلة. فيها حقول، سهل أخضر في مكان ما خارج المدينة، وفي تلك المرجة ثمة منصّة عادية. هنا تحديدًا»، وأشارت بسن سكينها. «ها هو "الحيوان"، في هيئة حَمَل أبيض، متعالٍ».

تعرّفتُ فعلًا على اللوحة. كنت قد رأيتها عدة مرات في نسخ مختلفة. «تبتُّلٌ للحَمَل الروحاني».

«لقد اكتشفوا هويته الحقيقة - هيئته النورانية تجذب الأحداق، تجعل الرؤوس تنحني أمام الجلال الرباني»، قالتها وهي تشير إلى الحَمَل بسكينها. «ويمكنك رؤية كيف يَظهر، في كل مكان تقريبًا، موكب يتدفق باتجاهه. هؤلاء أناس يتوافدون لتقديم التحيّة والاحترام، للتمعن في هذا الرب الأكثر تواضعًا، الأكثر تعرضًا للإهانة. هنا، انظري كيف يَحِجُّ إليه حكام البلاد، الأباطرة والملوك، الكنائس، البرلمانات الأحزاب السياسية، الطوائف؛ ثمة أمهات وأطفال، عجائز وفتيات مراهقات...».

سألتها: «لماذا تفعلين هذا؟».

أجابت: «لأسباب واضحة. أريد أن أكتب مؤلفًا جامعًا مانعًا لا يغفل أي جريمة، منذ فجر العالم إلى زمننا هذا. سيكون ذلك المُؤلَّف اعتراف الإنسانية».

كانت قد جمعت بالفعل مقتطفات من الأدب الإغريقي.

كُتُب إرشادية

وصف الشيء يشبه استخدامه - له أثر مدمر؛ الألوان ذَبلت، حُدود الزوايا تغَيم، وفي النهاية يبدأ الموصوف في التلاشي، في الاختفاء. وينطبق هذا في المقام الأول على الأماكن. لقد حَلّ خراب هائل بسبب أدبيات السَفر - آفة حقيقية، وباء الكتب الإرشادية أفسدت الشطر الأكبر من الكوكب بشكل حاسم؛ تلك الكتب التي تصدر في طبعات متعددة، بملايين النسخ، بمختلف اللغات، أوهنَت الأماكن، ثبتتها بالكلمات والأسماء، أغبشت معالمها، حتى أنا، في سذاجة شبابي، جرّبتُ وصف الأماكن. لكن عندما كنت أرجع إلى تلك الأوصاف لاحقًا، عندما كنت أحاول أن أسحب نفسًا عميقًا وأسمح لحضورها المكثف أن يُمسك بخناقي مجددًا، عندما كنت أحاول الإنصات لهمهماتها، كنت أشعر دائمًا بالصدمة. الحقيقة مرعبة: الوصف تدميرٌ.

ولهذا عليك توخّي بالغ الحذر. الأفضل ألا تستخدم الأسماء: تجنّب، اخفِ، احترز احترازًا كبيرًا في كشف العناوين، لكي لا تُشجع أي شخص آخر على أن يقوم بحِجّته الخاصة. في نهاية المطاف، ماذا سيجدون هناك؟ مكان ميت، تراب، مثل قلب التفاحة الجاف. كتاب «المتلازمات السريرية» (سالف الذكر) يحتوي كذلك على ما يُسمى «متلازمة باريس»، التي تُصيب غالبًا السياح اليابانيين الذين يزورون باريس. ومن سماتها الشعور بالصدمة وبعدد من الأعراض الجسمانية مثل قصر النَّفَس، وخفقان القلب، والتعرق، والتهيج. في بعض الأحيان تَظهر هلوسات. ثم تُوصف المهدئات، ويُوصى بالعودة إلى الديار. ويمكن تفسير مثل هذه الاضطرابات بالتباين بين توقعات الحُجاج وحقيقة باريس، التي لا تمتُّ بصلة للمدينة الموصوفة في الكتب الإرشادية، والأفلام، والتلفزيون.

أثينا الجديدة

ما من كتاب يتقادم بتلك السرعة مثل الكتاب الإرشادي، وهذه- في واقع الأمر نعمة لصناعة الكتب الإرشادية. في أسفاري الخاصة ظللتُ مُخلِصة لكتابين أرجع إليهما أكثر من غيرهما، بالرغم من غمرهما، لأنهما كُتِبا بعاطفة حقيقية، ورغبة صادقة لتصوير العالم.

الكتاب الأول وُضع في بولندا في أوائل القرن الثامن عشر. في الفترة نفسها تقريبًا، لعل مقالات أخرى كتبت في «غرب التنوير» حازت نجاحًا أكبر، لكن لا شيء منها يضاهي هذا الكتاب في سحره. مؤلفه كاهن كاثوليكي اسمه «بندكت شميلوفسكي» المنحدر من «فولينيا» (وهو الآن إقليم تتشارك فيه بولندا، وأوكرانيا، وبيلاروسيا). كان أشبه بـ«يوسفوس» مسربلًا في ضباب ريفي. «هيرودوت» في أبعد أصقاع العالم[8] أظنه كان يعاني من المتلازمة نفسها التي كنت أعاني منها رغم أنه، على عكسي، لم يغادر وطنه قَطّ.

في فصلِ ذي عنوان مطوّل هو «عن غرباء وأعاجيب العالم: أي الأنينسيفالوس، بمعنى عديم الرأس، أو السينوسيفالوس، بمعني كلبي الرأس؛ وعن غيرهم من أصحاب الأشكال العجيبة»، يكتب قائلًا:

> ... ثمة أمة معروفة بال-«بليماي»، يسمّيها إيسيدورس «ليمنيوس»، حيث الرجال على شاكلة بني جنسنا، لكنهم لا يملكون رؤوسًا، وإنما مجرد وجوه في وسط صدورهم... بينما لا يكتفي «بليني الأكبر»، ذلك الباحث العظيم في العالم الطبيعي، بتأكيد الرأي الخاص بشعب ال-«**أسيفالي**»، أي عديمي الرؤوس، بل يحدّد أيضًا أقاربهم المقرّبين، ال-«تروغلودايت»، في إثيوبيا، وهو بلد يسكنه سود البشرة. ويستقي هؤلاء المؤلفون قدرًا كبيرًا من هذه المعرفة من كتاب «مُومينتيوم» **Momentum** ل-«سان أوغسطين»، وهو «**أوكولاتس تيستاي**» [أي شاهد عيان] في ما يخص الترحالات في ذلك البلد (كونه أسقفًا ل-«هيبو الإفريقية» ظل فيها ولم يبارحها من وقتها) وغَرَس **سيمينا** [بذور] الديانة المسيحية المقدسة، كما يَذكر بوضوح في خطبته «موعظة في الإريمو» [في الصحراء] الموجهة للأخوية الأوغسطينيّة، التي أسسها بنفسه: «... كنتُ أسقفًا لهيبو، عندما ذهبت إلى إثيوبيا مع ثلة من خُدّام المسيح هناك لأبشر ببشارة الرب. في هذا البلد رأينا الكثير من الرجال والنساء بلا رؤوس، ممن لديهم عينان هائلتان في صدورهم؛ بينما يشبهوننا في بقية جوارحنا...». ويكتب

سولينوس، هذا المؤلف الذي اعتمدنا عليه كثيرًا بالفعل، أن في الجبال الهندية ثمة أناس لهم رؤوس وأصوات كلاب، أي أنهم ينبحون. ويؤكد ماركو بولو، الذي استكشف الهند، أن في جزيرة «أنغامين» ثمة شعبًا لهم رؤوس كلاب وأسنان كلاب: وهذا مدعوم بكلام «أودوريكوس أيليانوس»، الذي ينسب هذا الشعب إلى الصحاري وإلى «غابات مصر». هؤلاء الوحوش البشريّة يُسقيهم بليني «سينانولوغوس»، بينما «أولوس جيليوس» و«إسيدونوس» يسميانهم «سينوسيفالوس»، أي الرؤوس الكلبيّة... ويعترف الأمير «ميكوواي رادزيفيو» في كتابه «ارتحالات» Peregrinations (الرسالة الثالثة) أنه جلب معه اثنين من ال«سينوسيفالوس»، بمعنى شخصين برؤوس كلبيّة، وأنه وردهما بعد ذلك إلى أوروبا.

تُنَدّم أوريتور كويستيو [وهذا في النهاية يطرح السؤال]: هل هؤلاء الأشخاص المتوحشون قادرون على نيل الخلاص؟

يجيب سان أوغسطين، كاهن هيبو، أن الرجل، حيثما كان مولده، طالما أنه يظل صالحًا، وحكيمًا، ويمتلك الحكمة في روحه، حتى إن شذّ عنا في الشكل، أو اللون، أو الصوت، أو الهيئة، فقد انحَدر حتمًا من السلف الأعلى، آدم، ومن ثم فهو قادر على نيل الخلاص.

والكتاب الآخر هو «موبي ديك» لملفيل.

مع ذلك، فإذا تصفحت «ويكيبيديا» من آنٍ لآخر، سيكون ذلك أيضًا كافيًا تمامًا.

ويكيبيديا

بحسب علمي، هذا هو أصدق مشروعات الإنسان المعرفية، إنه نزيه في اعترافه بأن كل ما لدينا من معلومات حول العالم يأتي مباشرة من رؤوسنا، مثلما أتت أثينا من رأس زيوس. الناس يجلبون لويكيبيديا كل شيء يعرفونه. إذا نجح المشروع لأصبحت هذه الإنسيكلوبيديا، التي تخضع لتجديد دائم لا يتوقف، أعظم أعاجيب العالم. بداخلها تجد كل شيء نعرفه - كل شيء، كل تعريف، كل حدث، وكل مشكلة حاول عقلنا حلها؛ سنذكر مصادر، وتقدّم روابط. وهكذا سنبدأ في نسج نسختنا من العالم، وسيمكننا أن نُصِرّ الكوكب في قصتنا الخاصة. نسخة ستضم كل شيء. لنبدأ العمل! ليكتب كل منا ولو جملة واحدة عن الشيء الذي يعرفه حق المعرفة أيًّا كان.

أحيانًا أشك أنه سينجح. في نهاية المطاف، لا تشتمل الموسوعة إلا على ما نستطيع صياغته في كلمات - ما نملك كلمات له. وبهذا المعنى، لن تستطيع أن تضم كل شيء على الإطلاق.

علينا أن نحظى بتجميع آخر للمعارف، ثم، نوازنهما معًا - مقلوبها، بطانتها الداخلية، كل شيء لا نعرفه، كل الأشياء التي لا يمكن القبض عليها في أي فهرس، التي لا يمكن معالجتها بأي محرك بحثي. إذ لا يمكن لتلك المحتويات الشاسعة أن تغير من كلمة إلى كلمة - عليك أن تخطو بين الكلمات، إلى داخل المزالق المستغلقة بين الأفكار. وفي كل خطوة سننزلق ونسقط.

ولن يبدو أمامنا خيار إلا الغوص أعمق فأعمق.

المادة والمادة الضدّ.

المعلومات والمعلومات الضدّ.

يا مواطني العالم أمسكوا الأقلام!

ياسمين، المرأة المسلمة اللطيفة التي قضيتُ أمسية بأكملها أتكلم معها، كانت تُخبرني عن مشروعها: أرادت تشجيع كل شخص في بلدها على كتابة كتب. كانت قد لاحظت أنك لا تحتاج إلى الكثير لكي تكتُب كتابًا - فقط قليل من وقت الفراغ بعد ساعات العمل، وحتى من دون كمبيوتر. أي شخص يمتلك هذه الجرأة قد ينتهي بكتابة عمل يدرج ضمن الأكثر مبيعًا - ثم ستكافأ جهوده بالترقي الاجتماعي. قالت إنها الوسيلة الأفضل للخروج من الفقر. تنهدت وقالت: لو فقط يقرأ كل منا كتاب الآخر. كانت قد أسّست منتدىً على الإنترنت. ويبدو أنه اجتذب بالفعل عدة مئات من الأعضاء.

أحب فكرة أن يقرأ المرء الكتب كالتزام أخلاقي أخوي وأخواتي تجاه ناسه.

علم نفس السفر: Lectio Brevis I[9]

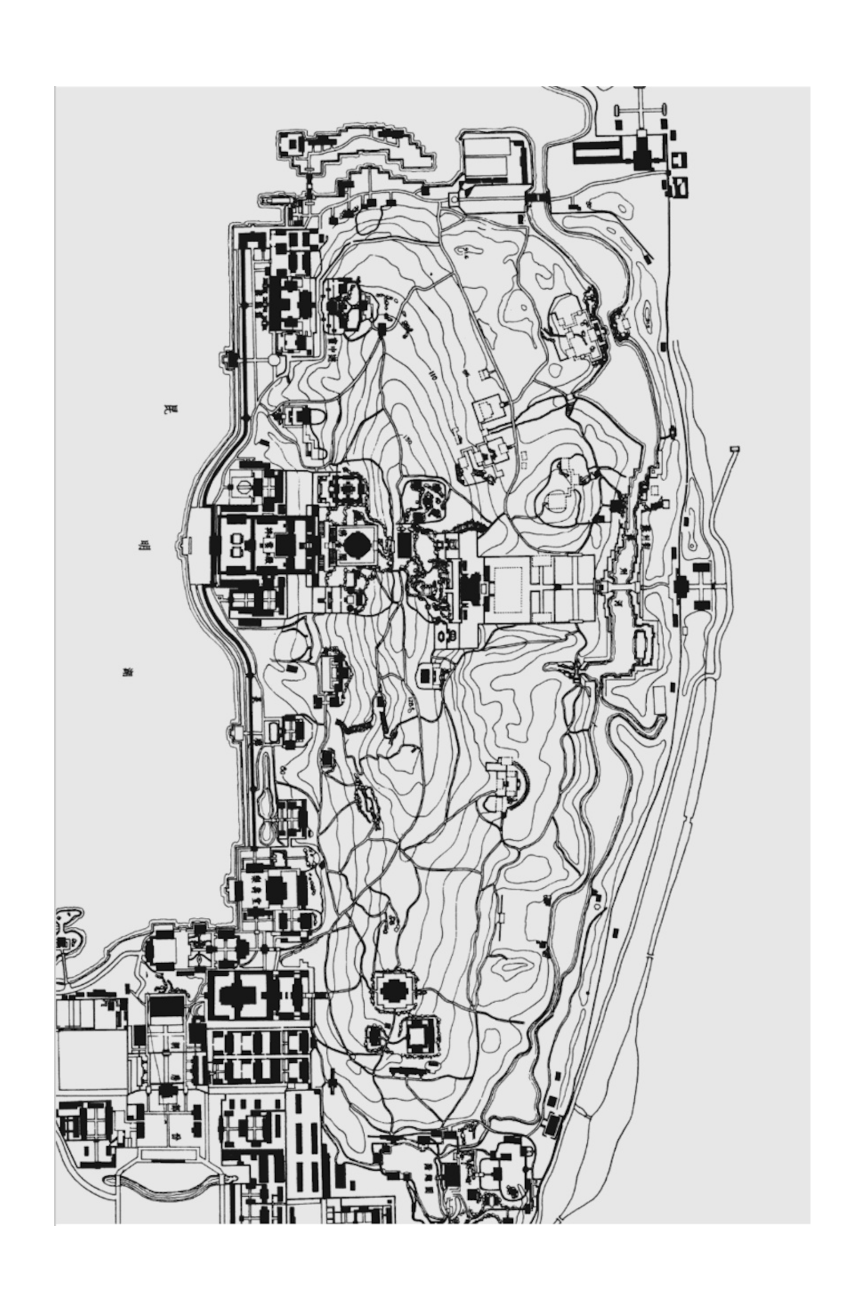
في المطارات، على مدار الأشهر القليلة الماضية، صادفتُ بعض الباحثين الذين، وسط جلبة السفر، بين إعلانات المغادرة ونداءات الركوب، ينظمون محاضرات صغيرة. شرح لي أحدهم أن ذلك جزء من برنامج تواصل تعليمي على مستوى العالم (أو ربما على مستوى الاتحاد الأوروبي). وهكذا، عند نقطة ما قررتُ أن أطيل البقاء قليلًا لأشاهد الشاشة في منطقة الانتظار والمجموعة الصغيرة من المستمعين الفضوليين.

«سيداتي وسادتي»، هكذا بدأت امرأة شابة، وهي تُسوّي وشاحها الملوّن بقدر من العصبية، بينما انشغل زميلها، رجل في سترة من التويد برقعتين جلديّتين عند المرفقين، في تجهيز الشاشة المعلقة على الجدار. علم نفس السفر يَدرس الناس في المعابر، الأشخاص في حالة الحركة، ومن ثم فهو يضع نفسه على طرفي نقيض مع علم النفس التقليدي، الذي يستقصي الإنسان في سياق ثابت، في الاستقرار والسكون - مثلًا، عبر منشور التركيب البيولوجي له أو لها، العلاقات الأسرية المواقف الاجتماعية، وهكذا. في علم نفس السفر، تصبح هذه العوامل ذات أهمية ثانوية، لا أولية.

«إذا أردنا فهرسة البشرية بطريقة مقنعة، لا يمكننا أن نفعل ذلك إلا بوضع الناس في حركة من نوع ما، وهم ينتقلون من مكان صوب آخر. إذ إن الظهور المتكرر للكثير والكثير من التوصيفات غير المقنعة للشخص المستقر، الثابت، يجعلنا نعيد النظر في إمكانية فهم الذات بمعزل عن علاقاتها.

ونتيجة لذلك، سادت لبعض الوقت أصوات في علم نفس السفر تزعم أنه ما من علم نفس آخر ممكن إلا علم نفس السفر».

تململَت كتلة المستمعين الصغيرة. كانت مجموعة صاخبة من رجال طوال القامة مزينين بالأوشحة الملونة لفريقهم الرياضي - قبيلة من المشجعين. قد مرت بجوارنا لتوها. في الوقت نفسه، ظل أشخاص آخرون ينضمون إلينا، وقد لَفَتت انتباههم الشاشة على الجدار والكراسي المصفوفة في صفين. يجلسون للحظات في طريقهم بين البوابات أو بين التسكع في متاجر المطار، يبدو على وجوههم الإرهاق والتوهان في الزمن: تنظر إليهم فتعرف أنهم لا يريدون إلا غَفوَة قصيرة، ولا بد أنهم لم ينتبهوا إلى قاعة الانتظار عند الناصية التالية، قاعة مريحة مجهزة بكراس وثيرة تستطيع النوم فيها، كان عدد من المسافرين قد نهض عندما بدأت المرأة في الكلام. وكان شاب وفتاة، يافعان للغاية، يقفان متشابكين في حُضن، يُنصتان بانتباه نشوان بينما يمسّد كلاهما ظهر الآخر برقة.



توقفت المرأة قليلًا، ثم بدأت من جديد: «أحد المفاهيم الأساسية في علم نفس السفر هو الرغبة، فهي التي تُضفي على البشر الحركة والاتجاه، وتثير فيهم نزوعًا نحو شيء ما. الرغبة في حد ذاتها فارغة، بعبارة أخرى هي فقط تُعيّن الاتجاه، لكنها لا تُعيّن المقصَد؛ فالمقاصد، في جميع الأحوال، لها طبيعة إيهاميّة وغير واضحة؛ كلما اقتربت منها أكثر، ازدادت إلغازًا. ما من وسيلة لإدراك مقصَدٍ معينٍ حقًا، ومن ثم فما من وسيلة لإشباع الرغبة. عملية المجاهدة هذه موجزة بأفضل ما يكون في كلمة (صوب). صوب ماذا؟».

هنا نظرت المرأة من فوق نظارتها وجالت ببصرها وسط الجمهور، وكأنها تنتظر أي تأكيد أنها تخاطب المجموعة الصحيحة من الناس. لم يعجب هذا الزوجين رفقة الطفلين في عربة اليد، فتبادلا النظرات ثم دفعا حقائبهما إلى الأمام، متجهين لإلقاء نظرة على لوحة مقلدة لرامبرانت.

تابعت المرأة قولها: «علم نفس السفر لم يقطع كل الصلات مع علم النفس التحليلي...»، وشعرت فجأة بالأسف لهذين المحاضرين الشابين. كانا يتحدثان لأناس انتهوا إلى هنا بالصدفة ولا يبدو أنهم مهتمين على وجه الخصوص بما يُقال. توجهت إلى آلة البيع لأحصل على كوب من القهوة، وأضفتُ مكعبي سكر، في محاولة لإنعاش نفسي، ولدى عودتي، كان الرجل هو من يتحدث.

كان يقول: «... فكرة تأسيسيّة، تركيباتية، والحُجة الأولى لعلم نفس السفر: في الحياة، على خلاف الدراسة (وإن كانت المادة العلمية كثيرًا ما تثقل من أجل النظام)، ما من فلسفة مثلى. هذا يعني أنه من المستحيل بناء مَسار محاجة منسقة قائمة على السبب والنتيجة أو سرديّة تتتالى أحداثها وتستتبع بعضها بعضًا على نحو منطقي سفسطائي. لن يكون هذا إلا تقديرًا تقريبيًا، مثلما يعطينا التقدير التقريبي للأرض شبكة من خطوط الطول والعرض. بينما على أرض الواقع، لكي نعكس خبرتنا على نحو أكثر دقة، يكون علينا، عوضًا عن ذلك، تجميع صورة متكاملة، من أجزاء متماثلة الأحجام على نحو أو آخر، موضوعة في دوائر متحدة المركز على السطح نفسه. التركيب، لا التتابع، هو الذي يحمل الحقيقة. لهذا السبب يستبصر علم نفس السفر الإنسان وسط مواقف متماثلة الرُجحان، من دون محاولة إضفاء أي نوع من الاستمرارية - ولو تقريبية. الحياة الإنسانية تتألف من مواقف. هناك، بالطبع، قدر من النزوع تجاه تكرار السلوكيات. بيد أن هذا التكرار لا يعني أن نُسلّم خيالنا للمظاهر، وننخدع بوجود كل مُتَّسِق من أي نوع».

نظر الرجل من فوق نظارته إلى مستمعيه، متوترًا راغبًا بلا شك في التيقن مما إذا كانوا ينصتون إليه حقا. كنا ننصِت، بانتباه.

في تلك اللحظة مرّت بنا مجموعة من المسافرين بصحبة أطفال وهم يركضون؛ لا بدّ أنهم كانوا متأخرين عن رحلتهم التكميلية. شتت هذا انتباهنا قليلًا، نظرنا للحظة إلى وجوههم

الحمراء المتوردة، إلى قبعاتهم القش وتذكاراتهم من طبول وأقنعة وقلادات صدفية. تنحنح الرجل بضع مرات ليعيدنا إلى النظام، مجففًا الهواء في رئتيه، لكنه ما إن نظر إلينا مجددًا حتى أطلق الأنفاس المحبوسة ثانية وظل صامتًا. قَلَب بضع صفحات من ملاحظاته وقال أخيرًا:

«التاريخ. الآن بضع كلمات عن تاريخ هذا المجال. لقد تطور في السنوات التالية على الحرب في الخمسينيات من علم نفس خطوط الطيران، الذي نشأ مقترنًا مع تزايد عدد ركاب الطائرات. في البداية كان يتعامل مع مشكلات محددة مرتبطة بحركة الراكب - وظائف الفرق الخاصة في حالات الطوارئ، والديناميات السيكولوجية للرحلات الجوية - ثم وسّع نطاق اهتمامه في اتجاه تنظيم المطارات والفنادق، وتخصيص الفضاءات الجديدة، والأوجه متعددة الثقافات للسفر. ومع الوقت تفرّع إلى تخصصات متمايزة، مثل علم النفس الجغرافي، وعلم النفس الطبوغرافي. ثم نشأت فروع سريرية...».

توقفت عن الإنصات. كانت المحاضرة طويلة جدًا. كان عليهم أن يقسموها إلى جرعات أصغر حجمًا.

عوضًا عن ذلك، رحت أراقب رجلًا بعينه، رث الثياب، مشعث بالكامل، لا بدّ أنه في وسط رحلة طويلة. كان قد عَثر على مظلة سوداء تركها شخص ما وراح يتفحصها. لكنه اكتشف أن المظلة غير قابلة للاستخدام. كانت أسلاكها مكسورة، والغطاء الأسود لا يُفرَد. لدهشتي، بدأ الرجل يفكك غطاء المظلة بعناية من القضبان والقطع الطرفية، ما استغرق بعض الوقت. كان يفعل ذلك بتركيز كامل، واقفًا من دون حراك وسط سيل متدفق من المسافرين. عندما انتهى، طوى قطعة القماش في مكعب، ووضعها في جيبه، ثم اختفى وسط تيار البشر.

استدرتُ عندها، ومضيتُ مثله في طريقي.

الوقت المناسب والمكان المناسب

يؤمن كثيرون بأن النظام الإحداثي للعالم يحوي نقطة مثالية يصل فيها الزمن والفضاء إلى اتفاق. بل ولعل هذا ما يجعل أولئك الناس يقبلون على السفر، تاركين ديارهم، على أمل أن يرفعوا، ولو بمجرد التجوال في أرجاء العالم على نحو فوضوي، من احتمالية مصادفة هذه النقطة. الهبوط في الوقت المناسب في المكان المناسب -اقتناص الفرصة، القبض على اللحظة ومنعها من الإفلات سيعني أن شفرة الخزانة قد كُسرت، التسلسل الرقمي انكشف، الحقيقة ظهرت. لا مزيد من التجاهل، لا مزيد من الإبحار عبر الصُدف، والحوادث، ومنعطفات القدر. ليس عليك أن تفعل أي شيء عليك فقط أن تظهر، أن تُسجل دخولك إلى هذا «التموضع» بالذات، تموضع الزمن والمكان. هناك ستجد حبك الكبير، أو سعادتك، أو تذكرة يانصيب رابحة، أو حل اللغز الذي يَقتل الجميعُ أنفسهم عبثًا طوال تلك السنين بحثًا عنه، أو الموت. بل وأحيانًا، في الصباح، يُخامر المرء انطباع بأن هذه اللحظة صارت قريبة، أن اليوم قد يكون يومها.

تعليمات

حلمت بأنني أتصفح مجلة أمريكية تحتوي على صُور لبِرَك ومسابح. رأيت كل شيء، كل تفصيلة. كانت الحروف (أ)، و(ب)، و(ج) تصف بدقة كل عنصر في الخرائط والمخططات. وبدأت بلهفة في قراءة مقالة عنوانها: «كيف تبني محيطًا: تعليمات».

مهرجان أربعاء الرماد

«ناديني إيريك»، هكذا سيعلن بدلًا من التحية وهو يدخل البار الصغير، الذي لم يكن يدفئه في هذا الوقت من العام إلا الخشب في المدفأة، وسيبتسم له الجميع بطريقة ودودة، بل وسيشير له البعض بإيماءة من أيديهم تعني ببساطة «اجذب مقعدًا واجلس معنا». فإجمالًا، كان نديمًا جيدًا وبالرغم من غرابة أطواره- محبوبًا. في البداية، قبل أن يشرب كفايته، سيجلس في الزاوية بسحنة متجهمة، بعيدًا عن دفء المدفأة. بإمكانه أن يتحمل ذلك- بنيته قوية، لديه حَصانة ضد البرد، يستطيع إبقاء نفسه دافئًا.

«جزيرة»، هكذا سيشرع في القول، وكأنه يتنهد لنفسه، إنما بصوت عال ليسمع الأخرين، محفّزًا إياهم وهو يطلب أول كوب بيرة عملاق. «يا لها من حالة ذهنية بائسة. شَرَج العالم».

بدا أن الآخرين في البار لم يفهموا مقصده، لكنهم سيقهقهون وكأنهم يعرفون.

سيصيحون، ووجوههم متوردة من النار والكحول: «إيه، إيريك، متى تذهب لصيد الحيتان؟».

استجابة لهم سيسترسل إيريك في شتائم قبيحة معقدة، شِعر خالص، لا يشبه أي شِعرٍ آخر - كان هذا جزءًا من الطقس الليلي. إذ كانت كل الأيام تمضي مثل عبارة تسير بحذاء جبالها، من شط إلى شط، مارّة في طريقها بتلك العوّامات الحمراء نفسها، التي تضطلع بمهمة كسر احتكار المياه للرحابة، وجعلها قابلة للقياس، وبذلك، تُعطي انطباعًا زائفًا بالتحكم والسيطرة.

بعد بيرة أخرى يصبح إيريك مستعدًا لمجالسة الآخرين، وهو ما يفعله عادة، وإن أصبح مزاجه، مؤخرًا، يميل إلى التعكر عندما يشرب. سيجلس هناك مكشرًا مستهزئًا. لم يعد يغزل حكاياته عن البحار البعيدة - لو عرفته لما يكفي لعرفت أنه لا يكرر أي حكاية، أو على الأقل- أن حكاياته تختلف كثيرًا في تفاصيلها. بيد أنه أصبح يهاجم الآخرين بوتيرة أكبر الآن، بدلًا من أن يحكي لهم القصص. إيريك الغاضب.

كذلك كانت ثمة أمسيات حيث يسقط في ما يشبه الغيبوبة، وفي الوقت نفسه يصير غير محتمل. وفي أكثر من مرة، كان هندريك، صاحب البار الصغير، يضطر إلى التدخل.

«اعتبروا أنفسكم بحّارة»، سيصرخ إيريك وهو يشير بإصبعه إلى كل شخص في الغرفة واحدًا بعد آخر. «كلكم وبلا استثناء، وأنني سأبحر بهذا الطاقم الكافر الذي لم تلده أم من بين

الإنسان، بل خرج من بطن البحر المتوحش! آه، يا للحياة! يحدث الأمر في ساعة كهذه، حيث تُقهر الروح وتعذب بالمعرفة. بينما هؤلاء المتوحشون الجهَّال، يأكلون بأيديهم وأسنانهم»[10].

سيسحبه هندريك جانبًا بلطف ويربت على ظهره بمودة، بينما سيضحك الزبائن الأصغر سنًا على خطبته الغريبة.

«اهدأ يا إيريك. لا تريد أن تصنع مشكلة، أليس كذلك»، هكذا سيخبره الزبائن الأكبر سنًا، الذين يعرفونه جيدًا، في محاولة لتهدئته، لكن إيريك لن يسمح لأحد بتهدئته.

«لا تحدثني عن الكفر. لأضربن الشمس ضربًا إن أهانتني».

وعندما يحدث ذلك، كان كل ما يمكن فعله هو الدعاء بألا يسيء إلى ضيف زائر، إذ لم يكن المحليون يستاؤون من إيريك. فماذا تنتظر منه، الآن وهو يجيل بصره في البار وكأنما من وراء ستارة بلاستيكية حليبية؛ نظرته الغائبة تقول إنه الآن يشق بحارَ ذاتِه، مرفوع الشراع. الآن، كل ما يمكن فعله هو الترفق به وإرساله إلى منزله.

«اسمعوا، إذًا، يا قساة القلوب»، ظل إيريك يهذي وهو يدسّ إصبعه في صدر أحدهم. «إنني أتحدث إليك أنت أيضًا».

«هيا يا إيريك. لنذهب».

«أنت طالع على متن السفينة، أليس كذلك؟ أسماء مكتوبة على أوراق؟ طيب، طيّب، المكتوب مكتوب؛ وما سيكون سيكون مع ذلك، فربما لن يكون، في نهاية المطاف...»، راح يدمدم وعاد من الباب إلى النضد طالبًا شرابًا أخيرًا. «جرعة الجرعات»، كما قال، وإن لم يفهم أحد ماذا يعني بذلك.

سيواصل إثارة الصخب حتى يقتنص أحدهم اللحظة المثالية ليشدّه من ذيل بدلته الرسمية ويجلسه حتى يصل التاكسي.

لكنه لم يكن مشاكسًا هكذا دومًا. في غالب الأحيان كان يغادر قبل أن يصل إلى هذه الحالة، إذ كان عليه أن يسير لأربعة كيلومترات - وكان يجد هذا المسير إلى البيت، كما أفضح من قبل، كريهًا بغيضًا. كانت مسيرة رتيبة، بطول طريق يمتد بين المراعي القديمة المكتظة بالحشائش الكثيفة والصنوبرات القزمة المنذرة بالشر. أحيانًا، عندما تكون الليلة صافية، كان يتبين حدود طاحونة رياح في البعيد، معطّلة منذ زمن بعيد، لا تصلح إلا كخلفية للسياح وهم يلتقطون صورًا لبعضهم بعضًا.

ستعمل التدفئة قبل نحو ساعة من عودته -أعدّها بهذه الطريقة لتوفير الكهرباء. لذا فإن سحابات من البرد -الرطب، المتشرّب بملح البحر. لا تزال تحلق في ظلمة الغرفتين.

كان يلتزم بتناول الطبق البسيط الوحيد نفسه، الشيء الوحيد الذي لم يمل منه بعدّ: شرائح رفيعة من البطاطس، موضوعًا وسط طبقات من لحم الخنزير المقدد والبصل، مطهوّة في قدر من الحديد الزهر. مرشوش عليها المردقوش والفلفل، مملحة بسخاء. الوجبة المثالية، النسب الغذائية محسوبة بدقة: دهون، كربوهيدرات، نشويات، بروتين، وفيتامين (ج). مع العشاء سيشغل التلفزيون، ثم، لأنه يكره التلفزيون معظم الوقت، سيفتح زجاجة فودكا ويشربها غير مخلوطة، قبل أن يذهب إلى النوم أخيرًا.

يا له من مكان منبوذ، تلك الجزيرة. محشورة في الشمال وكأنما بداخل درج معتم؛ عاصفة ورطبة. السبب ما لا يزال الناس يعيشون هنا ولا ينوون الانتقال إلى المدن الدافئة الساطعة. يربضون فقط في منازلهم الخشبية الصغيرة المصفوفة بطول الطريق الذي يزداد ارتفاعه مع كل طبقة جديدة من الأسفلت، حاكمًا عليها بانحسار أبدي.

تستطيعون جميعًا المضيّ بحذاء ذلك الطريق، باتجاه المرفأ الصغير، المؤلف من عدة بنايات متهالكة، وكوخ بلاستيكي يبيع تذاكر العبارة، ومرسىً خائب - مهجور تقريبًا في هذا الوقت من العام. ربما في الصيف ستأتي بضعة يخوت حاملة سياحًا غريبي الأطوار ضجوا من كل الصخب المحيط بالمياه الجنوبية، ريفييرات، مياه لازوردية وشواطئ قائظة. ثم ناس مثلنا -ناسٌ متململون، نهمون لكل مغامرة جديدة، حقائب الظهر تعج بعبوات المعكرونة الرخيصة سريعة التحضير. قد ينتهي بهم الحال إلى هذا المكان الحزين بالصّدفة. ماذا سترى هنا؟ حافة العالم، حيث الزمن، منعكسًا على الساحل الخالي، يستديرُ محبطًا ويتجه صوب اليابسة تاركًا هذا المكان بلا شفقة لعنائه السرمدي. إذ فيم يختلف العام 1946 عن العام 1976 هنا، أو العام 1976 عن العام 2000؟

إيريك أطاحت به الأمواج إلى هنا بعد صنوف من المغامرات والبلايا. في البداية، منذ زمن طويل، فرّ من بلده، واحدة من تلك الأراضي الشيوعية الباهتة الماسخة، وكمهاجر شاب عُيّن للعمل على سفينة لصيد الحيتان. في ذلك الزمن، لم يكن في جعبته إلا بضع كلمات إنكليزية، نقاط متقطعة بين «نعم» و«لا»، لا تكفي إلا للإجابة عن الهمهمات البسيطة التي سيتبادلها الرجال على متن السفينة. «خُذ». «اسحب». «اقطع». «أسرع» و«بقوة». «امسك» و«اربط». «اللعنة». كفتهُ في البداية. وكفتهُ، أيضًا، لتغيير اسمه إلى اسم بسيط شائع: إيريك. للتخلص من تلك الجثة الثقيلة التي يجرجرها خلفه، والتي لا يعرف أحد كيف ينطقها نطقًا صحيحًا. وليرمي في المحيط ملفات الأوراق، والشهادات الدراسية، والدبلومات، ومستخرجات الدراسات الإضافية، وسجلات التطعيمات - لن تنفعه في شيء هنا قطّ، كل ما ستفعله هو أنها ستهين البحارة الآخرين، الذين تتكوّن سيرتهم الذاتية بأكملها

من بضع رحلات طويلة وبعض الشطحات في حانات الموانئ.

الحياة على متن سفينة انغماسٌ، لا في الماء المالح، ولا في الأمطار التي تهطل على البحار الشمالية، ولا حتى في أشعة الشمس، وإنما في الأدرينالين. لا وقت للتفكير، لا تأمل في اللبن المسكوب. كان البلد الذي جاء منه إيريك بعيدًا لا يصح وصفه بالبلد البحري، فليس له إلا منفذ صغير على المحيط. كان بلدًا يخجل من موانئه، ويفضل المدن المشرفة على الأنهار الآمنة التي تربطها الجسور. لم يشعر إيريك بأي اشتياق لذلك البلد مفضلًا حياته هنا كثيرًا عن الشمال. ظن أنه سيبحر لبضع سنوات، يدّخر بعض النقود، ثم يبتني لنفسه بيتًا خشبيًا، ويتزوج إيما أو أنغريد كتّانية الشعر، ينجب منها الأطفال، يصنع لأجلها سنانير للصيد، ينظف معها السمك المرقط. ويومًا ما سيكتب مذكراته عندما تكون مغامراته قد رتَّبت نفسها في رزمة جذابة بما يكفي. لم يعرف كيف تسابقت السنين تلو السنين، سالكةً طرقًا مختصرة عبر حياته - خفيفة، خاطفة، لا تُخلّف أثرًا، أقصى ما تركته هو سجلًا على جسده، على كبده تحديدًا، لكن ذلك جاء لاحقًا. في البداية، بعد رحلته الأولى، حدث وأن انتهى به الأمر في السجن - لأكثر من ثلاث سنوات عندما لفّق القبطان الشرير اتهامات لطاقمه بأكمله بتهريب السجائر وعبوة كبيرة من الكوكايين. لكن حتى في سجنه في ذلك البلد البعيد، ظل إيريك في دنيا المحيط والحيتان. في مكتبة السجن لم يكن هناك إلا كتاب واحد بالإنكليزية، تركه لا شك سجين آخر قبل سنوات. كان طبعة قديمة، من منعطف القرن، بصفحات قصيفة، مصفرة، تحمل آثار حياة يومية.

وهكذا، على مدار أكثر من ثلاث سنوات (التي لم تكن بأي حال عقوبة شديدة، باعتبار أن الجريمة نفسها كانت تعاقب على بعد مئة ميل بحري فقط بالإعدام شنقًا) أمّن إيريك لنفسه دروس لغة حرة في الإنكليزية المتقدمة، دورة تعليمية في الأدب وصيد الحيتان وعلم النفس والسفر كلها في كتاب مدرسي واحد. طريقة جيدة، خالية من الإلهاءات. في خمسة أشهر فحسب كان قادرًا على تلاوة مغامرات إسماعيل في فقرات حفظها عن ظهر قلب، على الحديث بصوت أهاب[11] الذي كان يجلب له بهجة خاصة، إذ كانت تلك طريقة التعبير الأكثر انسجامًا مع إيريك، تُناسبه مثل ملابس مريحة؛ ومن يهمه إن كانت غريبة وقديمة عفا عليها الزمن. ويا لها من ضربة حظ أن سقط هذا الكتاب بين يدي شخص كهذا في مكان كهذا. ظاهرة معروفة لاختصاصيي علم نفس السفر باسم «التزامن»، دليل على منطقية العالم. دليل على أنه وسط هذه الفوضى الجميلة تمتد خيوط من المعنى في كل اتجاه، شبكات من المنطق الغريب، كلها تحمل، إذا آمن الشخص بالرب، بصمات أصابعه الملتوية. وكان إيريك يرى الأمور على هذا النحو.

سريعا، إذا، في ذلك السجن البعيد، الغرائبي، حيث يصعب التنفس في الأمسيات بسبب الرطوبة الاستوائية، وحيث يلهب القلق والاشتياق العقل، سيغرق إيريك نفسه في القراءة،

ويصبح «عَلّامة كُتُب»، يصبح سعيدًا. في الحقيقة، ما كان له أن يجتاز سنوات سجنه من دون تلك الرواية. كان زملاؤه في الزنزانة -وهم أيضًا مهربون كثيرًا ما يسمعونه يقرأ بصوت عال فيخضعون بسرعة لسحر مغامرات صيادي الحيتان، ما كان المرء ليستعجب لو قابلهم بعد إطلاق سراحهم، فوجدهم ثقفوا أنفسهم أكثر في تاريخ صيد الحيتان، وكتبوا أطروحات عن الحربون والمعدات البحرية. والأكثر موهبة من بينهم قد يتوغلون أكثر وأكثر. تخصص في علم النفس السريري في مجال الصمود في مواجهة أي عقبات. وهكذا بدأ «بحّار جزر الأزور»، و«البحّار البرتغالي» وإيريك يتحدثون مع بعضهم البعض في عامية سِجنيَة خاصة بهم وحدهم. بل واستطاعوا بهذه الطريقة مناقشة الحرّاس الآسيويين الصغار.

«بحق الإله غوبيتر! أليس ظريفًا خفيف الروح!» هكذا سيصيح «بحّار جزر الأزور» عندما، على سبيل المثال، يهرّب أحد الحراس علبة سجائر رطبة إلى زنزانتهم.

«أقسم غير حانث، لدي الشعور نفسه بصورة أو بأخرى. لنمنحه بركتنا».

كان ذلك يُناسبهم، إذ كان كل زميل جديد في الزنزانة يفهم القليل في البداية، فيكون لهم بمثابة الأجنبي، ما يسمح لهم بالحفاظ على مظهر من مظهر الحياة الاجتماعية.

كانت لكل منهم سطوره المفضلة، يقرأها بصوت عال كل مساء، بينما ينهي الآخران جُمَلها في جوقة مشتركة.

لكن الموضوعات الأساسية لمحادثاتهم في لغتهم التي تزداد ترفعًا كانت البحر، وأسفارهم، ومغادرة البلاد، ومعاهدة أنفسهم على حياة الماء، الذي هو -كما قرروا بعد نقاش استمر لعدة أيام يشبه النقاشات الفلسفية قبل ظهور سقراط- أهم عنصر على سطح الأرض. كانوا يخططون المسارات التي سيسلكونها للإبحار إلى ديارهم، ويجهزون أنفسهم للمناظر التي سيرونها في الطريق، ويصيغون في عقولهم البرقيات التي سيرسلونها لعائلاتهم. كيف سيكسبون عيشهم؟ تجادلوا حول أفضل الأفكار، لكنهم كانوا ينتهون دائمًا إلى العودة للدوران حول الموضوع نفسه، وقد أصابتهم الحمى (وإن لم يعرفوا بعد)، أصابتهم عدواها؛ يُربكهم أشد الارتباك مجرد إمكانية وجود شيء مثل حوت أبيض. كانوا يعرفون أن ثمة بلدانًا لا تزال تصطاد الحيتان، ورغم أن هذا العمل أصبح أقل رومانسية من الأيام التي وصفها إسماعيل، كان من الصعب تصور أي شيء أفضل باعتبار ظروفهم الحالية. كانوا قد سمعوا أن اليابان بحاجة إلى رجال لصيد الحيتان، وكان التحول من أسماك القد والرنكة إلى الحيتان أشبه بالانتقال من الحرف اليدوية إلى الفنون الجميلة.

ثمانية وثلاثون شهرًا كانت كافية لتصور تفاصيل حيواتهم المستقبلية، حتى أدق الدقائق، نقطة بعد نقطة، ومناقشة كل نقطة مع زملائهم. لم تكن هناك نزاعات جدية.

كان إيريك يهدر قائلًا: «فلتحل لعنة السماء على السفن التجارية. لأنزعن ساقك من مؤخرتك إن تكلمت معي عن السفن التجارية مرة أخرى. زورٌ وبهتان؟ يا رجل، ما الذي يجعلك راغبًا في الذهاب إلى صيدات الحيتان، هه؟»

ويصرخ البحَّار البرتغالي: «وماذا رأيت من العالم؟».

«ليس البلطيق بغريب عني، ولقد أبحرتُ في طول بحر الشمال وعرضه. أحفظ ظروف الأطلسي مثلما أحفظ العروق على كفي...».

«أنت واثق من نفسك كثيرًا يا زميلي العزيز».

كان عليهم أن يقولوا شيئًا لبعضهم البعض.

عشر سنوات - هذا هو الزمن الذي استغرقه إيريك للعودة إلى دياره ثانية. ولا شك أنه كان أكثر حظًا في هذا الصدد من زملائه. اتخذ طريقًا مداورًا للعودة، عبر البحار الظرفية، أضيق المضايق وأوسع الخلجان. فما إن تبدأ مصبات الأنهار في الاختلاط بمياه البحار المفتوحة وما إن يسجل اسمه وسط طاقم سفينة متجهة إلى الديار، كانت فرصة جديدة تبرز فجأة، غالبًا في الاتجاه المعاكس تمامًا، ولو تردد للحظة، يصل أخيرًا إلى الاستنتاج بأن أصدق الحُجج هي حُجّة الأقدمين - الأرض مستديرة، فدعونا لا نتشبث كثيرًا بالأماكن، بالاتجاهات. وكان هذا أمرًا مفهومًا - بالنسبة لشخص من اللامكان، كل حركة تتحول إلى عودة حيث لا شيء يمارس جاذبية كهذه قَدْرَ الخواء.

أثناء تلك السنين عمل تحت رايات بنما، وأستراليا، وإندونيسيا. على سفينة شحن تشيلية نقل سيارات يابانية إلى الولايات المتحدة. على ناقلة نفط جنوب أفريقية. نجا من حُطام على ساحل ليبيريا. نقلَ عمّالًا من جزيرة جافا إلى سنغافورة. أصيب بالالتهاب الكبدي الوبائي وحُجز في المستشفى في القاهرة. بعد أن كسر ذراعه في شجار مخمورين في مارسيليا، توقف عن الشراب لبضعة أشهر، فقط ليعاود الشراب حتى يفقد وعيه في مالقا ويكسر ذراعه الأخرى.

لن نُسهب في التفاصيل. الالتواءات والانعطافات في أقدار إيريك في أعالي البحار ليست هي ما يهمنا هنا. دعونا نقفز إلى اللحظة التي وصل فيها أخيرًا إلى ساحل تلك الجزيرة التي صار يكرهها لاحقًا، وتوظيفه لتشغيل العبَّارة الصغيرة البدائية التي تتنقل بين الجزر. في هذه الوظيفة - المهينة، كما يصفها- فقد إيريك بعضًا من وزنه وأصبح أكثر شحوبًا. السمرة الداكنة التي كانت لديه من قبل اختفت إلى الأبد من وجهه، مخلّفة وراءها بقعًا سوداء. شعره شاب من عند السالفين، والتجاعيد جعلت نظرته ثاقبة أكثر، حادة أكثر. بعد هذا الاستهلال، الذي مثّل ضربة قوية لكبريائه، نُقل إلى مسار يتطلب المزيد من المسؤولية. الآن تصل

عبارته بين الجزيرة والبر الرئيسي، وما من حبل يقيد حريته. سطحها الواسع يتسع لست عشرة سيارة خاصة. وفَرّت له الوظيفة أجرًا ثابتًا، وتأمينًا صحيًا، وحياةً هادئةً على تلك الجزيرة الشمالية.

كان يستيقظ كل صباح، يغسل وجهه بماء بارد ويسوي لحيته الرمادية بأصابعه. ثم يرتدي البدلة الخضراء الداكنة، الزي الرسمي لـ «شركة العبَّارات الشمالية المتحدة» ويمضي على قدميه إلى المرفأ حيث رسا مساء اليوم السابق. بعدها بقليل يفتح شخصٌ من الخدمة الأرضية، روبرت أو آدم، البوابة، وعلى الفور تصطف أولى السيارات لكي تصعد المنحدر الحديدي إلى داخل عبارة إيريك. دائمًا ما تتسع المساحة للجميع، ويحدث أحيانًا أن تتحرك العبارة فارغة، رائقة، خفيفة مثل حُلم يقظة. عندها يجلس إيريك في مقصورته، معلقًا عاليًا في عش اللقلق الزجاجي خاصته، ويبدو له الشط الآخر قريبًا للغاية، ألن يكون تشييد جسر أفضل من إجبار الناس على الذهاب والإياب ومناكدته بهذه الطريقة؟

كانت مسألة حالات ذهنية. كل يوم كان يختار بين حالتين. في إحداهما يكون حساسًا، سريع الشعور بالإهانة - يؤمن أنه أقل من الجميع، أنه يفتقر إلى كل ما يمتلكه الآخرون، أنه شاذ لا يدرك حتى، بحق الرب، مكمن الخطأ فيه. يشعر بأنه معزول، وحيد، مثل طفل أُرسل إلى غرفته ليطل من النافذة على أقرانه وهم يلعبون بسعادة. إن القدَر خصص له دورًا ثانويًا صغيرًا في تلك الارتحالات البشرية الفوضوية عبر اليابسة والبحر، والآن، منذ استقراره على هذه الجزيرة، تبين أن تلك الحبكة التي يشغل فيها ذلك الدور الثانوي، هي نفسها، ثانوية.

الحالة الذهنية الأخرى كانت تُعزّز قناعته بأنه أفضل عن حق، بأنه متفرّد، استثنائي. إنه الشخص الوحيد الذي يعي الحقيقة ويفهمها، إنه هو وحده القادر على فعل شيء استثنائي. وكان يستطيع أحيانًا قضاء بضع ساعات، في هذه الروح المعنوية المرتفعة، بل وبضع أيام يشعر فيها، لنقل، بنوع من السعادة. لكن تلك السعادة كانت سرعان ما تتلاشى، مثل السَكرة. وفي خُماره التالي للسُكر تظهر له تلك الفكرة الرهيبة: إن عليه، لكي يبدو شخصًا جديرًا بالاحترام، أن يظل يتظاهر دائمًا بأنه هذا أو ذاك، وأن الحقيقة -وهو الأسوأ طرًا- ستتكشف في يوم ما: إنه لا أحد.

كان جالسًا في مقصورته الزجاجية يراقب تحميل أولى عبَّارات الصباح. رأى أناسًا يعرفهم منذ زمن طويل من البلدة الصغيرة. هنا كانت أسرة (ر) في سيارتهم الأوبل الرمادية - الأب يعمل في المرفأ، والأم في المكتبة، بينما الأطفال، صبي وفتاة، لا يزالان في المدرسة، هنا المراهقون الأربعة، تلاميذ المدرسة، الذين سيستقلون حافلتهم على الجانب الآخر. وهنا إليزا مدرسة روضة الأطفال، بصحبة ابنتها الصغيرة، التي كانت بالطبع

تأخذها معها للعمل. كان والد الطفلة الصغيرة قد اختفى فجأة قبل عامين ولم يسمع عنه بعدها. كان إيريك يشتبه في كونه يصطاد الحيتان في مكان ما، هنا (س) العجوز، الذي يعاني من مرض في كليتيه؛ مرّتين في الأسبوع كان عليه أن يستقل العبارة ليذهب إلى المستشفى لغسل الكلى. كان هو وزوجته يحاولان بيع بيتهم الخشبي الصغير الأشبه ببيت أقزام والانتقال إلى بيت أقرب إلى المستشفى، لكن لسبب أو آخر لم يتمكنا من ذلك. كانت شاحنة «شركة الأغذية العضوية» ذاهبة لشراء مخزون من المنتجات من البر الرئيسي. بعض السيارات السوداء الأجنبية، الأرجح ضيوف «المُخرج». السيارة الفان الصفراء التي تخصُّ الأخوين ألفريد وألبريشت: عازبان كهلان صعبا الجراس يواظبان على تربية الأغنام على الجزيرة. اثنان من الدرّاجين، مخدّرين من البرد. عربة التوصيل الخاصة بورشة إصلاح السيارات - لا بد أنها ذاهبة لشراء قطع غيار. لوّح إدوين لإيريك. بإمكانك ملاحظته فوق أي جزيرة في العالم - يرتدي دائمًا قمصانًا مطبعة مربعات، مبطنة بفرو صناعي. كان إيريك يعرفهم جميعًا، حتى أولئك الذين يراهم لأول مرة - كان يعرف لماذا جاءوا إلى هنا، وحين تعرف الغرض من رحلة ما، فأنت تعرف ما يكفي عن الشخص.

كانت هناك ثلاثة أسباب لزيارة الجزيرة. السبب الأول، أنك ببساطة تعيش هنا؛ السبب الثاني، أنك أحد ضيوف «المُخرج»؛ والسبب الثالث، لأجل طاحونة الهواء لكي تلتقط لنفسك صورة أمامها.

كانت العبَّارة تستغرق عشرين دقيقة. في أثنائها، يخرج بعض الركاب من سياراتهم ويشعلون سيجارة مع أن ذلك ممنوع. في حين يكتفي آخرون بالوقوف عند الدرابزين، يتطلعون إلى المياه، حتى ترسو أبصارهم المترجرجة أخيرًا على الشط الآخر. ثم يسارعون، وقد أثارتهم رائحة البر الرئيسي، بكل ما لديهم من مهام والتزامات خطيرة، فيختفون في الشوارع الصغيرة المتفرعة من الكورنيش، في عملية جزر أشبه بالموجة التاسعة التي تصل إلى أبعد مدى وتغرق الأرض ولا ترجع قطّ إلى البحر. ويحل آخرون محلهم. الطبيب البيطري في سيارته الـ«بك آب» الأنيقة؛ كان يكسب قوته بإزالة مبايض وخصي القطط. رحلة ميدانية لمعاينة الحياة النباتية والحيوانية على الجزيرة لفصل مدرسي في مادة العالم الطبيعي. عربة توصيل للموز والكيوي. طاقم تلفزيوني جاء لمقابلة مع «المخرج». أسرة (ج)، عائدة من زيارة للجدّة. اثنان آخران من الدراجين لوّحتهم الشمس يحلان محل زميليهما.

أثناء التحميل والتفريغ، الذي يستغرق نحو ساعة يدخن إيريك سيجارة ويحاول جاهدًا ألا يستسلم لليأس. ثم تعود العبَّارة إلى الجزيرة. وهكذا تمضي ثماني مرات، مع استراحة ساعتين للغداء، الذي يتناوله إيريك دائمًا في المكان الصغير نفسه. أحد الأماكن الثلاثة في الجوار. بعد العمل يشتري بطاطس، وبصل، ولحم خنزير مقدد. سجائر وخمرة. يحاول ألا يشرب حتى الظهيرة، لكن بحلول الرحلة السادسة يكون قد صار حطامًا.

خطوط مستقيمة - كم كانت مهينة. كم كانت مدمرة للعقل. أي هندسة غدّارة، حولتنا إلى بلهاء - ذهابًا وإيابًا، محاكاة ساخرة للسفر. ما إن تتقدم حتى ترجع. ما إن تنطلق حتى تشغل المكابح.

تلك كانت الحال، أيضًا، في زيجة إيريك، التي كانت قصيرة وعاصفة. ماريا، مطلقة، كانت تعمل في متجر وعندها ابن صغير يذهب إلى مدرسة داخلية في المدينة، انتقل إيريك للعيش معها، في بيتها الصغير الحميم اللطيف ذي التلفزيون الضخم. كانت ممشوقة القوام، وافرة التضاريس نوعًا ما، فاتحة البشرة ترتدي جوارب ملتصقة بجسدها. سرعان ما تعلّمت تقديم البطاطس مع لحم الخنزير المقدد وبدأت تضيف المردقوش وجوزة الطيب إليها، بينما يعكف هو على تقطيع الخشب لأجل مدفأتهما في أيام إجازته. استمرّت العلاقة عامًا ونصفًا. بعد برهة بدأت ضوضاء التلفزيون التي لا تنتهي تُنهكه، إضاءته الصارخة، الممسحة بجوار البساط حيث يجب أن تترك حذاءك الموحَل، وجوزة الطيب تلك. بعد أن سَكر بضع مرات وراح يسبها مثل بخار، بإصبع مرفوع، ألقته خارج البيت، وبعدها بقليل انتقلت إلى البر الرئيسي، لتكون قريبة من ابنها.

اليوم كان الأول من مارس، أربعاء الرماد. عندما فتح إيريك عينيه رأى الضوء الرمادي وندف الثلج تتساقط مع الأمطار، وهو ما سيترك آثارًا مغبشة على النوافذ. فكر في اسمه القديم. يكاد لا يتذكره. نطقه بصوت عال، فبدا له كأن غريبًا يناديه. شعر بالضغط المألوف داخل رأسه بعد شرب الأمس.

ذلك لأننا يجب أن ننتبه إلى أن للصينيين اسمين: اسم يأخذونه من عائلاتهم، ويستخدم للنداء على الطفل، وتعنيفه وعقابه، ويستخدم أيضًا كأساس لأسماء التدليل. لكن عندما يخرج الطفل إلى العالم، يأخذ أو تأخذ اسمًا جديدًا، اسمًا خارجيًا، اسمًا للعالم، اسم شخصية. يلبس مثل زي رسمي، رداء كهنوتي، بدلة السجن، رداء لحفلات الكوكتيل الرسمية. هذا الاسم الخارجي مفيد وسهل التذكر. من الآن فصاعدًا سيوطِّد أقدام صاحبه. الأفضل أن يكون دنيويًا، عالميًا، يتعرّف عليه الجميع؛ فلتسقط محلية أسمائنا! فليسقط أولدزيتش، وسونغ ين، وكازيميرز، وجيريك؛ فليسقط بلازين، وليو، وميليكا. وليحيا مايكل، وجوديث، وأنا وجان، وصامويل، وإيريك!

لكنه اليوم أجاب نداء اسمه القديم: أنا هنا.

لا أحد يعرف هذا الاسم، إذا لن أقوله أنا أيضًا.

ارتدى المدعو إيريك زيه الأخضر الذي يحمل شعار «شركة العبَّارات الشمالية المتحدة»، ومرّر أصابعه في لحيته، وأطفأ التدفئة في بيته الصغير الشبيه ببيوت الأقزام وانطلق على الأسفلت. ثم، وهو ينتظر في حوضه الزجاجي ريثما ينتهي تحميل العبارة وتطلع الشمس

أخيرًا، تناول صفيحة بيرة وأشعل سيجارته الأولى. لوّح من أعلى لإليزا وابنتها الصغيرة، بمودّة وكأنما يريد مكافأتهما على كونهما لن يصلا اليوم إلى روضة الأطفال.

بعد أن غادرت العبارة الشط وصارت في منتصف الطريق بين المرسيين، توقفت فجأة، ثم انطلقت باتجاه البحر المفتوح.

في البداية، لم يدرك الجميع ماذا يحدث. البعض، المعتادون على روتين المسار المباشر، نظروا إلى الشط المختفي بلا مبالاة، مخدّرين، وهو ما كان ليؤكد من دون شك نظريات إيريك السَكرى عن أن السفر بالعبارة يَبسِط تلافيف الدماغ. بينما لم يدرك آخرون إلا بعد مضي وقت طويل.

«إيريك، ماذا تفعل؟ استدر الآن»، صرخ فيه ألفريد وانضمت إليه إليزا بصوتها الحاد المجلجل: «سيتأخر الناس على أعمالهم...».

حاول ألفريد أن يصعد إلى حيث كان إيريك، لكن إيريك كان قد حَسَب حسابه وأغلق البوابة وأوصد مقصورته.

من أعلى رأى الجميع يخرجون هواتفهم في وقت واحد، ويجرون مكالمات هاتفية، يتكلمون ساخطين في الفضاء الخالي، يلوحون بأيديهم في قلق. كان بوسعه تخيل ما يقولون إنهم سيتأخرون على العمل، إنهم يريدون معرفة من سيغطي الأضرار المعنوية ذات الصلة، إن السكيرين أمثال إيريك لا يجب أن يسمح لهم، إنهم طالما عرفوا أن الأمور ستنتهي على هذا النحو، إن الوظائف لا تكفي أهاليهم وها هم يوظفون المهاجرين؛ من يعرف كيف تعلموا اللغة بهذه المهارة، لكن، في كل الأحوال، سيكون دائمًا...

لم يُولِ إيريك هذا أدنى اهتمام. أسعده أن رآهم، بعد قليل، وقد هدأوا وتطلعوا إلى السماء التي كانت تزداد سطوعًا وتنشر عليهم أشعة ضوء جميلة من بين السحاب. شيء واحد أقلقه - المعطف الأزرق الفاتح لابنة إليزا، الذي (كما يعرف كل ذئب بحار) كان فأل شؤم على سطح سفينة. لكن إيريك أغمض عينيه وسرعان ما نسي أمره. اتجه إلى المحيط ونَزَل إلى ركابه بصندوق من المشروبات الغازية وقوالب الشوكولاتة كان قد أعدّها لهذه المناسبة منذ وقت طويل. ورأي كيف أحدثت هذه المرطبات تغييرًا هائلًا على حالهم: هدأ الأطفال وهم يحدّقون في شطّ الجزيرة المتلاشي في البعيد، وأظهر الكبار اهتمامًا متزايدًا برحلتهم.

«إلى أين نتجه؟»، سأل أصغر الأخوين (ت) بنبرة عملية مستسلمة للواقع، ثم تجشأ من المشروب الغازي.

وأرادت إليزا، مدرسة روضة الأطفال، أن تعرف: «كم تبقى أمامنا قبل الوصول إلى البحر المفتوح؟».

وسأل (س)، العجوز الذي يعاني من متاعب في كليتيه: «هل تأكدت أن لديك ما يكفي من

الوقود؟».

أو على الأقل ظنّهم يقولون تلك الأشياء، لا أشياء أخرى. حاول ألا ينظر إليهم وألا يهتم. كان قد ثبَّت عينيه على خط الأفق، انعكاسه يَشطر حدقتيه نصفين، النصف العلوي السماوي أكثر إشراقًا، والنصف السفلي البحري أكثر قتامة. وكان ركابه، الآن، هادئين أيضًا. كانوا قد كبسوا طواقيهم على رؤوسهم بقوة، ولفّوا أوشحتهم حول أعناقهم بإحكام. يمكننا القول إنهم أبحروا في صمت، حتى خرقت سكينتهم جلبة المروحية ونُواح زوارق الشرطة البخاريّة.

«ثمة أشياء تحدث من تلقاء نفسها، رحلات تبدأ وتنتهي في أحلام. وثمة مسافرون يستجيبون ببساطة لنداء اضطرابهم الفوضوي. أحدهم يقف أمامك الآن...». هكذا، انبرى دفاع إيريك في مرافعته أمام محاكمته القصيرة. لسوء الحظ، حتى هذا الدفاع المؤثر لم يستطع أن يعفي بطلنا من عقوبة سجن أخرى. أتمنى أن يكون قضاء فترة قصيرة أخرى بالداخل قد أفاده. فالحياة بالنسبة لشخص مثل إيريك مصنوعة من موجات صعود وهبوط محتومة، تُشبه الاهتزاز الإيقاعي للأمواج، تشبه موجات المد والجزر العصيّة على التفسير.

لكن ذلك لم يعد من شأننا.

مع ذلك، فإن أراد أحدكم، في ختام هذه القصة، أن يسألني، راغبًا في تبديد أي شكوك أخيرة بخصوص الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة، إن أمسكني من ذراعي وهزّني بلهفة وصرخ في: «خبريني، أتوسل إليك، إن كانت، في أعمق أعماق يقينك، هذه القصة وكل تفاصيلها حقيقية تمامًا. اعذريني إذا كنث أبالغ في إلحاحي»، لغفرتُ له وأجبتُه: «صدّقني، أقسم بشرفي أن القصة التي حكيتها لكم، سيداتي وسادتي، جملةً وتفصيلًا، حقيقية. أعرف هذا على سبيل اليقين: لقد حدثت على كوكبنا: أنا شخصيًا كنت على متن تلك العبارة».

حملات استكشافية للقطب الشمالي

تذكّرتُ شيئًا تذكّره بورخيس ذات مرة، شيئًا كان قد قرأه في مكان ما: في ما يبدو، في الأيام التي كان فيها الهولنديون يشيدون امبراطوريتهم، أعلن القساوسة في الكنائس الدنماركية أن من يشاركون في الحملات الاستكشافية للقطب الشمالي سوف يضمنون عمليًا الخلاص لأرواحهم. وعندما ظلت أعداد المتطوعين قليلة رغم ذلك، اعترف القساوسة بأن الحملة الاستكشافية طويلة وعسيرة، وهي ليست للجميع بكل تأكيد - بل هي فقط لأشجع الشجعان. مع ذلك لم يتقدّم سوى القليلين. وهكذا، لتجنّب إراقة ماء وجوههم، قام القساوسة أخيرًا بتبسيط إعلانهم: في الحقيقة، قالوا أي رحلة يمكن أن تُعتبر رحلة استكشافية إلى القطب الشمالي، حتى السَفرة الصغيرة، حتى الركوبة في عربة نقل عموميّة.

أظن أنه في أيامنا هذه، حتى الرحلة في قطار الأنفاق ستُحتسب.

علم نفس جزيرة

وفقا لعلم نفس السفر، تُمثّل الجزيرة أولى حالاتنا السابقة على التآلف الاجتماعي وأكثرها بدائية، عندما كانت الأنا قد تفرّدت بالفعل بما يكفي للوصول إلى مستوى معين من الوعي بالذات، لكنها لم تكن قد دخلت بعد في علاقات كاملة، متجاوبة، مع محيطها الاجتماعي. حالة الجزيرة هي حالة بقاء المرء داخل حدوده، غير مثقل بأي تأثير خارجي؛ إنها تشبه نوعًا من النرجسية أو حتى التوحد. حيث يشبع المرء كل رغباته بنفسه. وحدها الذات تبدو حقيقة؛ بينما الأخر ليس إلا طيفًا غامضًا. سفينة أشباح تشق العَباب في أفق بعيد. في الحقيقة، لا يمكن للمرء أن يتأكد بالكامل من أنها ليست من نسج خياله، بهرجة من عين اعتادت على الخط المستقيم الذي يُقسم مدى البصر بوضوح بين الأعلى والأسفل.

تطهير الخريطة

إذا آذاني شيءٌ، مسَحتُه من خريطتي العقلية. الأماكن التي تعثرتُ فيها، وسقطتُ، التي طرحتُ فيها أرضًا، جرحت في الصميم، التي عشت فيها خبرات مؤلمة - تلك الأماكن لم تعد موجودة بكل بساطة.

يعني هذا أن عليّ التخلص من عدد من المدن الكبيرة ومن إقليم بكامله. وربما، يومًا ما، أمحو بلدًا. الخرائط لا تُمانع - بل على العكس، تشتاق لتلك البقاع الخالية، لشكل طفولتها السعيدة.

كلما اضطررت لزيارة إحدى تلك الأماكن غير الموجودة (أحاول ألا أحمل ضغائن)، أصبح عينًا تتحرك مثل طيف في بلدة أشباح. لو كان بإمكاني التركيز بشكل تام، لاستطعتُ دسّ يدي في أكثر الكتل الإسمنتية صلابة، واختراق الشوارع المكتظة، شاقة طريقي عبر الزحام المروري غير عابئة، غير متكبدة لأي خسائر، ومن دون أن أحدث ضجيجًا.

لكنني لم أفعل ذلك. بل لعبتُ وفقًا للقواعد التي رسّخها الناس الذين يعيشون هناك. ولقد حاولت ألا أفشي لهم الطبيعة السرابية لتلك الأماكن التي لا يزالون عالقين فيها، المساكين، وقد امَّحَت جميعًا. أبتسم لهم ببساطة وأومئ لكل ما يقولون. لن أرغب في إرباكهم بمعرفة أنهم غير موجودين.

ملاحقة الليل

يصعب عليّ أن أحظى بنوم هانئ في الليل عندما أقيم في مكان لليلة واحدة. الآن كانت المدينة تستكين بطيئًا، تهدأ. كان فندقي تابعًا لشركة الطيران ومدرجًا في سعر تذكرتي. كان يفترض بي أن أنتظر إلى الغد.

على طاولة الفراش كانت عبوة زرقاء فاتحة من الواقيات الذكرية. وإلى جوار الفراش مباشرة كانت نسخة من الكتاب المقدس، وأخرى من تعاليم بوذا. لسوء الحظ، كان قابس غلايتي الكهربية لا يناسب المقبس - لذا سيكون عليّ الاستغناء عن الشاي. رغم أن تلك الساعة، ربما، كانت تحتاج إلى قهوة؟ لم يكن جسدي في حالة تسمح له بتأويل الأرقام على الساعة المدمجة في الراديو على طاولة الفراش، رغم ما يبدو من أن الأرقام عالمية الطابع، وإن عُرفت باسم «الأرقام العربية». هل كان الوهج الأصفر خارج النافذة بداية الفجر، أم كان غسقًا قد تكثف حتى صار ليلًا؟ كان من الصعب تحديد أكان هذا الجزء من العالم -الذي أوشكت الشمس على الظهور فوقه، أو لعلها اختفت لتوّها- «الشرق» أم «الغرب». ركزت على عدّ الساعات التي سأقضيها في الطائرة، مستعينة بصورة رأيتها ذات مرة على الإنترنت لكوكب الأرض بخطّ ليلي يتحرك من الشرق إلى الغرب مثل فم عملاق يلتهم العالم على نحو منهجي.

الميدان أمام الفندق كان مهجورًا، وحدها الكلاب الشاردة تتناوش حول أكشاكه المغلقة. في النهاية قررتُ أننا لا بد في منتصف الليل، ودون شاي أو حمام ذهبتُ إلى الفراش. مع أننا بتوقيتي أنا، بالتوقيت الذي كنت أنقله معي في هاتفي المحمول، كنا في الساعة التالية للظهيرة. هكذا كان من السذاجة أن أعول على الخلود إلى النوم.

ما تفعله هو الدخول تحت الأغطية وتشغيل التلفزيون - بصوت منخفض، دعه يُدمدم، يُومِض، يَطنُّ. ترفع جهاز التحكم عن بعد مثل سلاح، وتُطلق على منتصف الشاشة تمامًا. كل طلقة تقتل قناة، لكن قناة أخرى تأتي في أعقابها. مع ذلك، كانت لعبتي هذه المرة ملاحقة الليل، الاختيار فقط بين تلك القنوات التي تبث من أماكن يكون الجو فيها مظلمًا هذه الساعة. تصوّر العالم والندبة المعتمة تمتدُّ بطول تقوسه اللطيف، دليل على هجمة ماضية، تشوّهٌ أعقب جراحة جريئة لفصل النور عن الظلام، هذا التوأم الملتصق.

الليل لا ينتهي أبدًا. يمتدّ سلطانه دائمًا ليقتنص قسمًا من العالم. وأنت تستطيع مواكبته بجهاز التحكم عن بعد البحث حصرًا عن المحطات التي تقع في المدى الظليل لتلك العتمة،

يدٌ مقعّرةٌ ترفع الأرض، وبتلك الطريقة تستطيع مواصلة الاتجاه غربًا بلدًا بعد بلدٍ ساعةً بعدَ ساعةٍ. ستُصادف ظاهرة مثيرة إذا فعلت ذلك.

الطلقة الأولى التي أطلقتها على جبهة التلفزيون الناعمة، التي لا عقل لها، جلبت القناة 3، قناة «الرب الجليل». هنا رأيتُ مشهدًا للصّلَب - فيلمًا ما من الستينيات. كان حاجبا مريم العذراء منتوفين بعناية. ولا بد أن مريم المجدلية كانت ترتدي مشدًا للخصر تحت زيها الفلاحي، الذي كان بلون أزرق عَكِر - يمكنك معرفة أنه فيلم بالأبيض والأسود لوّن لاحقًا على أيدي أناس يفتقرون إلى الخبرة. ثدياها الهائلان، المخروطيان، نافران على نحو عبثي؛ خصرها النحيل. عندما كان الجنود السمجون يضحكون ضحكاتهم الشريرة وهم ينزعون عنها ملابسها الخارجية، راح صناع الفيلم ينثرون صورًا لكل فاجعة متصوّرة، لقطات بدت وأنها انتزعت مباشرة من برامج للطبيعة وأدرجت هنا من دون أي تغيير. الآن كانت ثمة سُحُبٌ تتجمع في إيقاع متسارع، صواعق، سماء، قُمعٌ يواجه الأرض برأسه، زوبعة، إصبع الرب - الذي سيرسم لاحقًا سلسلة من صنوف الخصب والازدهار على سطح الأرض. الآن موجات غاضبة تضرب أحد الشطآن، بعض المراكب الشراعية، بعض النماذج الرخيصة تنفجر إلى أشلاء بفعل تلك المياه المهتاجة. براكين تندلع، قَذفٌ مضطرمٌ كان بمقدوره أيضًا أن يُلقّح السماء بمَنِيّه. لكنه كان عقيمًا انزلقت الحمم البركانية ببلادة على جوانب البراكين. كانت نشوة لم تشتعل، انحدرت إلى احتلامٍ قديمٍ عاديٍّ.

كفى. أطلقتُ طلقة أخرى. القناة 350، «تلفزيون الخط الأزرق». امرأةٌ تستمني، أناملها غائصة بين فخذيها النحيلين. كانت المرأة تكلم شخصًا ما بالإيطالية، تتحدث في ميكروفون معلّق في أذنها يُذكّر بلسان رفيع طويل يلعق كل كلمة من تلك الكلمات الإيطالية عن شفتيها مباشرة، كل si , si، وكل prego.

354، «فضائية الجنس 1»: هذه المرة كانت فتاتان تستمنيان، كلاهما تشعر بالملل - لا بد وأنهما في آخر الوردية، لا تستطيعان إخفاء تعبهما. كانت إحداهما تُدير الكاميرا التي تصورهما بجهاز تحكم عن بعد في يدها إذا فقد كانتا، بهذا المعنى، مكتفيتين ذاتيًا بالكامل. من حين لآخر كانت تكشيرة من نوع ما تظهر على وجهيهما، وكأن شخصًا ذكّرهما بما تفعلانه - العينان مغمضتان، الفم نصف مفتوح. لكنها تعود وتتبخر في غمضة عين، ويحل محلها الإرهاق والتشتت. لم يكن أحد يهاتفهما، رغم الكلمات المكتوبة في أسفل الشاشة والتي افترضتُ أنها كلمات غواية باللغة العربية.

وفجأة كلمات سيريلية - كنث قد أطلقتُ طلقة أخرى على الشاشة - سفر التكوين بالأبجدية السيريلية. كانت الكلمات التي تلف في أسفل الشاشة بلا شك كلمات غرَّاء، تظهر بصحبة صور توضيحية من الجبال، والبحر، والسحاب، والنباتات والحيوانات. في القناة 358

كانوا يعرضون أفضل المشاهد لشخص يبدو أنه فحل من فحول البورنو اسمه روكو. تمهلتُ هنا للحظة، ولاحظتُ قطرة عرق على جبينه. بينما كان نجم البورنو يُنجِزُ طعناته الحوضيّة داخل أردافٍ مجهولة، وضع إحدى يديه على وركه، بطريقة كان يمكن معها أن تَظُنّه يتدرب على حركة من حركات السامبا أو السالسا؛ واحد اثنان، واحد اثنان.

في القناة 288، «تلفزيون عُمان»، كانوا يقرأون آيات من القرآن. هكذا افترضتُ، بأي حال. رسوم لطيفة وغير مفهومة على الإطلاق من الكتابة العربية تطفو بهدوء على الشاشة. جعلني ذلك أرغب في مد يدي والإمساك بها، القبض عليها لبرهة قبل أن أحاول فك شفرة معانيها، استخلاص الزخارف المعقدة تلك، وفردها إلى خط بسيط مريح.

طلقة أخرى وظهر قسٌّ أسود وجمهور يهتف «هللويا» بلهفة.

الليل، إذًا، أسكَتَ الأصوات الجشّاء والعدوانية للأخبار والطقس وقنوات الأفلام، مُزيحًا ضجيج العالم النهاري، مستعيضًا عنه بسكينة منظومة متناسقة بسيطة من الجنس والدين. الجسد والإله. علم النفس واللاهوت.

فوط صحية

كل غلاف من أغلفة الفوط الصحية التي اشتريتها من الصيدلية كان يحمل حقائق صغيرة مسلية مكتوبة عليه.

تعبير «حَبسَة التَسمِية» يصف حالة العجز عن تذكر الكلمة التي تبحث عنها.

«التفصيلية» هو مصطلح خاص بالرسم يفيد الانتباه الذي يوليه الفنان للتوافه والتفاصيل.

«القاذوراتية» هو رسم الأشياء المتحللة والمقززة.

المقص أحد اختراعات ليوناردو دافنشي.

في الحمّام، حيث فضضت أغلفة كل الفوط الصحية التي تحتويها العبوة، بتعاليمها العجيبة، خطر ببالي خاطر كالرؤيا: إن ذلك ليس إلا جزءًا آخر يتكشف من مشروع الإنسيكلوبيديا العظيمة، الإنسيكلوبيديا التي سوف تشمل كل الأشياء. وهكذا عدت إلى الصيدلية وفتشت في الرفوف بحثًا عن اسم هذه الشركة الغربية التي قرّرت أن تُوحّد الحاجة مع الفائدة. إذ ما جدوى لَفّ الفوط الصحية في ورق مرسوم عليه زهور أو ثمار توت؟ لقد خُلق الورق ليكون حاملًا للأفكار. التغليف الورقي إسراف ويجب أن يُحظَر، لكن إذا كان لا مفرّ من تغليف شيءٍ ما، إذا عليك تغليفه فقط في روايات وأشعار، ودائمًا بطريقة تَعقِد صلةً ما بين المحتوى وحاويته.

بدءًا من سن الثلاثين، يأخذ البشر في التقلص ببطء.

كل عام يموت أناس برفس الحمير أكثر ممن يموتون في كوارث الطائرات.

إذا انتهيت إلى قاع بئر، ستكون قادرًا على رؤية النجوم حتى أثناء النهار.

هل تعرف أن تسعة ملايين شخص في العالم يشاركونك يوم ميلادك؟

أقصر حرب في التاريخ نشبت بين زنجبار وإنكلترا عام 1896، واستمرت ثماني وثلاثين دقيقة.

لو أُميل محور الأرض درجة واحدة زائدة، لاستحالت المعيشة على الكوكب، لأن المناطق حول خط الاستواء ستصبح شديدة الحرارة وحول القطبين شديدة البرودة.

بسبب دوران الأرض، فإنك حين ترمي شيئًا ما باتجاه الغرب سيبتعد أكثر مما إذا رميته باتجاه الشرق.

جسم الإنسان المتوسط يحتوي مقدارًا من الكبريت يكفي لقتل كلب.

الـ Archibutyrophobia هو الخوف من التصاق زبدة الفول السوداني في سقف حلقك.

لكن المعلومة التي أدهشتني أكثر كثيرًا من غيرها كانت هذه:

العضلة الأقوى في جسم الإنسان هي اللسان.

أثريات: Peregrinatio Ad Loca Sancta[12]

في براغ، في العام 1677 كان بإمكانك الذهاب إلى كاتدرائية القديس فيتوس لرؤية: ثَديَيِّ القديسة آن، سليمين لم يمسسهما ضرر، محفوظين في برطمان زجاجي، ورأس القديس ستيفن الشهيد؛ ورأس يوحنا المعمدان. وكانت راهبات سانت تيريزا يعرض على الزوار المهتمين أختًا توفيت قبل نحو ثلاثمئة سنة جالسة وراء قضبان، محفوظ بحالة جيدة جدًا. بينما كان الجيزويت اليسوعيون يحتفظون برأس القديسة أورسولا وقبعة وإصبع القديس فرانسيس خابيير.

قبلها بمئة عام انتهى شخص يدعى بول إلى «لا فاليتا» في مالطا، ومن هناك كتب أن كاهنًا محلّيًّا أخذه في جولة في المدينة وعرض عليه: «الـ palmam dextram integram (اليد اليمنى الكاملة) للقديس يوحنا المعمدان، طازجة وطريّة، وكأنه قد بَتَرها لتوّه عن الجسد، وبعد أن فتح خزانتها البلورية، وضعها أمام شفتي الحقيرتين كي أقبلها، وقد كانت تلك القبلة أعظم مجدٍ عرفه ذلك الإنسان الخطّاء في حياته، الذي باركه الرب. كذلك سُمح لي بتقبيل جذاذةٍ من أنف ذلك القديس، وكامل ساق القديس لازاري كوادريدواني، وأصابع القديسة المجدلية، وجزء من رأس القديسة أورسولا (وقد اندهشت لذلك، ففي كولونيا، والراين، رأيت أيضًا الرأس الكامل، ومسستُهُ بشفتيّ الحقيرتَين)».

رقص شرقي

بعد الطعام هرع النادل وأحضر لي قهوة، ثم تراجع إلى آخر الغرفة، وراء النُضُد؛ هو الآخر سيتفرج.

خفضنا أصواتنا لأننا اضطررنا لذلك، إذ خبت الأضواء تدريجيًا، ومن بين الطاولات ظهرت امرأة شابة رأيتها قبل دقائق تدخن سيجارة بالخارج. وقفت الآن بين الجالسين وهزّت شعرها الأسود المسترسل. كانت عيناها مطليتين بأصباغ كثيفة: الجزء العلوي من ثوبها، الملتصق بجسدها، والمطرز بالترتر حول ثدييها، يتلألأ بسطوع، كل الألوان مرة واحدة؛ ألوان تبهج أي طفل، أي فتاة. الأساور في ذراعيها تُصلصل وتُخَشخِش. تنّورتها الطويلة تنساب من وركيها إلى قدميها الحافيتين. فتاة رائعة الحُسن، أسنانها تلمع ببياض مستحيل، عيناها ترمي نظرات جريئة لا يمكن أن يبقى المرء ساكنًا تحت تأثيرها: تجعلك ترغب في الحركة، في النهوض، في التدخين. كانت المرأة ترقص على إيقاع الطبول بينما يتعرّى وركاها، يتحدّيان للمبارزة أي شخصٍ يتجرأ ويحلم بالتهوين من قوّتها.

أخيرًا استجاب رجل لهذا النداء وغامر بجرأة للرقص؛ كان سائحًا، يرتدي شورتًا، لا ينسجم كثيرًا مع تِرتِرها، لكنه راح يحاول، يهزّ وركيه بحماسة، بينما أصدقاؤه حول طاولته يدقون بأقدامهم ويصفرون. الآن تقدمت فتاتان صغيرتان للرقص، في بنطلونات جينز، رفيعتان مثل القضبان.

هذه الرقصة في حانتنا الرخيصة كانت مقدّسة. هكذا كان شعورنا تجاهها - أنا ورفيقتي، امرأة أخرى.

عندما عادت الأضواء اكتشفنا أن عيوننا لا تزال تترقرق بالدموع، وأننا كنا نُهرع لمسح عيوننا بمناديل في حَرَج. الرجال -الذين أُستثيروا لدرجة الهياج- سخروا منا. لكنني كنت متأكدة أن تأثرنا بالرقصة كان طريقًا أسرع لاستيعابها من حماسة الرجال.

خطوط الزوال

امرأة اسمها إنجِبيورخ كانت تسافر بطول خط الزوال الرئيسي. كانت من أيسلندا، وبدأت رحلتها في جُزر شِتلاند. كانت تشكو من أن السفر في خط مستقيم أمر مستحيل، بطبيعة الحال، إذ كانت تعتمد بالكامل على الطرق والمسالك البحرية ومسارات القطارات. لكنها كانت تحاول التمسك بموقفها، مواصلة طريقها جنوبًا، مناورة بطول الخط بقدر ما تستطيع، في مسار متعرج.

كانت تتكلم عن الأمر بحيوية وحماسة حتى أنني لم أمتلك الشجاعة لأسألها لماذا تفعل ذلك. رغم أن إجابة سؤال من هذا النوع ستكون من قبيل: ولم لا؟

وهي تتكلم، رأيت في عيني عقلي صورة مسقط ينزلق على سطح الكرة الأرضية.

ومع ذلك فقد وجدت تلك الفكرة مربكة حتى يومنا هذا. إذ لا وجود لخطوط الزوال، في نهاية المطاف. ليس بحق.

Unus Mundus[13]

لي صديقة شاعرة لم تتمكن قطّ، لسوء الحظ، من أن تتعيش من شعرها. وهل من شاعر يتعيش من الشعر؟ وهكذا بدأت تعمل في وكالة السفريات هذه، ولأنها تتحدث الإنكليزية بطلاقة، انتهت إلى أن تصبح مرشدة سياحية للمجموعات الأمريكية. كانت ممتازة في عملها، وكانوا يوصون بها حتى لأصعب الضيوف مِراسًا. كانت تستقبلهم في مدريد، وتطير بهم إلى مَلَقة، ثم يبحرون إلى تونس. عادة تكون مجموعة صغيرة، نحو عشرة أشخاص.

كانت تستمتع بتلك المأموريات، وكانت تأتيها منها اثنتان شهريًا في المتوسط. كانت تحب الاسترخاء عندها في أرقى الفنادق، وتقتنص الفرصة للنوم فيها. كان عليها أن تطوف بهم بين المعالم المختلفة، ومن ثم كانت تستعدُّ بالقراءة كثيرًا في هذه الأيام. وفي الخفاء، كانت تكتب أيضًا. عندما تخطر لها فكرة مثيرة على وجه خاص - عبارة ما، ارتباط ما كانت تعرف أن عليها تدوينها على الفور، لأنها لو لم تفعل، ستختفي ولن تعود. الذاكرة تتداعى مع التقدم في العمر، تتزايد ثقوبها. وهكذا كانت تنهض وتذهب إلى الحمام لتُدوّنها، جالسة على المرحاض. أحيانًا كانت تكتب على يديها، مجرد حروف، تشفير بطريقة الـ«نيمونِك[14]».

لم تكن متخصصة في البلدان العربية وثقافاتها - كانت قد درست الأدب وعلوم اللغة. لكنها كانت تُعزّي نفسها بأن سُيّاحها ليسوا أفضل منها في هذا الصدد.

كانت تقول: «دعونا لا نخدع أنفسنا. إنه عالم واحد لا أكثر».

لم يكن يلزم أن تكون مُتخصصًا؛ كنت تحتاج إلى خيال، لا أكثر. أحيانًا عندما تتعطل رحلتهم لبعض الوقت، عندما يضطرون إلى الجلوس لساعات تحت ظلال غريبة، في وسط اللامكان، لأن سلكًا في سيارتهم الـ«جيب» قد انقطع، كانت تضطر إلى تسلية زبائنها بطريقة ما، على هذا النحو بدأت تحكي القصص. هكذا كانوا ينتظرون منها. كانت تأخذ قصة من قصص بورخس وتُزخرفها قليلًا، تُضفي عليها بعض الدراما. وكانت قصص أخرى تأتي من «ألف ليلة وليلة»، ولو أنها، حتى في تلك القصص، تضيف دائمًا شيئًا من عندها. كانت تقول إن على المرء أن يعثر على قصص لم تتحول إلى أفلامٍ بعد، وقد اتضح أن عدد هذه قليل بحق. كانت تصبغ كل شيء بألوان عربية، فتُسهب في تفاصيل الملابس،

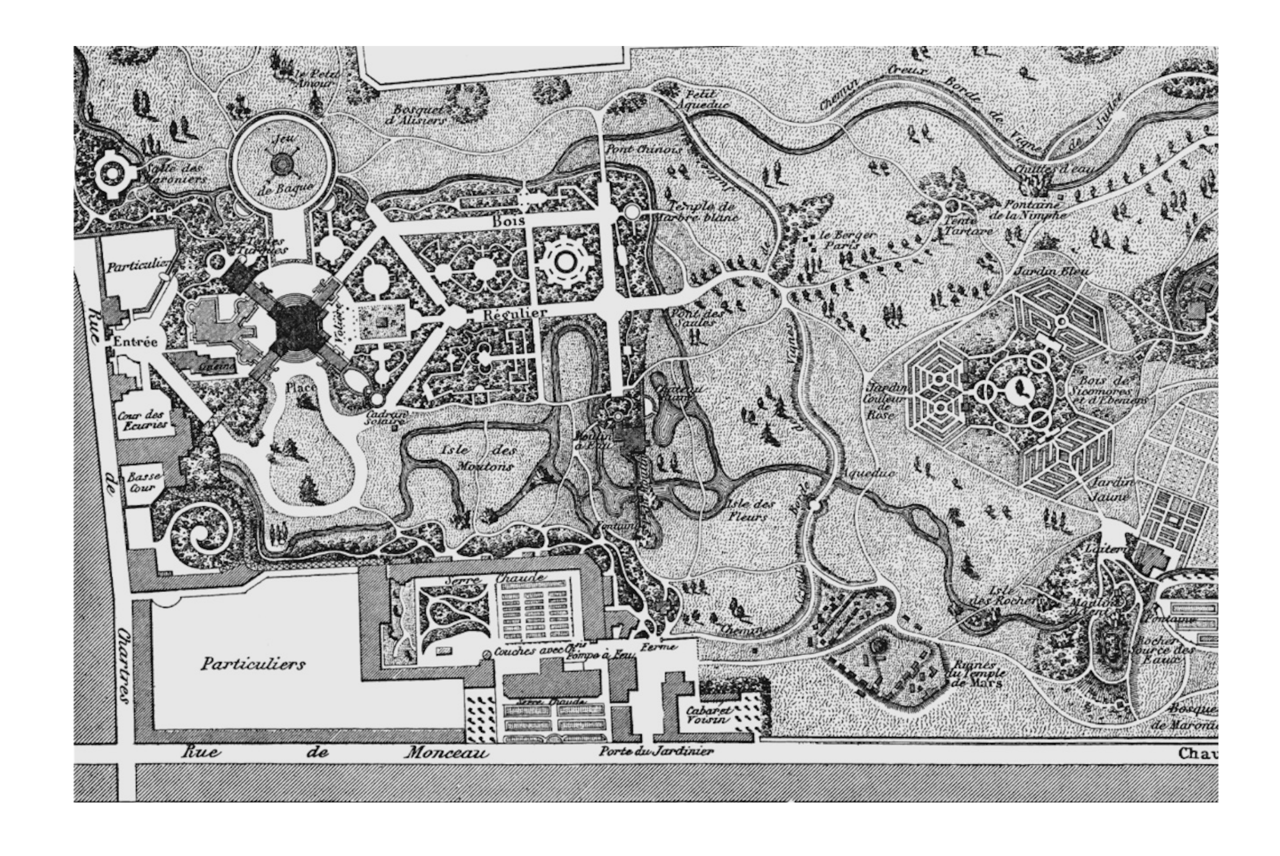
والمطبخ، وسلالات الإبل. الأرجح أنهم لم ينصتوا بانتباهٍ شديد، إذ كانت أحيانًا تخلط بعض الحقائق التاريخية، فلا تجد من يُصوّب لها، إلى أن كفّت، في نهاية المطاف، عن الانشغال بالحقائق.

الحريم (حكاية مِنتشو)

الكلمات لن تفي متاهة الحريم حقها. لذا، تخيل خلايا في قرص عسل، أمعاء ملتوية، أحشاء في جسد، قُنيَّات داخل أذن؛ لوالب، نهايات مسدودة، مصارين عوراء، قنوات ملتفة ناعمة تنتهي هنا تحديدًا، عند مدخل حُجرة سرية.

المركز مستور في الأعماق، كما في عش النمل، تلك هي حُجرات والدة السلطان، مبطنة بسجاد يشبه نسيج الرحم، مبخرة بالمُرّ، مبرّدة بالماء الذي يجعل من المجاري المشقوقة داخل المتاريس أنهارًا جارية. حولها، تمتد حجرات الأبناء الذين لم يبلغوا الحِلم بعد؛ هم أيضًا نساء، بطريقة أو بأخرى، محبوسون في العنصر الأنثوي إلى أن يأتي السيف ويشق كيسهم السلوي اللؤلؤي سامحًا لهم بالعبور إلى البلوغ. وراء تلك الباحات الداخلية تنفتح أمام المحظيات تراتبية معقدة من الخلايا: النساء المرغوبات أقل يُنقلن إلى أعلى، وكأن أجسادهن، التي أهملها الرجال، تتحول إلى ملائكة عبر سيرورة غامضة؛ الأكبر سنًا يعشن تحت السطح مباشرة - عما قريب، ستحلّق أرواحهم بعيدًا، صوب السماء بينما أجسادهن، التي كانت فاتنة ذات يوم، ستجف كما جذور الزنجبيل.

بين تلك التشكيلة من الممرات، والدهاليز، والكوات السرية، والأروقة، والباحات تقع حجرات نوم الحاكم الشاب بشحمه ولحمه، كل منها مزودة بمرحاض ملكي حيث يقضي حاجته الملكية هادئًا مطمئنًا في ترف مهيب.



Rue de Chartres
Rue de Monceau
Porte du Jardinier
Particuliers
Entrée
Cour des Ecuries
Basse Cour
Place
Cadran Solaire
Bois
Régulier
Jeu de Bague
Bosquet d'Alisiers
Petit Aqueduc
Pont Chinois
Temple de Marbre blanc
Le Berger Paris
Tente Tartare
Fontaine de la Nimphe
Chemin Creux Bordé de Vigne de Judée
Jardin Bleu
Jardin Couleur de Rose
Bois de Sicomores et d'Ebeniers
Jardin Jaune
Isle des Moutons
Isle des Fleurs
Aqueduc
Pont des Saules
Isle des Rochers
Serre Chaude
Couches avec Serre
Pompe à Eau
Ferme
Cabaret Voisin
Ruines du Temple de Mars
Laiterie
Fontaine
Rocher Source des Eaux
Bosquet de Maroniers
Allée des Maroniers

كل صباح يتحرّر من براثن الأمهات إلى داخل العالم، مثل طفل كبير الحجم يتعلم المشي بعد الأوان. مسربلًا بقفطان التشريفات يمارس دوره - ثم في المساء يرجع مستكينًا إلى الجسد، إلى أمعائه ذاتها، وإلى المهابل الناعمة لمحظياته.

يرجع من حجرات الكبار، حيث يَحكم بلده الصحراوي - يستقبل الوفود ويسوس المملكة الصغيرة المتهاوية سياسة لا طائل من ورائها. إذ إن الأخبار مروعة. الاشتباكات الدموية بين القوى الكبرى الثلاث لا تترك مجالًا للشك: عليهم أن يراهنوا على أحد الألوان، مثلما في لعبة الروليت، أن ينضموا إلى أحد الأطراف. الأمر العويصُ هو كيف يتخذ القرار - استنادًا إلى المكان الذي تعلم فيه؟ إلى انسجامه مع الثقافة؟ إلى صوتيات اللغة؟ حيرة يؤججها أكثر ضيوفه؛ هؤلاء الذين يستقبلهم كل صباح. إنهم رجال أعمال، وتجار، وقناصل، ومستشارون هامسون. إنهم يصطفون أمامه على الوسائد المزركشة، يمسحون العرق عن جباههم المغطاة على الدوام، بخوذات اللُباب، يحافظون على بياض بشرتهم بطريقة مدهشة؛ بياضٌ يُذكر بلون السيقان الأرضية - وصمة هذا الشعب ذي الأصول الشيطانية. آخرون في عمامات وعقالات، يُخربشون لحاهم أو يمضغونها، غافلين عن كونها إيماءة لا يمكن أن تقرَن إلا بالأكاذيب والضلالات. جميعهم لديهم شؤون يناقشونها معه، يريدون أن يعرضوا عليه خدماتهم كمفاوضين، يحاولون إقناعه بالخيار الصحيح الوحيد. هذا يصيبه بالصداع. المملكة ليست كبيرة - كلها أولًا عن آخر بضع عشرات من النجوع في واحات الصحراء الصخرية، ومن بين كل الموارد الطبيعية الممكنة لا تملك إلا مناجم ملح سطحية. ليس لها منفذٌ على البحر، ولا مرافئ، ولا رؤوسًا أو مضايق استراتيجية. النساء اللاتي يسكن هذا البلد الصغير يزرعن الحمص، والسمسم، والزعفران. أزواجهن ينقلون المسافرين والتجار في قوافل عبر الصحراء إلى الجنوب.

الحاكم الصغير لم ينجذب للسياسة قط، لا يفهم على الإطلاق ما الذي يفتن الآخرين فيها، كيف أمكن لجدّه الكبير أن يكرس لها حياته بأكملها. لكنه أيضًا لا يحمل أي شبه بوالده، الذي أنشأ هذه المملكة المتواضعة على مرّ عقود من الاقتتال مع البدو في الصحراء. من بين أخوته الكثيرين اختير هو لخلافة والده فقط لأن أمه كانت أكبر الزوجات سنًا، امرأة طموحة. أمه ضمنت له السلطة التي لم تستطع هي اقتناصها لأسباب بيولوجيّة. الأخ الذي كان يمكن أن يكون خصمًا خطيرًا له انتهى نهاية مأساوية، لَدَغه عقرب. أخواته لا يعتد بهن، بل إنه في الحقيقة. لا يعرفهن. عندما ينظر إلى النساء، يتذكر دائمًا أن كلًّا منهن يمكن أن تكون أخته، وعلى نحو غريب، يملأه هذا بالسكينة.

في مجلس الشيوخ، تلك الطغمة العابسة من الرجال الملتحين، ليس لديه أصدقاء. عندما يدخل غرفة الاجتماعات، يحل الصمت فجأة، ما يجعله يشعر دائمًا بأنهم يحيكون مؤامرة ضده. لا شك أنهم يحيكون مؤامرة. بعدها، بعد سلسلة من التحايا الطقسية يناقشون شؤونًا

ويلقون إليه بنظرات لا تكاد تخفي احتقارهم له وحقدهم عليه، مع أنهم جاءوا هنا فقط كما يُفترَض لالتماس موافقته. أحيانًا لسوء الحظ أصبح ذلك يحدث أكثر فأكثر. يبدو له أن العداوة في تلك النظرات العابرة صارت مادّيّة ملموسة، حادّة مثل سكين - أنهم لا يكترثون، في آخر الأمر، إن هو انتهى إلى قول «نعم» أم «لا»، أنهم فقط ينظرون إن كان جديرًا أصلًا بالاستمرار في احتلال هذا المكان في صدر الغرفة، هذ الوضع المتميز، وإن كان سيتمكن هذه المرة من التفوّه بأي كلمة.

ماذا ينتظرون منه؟ إنه لا يستطيع متابعة صياحهم في بعضهم البعض، تلك الصيحات المشبوبة، لا يستطيع متابعة منطق نقاشاتهم. يركز عوضًا عن ذلك على العمة الزعفرانية الجميلة التي يعتمرها أحدهم، وزير موارد المياه النقية، أو على المظهر البائس الهزيل الآخر، صعب ألا يلاحظ المرء الصُفرة السقيمة في وجهه المحاط بتلك اللحية الرمادية الهائلة. لا بد أنه مريض؛ لا شك أنه سيموت قريبًا.

«يموت»- تملا الكلمة الحاكم الشاب باشمئزاز كاسح؛ أليس خيرًا أنه فكر فيها، فها هو الآن يشعر بطعم اللعاب يتدفق في فمه، بحلقه ينقبض - رعشة جماع شاذة تأتيه من فوق. ويعرف أن عليه أن يخرج.

لهذا السبب يعرف بالفعل كيف سيتصرف، وإن احتفظ بذلك سرًا عن والدته.

رغم ذلك، تأتيه في وقت متأخر من ذلك المساء، ولو أنها، حتى هي، يجب أن تستأذن قبل الدخول عليه أمام حارسيه المؤتمَنَيْن، اثنين من الخصيان، أسود وأسمر: يأجوج ومأجوج. تزور ابنها وهو يستمتع بوقته بين أذرع أصدقائه الصغار. تجلس عند قدميه على نُمرق بديع، أساورها تُصلصل. كلما تحرّكت، أطلقت موجات من الشذى الحريف؛ رائحة الزيوت التي تدهن بها جسدها المُسن. تقول إنها تعرف كل شيء، وإنها ستساعده على الرحيل، شريطة أن يتعهد باصطحابها معه، هل يدرك أنه إن تركها هنا يكون حكم عليها بالموت؟

«لدينا أقارب مخلصين في الصحراء سيستضيفوننا بكل تأكيد. لقد أرسلت إليهم من يبلغهم بالفعل. سننتظر انقضاء أصعب الأوقات هنا، ثم متخفيين، نأخذ متاعنا، المجوهرات والذهب، ننطلق غرباء إلى الموانئ، ونهرب من هنا بلا رجعة. سنستقر في أوروبا، لكن ليس بعيدًا جدًا، حتى يمكننا حين يطيب الطقس أن نرى شطآن أفريقيا. سأظل أعتني بأطفالك، يا بني». هكذا تقول، ومن الواضح أنها تؤمن حقًا برحلتهم تلك، لكن من الواضح بالقدر نفسه أنها لم تعد تؤمن بهؤلاء الأحفاد - بكل تأكيد.

ماذا بوسعه أن يقول؟ يربت على رؤوسهم الحريريّة وينزل عند رغبتها.

بيد أنه ما من أسرار في قفير النحل الكلمة تنتشر في اتجاهات سداسيّة، خلية بعد خلية، عبر المدافئ، وبيوت الراحة، والممرات، والباحات. تنتشر مع الهواء الساخن المنبعث من

الأحواض المصنوعة من حديد الزهر التي تحرق الفحم لكي تجعل برد الشتاء أكثر احتمالًا. أحيانًا يكون الهواء القادم من الأراضي الداخلية شديد البرودة لدرجة أن طبقة رقيقة من الثلج تغطي البول في المباول الخزفية الملونة داخل الحجرات. تنتشر الأخبار عبر طوابق المحظيات وكلهن، حتى اللاتي اقترب من الحالة الملائكية، في الطوابق العليا، يحزمن متاعهن القليل. يتهامسن بين أنفسهن، ويتشاجرن حول مواقعهن في القافلة.

على مدار الأيام القليلة التالية ينتعش القصر بصورة ملحوظة؛ مضى زمن طويل منذ أن شهد هذا القدر من الجيشان. وهذا ما جعل حاكمنا يندهش لأن كل شيء يبدو وكأنه يمضي في غفلة من «ذو العمامة القرمزية» و«ذو اللحية البائسة».

يُفكر أنهم حمقى أكثر مما تصور.

في هذه الأثناء، يفكرون هم بالطريقة نفسها - أن حاكمهم اتّضح أنه أغبى كثيرًا مما ظنوا. ويخفف ذلك من أسفهم عليه. يتهامسون بين أنفسهم: لقد اقترب بالفعل من الغرب جيش عَرمرم، بالبحر والبر. يقال إنهم يزحفون في جحافل. يقال إنهم أعلنوا حربًا مقدسة على العالم. يهمس مستشارو الحاكم الصغير: إنهم ينوون غزونا. تشغلهم أورشليم أكثر من غيرها، حيث ترقد رُفات نبيهم. لا شيء يمكن فعله معهم - إنهم لا يشبعون وقادرون على كل شيء. سوف ينهبون بيوتنا، ويغتصبون نساءنا، ويحرقون ديارنا، ويدنسون مساجدنا. سوف ينتهكون كل المعاهدات والاتفاقيات إنهم طاعون لا سبيل للتكهن بأفعالهم. الأمر واضح. ليست المسألة مسألة قبر، لسوف نعطيهم كل قبورنا، ليأخذوها فحسب، لدينا الكثير منها هنا. إذا كانت القبور هي ما يهمهم، ليأخذوها. لكن الواضح أن تلك ليست سوى حُجّة؛ إنهم يريدون الاستيلاء على الأحياء لا الموتى. فور أن ترسو سفنهم على قارتنا سيطلقون صيحات المعركة بلغتهم الخشنة الجامحة لا يستطيعون الحديث بلساننا الفصيح، ولا قراءة أبجديتنا. بوجوههم التي شحَبَت من الشمس جرّاء رحلتهم الطويلة، ولونهم الذي حال بفعل ملح البحر الذي يغطي جلودهم في طبقة رقيقة رهيفة من اللجين، سوف يجتاحون مدننا، يَخلعون أبواب دورنا من مفاصلها، يحطمون جرار الزيت، ينهبون مخازن المؤن، بل وسوف يبلغون - لطفًا يا رب- جلابيب نسائنا. إنهم لا يستطيعون رد أي تحية نقدّمها، يحدّقون فينا بغباء، فتبدو قزحيّات عيونهم الفاتحة وكأنما شطفت بالماء بليدة. لقد قال قائل إنهم قبيلة ولدت في أعماق البحر رئتها الأمواج والأسماك الفضية، وإن أبناءها يبدون - فعليًا- مثل حُطام الخشب الذي يلفظه البحر إلى الشاطئ؛ جلودهم بلون العظام التي تلاعب بها البحر لزمن طويل. لكن آخرين يصرون على أن ذلك ليس صحيحًا - إذ كيف، إذًا، غرق حاكمهم، صاحب اللحية الحمراء، في أعماق نهر سيليف؟

هكذا يتهامسون، بكل جدية، ثم يتحولون إلى التذمر. حاكمنا هذا خذلنا. والده، بالطبع، كان صالحًا، كان ليجهز على الفور ألف فارس للمعركة، يحضن الأراضي الحبيسة، يمدّنا بالماء

والغلال تحسبًا للحصار. لكن هذا... بصق أحدهم بعد نطق اسمه، ثم سَكَت، خوفًا مما قد يخرج من فمه.

عمَّ صمت طويل. يهرش رجل لحيته، يُحدّق آخر في الرسوم المعقدة على الأرضية، حيث كسرات من الخزف الملوّن تُشكّل متاهة. وثالث يمرر يده على جراب خنجره، المكسو بزخارف مسهبة من الفيروز. أصابعه تُمسّد البروزات الصغيرة، ذهابًا وإيابًا، اليوم لن يُحدد هؤلاء المستشارون والوزراء الشجعان شيئًا. لقد نُشر الحراس بالفعل في الخارج. جيش القصر.

تلك الليلة في هدأة عقولهم راحت الأفكار تترعرع، تنمو مثل نبات، تنضج في غمضة عين سرعان ما سُتزهر وتُثمر. في الصباح ينطلق رسول على صهوة جواد حاملًا التماسًا خانعًا للسلطان أن يَبسط نفوذه على هذا المملكة الصغيرة التي لا يتذكرها أحد قطّ؛ لقد ثار مجلس الشيوخ؛ ثار لأجل المؤمنين المتّقين، لأجل أن يخلصوا أنفسهم من حاكمهم الفاشل - نَهَضَ السيف البتّار- وهم يطلبون دعمًا مسلحًا ضد الكفار القادمين من «الغرب»، ألوفًا مؤلّفة مثل رمل الصحراء.

في تلك الليلة ذاتها، تخرجه من تحت الجلود والسجاجيد، من بين أجساد الأطفال الذين ينام معهم في الفراش: تهزه من سُباتِه وتقول له أن يرتدي ملابسه.

«كل شيء جاهز، الإبل في الانتظار، اثنان من جيادك أُسرجا، وعُلِّقت بسرجيهما خيام ملفوفة».

يئن ابنها، يتأوه - كيف سيقطع الصحراء بلا طاسات وصحون، بلا مواقد فحم، بلا سجاجيد يرقد عليها مع غلمانه؟ بلا مرحاضه، بلا إطلالة من النافذة على الباحة والفسقية بمياهها الصافية كالبلور؟

«سوف تُقتل»، تهمس أمه، وجعدة رأسية تشق جبهتها مثل خنجر، همستها أفعوانية - هسيس حية حكيمة عند البئر. «انهض».

الآن، من وراء بضعة جدران، سمعَ خُطى متلعثمة لقد حزمت زوجاته متاعهن بالفعل - الصغيرات متاعًا أكثر، والكبيرات متاعًا أقل، كيلا يترك مجالًا للاستياء منهن. مجرد صُرر متواضعة، فقط الأوشحة والعقود والأساور القيمة. الآن يُقرفص عند الباب، وراء الستارة في انتظار استدعائهن، ولما تأخر الأمر كثيرًا، صرن ينظرن بنفاد صبر من النافذة، حيث بدأ قمر وردي صعوده من الشرق فوق الصحراء. لا يتبينّ جسامة الصحراء، التي تلعق درجات سلم القصر بألسنة خشنة إذ لا تُطلّ نوافذهن إلا على الباحة الداخلية.

«الفرعُ الذي رشق عليه أسلافك خيفتهم كان محور العالم. مركزه. أينما رشقت خيمتك

تصير مملكتك»، تقولها أمه، وهي تدفعه باتجاه باب الخروج. ما كانت لتجرؤ على لمسه بتلك الطريقة من قبل، لكنها الآن، بهذه الإيماءة، توضح له أنه، في تلك السويعات القليلة الماضية فحسب، لم يعد حاكم هذه الولاية الزعفرانية.

تسأله: «أي زوجاتٍ ستأخذهن معك»، ولبرهة طويلة لا يُحر جوابًا، فقط يسحب الأطفال - فتيانًا وفتيات، جراءٌ ملائكية، أجسادهم النحيلة العارية مسربلة بالليل؛ أكبر الأولاد سنًا لا بد لا يتجاوز العاشرة من عمره، وأصغر الفتيات، الرابعة.

زوجات؟ لن يأخذ زوجات، لا الكبيرات، ولا الشابات؛ كن مقبولات في القصر. لم يحتج إليهن فعليًا قطّ، كان يضاجعهن لنفس السبب الذي جعله يجبر نفسه على التطلع إلى السُحنات الملتحية لمستشاريه كل صباح. لم يكن اختراق أفخاذهن الوافرة، وفتحاتهن اللحيمة يجلب له الكثير من المتعة. كان يشعر بالتقزز من آباطهن المُشعرة وأثدائهن النافرة. ولهذا كان يحرص دائمًا على ألا يسكب ولو قطرة واحدة من بذوره الثمينة في تلك الحُقوق البائسة، كيلا يهدر ولو قطرة واحدة من الحياة.

مع ذلك، كان متأكدًا أنه بإمساك كل سوائله، وبفضل الأجساد الصغيرة للأطفال التي كان يستمد منها القوة في نومه، بفضل أنفاسهم الحلوة على وجهه، سينال الخلود يومًا.

يقول لأمه: «سنأخذ الأطفال، صغاري، هذه الدزينة من الملائكة، دعينا نُلبسهم ملابسهم. ساعديهم».

ترد عليه بهسيس: «يا أحمق! تريد أن تأخذ الأطفال؟ لن نصمد في الصحراء يومًا واحدًا معهم. ألا تسمع الحفيف والهمسات تقترب؟ ليس لدينا لحظة تضيعها. ستتخذ أطفالًا آخرين حيثما نَصِل، أطفالًا أكثر. اترك هؤلاء سيكونون بخير».

لكنها إذ ترى إصرارَه، تُطلق شهقة غاضبة وتقف في إطار الباب فاردةً ذراعيها على الجانبين. يذهب ابنها إليها؛ يُقيّم كل منهما الآخر بعينيه. يُحيط بهم الأطفال في نصف دائرة، البعض يتشبث بذيل قفطانه. نظرتهم هادئة لا مبالية.

«إمّا هم وإما أنا»، تقولها أمه من دون تفكير، وعندما تخرج الكلمات من شفتيها، عندما تراها من الخارج، تحاول أن تختطفها بلسانها لتعيدها إلى فمها. لكن الأوان فات. ما من سبيل لاستيقافها.

بحركة واحدة يضربها ابنها بقبضته في بطنها، في المكان الذي كان داره الأولى قبل سنوات، تلك الحجرة الناعمة، المبطنة بالأحمر والقرمزي. في قبضته يمسك سكينًا. تميل المرأة إلى الأمام، ومن الجعدة على جبهتها تنسكب الظلمة على وجهها.

أزِفَ الوقت. يأجوج ومأجوج يُحمِّلان الأطفال على الجمال، أصغرهم في أقفاص، مثل الطيور. يُعلّقون النفائس، الأغراض الثمينة ملفوفة في كتانٍ خشن، لإخفائها، وحين تبرز

أول كسرة من الشمس وتخدش الأفق، يكونون على الطريق. في البداية تُسبغ عليهم الصحراء ظلالًا طويلة سخية تنزلق من كثيب إلى كثيب، مخلفة أثرًا لا تراه إلا العين الخبيرة. مع الوقت سيتقلص هذا الظل حتى يختفي تمامًا في نهاية المطاف، عندما تتمكن القافلة من إحراز الخلود الذي تسعى إليه.

حكاية أخرى من حكايات مِنتشو

عاشت قبيلة بدوية معينة لسنوات في الصحراء بين محلات المسيحيين والمسلمين، فتعلم أبناؤها الكثير. في أوقات المجاعة، أو القحط، أو الخطر، كانوا يُضطرون إلى البحث عن ملجأ بين جيرانهم المقيمين. في البداية كانوا يرسلون رسولًا يراقب عادات المحلّة من وراء الأجمّة، وبناءً على الأصوات، والروائح، والملابس، يُحدّد ما إذا كانت القرية مسلمة أم مسيحية. بعدها يعود الرسول بهذه المعلومة إلى قبيلته، فيخرجون من خروج نُوقهم «الإكسسوارات» اللازمة ويدخلون الواحة، متنكرين كأخوة في الإيمان. ولم تُمنع عنهم مساعدةً قَطّ.

مِنتشو أقسمَت أنها تحكي لي الحقيقة.

كليوباترات

أخذتُ حافلة مع نحو عشر نساء منتقبات. لم تكن تُرى إلا عيونهن، عبر فتحات في أرديتهن - وقد أذهلتني دقة وجمال مساحيق تجميلهن. كانت عيون كليوباترات. كانت النساء يشربن بلطافة مياه معبأة في زجاجات بمساعدة شفاطات؛ تختفي الشفاطات في طيّات النسيج الأسود وتعثُر، في مكان ما بداخلها، على الشفتين الافتراضيتين للمرأة. كانوا قد شغّلوا لتوّهم فيلمًا على الشاشة الأمامية، بهدف تحسين رحلتنا - ظهرت «لارا كروفت» على الشاشة[15]. وسرعان ما أخذنا جميعًا، نحن النسوة، ننظر في افتتان بينما تلك الفتاة الرشيقة لامعة الذراعين والفخذين تَصرع جنودًا مدججين بالسلاح.

ربع ساعة طويل جدّا

في الطائرة بين الساعة 8:45 و9 صباحًا. برأيي، استغرقنا ساعة، أو ربما أكثر.

أبوليوس الحِمار

حمّارٌ أسرَّ لي بقصَته.

كانت مشكلة الحمير أنها استثمار مكلّف للغاية، الإيرادات بسيطة وتتطلب الكثير من العمل. خارج موسم الذروة، في غياب السياح، يكون عليك التكفل بنفقات طعامها والعناية بجلودها - يجب أن تظل نظيفة مهندمة. هذا الجمار البني الداكن ذكرٌ، أبٌ لأسرة كاملة. اسمه «أبوليوس» -هكذا أطلقت عليه إحدى السائحات[16] . وذاك الحمار هناك اسمه «جان جاك»، ولو أنه أنثى، وهذا الحمار الأفتح لونًا «جان بول». لديّ بعض الحمير الأخرى في الجانب الآخر من البيت. الآن، خارج الموسم، لا يعمل إلا اثنان فقط. لكن عندما تبدأ الحركة في الصباح أخرجهما إلى هنا، قبل وصول الحافلات.

الأمريكان هم الأسوأ على الإطلاق - معظمهم مفرطو البدانة. كثيرًا ما يكونون حملًا ثقيلًا حتى على أبوليوس. يزنون ضعف وزن الآخرين. الحِمار حيوان ذكي، يستطيع تقدير الوزن في التو واللحظة، غالبًا يبدأ في التذمر بمجرد رؤيتهم ينزلون من حافلة الرحلات بأجسادهم شديدة السخونة، وبقعٌ من العرق على قمصانهم، وتلك البنطلونات التي يرتدونها ولا تتجاوز رُكَبهم. يراودني شعور بأن الحمير تستطيع تمييزهم من رائحتهم. لذا تظل لديهم مشكلة معهم حتى عندما يتضح أن أبعادهم لا بأس بها. يبدأ الحمار في الرفس والنهيق، كمن يحاول التهرب من العمل.

لكن حميري طيّبة، لقد ربيتها بنفسي. مُهمٌ بالنسبة لنا أن يغادرنا زبائننا بذكريات طيبة. أنا لست مسيحيًا، عن نفسي، لكنني أفهم أن هذا المكان بمثابة الذروة في جولتهم. إنهم يأتون إلى هنا لركوب حميري والتجوّل في المكان حيث جنتلمان ما يسمى يوحنا عمَّد نبيَّهم بماء من النهر. كيف يعرفون أن ذلك حدث في هذه البقعة؟ لا بدّ أنه مكتوب في كتابهم المقدّس.

إعلاميون

وقع هجوم في الصباح. قتل شخص وأصيب عدة أشخاص. كانت الجثة قد نقلت من الموقع. وكانت الشرطة تحاوط المكان بشريط بلاستيكي أحمر وأبيض ترى من ورائه بقع دماء هائلة على الأرض، والذباب يدور فوقها. دراجة بخارية راقدة على الأرض، وبالقرب منها بركة بنزين تتراقص عليها الألوان وتتبدل كما على حجر الشمس؛ بجانبها كيس فواكه بلاستيكي، حبات اليوسفي متناثرة، قذرة، متسخة؛ بعدها بعض الأسمال، صندل، طاقية بيسبول بلا لون محدد، جزء من هاتف محمول - حيث اختفت الشاشة وحلت محلها فتحة واسعة.

تجمع الناس عند الشريط وراحوا ينظرون في رعب. تحدّثوا قليلًا، بصوت أقرب إلى الهمس.

تمهَّلَت الشرطة في إخلاء الموقع لأن صحافيًا من إحدى المحطات المهمة يفترض أنه آتٍ لتغطية الحادث. يُفترض أنه أراد تصوير بقع الدماء تلك خصوصًا. يُفترض أنه كان في الطريق.

إصلاحات أتاتورك

ذات يومٍ، في المساء، وأنا راقدة في الفراش بعد يوم كامل من التجوال على قدمي، أنظرُ وأنصت، تذكرتُ ألكسندرا وتقاريرها. فجأة بدأتُ أشتاق إليها. تخيّلتُ أنها قد تكون في المدينة نفسها، أنها تنام وحقيبتها إلى جوار سريرها، في هالة شعرها الفضية. «الحوارية الجميلة»، «ألكسندرا الحقّانية». عثرتُ على عنوانها في حقيبة ظهري وكتبتُ لها عن «فضيحة» عرفتُ أمرها هنا.

عندما كان أتاتورك يُجري إصلاحاته الجسورة، في العشرينيات، كانت اسطنبول مدينة مليئة بكلاب ضالّة نصف متوحشة. بل وتطوّرَت منها سلالةٌ خاصة- كلب متوسط الحجم، بشعر قصير، وجلد فاتح، أبيض أو كريمي، أو مزيج مرقّع من هذين اللونين. كانت الكلاب تعيش حول أحواض السفن، بين المقاهي والمطاعم، في الشوارع والميادين. في الليل تخرج للصيد في المدينة؛ تنبش، تفتش في القمامة. منبوذة، عادت إلى سلوكياتها الطبيعية القديمة - راحت تتجمع معًا في قطعان، تنتخب قادة لها مثل الذئاب وبنات آوى.

لكن أتاتورك كان مهتمًا جدًا بتحويل تركيا إلى بلدٍ متحضر، هكذا، على مدار يومين، قبضت قوات خاصة على آلاف الكلاب، نُقلت من ثمّ إلى جزر قريبة غير مأهولة، بلا نباتات. أطلق سراحها. بلا ماءٍ عذب ولا أي نوع من الطعام، راحت تتغذى على بعضها البعض لثلاثة أو أربعة أسابيع بينما كان سكان اسطنبول، وخاصة أصحاب المنازل ذات الشرفات المطلة على مضيق البوسفور، أو مُرتادو مطاعم الأسماك على الشاطئ، يسمعون العواء من هناك، ثم أضنَتهم موجاتُ الرائحة النتنة.

أثناء الليل كان المزيد والمزيد من البراهين على خطايا البشر يتواتر على عقلي، حتى صرتُ منقوعة في عرقي. مثلًا، ذلك الجرو الذي تجمَّد حتى الموت لأن شخصًا قَلبَ فوقه طستًا من الصفيح ليكون مأوىً يدفئه.

كالي يوغا[17]

«العالم يُعتِم أكثر فأكثر»، هكذا اتفق الرجلان الجالسان بجواري. بحسب ما فهمت، كانا يطيران من مونتريال لحضور مؤتمر سيحضره علماء بحار وعلماء جيوفيزياء، الظاهر أن الإشعاع الشمسي الساقط تراجع بنسبة أربعة بالمئة منذ الستينيات. متوسط معدل الضوء الذي يفقده الكوكب يبلغ نحو 1.4 بالمئة كل عقدٍ من الزمن. الظاهرة ليست جليّة بما يكفي لأن نرصدها بأنفسنا، لكنها لوحظت بأجهزة القياس الإشعاعي. فقد أوضحت أجهزة القياس الإشعاعي، على سبيل المثال، أن كمية الإشعاع الساقط الذي كان يصل إلى الاتحاد السوفييتي بين عامي 1960-1987 تراجعت فعليًا بنسبة الخمس.

ما سبب هذا الإعتام؟ ليس معروفًا بعد. يفترض أنه شيء متعلقٌ بتلوّث الهواء. السُخام وجزيئات الأيروسول.

غفوتُ ورأيت رؤيا مخيفة: سحابة هائلة تظهر من وراء الأفق - دليل على حرب عظمى، سرمدية، مندلعة في البعيد، قاسية ووحشية؛ تُدمّرُ العالم. لكن لا بأس، فنحن - إلى الآن على جزيرة محظوظة: بحر لازوردي وسماء زرقاء صافية. تحت أقدامنا رمال دافئة ومكعبات الأصداف الناتئة.

بيد أن هذه جزيرة «بيكيني». كل شيء سيموت عمّا قريب، سيُحرق، سيضيع، وعلى أفضل الأحوال سيتعرض لطُفور مهول. سوف ينجب الناجون أطفالًا أشبه بالوحوش، توائم ملتصقة من الرأس، دماغ واحد في جسدين، قلبان في قفص صدري واحد. ستظهر حواسٌ جديدة: الإحساس بالنقص، تذوق الغياب، القدرة على نوع خاص من الاستبصار. معرفة ما لن يحدث. القدرة على شم ما لا وجود له.

يزداد الوهج الأحمر الداكن قوّة، تتحول السماء إلى اللون البني، تُعتم أكثر فأكثر.

مقتنيات من النماذج الشمعية

كل حَجّة من حَجّاتي ترمي إلى حَجّة أخرى. هذه المرة في عالم الشمع.

فيينا، المتحف اليوسفي[18]: مجموعة من النماذج التشريحية المصنوعة من الشمع، رُمّمت مؤخرًا. في هذا اليوم الصيفي الممطر، كان مسافرٌ واحدٌ آخر، بخلافي، قد انتهى إلى هنا - رجل في منتصف العمر، يضع نظارة بإطار من السلك، شعره رماديٌ بالكامل. لكنه انشغل بنموذج واحد فقط، كرّس له رُبع ساعة، ثم اختفى، وعلى شفتيه ابتسامة غامضة.

عن نفسي كنت أخطط للبقاء وقتًا أطول. كنت قد تجهزتُ بكُرّاس وكاميرا - بل ووضعت في جيوبي حلوى بالكافيين، وقالبًا من الشوكولاتة.

ببطء، لكي لا يفوتني أي شيء في المعرض، رُحت أتحرك في خطوات صغيرة بين الخزانات الزجاجية.

النموذج 59: رجل طوله متران. مسلوخ. جسده منسوج بعذوبة من عضلات وأوتار. عمل مكشوف الحشا. النظرة الأولى تجلب صدمة، ردّة فعل انعكاسية لا شك - منظر الجسد بلا جلد مؤلم في حد ذاته، منظر يلدغ، يَلسّع، مثلما في الطفولة عندما ينسلخ جلد الركبة ويطل اللحم الحي من ورائه. إحدى ذراعي النموذج وراؤه، بينما اليمنى، المرفوعة فوق رأسه في حركة رشيقة تُذكر بالتماثيل القديمة، تحمي عينيه - وكأنه كان يرنو إلى الشمس في الأفق. نعرف هذه الإيماءة من لوحات التصوير - على هذا النحو، يتطلع المرء إلى المستقبل. النموذج 59 يمكن أيضًا أن يعرض في «متحف الفنون» القريب؛ الحقيقة لا أعرف لماذا حُكم عليه بقضاء كل أيامه في «متحف تشريح» مُهين. إنه جدير فعلًا بالعرض في معرض لأجمل الفنون، لأنه عمل فني من ناحيتين - بسبب تنفيذه البارع بالشمع (وهذا بطبيعة الحال أعظم إنجازات المذهب الطبيعي)، لكن أيضًا بسبب تصميم الجسد نفسه. من ذا الذي أبدعه؟

النموذج 60: أيضًا يعرض عضلاتٍ وأوتارًا، لكن انتباهنا ينجذب - في المقام الأول إلى شريط الأمعاء اللطيف، المصمم هنا بنِسب مثالية. سطحها الناعم يعكس نوافذ المتحف. لا أدرك إلا بعد برهة، وأنا مذهولة، أنها امرأة - مزينة بقلادة غريبة، قطعة من الفرو الرمادي ملتصقة بقاعدة البطن، تحتوي على فرجة مستطيلة شُقّت بفظاظة. واضح أن صانع النموذج أراد أن يتيقن تمام اليقين أن المشاهد، المفترض أنه ليس خبيرًا بالتشريح، سيفهم أنه أمام أمعاء أنثوية. هنا لدينا الختم المُشعِر، العلامة المميزة للنوع، شعار الأنثى. يعرض النموذج

6 الجهازين الدوري والليمفاوي كهالةٍ معوية. معظم الأوعية الدموية ترتاح على العضلات، لكن بعضها يُعرض مثل هوائي الاستقبال الشبكي؛ الفارق أنك ترى هنا عجائب الهندسة الكسرية في تلك الحبال الحمراء.

بعد ذلك ترى أذرعًا، وسيقانًا، ومعداتٍ، وقلوبًا. كل نموذج منبسط بحرص على قطعة من الحرير تلتمع كاللؤلؤ. الكُلى تخرج من المثانة مثل شقائق النعمان. «طَرفٌ سفلي وأوعية دموية»، هكذا تقرأ على البطاقة التعريفية بثلاث لغات. شبكة الأوعية الليمفاوية البطنيّة، العقد الليمفاوية، دبابيس ونجوم الزينة التي زخرفت بها يد مجهولة رتابة العضلات. نماذج الأوعية الليمفاوية تصلح للعرض في واجهات الجواهرجية.

في مركز هذه المجموعة الشمعية يستقر النموذج 244، أجمل النماذج على الإطلاق، النموذج الذي أثار اهتمام الرجل ذي النظارة السلكية إلى ذلك الحد، والذي يوشك أن يستولي على انتباهي أنا أيضًا لنصف ساعة.

إنها امرأة راقدة على ظهرها، كاملة تقريبًا، لا يظهر أي تدخل في جسدها إلا في موضع واحد: بطنها المفتوحة تُظهر للحُجّاج أمثالنا الجهاز التناسلي، مضغوطًا إلى الحجاب الحاجز، والرحم تحت مظلة المبيضين. هنا، أيضًا، ترى الختم القرائي المميز للنوع، والزائد على اللزوم بالكليّة. بالتأكيد لن يراودك شك في أن هذا النموذج يخصُّ امرأة. العانة مغطاة بكل دقة وإتقان بشعر زائف، وتحته، بعناية فائقة، فتحة المهبل، يصعب اكتشافها، إلا لأولي العزم الذين لا يترددون في القرفصة بجوار القدمين الصغيرتين بأصابعها المُحمّرة، كما فعل الرجل ذو النظارة. وأظنه خيرًا فعل، والآن جاء دوري.

للمرأة شعر فاتح اللون، منسدل على حريته، وعينان مغمضتان قليلًا، وشفتان نصف مفتوحتين - لن ترى إلا أطراف أسنانها. حول عنقها عُقد من اللؤلؤ. تصدمني العذرية المطلقة لرئتيها، غضّتان وحريريتان من تحت اللآلئ، واضحٌ أنهما لم يسحبا نَفَسًا من سيجارة قطّ. وكأنهما رئتا ملاك. القلب المفتوح بشكل مستعرَض، يكشف طبيعته المزدوجة، حجرتاه مبطّنتان بقطيفة من نسيج أحمر مُعدٌّ لحركة واحدة لا تتغير. الكبد يلتف حول المعدة مثل فَمٍ كبيرٍ دامٍ. كذلك تظهر كليتاها والحالبان، اللذان يشبهان جذر نبتة «ماندريك» هاجعًا فوق رحمها. الرحم عضلة تسر العين - نحيلة ومتناسقة: يصعب تخيلها تتجوّل في أرجاء الجسد وتُثير الهستيريا، كما كان يُظنّ في قديم الأيام. لا ريب أن الأعضاء موضّبة بجهدٍ جهيد داخل حقيبة الجسد، استعدادًا لرحلةٍ كبرى. كذلك يكشف مهبلها، المشقوق طوليًا، سرّه: القناة القصيرة التي تمثل، في الحقيقة طريقًا مسدودًا يبدو بلا أي فائدة على الإطلاق، فهو لا يقود إلى أحشائها، بل ينتهي بحجرة مغلقة.

مرهقةً، جلست بجوار النافذة على المقعد الجامد أواجه مجموعة النماذج الشمعية الصامتة،

وأستكين للمشاعر الكاسحة. ما العضلة التي كانت تقبض على حَلقي بهذه القوة؟ ما اسمها؟ من ابتدع الجسد الإنساني، وعليه، من يمتلك حقوق ملكيته السرمدية؟

أسفار الدكتور بلاو (I)

لحية رمادية وشعر خالط بياضه سواده، يسافر إلى مؤتمر حول حفظ العينات الطبية، مع التركيز على تَلدين الأنسجة البشرية. يسترخي في مقعده، يضع السماعات، ويُنصت لـ«كَنتاتا» باخ.

الفتاة في الصّور، التي حفضها ويأخذها معه الآن، شعرها مصفف بطريقة ظريفة - مقصوص باستقامة من الخلف، لكن الخصلات الأمامية أطول. خصلات تصل إلى كتفيها العاريين، وتتراقص بغَنَج على وجهها فلا ترى من تحتها إلا خط شفتيها الواضح، الأحمر البني، مرسومًا على صفحة وجهها الناعمة. بلاو أحبه، أحب فمها، بقدر ما أحب جسدها - صغير ومشدود، ثديان متماسكان، حلمتان نافرتان على منبسط صدرها المخملي. الوركان ممشوقان، وإن كانت فخذاها وافرتين بعض الشيء. لطالما انجذب بلاو للسيقان القوية. «القوة في الأفخاذ»، قد تكون سُداسية بلاو رقم 65[19]. المرأة ذات الفخذين القويتين تشبه كسارة البندق: إذا تجاسرتَ ودخلتَ بينهما خاطرتَ بأن تسحق سحقًا. إذا تجاسرتَ ودخلتَ بينهما نزعتَ فتيل قنبلة.

هذا يثيره. إنه نحيل، صغير. وهكذا فهو يجازف بحياته.

كان مهتاجًا وهو يلتقط لها تلك الصور. كان هو الآخر عاريًا، وهكذا اتضح اهتياجه بصورة لا تخطئها العين. لكن لأن وجهه كان محتجبًا وراء الكاميرا، لم يبالي، كان «مينوتور» [20] ميكانيكيًا بوجه فوتوغرافي، قَصَبة في قمَّتها عين واحدة، هي العدسة، تُقرّب الصورة وتبعدها، تتقدم وتتراجع مثل جذع شجرة آلي.

لاحظت الفتاة حالته، ما أعطاها ثقة. رفعت ذراعيها، وشبكت يديها وراء رقبتها، كاشفةً إبطيها الأعزلين، الوعود المستترة، ناقصة النمو، لمنفرج ساقيها. عندما ارتفع ثدياها أصبحا مسطّحين تقريبًا، غلاميّين تقريبًا. اقترب بلاو أكثر، على ركبتيه، والكاميرا على وجهه، وبدأ يلتقط لها صورًا من أسفل. كان يرتجف. ركز في تلك القُنزعة من الشعر الأسود، الحليقة إلى خط رفيع جعل وركيها يبدوان أنحَل للعين؛ خطٌّ مثيرٌ يشبه علامة تعجب، يكاد يخدش عدسته. الآن، كان قد انتعظ بقوة. كانت الفتاة قد تناولت قليلًا من النبيذ الأبيض -فكّر أنَّه ريتسينا يوناني- والآن جلست على الأرض، عاقدة ساقيها ومخبئة الموضع الذي هيّج الطبيب. وأدرك هو معني تلك الجلسة: إنهما يقتربان من نهاية الأمسية.

لكن ذلك لم يكن ما يسعى إليه حقًا. تراجع إلى النافذة، مؤخرته الرفيعة العارية تلمس

للحظة الحافة الباردة. كان لا يزال يلتقط الصور. قبض الآن على حركة أخرى، هذه المرة من وضعية الجلوس. الفتاة شبيهة الحِملان كانت تبتسم، فخورة بتأهب جسد الدكتور بلاو - فهذا يعني أنها تستطيع أن تعمل سحرها عن بعد- يا لها من قوة! قبل بضع سنوات، عندما كانت طفلة، كانت تتخيل أنها تلعب ألعابًا سحرية، تتخيل أنها تستطيع تحريك الأشياء بإرادتها فقط. أحيانًا كان يبدو لها أن ملعقة أو مشبكًا قد تحرّك بالفعل مسافة ملليمتر واحد. لكن لا شيء سبق وأن رضخ لإرادتها بهذا الوضوح من قبل، بهذه المسرحية.

أما بلاو، فكان الآن في مواجهة المهمة الحقيقية المطروحة بين يديه. في هذه المرحلة، لا فائدة من تأجيل المحتوم. انجرف جسداهما كلٌ إلى الآخر. سمحت له الفتاة أن يداعبها ويطرحها على ظهرها. بأصابع رقيقة نزع الدكتور فتيل القنبلة. انفتحت سداسيّة فخذيها أمام كل التأويلات. وطَقَّت الكاميرا.

يمتلك بلاو مجموعة كاملة من تلك الصور، بالعشرات، ربما بالمئات الآن - أجساد نساء أمام جدران عارية. تختلف الجدران، لأن الأماكن ليست نفسها: فنادق، بنسيونات، مكتبه في «الأكاديمية»، ومن حينٍ لآخر شقته، أما الأجساد فمتشابهة بالأساس، ليس فيها ألغاز.

لكن ليس المهابل. المهابل مثل بصمات الأصابع، في الحقيقة بإمكانهم استغلال تلك الأعضاء المخجلة، التي لم تقدرها الشرطة حق قدرها بعد، من أجل استبانة الهويات - فهي متفرّدة تمامًا. جميلة مثل زهور الأوركيد التي تجذب الحشرات إليها بشكلها ولونها. يا لها من فكرة غريبة - بقاء تلك الآلية النباتية بصورة ما حتى عصر تطوّر الجنس البشري. والحق أنها آلية ناجعة. يبدو له وكأن الطبيعة نفسها ابتهجت كثيرًا بهذه الفكرة المستمدة من بتلات الأزهار حتى أنها عزمت على تصعيدها، غافلة عن أن نفس الإنسان ستخرج عن السيطرة في نهاية المطاف، وتحجب ما قد تطور على هذا النحو الجميل. تُخفيه في ملابس داخلية، في تلميحات، في الصمت.

يحتفظ بصور المهابل في عُلب من الكرتون عليها رسوم متكررة، عُلب اشتراها من «إيكيا»، لا تُغيّر، على مر السنين، إلا تصميمها، بحسب الموضة الرائجة بدءًا من التصميمات المبهرجة، المنسجمة مع ابتذال الثمانينيات، إلى درجات الرمادي والأسود المقتصدة للتسعينيات، وصولًا إلى يومنا هذا «الفينتاج»، الـ«بوب آرت»، الـ«إثنو». هكذا، لا يحتاج حتى لتدوين التواريخ عليها - يتعرف عليها بمجرد النظر. بَيدَ أن حلم الدكتور هو إنشاء مجموعة حقيقية، لا مجموعة من الصور.

كل جزء من أجزاء الجسد يستحق التذكر. كل جزء من أجزاء الجسم البشري يستحق البقاء. عارٌ أنه هش إلى هذه الدرجة، رقيق إلى هذه الدرجة. عارٌ أن يسمح له بالتحلل تحت الأرض، أو يُترك تحت رحمة النار، يحرق مثل القمامة. لو كان الأمر بيد بلاو، لصَنَع

العالم على نحو مختلف - بإمكان الروح أن تفني، فيم نحتاجها، بأي حال؟ لكن الجسد سيكون خالدًا. لن نعرف قطّ مدى تنوع الجنس البشري، مدى تفرّد كل شخص، ونحن نسارع بالحكم على الأجساد بالهلاك، هكذا فكّر. في الماضي كان الناس يفهمون هذا - لكنهم كانوا يفتقرون إلى الوسائل، إلى طرق الحفظ. وحدهم أثرى الأثرياء كان بإمكانهم تحمل كلفة التحنيط. لكن علم التلدين أصبح الآن يتطور بسرعة شديدة، يُحسّن على الدوام من طرائقه. الآن، بات بإمكان كل من يريد أن يحفظ جسده، ويشارك الآخرين جماله وأسراره. سيقول العدّاء، بطل العالم في سباق المئة متر: ها هي منظومة عضلاتي العجيبة، انظروا جميعًا كيف تعمل. وسيهتف أعظم لاعبي الشطرنج: ها هو مخي، آه، هذان الأخدودان غير العاديين، دعونا نسميهما «تعريجي الأسقف»[21]. وستقول الأم الفخورة بنفسها: ها هي بطني، منها خرج طفلان إلى العالم. هكذا تخيل بلاو. كانت تلك رؤيته لعالم عادل لا نسارع فيه إلى تدمير ما هو مقدّس. وهكذا، فهو يناضل، في كل أفعاله، من أجل إعلاء هذه الرؤية.

فلماذا يمكن أن تكون لدى أي شخص مشكلة من أي نوع مع هذه الفكرة؟ نحن البروتستانت لن نعارض بكل تأكيد. لكن حتى الكاثوليك يجب ألا يدقوا ناقوس الخطر بخصوصها: في نهاية المطاف، لدينا دليل قديم، مجموعات من الرُّفات، والقديس الراعي للتَّلدين قد يكون يسوع المسيح نفسه، عندما يظهر لنا قلبه اللحيم الأحمر.

الطنين الرقيق للمحركات أضفى على كورال الأصوات في سمَّاعات الدكتور بلاو عمقًا غير متوقع. كانت الطائرة تطير صوب الغرب، وهكذا لم ينتهِ الليل حيثما كان ينبغي أن ينتهي، بل تلكأ وأطال البقاء. من حين لآخر، كان يرفع ستار النافذة ليرى إن كان وهج أبيض قد ظهر بعد في مكان ما من الأفق البعيد، ومضة يوم جديد، إمكانيات جديدة. لكن شيئًا لم يظهر. كانت الشاشات مطفأة، فقد انتهى الفيلم. من حين لآخر كانوا يعرضون خريطة، يظهر عليها شكل الطائرة صغيرًا وهي تقطع بإيقاع السلحفاة مسافة ليست محددة على الخريطة، خريطة بدت وكأنها من تصميم «زينون رسام الخرائط». فكل مسافة لا نهائية في ذاتها، كل نقطة تُطلق فضاء جديدًا لا يُقهر، وبالطبع، كل حركة وهم، كلنا نسافر في مكاننا.

في الخارج بردٌ يفوق الخيال، ارتفاع يفوق الخيال، ظاهرة تفوق الخيال حيث تطلق آلة ثقيلة في الهواء الخفيف. **«فير دانكن دير كوت»**، هكذا كانت ملائكة الدكتور بلاو تُغنّي في سماعته.

ألقي نظرة على يد المرأة الجالسة إلى يساره ومنع نفسه بالكاد من التربيت عليها. نامت المرأة ورأسها على كتف رجل. عن يمين بلاو صبيٌ غافٍ، شابٌ صغير ممتلئ قليلًا. ذراعه معلقة برخاوة على مقعده، تكاد تلمس بنطلون الدكتور. كبح نفسه كذلك من التربيت على هذه الأصابع.

جلس محشورًا في كرسيه وسط مئتي شخص، في الفضاء المستطيل للطائرة، يتنفس الهواء الذي يتنفسونه. في الحقيقة لهذا السبب كان يحب السفر كثيرًا - على الطريق يجبر الناس على أن يكونوا معًا، جسمانيًا، قريبين من بعضهم البعض، وكأن مراد السفر هو مسافر آخر.

لكن كل واحد من تلك الكائنات، الذي حُكم عليه بالبقاء في معيتهم لمدة -نَظرَ في ساعته- أربع ساعات أخرى، يبدو مركبًا من «مونادات»[22] ناعمًا ولامعًا يرى الرؤوس بارزة مثل أجرام كروية كتلك المستخدمة في لعبة «الكرة الحديدية». لذلك فإن التواصل الوحيد الذي نشط في خوارزميّات بلاو الغريزية كان التربيت؛ الكشط بأنملتِه، ببطنها، تحسس التقوّس المستوي، البارد. لكن في هذه المرحلة، كانت يداه قد فقدتا كل أمل لاكتشاف أي حزّ فيها، وقد بحثتا في أجساد النساء آلاف المرات؛ ما من عُروةٍ ولا مشبكٍ خفي يمكن أن ينفتح بحركة حريصة من الظفر، ويدعوه للداخل، لا لسان، لا رافعة صغيرة، لا زر يمكن، حين يُضغط، أن يخرج دفقة من شيء ما، لا نابض صغيرًا يستجيب ويكشف لعينيه الدواخل المعقدة المشتهاة. أو ربما ليست معقدة، ربما بالغة البساطة، فقط مقلوب السطح، مقوّسًا إلى الداخل، لولب ملتف حول نفسه. سَطحُ هذه «المونادات» يخبئ تحته أسرارًا هائلة؛ أسرار لا توحي بالثراء المُبهر لهذه التراكيب التي تشبه حقائب موضّبة على نحو بديعٍ وأريبٍ - حتى أمهر المسافرين لن يقدر على توضيب أمتعته على هذا النحو، مُبعدًا الأعضاء عن بعضها البعض، توخيًا النظام، والأمان، والجمال، مع غشاء بريتوني، يُبطّن الفضاء بأنسجة دهنية، تعمل كوسادة مريحة لها. هكذا استمرّت الاجترارات المتوقدة لبلاو عبر غفوه الطائراتي المضطرب.

إنه بخير. الدكتور بلاو يشعر بالسعادة. ماذا كان ليريد أكثر من ذلك. رؤية العالم من أعلى، نظامه الجميل، الهادئ. نظام معقم. محتوىً في أصداف وكهوف، في حبات رمل وفي رحلات موقوتة لطائرات عملاقة في التناظر - الاقتران القديم قدّم الزمن لليمين باليسار واليسار باليمين في الضوء البليغ لشاشات المعلومات، وفي كل ضوء. أحكمَ الدكتور بلاو بطانيته على جسده النحيل، قماشة من الصوف، ملكية خاصة لشركة الطيران، وسقط في نوم حقيقي.

كان بلاو صبيًا عندما أخذه والده وهو مهندس قضى سنوات في إعادة بناء دريسدن بعد أن دمرتها الحرب، مثله في ذلك مثل غيره من أبناء البلدان الاشتراكية مِمن يعملون في صناعة البناء. إلى «متحف النظافة الصحية». هناك رأى بلاو الصغير الـ«غلاسمينش»، رجلٌ زجاجي صنّفه «فرانز تشيكرت»، لأغراض التعليم. غول طوله متران بلا جلد، مصنوع من أعضاء زجاجية مقلدة تقليدًا مثاليًا، مرتّبة داخل الجسد الشفاف، الذي يبدو خاليًا من الأسرار. كان على نحو ما نُصبًا تذكاريًا للطبيعة، التي صمّمت المِثال الكامل المتكامل.

كنت ترى فيه خفةً واستبصارًا، حساسية مكانية، ذوقًا، جمالًا وحسًا تناظريًا. الآلة البشرية المعجزة ذات الأشكال المنطقية، الانسيابية، التي كثيرًا ما تلجأ إلى حلول فكاهية (بِنيَة الأذن)، وأحيانا غرائبية (بِنية العين).

أصبح الرجل الزجاجي صديق بلاو الصغير، على الأقل في خياله. أحيانًا كان يزوره ويجلس في غرفته، عاقدًا ساقيه وتاركًا نفسه تحت أنظاره. أحيانًا كان يميل بتهذيب لكي يسمح للصبي باستيعاب تفصيلة ما، فَهِم كيف تحتضن العضلة الزجاجية العظمة برقة، وأين يختفي العَصَب. أصبح صديقه ورفيقه الزجاجي الصامت. وعلى أي حال، فالكثير من الأطفال يلعبون مع أصدقاء خياليين.

في أحلامه كان يُبعث إلى الحياة -ولو كان ذلك نادرًا- لاعبًا ما يمكن تسميته بالدور الثانوي. حتى كشاب، لم يهتم بلاو بالكائنات الحية إلا قليلًا. ثم يتكلّمان في صمت طوال المساء، تحت الأغطية، عندما يطلب منه أن يطفئ نور غرفته. عن ماذا؟ لم يعد بلاو يتذكر. في النهار كان يصبح ملاك الصبي الحارس ويرافقه غَير مرئي. في مشاجرات المدرسة. في خيال الصبي كان الرجل الزجاجي جاهزًا دائمًا لأن يوسع الأعداء لكمًا نيابة عنه، وكذلك الصبي المشاغب في فصله، في تلك الرحلات الميدانية الجماعية إلى الحديقة النباتية المملة والمرهقة، التي لا يفعل فيها شيئًا تقريبًا إلا انتظار تجمع المجموعة من جديد. المجموعة، بوصفها نوعًا من التواصل الاجتماعي الجمعي، كانت أيضًا شيئًا لم يهتم به بلاو قطّ.

في الكريسماس حصل من والده على نموذج بلاستيكي مصغر لا يمكن مقارنته بالأصل، كان أشبه بتماثيل الآلهة، تذكرة مؤلمة على وجود الشيء الأصلي.

كان بلاو الصغير يتمتع بخيال مكاني متطور للغاية، وهو ما سيساعده لاحقًا في التشريح. بفضل خياله بسط سلطانه على خفاء الـ«غلاسمينش». كان قادرًا على تحديد الموضع الذي يستحق الانتباه في جسد الـ«غلاسمينش» في أي لحظة بعينها، مخفيًا كل ما تبقى في تلك اللحظة. هكذا كان التمثال الزجاجي أحيانًا رجلًا مصنوعًا من الأوتار والعضلات، بلا جلد، بلا وجه؛ مجرد نسيج من العضلات، أوتارها مشدودة بقوة نافرة من فرط الجهد. ومن دون أن يعرف بلاو الصغير كيف حدث ذلك، تعلم كل ما يمكن معرفته عن التشريح. ونظر والده المتطلب، ذو العقلية الصارمة، إلى ذلك بعين الفخر، فأصبح يرى مستقبل ابنه بصورة مادية ملموسة - سيكون طبيبًا، عالمًا، باحثًا؛ في عيد ميلاده تلقى الصبي لوحات تشريحية ملونة جميلة المنظر، وجلب له «أرنوب» الفصح هيكلًا عظميًا بشريًا بالحجم الطبيعي.

في سنواته المبكرة، في الجامعة وما بعدها مباشرة كان بلاو يسافر كثيرًا. زار تقريبًا كل مجموعات المقتنيات التشريحية التي يمكن زيارتها. مثل عشاق موسيقى الروك كان يلاحق «فون هاغِنز» ومعرضه الشيطاني في كل مكان، حتى التقى في النهاية بالمعلم شخصيًا،

كانت أسفاره دائرية، تلتوي في مسارها عائدة إلى نقطة انطلاقها، حتى صار واضحًا أن مقصدها لم يكن بعيدًا، بل هو هنا، في دواخل الجسد.

درس الطب لكنه سرعان ما مل منه. لم يكن مهتما بالأمراض، وأقل اهتمامًا بعلاجها. الأجساد الميتة لا تمرض. لم يشارك فعليًا إلا في فصول التشريح، حيث كان يتطوع للتمارين التي تتهرّب الفتيات الخائفات ذوات الابتسامات البلهاء دائمًا من أدائها. كتب ورقة عن تاريخ التشريح وتزوج زميلته في الفصل، تلك التي جعلها تخصّصها في طب الأطفال تقضي معظم وقتها في المستشفى، وهو وضع كان يناسبه تمامًا. عندما حققت مرادها وولدت بنتًا، بدأ بلاو، الذي كان قد أصبح أستاذًا مساعدًا في الأكاديمية، يسافر لحضور المؤتمرات وبرامج الإقامة، وهكذا وجدت لنفسها طبيب أمراض نساء وانتقلت مع الطفلة إلى بيته الكبير الذي يضم عيادة في الطابق السفلي. وهكذا، استطاعا معًا إنجاز شريحة كاملة متكاملة من التناسل البشري.

في هذه الأثناء، كتب بلاو أطروحة بديعة عنوانها «سلوك العينات الباثولوجية تحت التلدين بالسليكون: مُلحق مبتكر لتعاليم التشريح الباثولوجي». أطلق عليه طلابه اسم «فورمالدهايد». راح يبحث في تاريخ العينات التشريحية وحفظ الأنسجة. زار عشرات المتاحف بحثًا عن مادة لعمله، وأخيرًا استقر في برلين حيث حصل على وظيفة جيدة لفهرسة مقتنيات «متحف التاريخ الطبي»، الذي كان قيد الإنشاء.

رتّب حياته الشخصية بإتقان، وبلا صعوبات. شعر بأنه أفضل بكل تأكيد وهو يعيش وحيدًا: أشبع غرائزه الجنسية مع طالباته، اللاتي كان يجسّ نبضهن أولًا بدعوتهن لتناول القهوة. كان يعرف أن ذلك ممنوع، لكنه كان يعمل بناء على فرضية اجتماعية بيولوجية مفادها أن الجامعة هي ميدان صيده الطبيعي، وأن هاته النساء، في نهاية المطاف، بالغاتٍ يعرفن ماذا يفعلن. كان يبدو بحالة جيدة - كان وسيمًا، حسن المظهر، حليقًا (من وقت لآخر كان يترك لحيته تنمو، محافظًا على هندامها، بالطبع)، وهن كن فضوليات مثل طيور العقعق. لم يبد أنه من خلقوا للعلاقات الغرامية. كان يستخدم وسائل الحماية دائمًا، وكانت احتياجاته متواضعة، إذ كانت شهوته تعيش حالة من التسامي الطبيعي. وهكذا، كان ملكوت حياته خاليًا من المشكلات، لا جوانب مظلمة، لا شعور بالذنب.

في البداية نظر إلى وظيفته الجديدة في المتحف بوصفها استراحة من التدريس الذي كان يمارسه من قبل. عندما كان يدخل باحة مجمّع «شاريتيه»، وسط المروج المشذبة، والأشجار المقلمة على هيئة أشكال خيالية، كان يشعر بأنه وجد نفسه في مكان خارج الزمن بمعنى من المعاني. كان في قلب مدينة ضخمة لكن لا ضجيج، لا تهافت، يمكن أن يصل إلى هنا. كان يشعر بالاسترخاء، وكان يُصفّر.

كان يقضي وقت فراغه بالأساس في قبو المتحف العملاق، الذي يتصل تحت الأرض بمبانٍ ملحقة بالمستشفى. كانت هذه الدهاليز مكدسة بأغراض مبعثرة: رفوف، خزانات عرض قديمة متربة، صوانات مصفحة لا يعرف إلا الله ماذا كان بداخلها قبل أن تنتهي إلى هنا، فارغة، لا أحد يعرف متى. لكن بعض الممرات كانت مفتوحة يمكن اجتيازها، وبعد برهة، بعد صناعة نسخ من بعض المفاتيح، تعلّم أن يتنقل عبرها في أرجاء المجمع بأكمله. من خلالها، كان يذهب يوميًا إلى الكافيتريا.

كان عمله يقوم على نفض التراب عن برطمانات العينات أو غيرها من المعروضات وحمايتها من الأغوار المعتمة لمخازن المتحف، وعلى تحقيق محتوياتها بعينه الخبيرة. وكان خيرَ عون له في مهمته السيد كامبا العجوز، الذي تجاوز سن التقاعد منذ سنوات طويلة لكن عقده ظل يُمدد عامًا بعد عام لأنه كان الوحيد القادر على الإبحار وسط هذه المخازن الهائلة.

كانوا ينتقلون من رف إلى رف. يبدأ السيد كامبا بتنظيف دقيق لرؤوس البرطمانات، حريصًا على ألا يتلف بطاقات تعريفها. تعلّما كيف يفكان معًا شفرة الكتابة اليدوية المائلة القديمة الجميلة. عادة كانت البطاقات تتضمن الاسم اللاتيني لعضو الجسد أو المرض، وكذا الحروف الأولى لصاحب تلك الأعضاء التي تعرضها العينة، وجنسه، وعمره. وأحيانا كانت تُورد مهنته، هكذا عرفا أن هذا الورم المعوي الرائع كان في أحشاء خيّاطة. (أ. و.)، عمرها 54. مع ذلك، كانت البيانات، في غالب الأحوال، تفتقر إلى الدقة، والبطاقات متأكلة إلى حد كبير. وفي حالات كثيرة كان الهواء يدخل من مانع التسرب المشقق الذي أضيف إلى أغطية العينات المغمورة في الكحول، فيصير السائل غائمًا يغلف العينة داخل ضباب كثيف. في تلك الحالات كان ينبغي تدمير العينات. كانت تجتمع لجنة مُشكَّلة من بلاو، وكامبا، واثنين من العاملين في الطوابق العلوية للمتحف، وتُقرَ ذلك كتابة. ثم يأخذ السيد كامبا تلك الأجزاء البشرية، يخرجها من برطماناتها، تالفة، إلى محرقة المستشفى.

بعض العينات كانت تتطلب عناية خاصة (في حال إصابة حاويتها بالتلف). عندها يأخذها بلاو إلى مختبره الصغير وهناك، بأقصى قدر من الحرص، ينقلها إلى حمام تطهير. ثم، بعد فحص دقيق، وبعد أخذ شرائح منها (سيجمّدها بعد ذلك)، يضعها في حاوية جديدة من أفضل الأنواع، في محلول حديث جهَّزه بنفسه. وهكذا فرغم أنه لم يستطع إسباغ الخلود على العينات، كان على الأقل قادرًا على أن يضمن لها حياةً أطول كثيرًا.

بالطبع لم يكن الأمر مقتصرًا على عينات في برطمانات. كانت هناك أيضًا أدراج مليئة بِقطع غير موثقة، عظام، حصوات كلي، بعض الأحافير، كان ثمة مدرع محنط وغيره من 23
الحيوانات، في حالة مزرية. مجموعة صغيرة من رؤوس أشخاص من شعب الماوري وقد تقلّصت، أقنعة مجهولة من جلود بشرية - وقد انتهى مثالان مزعجان للغاية على هذه

أيضًا، في المحرقة.

كذلك عثر بلاو وكامبا على بعض النوادر الأثرية الحقيقية هنا، فمثلًا، صادفا أربع عيّنات من مجموعة «رويش» المرفقة من أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر، وهي المجموعة التي قد تفرّقت أشتاتًا، مصيرها غير معلوم. لسوء الحظ، اضطرا إلى إرسال إحدى تلك العينات، Acardius hemisomus التي يمكن اعتبارها جوهرة أي مجموعة مسخية، إلى المحرقة بسبب شرخ في ماعونها الزجاجي لم تكن ثمة طريقة لإنقاذها. وقد فكرت اللجنة بالفعل، إذ رأت العينة في حالة تحلل متقدّم، إن لم يكن من اللائق في أحوال كهذه تنظيم جنازة من نوع ما.

ابتهج بلاو أيما ابتهاج بهذا الاكتشاف لأنه مكّنه من إجراء عدد من الاختبارات على خلطة الحفظ الشهيرة الخاصة بـ«فريدريك رويش»، عالم التشريح الألماني في القرن السابع عشر. كان هذا المحلول شديد الفاعلية بالنسبة لعصره - استطاع الحفاظ على اللون الطبيعي للعينة، وكذا حمايتها من الانتفاخ، الذي كان آفة الحفظ داخل السوائل في ذلك العصر، وجد بلاو أن السائل، إضافة إلى براندي مدينة «نانت»، والفلفل الأسود، يحتوي أيضًا على خلاصة جذور الزنجبيل. كتب مقالة واشتبك مع النقاش القديم حول مكوّنات «محلول رويش»، هذا السائل الجهنمي الذي يهدف إلى ضمان الخلود بطريق الغَمر، على الأقل للجسد. من وقتها بدأ كامبا يُسمّي مجموعتهم في الطابق تحت الأرضي «مُخللات».

اكتشف هو وكامبا - الذي جلب له العينة ذات صباح- شيئًا جديرًا بالملاحظة، عمل عليه بلاو لاحقًا لشهور عدة، لكي يفهم بدقة تكوين وطريقة عمل سائل الحفظ. كان ذراعًا. ذراع رجل، قوي (كان محيط العضلة ذات الرأسين يبلغ 54 سنتيمترًا). طوله 47 سنتيمترًا، مقطوع بعناية بهدف واضح هو إظهار الوشم - وشم متعدد الألوان، يصوّر، باعتناء بالغ بالأبعاد، حوتًا يخرج من وسط أمواج البحر (بينما التقطت ذرى الأمواج بلطف ودقة باروكيين)، نافثًا نافورة إلى عنان السماء. كان الرسم منفذًا على نحو مثالي، وبخاصة السماء التي بدت من خارج الذراع كثيفة الزرقة - ولو أنها كلما اقتربت من الإبط أدكنَت. وقد حُفظت التدرجات اللونية على نحو مثالي في السائل الشفاف.

لم تكن العينة تحمل بطاقة تعريف. كان البرطمان يُذكر بتلك المصنوعة في هولندا في القرن السابع عشر، ما يعني أنه كان أسطواني الشكل - لم يعرفوا في ذلك الوقت كيفية صناعة أشكال مكعّبة من الزجاج، على أي حال. بدا أن العينة، المربوطة إلى سدادة اردوازيّة بشَعر حصان، تطفو في السائل. لكن الأغرب هو السائل نفسه... لم يكن كحولًا، ولو أن بلاو فكر من النظرة الأولى أنه يرجع إلى أوائل القرن السابع عشر، وإلى هولندا. كان خليطًا من الماء والفورمالدهايد مع كمية صغيرة من الغليسرين. تركيبته يمكن أن توصف بأنها حديثة للغاية، شبيهة كثيرًا بخلطة «كايزرلينغ» الثالثة التي لا تزال تستخدم

إلى يومنا هذا. لم يعد إغلاق الحاوية بإحكام أمرًا ضروريًا، لأن الخلطة لا تتبخر مثل الكحول. في الشمع الذي استخدم لتثبيت الغطاء في مكانه على نحو اعتباطي، عثر على بصمات أصابع أثارت اهتمامه، بقوّة. تخيّل أن تلك الخطوط المتموجة الصغيرة الضئيلة، هذا الختم الطبيعي الذي يشبه المتاهة، يخض شخصًا مثله تمامًا.

اعتنى بالذراع وعمله الفني بشيء يمكن أن تطلق عليه حبًّا. لن يكتشف صاحبه، ولا من ذا الذي أرسل الذراع بوشمه في رحلته عبر الزمن.

اشترك هو وكامبا في لحظة رعب - حكاها بلاو لاحقًا لطالبة في الصف الأول، ملاحظًا برضى كيف اتسعت عيناها من الدهشة وتحوّلت حدقتاها إلى لون أسود مطفي، وهي -وفقًا لعلماء البيولوجيا الاجتماعية علامة على الاهتمام الشبقي.

في الصناديق الخشبية في أحد الدهاليز التي تقود إلى نهاية مسدودة، عثرا على مومياوات محشوّة في حالة بالغة السوء، كان الجلد مسودًّا بالكامل، جافًا، ممزقًا، الأعشاب البحرية تنسكب من دُرزاته، التي تفككت في بعض المواضع. كانت الأجساد ذابلة، يابسة، وفوق كل ذلك كانت مسربلة في أردية لا بد أنها كانت تُعدّ فاخرة - الآن كانت كل أقمشة الياقات والدانتيل قد صارت بلون التراب. زخارفها، وطياتها، وكشكشاتها فقدت سماتها المميزة، وأصبحت كرة من القماش المتعفن الذي يبرز منه، هنا وهناك، زر صغير، مصنوع من الصَدَف. من الفم الممطوط، الذي أجبره التشريح على أن ينفتح على وسعه، كانت الحشائش تخرج.

عثرا على اثنين من تلك المومياوات، صغيرتين، بدتا وكأنهما لطفلين، لكن لدى الفحص الدقيق أدرك بلاو أنهما- ولله الحمد- جسدان محشوان لحيوان الشمبانزي، محفوظان بطريقة بائسة، غير احترافية على الإطلاق؛ كان بيع وشراء أمثالهما منتشرًا على نطاق واسع في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. بالطبع كان يمكن لشكوكهما أن تتأكد، فالمومياوات البشرية كانت بدورها تُباع وتشري، وتتشكل منها مجموعات وافرة. كان هواة جمع المقتنيات مهتمين على وجه الخصوص بالحصول على المختلف والاستثنائي: أناسٌ من أعراق أخرى، أصحاب العاهات المدهشة، المرضى.

«حشو الجثث هو الطريقة الأسهل لحفظها»، هكذا شرح بلاو في تأملاته، وهو يتجول في أرجاء مجموعة القبو المرتجلة مرشدًا طالبتين أخريين قبلتا دعوته بحماسة، وسط رفض كامبا وانزعاجه الشديد. كان بلاو يعوّل على أن تسمح له إحداهما على الأقل بدعوتها لتناول كأسين من النبيذ، ما يضيف صورة جديدة إلى مجموعته. الآن كان يتابع تأملاته: «بهذه الطريقة، لا يتركون فعليًا إلا الجلد، ما يعني أنه ليس جسدًا بالمعنى الكامل للكلمة. هو مجرد قطعة من الجسد، الشكل الخارجي المشدود على دمية مصنوعة من القش. التحنيط طريقة بائسة لحفظ الجسد. إنه فقط يعطي وهمًا بأن لدينا الشيء بأكمله هنا أمامنا. لكن الحقيقة أنه

احتيال واضح. خدعة من خدع السيرك، إذ أن الحفظ لم يَظل إلا شكله وغلافه الخارجي فحسب. لكن الجسد نفسه قد دُمّر. بعبارة أخرى، هو النقيض الأيديولوجي للحفظ. همجيّة».

أجل، لقد تنفسًا الصعداء لعدم وجود مومياوات بشرية، كان ذلك ليجلب عليهما صداعًا لا لزوم له، إذ يمنع القانون صراحة الاحتفاظ بجثث بشرية كاملة في متاحف الولايات (ما لم تكن مومياوات عتيقة، وحتى في تلك الحالة تجد أناسًا يعترضون ويثيرون المشكلات). لو كانت جثثًا بشرية -أطفالًا، كما ظنّا في البداية- لواجها إجراءات بيروقراطية معقدة والكثير من المشكلات. لقد سمع عدة مرات عن تلك الاكتشافات المربكة أثناء ترتيب مجموعات المقتنيات في الأكاديميات الطبية أو الجامعات.

كان الامبراطور جوزيف الثاني قد كوَّن مجموعة مقتنيات من هذا النوع في فيينا. في خزانة أعاجيبه قرّر جمع كل ما هو مميز، كل مظاهر الشذوذ في العالم، كل الأشياء المنسية. أحد خلفائه، فرانسيس الأول، لم يتردد في حشو رجل أسود البشرة من حاشيته، اسمه أنجيل سليمان، بعد موته. ثم عُرضت مومياؤه، عاريةً إلا من حزام من الحشائش ملفوف حول وسطها، لإمتاع أنظار المشاهدين من كل ضيوف الملك.

خطاب جوزفين سليمان الأول لفرانسيس الأول إمبراطور النمسا

إنه لمن أشد دواعي الحسرة والعار أن أتوجه لجلالتكم، وإن كان يحدوني أمل أن يكون ما حدث ليس إلا خطأً شنيعًا. أنجيل سليمان، والدي، ذلك الخادم الصنديد، المخلص لعم جلالتكم، الإمبراطور جوزيف (ذلك السيد الأغر الذي ندين له جميعًا بالولاء)، أصبح منذ وفاته (ليتغمده الرب برحمته) ضحية لجور شنيع يجب أن يرفع عنه الآن لكي تعود الأمور إلى نصابها.

جلالتكم تعرفون جيدًا قصة حياة والدي، وأعرف أيضًا أن جلالتكم عرفتم والدي شخصيًا، وكنتم تقدرونه حق قدره لإخلاصه وعمله على مدار زمن طويل، خاصة كخادم مخلص وأستاذ في الشطرنج، وكنتم، شأن عم جلالتكم، الإمبراطور جوزيف (ليتغمده الرب برحمته)، وشأن الكثيرين غيره، تعاملونه بتشريف واحترام. وقد كان لديه العديد من الأصدقاء الرائعين الذين يقدرون مزاياه العقلية والروحية، وحسّه الساخر الهائل، وطيبة قلبه، ولقد كان لسنوات على علاقة وثيقة بالهر موتسارت، الذي كان عمّ جلالتكم كريمًا معه أبلغ الكرم فكلّفه بتأليف أوبرا خصوصيّة. كما أنه التحق بالسلك الدبلوماسي وسرعان ما اشتهر بحصافته، وفطنته، وحكمته.

ولسوف أسمح لنفسي الآن بارتدادٍ قصير إلى تاريخ والدي، سعيًا لإنعاش ذاكرة جلالتكم الكريمة. إن أكثر ما يجعلنا بشرًا هو امتلاكنا لقصّة متفردة لا يمكن تكرارها أو نسخها، أننا نتحقق على مر الزمن ونُخلّف آثارًا وراءنا. ومع ذلك، حتى إن لم نفعل أي شيء لأجل الآخرين -لا لحكامنا ولا لدولتنا- نظل نحوز الحق في أن نُدفن بكرامة، إذ إن الدفن هو فعل إعادة المخلوق، الجسد البشري، لخالقه.

ولد أبي حوالي عام 1720 في شمال أفريقيا، وإن كان الغموض يلف سنين حياته المبكرة. كان كثيرًا ما يعلّق قائلًا إنه لا يتذكر طفولته بوضوح. كانت ذاكرته لا تصل إلا إلى الزمن الذي بيعَ فيه، هو الطفل الصغير، إلى العبوديّة، كان يقصّ علينا بارتياع ما يتذكره: الرحلة البحرية الطويلة في مخزن مظلم في سفينة ما، المناظر المأخوذة مباشرة من «جحيم» دانتي التي كانت تحدث مباشرة أمام عينيّ ذلك الطفل الصغير عقب انفصاله عن أمه وبقية أقارب دمه المقربين. الأرجح أن الحال قد انتهى بوالديه في «العالم الجديد»، بينما ظل هو يُمرّر مثل حيوان أليف أسود، مثل جرو مالطيّ أو قط سيامي، لماذا كان نادر الحديث عن ذلك؟ ألم يكن عليه أن يفعل العكس ويرفع عقيرته جهرًا به طوال الوقت بعد إذ وصل إلى مكانته؟ أعتقد بأن صمته كان نتاج قناعة رهيبة، قناعة علّه هو نفسه لم يكن واعيًا بها: كلما امَّحت الحوادث المؤلمة من الذاكرة أسرع، فقدت سطوتها علينا أسرع.

ستكف عن مطاردتنا. سيصبح العالم أفضل. وطالما لا يكتشف الناس كم يمكن أن يكون الإنسان بشعًا وكريهًا مع أخيه الإنسان، ستظل براءتهم مصونة من دون مساس. لكن ما حدث لجثمان والدي بعد موته إن هو إلا شهادة على خطأ تلك القناعة.

بعد سلسلة بدا أنها لن تنتهي من المحاولات والمصاعب والمآسي، أُعتق والدي من العبودية على يد «كورسيكا» رحيمة القلب، زوجة أمير «ليختنشتاين»، وقُدّم إلى البلاط. على هذا النحو انتهى به الحال في فيينا، حيث نَمَت في قلب جلالة الأميرة عاطفة كبيرة تجاه الطفل، بل وربما، إن جاز لي القول، حب كبير. بفضلها نال تنشئة طيبة وتعليمًا وافرًا. ويبدو أن ذلك التعليم حلّ في ذاكرته محل أصوله البعيدة المسمومة. وبوصفي ابنته الوحيدة، لم أسمعه قطّ يتحدث عن جذوره. بل ولم أره قطّ يظهر أي قدر من الحنين. كان قلبه دائمًا مكرسًا بالكامل لخدمة عم جلالتكم.

وقد نال سمعته، بالطبع، كسياسي مميز، ومبعوث ذكي، ورجل جدير بالإعزاز، كان محاطًا بالأصدقاء طوال الوقت. كان محبوبًا وموقّرًا. كما تمتع بمزية خاصة صداقة الامبراطور جوزيف، المعروف بجوزيف الثاني - عم جلالتكم، الذي ائتمن والدي في عديد المناسبات على مأموريات تتطلب ذكاءً فائقًا.

في عام 1768 تزوج من أمي ماغدالينا كريستياني، أرملة جنرال هولندي، وعاش معها حياة أسرية هانئة لأربع عشرة سنة، حتى وفاته عام 1782. أنا الثمرة الوحيدة لهذا الاقتران. بعد سنوات عديدة من الإسهامات المفيدة، اتخذ قرارًا بالتقاعد من خدمة أمير «ليختنشتاين»، ربُّ نعمته، وإن ظل يحافظ على علاقته بالبلاط وظل في خدمة الامبراطور.

أعرف كم يُدين والدي للطيبة البشرية، وللنزعة البشرية لنجدة الآخرين. كثيرون ممن تبدأ حكاياتهم بداية تعسة مثل والدي ضاعوا بكل بساطة، ذابوا في فوضى العالم. قلة قليلة فحسب من الأطفال العبيد ذوي البشرة السوداء هم من واتتهم فرصة الوصول إلى المناصب العالية المهمة مثل والدي. لكن هذا تحديدًا هو السبب الذي يجعل قضيته بهذه الأهمية. فهي تَلفِت إلى أننا جميعًا أطفال الرب، بوصفنا من خلق يديه، وأننا لبعضنا البعض أخوة وأخوات.

لقد سبق وكتب لجلالتكم عدد من أصدقاء أبي الراحل العزيز بخصوص هذه المسألة. وإنني أنضم إليهم هنا في طلبهم بأن تُطلق جلالتكم سراح جثمان والدي وتسمح له بأن يُدفن على الطريقة المسيحية كما يستحق.

على أمل،

جوزفين سليمان فون فويشترسليبن

عند شعب الماوري

عندما يتوفى أحد أبناء الأسرة، يُحنّط رأسه وتُحفظ للذكرى. وتتضمن مراحل التحنيط التبخير، والتدخين، والدهان بالزيت. عبر هذه المعالجات، قد تُصان الرؤوس في حالة جيدة، بشعرها، وجلدها، وأسنانها.

أسفار الدكتور بلاو (II)

كان يخرج الآن من جسم الطائرة، يسير في الأنفاق الطويلة، يتتبع الأسهم والإشعارات المضيئة التي تُقسّم الركاب بلطف إلى هؤلاء الذين وصلوا إلى وجهاتهم وأولئك الذين لا يزالون في الطريق. تضخّمت تيارات البشر في المطار الكبير ثم تفرّقت ثانية. قادته عملية الاختيار السلسة تلك إلى السلالم المتحركة الصاعدة، ثم إلى دهليز طويل عريض، حيث ازدادت وتيرة التدفق بفعل المماشي المتحركة. المتعجلون استغلوا التكنولوجيا وقفزوا إلى وتيرة أخرى من الزمن - يتقدمون بخطًى متمهلة، ومع ذلك يسبقون الآخرين. مرّ بلاو بمنطقة التدخين ذات الجدران الزجاجية حيث استسلم المتعصبون للنيكوتين الآن، بعد صيام طويل في رحلاتهم الممتدة، لإدمانهم، بنعيم واضح. في عيني بلاو بدوا مثل عينات منفصلة، تعيش داخل عنصر ليس هو الهواء، وإنما خليطٌ من ثاني أكسيد الكربون والدخان. راح يراقبهم من وراء الزجاج بدهشة غامضة وكأنه يراقب حيوانات في حوض زجاجي - على الطائرة بدوا مثله، لكن هنا انكشف تركيبهم البيولوجي المميز.

سَلَّمَ جواز سفره، وقيمه الضابط بنظرة سريعة، احترافية، مقارنًا بين الوجهين - الوجه في الصورة والوجه على الجانب الآخر من اللوح الزجاجي. واضح أنه لم يُثر شكوكًا لأنهم سمحوا له بدخول أراضي هذا البلد الأجنبي من دون تأخير.

توقف التاكسي في محطة القطار، حيث أظهر تذكرته الإلكترونية عند الشباك. ولأنه لا يزال أمامه أكثر من ساعتين، ذهب إلى بار. كانت تنبعث منه رائحة شحم نتن، وبينما ينتظر سمكته، راح يعاين الجالسين حوله.

لم تكن بالمحطة أي سمات تميزها عن غيرها. الشاشة الكبيرة أعلى جدول القطارات المغادرة كانت تعرض الإعلانات نفسها، عن الشامبو والبطاقات الائتمانية. شعار مألوف جعل هذا العالم الأجنبي يبدو آمنا. كان جائعًا. لم يكن طعام الطائرة الاصطناعي قد ترك أثرًا يلاحظه في جسده. وكأنه لا يحتوي على مادة - مجرد شكل ورائحة. ولعله الطعام الذي يقدمونه في الفردوس. طعام للأرواح الجوعى. لكن الآن جاءت قطعة السمك المقلي المقدمة مع السلطة، قطعة اللحم الأبيض المقلية حتى صارت ذهبيّة، ومنحت جسد الدكتور المكتنز بعض القوة. طلب أيضًا نبيذًا، يقدّم هنا في زجاجات صغيرة سهلة التناول، على مقاس كوب واحد كبير.

في القطار، غفا. لم يفته الكثير - مضى القطار متثاقلًا عبر المدينة، عبر بعض الأنفاق والضواحي، التي تشبه ضواحي أخرى على نحو مربك، رسوم الغرافيتي نفسها على

القناطر والكراجات التي يمرون بها. عندما وصل، رأى البحر، حزام ساطع رفيع بين أوناش الميناء وبعض المستودعات والترسانات البحرية القبيحة.

كانت قد كتبت له: «سيدي العزيز. أسئلتك وصياغاتُها غرست في نفسي، يجب أن أعترف، ثقة كاملة وعميقة. الشخص الذي يعرف ما يسأل عنه هو شخص يمكن أن يتوقع إجابة قريبًا. ربما ما تحتاجه هو تلك الرشَّة التي يضرب بها المثل، التي تُرجح كفة الميزان».

تساءل ما نوع الرشَّة التي تدور في رأسها. راجع القاموس بتمعن. لم يعرف أي أمثال تتعلق بالموازين والرشَّات. كانت قد نالت لقب عائلة زوجها، لكن اسمها الأول كان غرائبيَا إلى حد ما- تاينا. ما قد يوحي أنها تنحدر من أراض بعيدة ولغة غرائبية بالقدر ذاته، تُشكل فيهما الرشَّة والميزان مثلًا ممتازًا. «غنيٌ عن القول، سيكون من الأفضل أن نلتقي. سأحاول فحص ملفك وكل مقالاتك في هذه الأثناء، رجاءً تعال لرؤيتي. هذا هو المكان الذي ظل زوجي يعمل فيه إلى النهاية وحضوره لا يزال محسوسًا هنا، هذا بلا شك سوف يساعدنا في محادثاتنا».

كانت قرية بحرية صغيرة تمتد بحذاء الساحل، يخرمها طريق أسفلتي سريع مستقيم. توقف التاكسي مباشرة قبل آخر علامة تحمل اسم القرية، نازلًا سفح التل، باتجاه البحر، والآن مرّ ببيوت خشبية، تسرُّ العين، لها شرفات وبلكونات. اتضح أن البيت الذي يبحث عنه كبير، والأجمل على طول الطريق المعبد بالحصى. كان محاطًا بجدار متوسط الارتفاع تكسوه شجيرات عنب محلية كثيفة. كانت البوابة مفتوحة، لكنه طلب من السائق التوقف على الطريق وأخرج حقيبته ذات العجلات، وصعد مدخل السيارات المعبد بالحصى على قدميه. في مركز الساحة الأنيقة كانت شجرة بديعة، بدا واضحا أنها تنتمي إلى الصنوبريات، لكنها ذات طابع نفضي واضح، مثل شجرة بلوط أُبتسرت أوراقها على نحو ما فصارت أشبه بالإبر. لم يسبق له قط رؤية شجرة كهذه، وبدا لحاؤها الأبيض تقريبًا كثيفًا ومتغضنًا كجلد الفيل.

طرق الباب فلم يجبه أحد، لذا ظل واقفًا لبرهة في شرفة المدخل الخشبية، غير قادر على اتخاذ قرار؛ استجمع شجاعته وأدار المقبض. انفتح الباب، سامحًا له بالدخول إلى غرفة معيشة فسيحة وساطعة. النوافذ الأمامية استحوذ عليها البحر بالكامل. جاء قط برتقالي كبير إلى قدميه، ماء ثم انسل إلى الخارج، متجاهلًا تمامًا ضيف المنزل. كان الدكتور متأكدًا من عدم وجود أحد في المنزل، فحطَّ حقيبته وخرج إلى الشرفة لينتظر مضيفته. وقف هناك لربع ساعة أو نحو ذلك، يتفحص تلك الشجرة الجبارة، ثم بدأ يدور ببطء حول البيت الذي كان محاطًا، مثل غيره من بيوت المنطقة، بشرفة خشبية، وُضع فيها (كما في كل مكان آخر في العالم) أثاث خفيف بوسائد ظهر. في مؤخرة البيت وجد حديقة بفُرجة عُشب مجزوزة

بعناية بالغة، تتكاثر فيها شجيرات مزهرة. في إحداها لاحظ نبتة زهر العسل العطرية، وحين سار على الدرب المرصوف بأحجار مستديرة ناعمة، اكتشف ممرًا ظنَّ أنه لا بد يقود إلى البحر مباشرة. تردد للحظة. ثم تقدّم.

بدت رمال الشاطئ بيضاء تقريبًا؛ منمنمة، تتناثر عليها هنا وهناك أصداف بيضاء. تساءل الدكتور ما إذا كان ينبغي عليه خلع حذائه، إذ قد يكون من الوقاحة السير على شاطئ خاص بالحذاء.

في البعيد رأي هيئة تخرج من الماء في صورة ظلية - كانت الشمس، وقد بدأت نزولها بالفعل، لا تزال قوية. كانت المرأة ترتدي ثوب سباحة أسود من قطعة واحدة. على الشط مدَّت يدها لمنشفة لفتها حول نفسها. فركت شعرها بأحد طرفيها. ثم التقطَت صندلها وبدأت تقترب من الدكتور المرتبك. لم يعرف ماذا يفعل الآن. هل يستدير ويغادر أم يتقدم باتجاهها. كان يفضل لو التقاها في مكتب هادئ، في أجواء أكثر رسميّة. لكنها صارت أمامه بالفعل. مدّت يدها لتحيّته ونطقت باسم عائلته في نبرة استجوابية. كانت متوسطة القامة ولا بد أنها تقترب من الستين؛ كانت تجاعيد قاسية تنتشر في وجهها - تستطيع أن تلاحظ أنها لا تبخل على نفسها بالشمس. لولا ذلك، كان يمكن أن تبدو أصغر سنًا. شعرها القصير الفاتح التصق بوجهها ورقبتها. المنشفة التي لفتها حول جسدها وصلت إلى ركبتيها، وأسفلهما كانت ساقاها المسمرَّتان على قدر متساو، وقدماها التي اعوجت عظامهما من عند الإبهام.

قالت: «لندخل».

طلبت منه أن يجلس في غرفة المعيشة واختفت لبضع دقائق. تورد وجه الطبيب من القلق - شعر وكأنه قد أدركها في الحمام، كأنه دخل عليها وهي تقصُّ أظافرها. هذا اللقاء بجسدها المسن شبه العاري بقدميها، بشعرها المبلل - أربكه تمامًا. لكن لم يبد أنها تكترث لكل ذلك. عادت بعد برهة في بنطلون وتي شيرت فاتحين، امرأة نحيلة العظام، عضلات ذراعيها رخوة، جلدها يزخر بالشامات والوحمات، تكشكش شعرها الذي لا يزال مبللًا بيدها. لم يتخيّلها هكذا. كان قد ظن أن زوجة شخص مثل «مول» ستكون مختلفة. مختلفة كيف؟ أطول قامة، أكثر تواضعًا، أنيقة. في بلوزة من الحرير مع شريط حول العنق ورصيعة منقوشة معلقة في رقبتها. امرأة لا تسبح في البحر.

جلست أمامه، شمَّرت ساقي بنطلونها ودفعت طبقًا من الشوكولاتة باتجاهه. تناولت واحدة هي الأخرى، وبينما كانت تأكل راحت تمص خديها إلى الداخل. نظر إليها، كانت لديها انتفاخات تحت عينيها، خمول في الغدة الدرقية أو ربما مجرد ترهل في «العضلة الدويرية العينيّة».

قالت: «هو أنت إذًا. هل تُذكرني من فضلك بما تفعله؟».

سارع بابتلاع قطعة الشوكولاتة دفعة واحدة - لا يهم، سيأخذ واحدة أخرى. أخبرها من هو ثانية وتكلم قليلًا عن عمله وكتاباته المنشورة. ذكرها بمقالته «تاريخ الحفظ»، التي نشرها مؤخرًا وكانت مُدرجة في الملف الذي أرسله لها. أثنى على زوجها. قال إن البروفيسور مول حقق ثورة فعلية في مجال التشريح. ظلت تراقبه بانتباه بعينيها الزرقاوين، بابتسامة خفيفة، راضية يمكن فهمها كإيماءة موزة أو سخرية. بالرغم من اسمها الأول، لم يكن هناك أي شيء غرائبي فيها. فكر فجأة أنها قد لا تكون هي، أنه ربما يتكلم مع الطباخة، أو الخادمة، عندما انتهى من سرد خلفيته، ضغط يديه معًا بتوتر، ثم ندم على إظهار ذلك الدليل الواضح على العصبية؛ شعر بأنه مبهدَل في القميص الذي سافر به وقفزت هي على قدميها، وكأنها تقرأ عقله.

«سأدلك على غرفتك. من هنا».

قادته على الدرج إلى الطابق الثاني المظلم وأشارت إلى باب. دخلت أولًا وفتحت الستائر الحمراء. كانت النافذة على البحر، وأضاءت الشمس الغرفة بلون برتقالي.

«يمكنك أن ترتب أمورك هنا بينما أعد شيئًا لنأكله. لا بد أنك متعب. هل أنت متعب؟ كيف كانت رحلتك؟».

أجابها بأول ما خطر على باله.

قالت: «سأكون بالأسفل»، ثم خرجت.

لم يكن متأكدًا تمامًا كيف حدث الأمر - هذه المرأة ذات القامة المتوسطة في بنطلونها الفاتح وتي شيرتها الممطوط كانت بإيماءة غير ملحوظة، ربما من حاجبيها فقط، قد وضعت ترتيبًا جديدًا لكل شيء؛ لكل توقعات الدكتور وخيالاته. خلصته من رحلته الطويلة المرهقة والخطب التي أعدها، والسيناريوهات الممكنة. فرضت إرادتها. كانت هي من يُسيّر الظروف. استسلم الدكتور من دون أن يطرف له جفن. أذعن، وأخذ حمامًا سريعًا، وغيّر ملابسه، ثم نزل إلى الأسفل.

على العشاء قدّمت سلطة بقطع الخبز المحمص، أعدّتها من الخبز الأسود والخضروات المشوية. إذًا فقد كانت نباتية. من حسن حظه أنه تناول تلك السمكة في المحطة. جلست أمامه ومرفقاها على الطاولة، تُفتت ما تبقى من الخبز المحمص بأناملها، وتتكلم عن الطعام الصحي، عن أضرار القمح والسكر، عن المزارع العضوية القريبة حيث تشتري الخضروات، والحليب، وشراب القيقب، الذي تستخدمه بدلًا من السكر. لكن النبيذ كان جيدًا، شعر بلاو، المرهق وغير المعتاد على الشراب، أنه ثمل بعد كأسين فقط. كل جملة تالية كانت تتشكل في رأسه، لكنها كانت تستبقه. مع انتهاء الزجاجة كانت قد أخبرته بقصة وفاة زوجها. حادثة قارب بخاري.

«كان في السابعة والستين من عمره، لم يعرفوا ماذا يفعلون بالجسد. لقد تشوّه بالكامل».

ظن أنها ستنفجر بالبكاء الآن، لكنها تناولت قطعة أخرى من الخبز المحمص وفتتتها على البقية الباقية من سلطتها.

استرسلت في تأملاتها: «لم يكن مستعدًا للموت، لكن من ذا الذي يستعد له؟ مع ذلك، أعرف أنه كان ليريد خليفة جديرًا به، شخصًا لا يتمتع بالكفاءة وحسب، وإنما أيضًا يعمل بشغف، مثله. كان انعزاليًا، تعرف ذلك، أنا متأكدة. لم يترك وصية، لم يعط توجيهات. هل ينبغي عليّ أن أتبرع بعيّناته للمتحف؟ لقد استفسرت عدّة متاحف بالفعل. هل تعرف أي مؤسسة محترمة؟ هناك الكثير من الطاقة السلبية حول العينات المحفوظة بالتلدين الآن، لكن بالطبع، لكي تفعل شيئًا اليوم، لا تحتاج إلى إنزال الأجساد المعلقة في المشانق». تنهدت وبرّمت بضع ورقات شجر من سلطتها في لفافات اسطوانية، دشتها في فمها. «لكنني أعرف أنه كان ليريد خليفة. بعض مشروعاته بدأت بالكاد؛ أحاول أن أسيّرها أنا نفسي، لكنني لا أمتلك الكثير من الطاقة والحماسة مثله... هل تعرف أنني درس علم النباتات؟ هناك، مثلًا مشكلة...»، بدأت تتردد. «لا يهم، سيكون لدينا وقت المناقشة ذلك لاحقًا»

أومأ برأسه، كابحًا فضوله.

«لكنك تتعامل بالأساس مع عينات تاريخية، هل هذا صحيح؟».

انتظر بلاو حتى تلاشي صدى كلماتها، ثم سارع بصعود الدرج وهرع عائدًا بكمبيوتره المحمول.

أزاحا صحنيهما إلى الوراء، وبعد لحظة أضاءت الشاشة بوهج لطيف. أجفل الدكتور للحظة، متسائلا عما لديه على سطح مكتبه - إذا لم يكن قد ترك أي أيقونات إباحيّة. لكنه كان قد نظفه مؤخرًا. تمنى أن تكون قد قرأت ما أرسله لها عن نفسه، أن تكون قد ألقت نظرة على كتبه. الآن كان كلاهما يميل على الشاشة.

وهما يلقيان نظرة على عمله، بدا له أنها كانت ترميه بنظرات إعجاب. لاحظ هذا بينه وبين نفسه - مرتين. دون ملاحظة عقلية بما أثار إعجابها. كانت تعرف ما تتكلم عنه، تطرح أسئلة احترافية. لم يتوقع الدكتور أن تعرف هذا القَدر. كان جلدها ينضخ بشي خفيف من تلك المرطبات التي تضعها النساء المسنات على أجسادهن، لطيف، بودري، بريء. كانت سبابة يدها اليمنى -تلك التي تلمس بها الشاشة- مزيّنة بخاتم غريب به حجر على شكل عين بشرية. جلد يدها اكتسي ببقع الشيخوخة. يداها تلفتا من الشمس مثل وجهها. فكر لثانية في طريقة لإيقاف تأثيرات الشمس على هذا الجلد الرقيق، المتغضن.

ثم انتقلا إلى الكراسي الوثيرة، جلبت نصف زجاجة من نبيذ البورت من المطبخ وصبت كأسين.

سألها: «هل سأرى المختبر؟».

لم تجبه على الفور، ربما لأن فمها كان مملوءًا بالنبيذ، مثلما حدث من قبل وهي تأكل الشوكولاتة. في النهاية قالت: «إنه بعيد عن هنا».

نهضت وبدأت تنظف الطاولة.

قالت: «أنت لا تستطيع أن تفتح عينيك».

ساعدها على وضع الصحون في غسالة الأطباق، ثم صعد إلى الطابق العلوي وهو يشعر بالارتياح لإعفائه من البقاء، مغمغمًا «ليلة سعيدة» بصوت مُدغم من فوق كتفيه. جلس على حافة فراشه المرتب ثم رقد على الفور على جنبه، بعد أن لم يجد في نفسه القوة لخلع ملابسه، سمعها تنادي القط على الشرفة.

صباح اليوم التالي فعل كل شيء بطريقة منهجية: أخذ حمامًا أطول، طوى لباسه الداخلي المتسخ في هيئة مكعب ووضعه في كيس، أخرج أغراضه من الحقيبة ووضعها على رف، وعلق قمصانه. حلق ذقنه، ورطّب وجهه، وفرك مزيل عرقه المفضل تحت إبطيه وقوّى شعره الشائب بقليل من الـ«جل». لم يتردد إلا في ارتداء الصندل، لكنه قرر في النهاية الاستمرار في انتعال حذائه المسطح ذي الرباط. ثم، في هدوء (ولو أنه لم يعرف لماذا) نزل إلى أسفل. كانت قد استيقظت قبله، لأن آلة تحميص الخبز كانت قد أخرجت ووضعت على منضدة المطبخ، وإلى جوارها بعض من فتات الخبز. إضافة إلى برطمان من المربي، وطاسة من العسل والزبد. إفطاره. كانت هناك قهوة في مكبس القهوة الفرنسية. تناول بعض الخبز المحمص واقفًا في الشرفة، ناظرًا إلى البحر، مفترضًا أنها لا بدّ قد ذهبت للسباحة مجدّدًا، وعلى ذلك فلا شك أنها ستأتي من هناك. أراد أن يراها أولًا، قبل أن تراه. كان من ذلك النوع الذي يراقب الآخرين.

تساءل إن كانت ستوافق على اصطحابه إلى المختبر. كان يشعر بفضول شديد. حتى إذا أخبرته أن المختبر لا يحتوي على أي شيء، سيكون بإمكانه اكتشاف بعض الأشياء مما سيراه.

كانت تقنيات مول لغزًا غامضًا. كان بلاو قد خرج ببضع نظريات، بالطبع، بل وربما اقترب من حل اللغز. رأي عيّناته في «مينز»، ثم في جامعة فلورنسا بمناسبة «المؤتمر الدولي لحفظ الأنسجة». كان بوسعه تخمين كيف كان مول يحفظ الأجساد، لكنه لم يعرف التركيب الكيماوي للمثبتات، لم يكن متأكدًا من طريقة عملها على الأنسجة. هل ينبغي تحضيرها بطريقة ما، معالجتها قبل الاستخدام؟ متى وكيف توزّع المواد الكيميائية، وما الذي يستخدم مكان الدم؟ كيف يجري تلدين الأنسجة الداخلية؟

مع ذلك فقد فعلها مول (وزوجته - التي كان بلاو يزداد ثقة في تورطها ساعة بعد أخرى)، كانت عيناته ممتازة، ظلت الأنسجة تحافظ على لونها الطبيعي ودرجة معينة من اللدونة. كانت ناعمة، لكنها أيضًا جامدة بما يكفي لإعطاء الجسد الشكل المناسب. علاوة على أنها كانت سهلة الفصل، ما جعلها ذات قيمة تعليمية صعبة المنال - بوسعك عزلها عن بعضها البعض وإعادة تجميعها ثانية. إمكانيات لا نهائية في ما يخص الارتحال داخل جسد الكائن المحفوظ. من وجهة نظر تاريخ حفظ الأجساد، كان اكتشاف مول ثورة، بلا نظير. كان تلدين «فون هاغِنز» هو الخطوة الأولى في هذا الاتجاه، لكنه بدا الآن أقل وجاهة.

مجددًا خرجت في منشفة، هذه المرة منشفة وردية وكانت آتية لا من البحر، وإنما من الحمام. نفضت شعرها المبلل ووقفت في المطبخ، عند الموقد، حيث كانت تسخن الحليب للقهوة في كوز معدني. حرّكت المكبس المُثقب إلى أعلى وأسفل، ببطء، حتى انصبت رغوة الحليب على السطح الخزفي المسخن بهسيس مسموع.

«كيف نِمتَ يا دكتور؟ قهوة؟».

آه، نعم، قهوة. تناول قدحه بامتنان وتركها تضيف بعض الحليب الرغوي عليه. أنصّت باهتمام مصطنع لحكايتها عن القط البرتقالي، الذي يومًا ما، اليوم الذي مات فيه قطهم البرتقالي السابق، ظهر عند بيتهم -من يعرف من أين- وجلس على الكنبة وكأنه عاش عمره هنا، ثم بقي في البيت، وهكذا، لم يلاحظا فرقًا تقريبًا.

تنهدت: «هذه هي قوة الحياة. ما إن يرحل شخص حتى يبدأ آخر في ملء الفراغ».

مسكين بلاو - كان ليفضل أن يدخل في صلب موضوعهما مباشرة. لم يكن ماهرًا قطّ في المحادثات الصغيرة، كان يضجر من الموضوعات التي تطرح لأجل الحفاظ على طنين اجتماعي لطيف. كان يريد - ببساطة- إنهاء قهوته ودخول المكتبة، ورؤية مكان عمل مول والأشياء التي كان يقرأها. هل لديه كتاب بلاو، «تاريخ الحفظ»، على رفوفه؟ أيّ دروب تلك التي أوصلته إلى اكتشافاته الباهرة؟

«أمر مثير أنه، مثلك، بدأ يبحث في أعمال رُويش».

كان بلاو، بداهة، يعرف ذلك، لكنه لم يرغب في مقاطعتها.

«في أولى مقالاته المنشورة أوضح أن رُويش كان يحاول حفظ أجساد كاملة، عن طريق إزالة سوائلها الطبيعية، فقط لو كان ذلك ممكنًا في تلك الأيام، والاستعاضة عنها بخليط من الشمع السائل، والتلك، والشحم الحيواني، ثم تُغمر الأجساد، المحفوظة بتلك الطريقة، تمامًا مثل عينات الأعضاء، في "ماء جهنمي" يبدو أن الفكرة لم تؤت ثمارها قطّ بسبب عدم وجود أوعية زجاجية كبيرة بما فيه الكفاية».

اختلست نظرة إليه.

«سأطلعك على ذلك البحث»، قالتها وتحركت بخفة لتتصارع مع الباب المنزلق بسبب القهوة التي كانت تحملها بيدها. ساعدها، بينما أمسكت هي بقدحه.

وراء الباب كانت المكتبة - غرفة جميلة فسيحة مبطنة برفوف الكتب من الأرض إلى السقف. بتصويب مثالي مدّت يدها إلى واحد منها وأخرجت كتيّبًا مجلدًا متوسط الحجم. تصفحه بلاو بطريقة تجعلها تفهم أنه يعرف هذا النص جيدًا. على أي حال، لم يكن ممن ينشغلون بالتقنيات المتعلقة بالسوائل - فهذا طريق مسدود. فمثلًا، لم يشغله الإنكليزي، «ويليام بيركلي»، أدميرال الأسطول الذي كان رُويش قد حنّطه بهذا السائل، إلا في ما يتعلق بمشكلة «تخشب الجثامين». إذ كان ذلك سرّ المظهر الرائع لذلك الجسد، الموصوف بهذا الاستحسان من قِبَل معاصريه. كان رُويش قد تمكن من إضفاء سيماء استرخاء شديدة عليه، رغم أنه تسلَّم الجسد الذي كان عليه معالجته بعد أيام من موته، متيبسًا تمامًا، الواضح أنه استأجر خدمًا مخصوصين لتدليك الجسد بصبر، وبذلك، تغلب على ظاهرة «تخشب الجثامين».

لكن شيئًا ما استولى على انتباهه بالكامل. أعاد لها الكتاب دون أن يحول أنظاره عن هذا الشيء.

بجوار النافذة كان مكتب كبير، وأمامه خزانة عرض زجاجية، عيّنات! لم يستطع بلاو السيطرة على انفعاله ووجد نفسه يقف أمامها من دون أن يدرك أنه وصل إليها، بدت منزعجة أنه لم يمنح لها فرصة التمهيد ببطء، وعلى طريقة المتاحف، لما كان على وشك رؤيته. لقد أفلت منها.

«هذا، ربما لا تكون ملمًا به»، قالتها بقدر من المشاكسة، وهي تشير إلى القط البرتقالي. كان ينظر إليهما بسلام، جالسًا في وضعية توحي بقبول وجوده في هذه الهيئة. أما القط الآخر، الحي، فقط تبعهما إلى الغرفة الآن وراح يحدّق في سلفه، وكأنه ينظر إلى انعكاس صورته في مرأة.

«المسه، ارفعه»، شجعت المرأة ذات المنشفة الوردية الدكتور.

ارتعشت أصابعه، فتح خزانة العرض ولمس العينة.

كانت باردة، لكن ليست جامدة. غارَ فروها قليلًا تحت أنملة بلاو. التقطها بلاو بحرص، ممسكًا بصدرها بإحدى يديه وبطنها باليد الأخرى، كما تُرفع القطط الحيّة - وشعر بإحساس شديد الغرابة. لأن وزن القط هو نفس وزن قطّ حي، ومثل القط الحي، استجاب جسده لقبضة الدكتور. كان الأثر الذي خلفته أصابعه على العينة أيضًا لا يصدق. نظر إليها وعلى وجهه تعبير جعلها تضحك، وثانية هزت رأسها الذي لم يجف بالكامل بعد.

قالت، وهي تتقدم لتقف إلى جواره، وكأن سر العينة جمعهما معًا، قرّب بينهما: «انظر.

مدّدها واقلبها».

فعل ذلك بحرص، ومدت هي يدها ووضعتها على بطن القط.

تمدد جسد القط، تحت ثقله ذاته، وللحظة كان راقدًا أمامها على ظهره، في وضعية لا يقدر عليها أي قطّ حي، لمس بلاو فروه الناعم وهيئ له أنه شعر بدفء ما ولو أنه عرف أن ذلك مستحيل. لاحظ أن عينيه لم تستبدلا بعينين زجاجيتين، كما في الحالات المعتادة؛ عوضًا عن ذلك، كان مول بطريقة سحرية ما قد ترك عينيه الحقيقيتين في مكانهما؛ بدتا عكرتين قليلًا فحسب. لمس أحد الأجفان - كان ناعمًا وغار تحت إصبعه.

«جِلٌ من نوع ما»، قالها، لنفسه أكثر مما لها، لكنها كانت تشير إلى حيث الشق في بطن القط، الذي انفتح بعد شدّة خفيفة وكشف أحشاء القط كلها.

برقة، وكأنما يلمس قطعة أوريغامي بالغة الهشاشة، بأنامله فقط، أزاح جانبًا الجدران البطنيّة للحيوان ووصل إلى الغشاء البريتوني، الذي ترك نفسه ينفتح بدوره، وكأن القط كتاب مصنوع من مادة غرائبية ثمينة ليس لها اسم بعد. رأى المنظر الذي يمنحه، منذ طفولته، إحساسًا بالسعادة والرضا - الأعضاء موضوعة بشكل مثالي في علاقتها ببعضها البعض، معبأة في تناغم مقدس، ألوانها الطبيعية توفر مصداقية هائلة، تُكمل الوهم بأن أحشاء جسدِ حي تنفتح الآن أمام الأعين، أن المرء يشارك ذلك الجسد أسراره.

«أكمل. افتح القفص الصدري»، قالتها، وهي تتراجع خطوة صغيرة إلى الوراء لكنها لا تزال تنظر من فوق كتفه. كان يشم أنفاسها: قهوة ونكهة حلوة، آسنة.

تابع، فانصاعت الضلوع الرقيقة تحت ضغط أصابعه. كان في الحقيقة يتوقع رؤية قلب نابض، لقد كان الوهم مثاليًا. عوضًا عن ذلك سمع نقرة، وشيئًا يضاء بالأحمر، ثم انبثق لحن صارخ، تعرّف عليه الدكتور بلاو لاحقًا: أغنية «أريد أن أعيش إلى الأبد» الشهيرة لفرقة «كوين». قفز إلى الوراء، مفزوعًا، بمزيج من الخوف والاشمئزاز، وكأنه قد أوقع أي من دون قصد بهذا الحيوان الممدّد أمامه. رفع يديه عاليًا وإلى الأمام. صفقت المرأة يديها وأطلقت ضحكة عالية، مرحة، وقد أسعدتها الفرحة، لكن لا بد أن تعبيرًا جامدًا ارتسم على وجه بلاو، لأنها سيطرت على نفسها ووضعت يدها على ظهره.

«أنا آسفة، لا تقلق، إنها مزحته الصغيرة لا أكثر. لم نرغب في أن يكون كئيبًا»، قالتها، بنبرة جادة تماما، رغم أن عينيها الزرقاوين كانتا لا تزالان تضحكان. «أنا آسفة»

بادلها الدكتور الابتسام بصعوبة، وراح ينظر مفتونًا بينما ترجع أنسجة العينة ببطء، وعلى نحو غير ملحوظ تقريبًا، إلى وضعها الأول.

وأخذته إلى المختبر. استقلا السيارة على الطريق المعبد بالحصى بطول الشاطئ وصعودًا

إلى بعض الأبنية الحجرية. في الماضي، كان ثمة مصنع لتحضير الأسماك هنا، عندما كان الميناء لا يزال يعمل على هذا النحو الآن تحول إلى بضع غرف كبيرة ذات جدران نظيفة مبلطة، وأبواب تفتح بلمسة على جهاز تحكم عن بعد، مثل أبواب الكراجات. كان خاليًا من النوافذ. أضاءت النور ورأى بلاو طاولتين كبيرتين مغطاتين بصفائح معدنية إضافة إلى عدة خزانات زجاجية مملوءة بالبرطمانات والمعدات. رفوف مليئة بالقوارير المصنوعة من «زجاج جينا» المقوّى. «بابابن»، هكذا قرأ على واحدة منها واندهش. فيم كان مول يستخدم هذا الإنزيم، لتكسير أي شيء؟ «كتاليز». حقن ذات أبعاد هائلة للضخ وأخرى صغيرة عادية، مثل تلك التي تستخدم في حقن الناس بالدواء. لاحظ ذلك بينه وبين نفسه، من دون أن يجرؤ على السؤال. ليس الآن. حمام معدني، مصرف في الأرض، تصميم يُذكر في آن واحد بعيادة جراح ومجزر لذبح الحيوانات. أحكمَت إغلاق الصنبور الذي كان ينقط.

سألته: «هل أنت سعيد؟».

دسَّ كف يده المفتوح تحت الصفيحة المعدنية التي تكسو الطاولة وتوجه إلى المكتب، حيث لا تزال على سطحه بضع صفحات مطبوعة بالكمبيوتر مرسوم عليها رسم بياني منحنٍ على نحو ما.

«لم ألمس أي شيء»، قالتها بنبرة مشجعة، وكأنها صاحبة بيت معروض للبيع. «فقط تخلصت من بعض العينات غير المكتملة، لأنها بدأت تتلف».

شعر بيدها على ظهره فألقى عليها نظرة مرتبكة، ثم نكس بصره على الفور. اقتربت منه أكثر، وقفت حتى صار ثدياها يلمسان قميصه، شعر بدفقة فزعة من الأدرينالين واستطاع بالكاد أن يمنع جسده من الانتفاض إلى الوراء رغمًا عنه. لكنه وجد حُجّة؛ الطاولة التي ارتطم بها، تأرجحت، وبعض الأمبولات الزجاجية الصغيرة كادت تتدحرج إلى الأرض. أمسك بها في اللحظة الأخيرة؛ وهكذا حرّر نفسه من ذلك القرب المربك بين جسديهما. كان متأكدًا أن ذلك حدث على نحو طبيعي، أنها انحنت عليه عَرَضًا. في الوقت نفسه، شعر وكأنه صبي صغير، وفجأة بدأ الفرق بين عمريهما يبدو كبيرًا جدًا.

فقدت قدرًا من اهتمامها بعرض التفاصيل عليه وشرحها له؛ أخرجت هاتفها وأجرت مكالمة. كانت تناقش قيمة إيجاريّة ما، وتضرب موعدًا ليوم السبت. وفي ذلك الحين، راح هو يجول ببصره بنهم، متفحصًا كل تفصيلة، ومناشدًا نفسه أن يتذكرها جميعًا. مسجلًا في عقله خريطة لكل تجهيزات المختبر، كل قارورة صغيرة، مكان كل أداة.

بعد الغداء، حيث تكلمت معه عن مول، وجدول أعماله اليومي، وأوجه غرابة أطواره (كان ينصت بانتباه، مستشعرًا أنه ينال امتيازًا غير عادي)، حاولت إقناع بلاو بالسباحة في البحر. لم يكن سعيدًا بذلك، كان يفضل أن يجلس بهدوء في المكتبة ويفحص القط والغرفة نفسها مرة أخرى. لكنه لم يمتلك شجاعة الرفض. قام بمحاولة أخيرة مبهمة للتملص بأن

لفت إلى أنه لم يجلب ملابس سباحة.

أجابته، رافضة عذره: «آه، هيا. إنه شاطئي الخاص، لن يكون هناك أحد. تستطيع أن تسبح عاريًا».

مع ذلك، فستسبح هي في ثوب سباحة. وهكذا، خلع الدكتور بلاو البوكسر الخاص به تحت منشفته ونزل الماء بأسرع ما استطاع. حبست البرودة أنفاسه، لم يكن سباحًا ماهرًا - بشكل ما لم تتح له الفرصة لتعلم السباحة. عمومًا، لم يكن يحب التمارين الرياضية، لم يحب أن يكون في حالة حركة. راح يحجل مرتبكًا داخل الماء، حريصًا على إبقاء القاع تحت قدميه. في هذه الأثناء انطلقت هي إلى داخل البحر في حركات «رول» جميلة، ثم عادت. رشته بالماء. أغمض بلاو عينيه مندهشًا.

صاحت: «طيّب، ماذا تنتظر، اسبح!».

جهز نفسه للحظة قبل أن يغطس في الماء البارد، وفعلها أخيرًا في يأس، واستسلام، مثل طفل لا يريد أن يخيب أمل والديه. سبح مسافة قصيرة واستدار عائدًا. ثم صفّقت هي يدها على صفحة الماء، بقوة، وظلت تسبح وحدها.

انتظرها على الشط، مرتجفًا. وحين تقدمت باتجاهه، تقطر منها المياه، نكس هو رأسه.

سألته في صوت مرح مجلجل: «لماذا لم تسبح؟».

«برد»، هذا كل ما قاله.

انفجرت ضاحكة، ملقية برأسها إلى الوراء، كاشفةً حلقها بلا خجل.

في غرفته غفا قليلًا، قبل أن يدون بعض الملاحظات التفصيلية. بل ورسم مخططًا لمختبر مول، شاعرًا أنه يشبه «جيمس بوند». أحس بارتياح وهو يشطف الماء المالح عن جسده، ويحلق ذقنه، ويرتدي قميصًا جديدًا. عندما نزل إلى أسفل، لم يرها في أي مكان. كان باب المكتبة مغلقًا، والمفاتيح في الباب قد أديرت، هكذا لم يجد في نفسه الشجاعة للدخول... خرج أمام البيت ولعب مع القط حتى تجاهله القط. أخيرًا سمع بعض الأصوات تأتي من داخل المطبخ فتوجه إليه من ناحية الفناء.

كانت السيدة مول تقف إلى جوار النضد تُقطّع أوراق الخس الخضراء.

«سلطة بالخبز المحمص وبعض الجبن. ما رأيك؟».

أومأ بلهفة، وإن لم يقتنع على الإطلاق أن ذلك سيشبعه. صبت له كأسًا من النبيذ الأبيض، ومن دون اقتناع، رفعه إلى شفتيه.

أخبرته عن الحادثة بالتفصيل، عن البحث عن الجثمان في البحر، الذي استمر لوقت

طويل، عدة أيام، وفي النهاية كيف بدا الجثمان عندما عثروا عليه أخيرًا. فقد كل رغبة في الأكل. قالت إنها استطاعت حفظ قطعة من النسيج الذي تعرض لأقل قدر من التلّف. كانت ترتدي فستانًا رماديًا طويلًا ورقيقًا للغاية بفتحتين على الجانبين وفتحة رقبة واسعة تكشف جسدها المغطى بالنمش، مجددًا ظن أنها قد تبكي.

تناولا السلطة والجبن في صمت تقريبًا. ثم أمسكت بيده، فتجمَّد.

وضع ذراعه حولها، مختبئًا منها بمهارة. قبَّلت رقبته.

اندفع قائلًا: «ليس هكذا».

لم تفهم. «كيف، إذا؟ ماذا تريدني أن أفعل؟».

لكنه كان قد تملص من عناقها، نهض عن الكنبة، أحمر الوجه، وراح ينظر في أرجاء الغرفة عاجزًا.

«كيف تريد لذلك أن يحدث؟ خبّرني».

يائسًا، أدرك أنه لا يستطيع التظاهر أكثر من ذلك، أنه لا يمتلك القوة، أن أشياء أكثر من اللازم تحدث في وقت واحد، فأدار لها ظهره، وهمس: «لا أستطيع، الأمر سريع جدًا بالنسبة لي».

غمغمت وهي تنهض: «هذا لأنني أكبر منك سنًا، صح؟».

احتج مترددًا. أراد منها أن تواسيه لكن دون أن تلمسه.

قال، وهي تنظف الطاولة: «فرق السن بيننا ليس كبيرًا لهذه الدرجة». ثم كذب: «إنني مع شخص آخر».

بمعنى من المعاني، كان ذلك حقيقيًا، والحقيقة حقيقية دائمًا بمعنىً من المعاني؛ كان مع شخص آخر. كان قد زُفَّ بالفعل، وتزوج، وارتبط بالدم. مع الـ«غلاسمينش» والمرأة الشمعية ذات البطن المفتوحة مع سليمان، فراغونار، فيساليوس، فون هاغِنز، ومول. ومن غيرهم، بحق الرب؟ ما الذي يمكن أن يجعله يخترق هذا الجسد الحي، الحار، المتقادم، يدخله بجسده؟ لأي غرض؟ شعر بأنه سينبغي عليه المغادرة ربما الآن وفورًا، مرّر يده في شعره وزرَّر قميصه.

تنهدت بعمق.

سألته: «إذا؟».

لم يعرف ماذا يقول.

بعد ربع ساعة كان يقف بحقيبة سفره في غرفة المعيشة، جاهزًا للرحيل.

«هل يمكن أن أطلب تاكسي؟».

قالت: «بالطبع». خلعت نظارتها وأشارت إلى الهاتف ثم عادت إلى القراءة.

لكن لأنه لا يعرف الرقم، فكر أن الأفضل أن يمضي على قدميه حتى محطة الحافلات، لا بدّ أن هناك محطة قريبة.

وهكذا، وصل إلى المؤتمر قبل الموعد الذي خطط له. بعد جدال طويل مع مكتب استقبال الفندق استطاع تدبير غرفة. قضى المساء بأكمله في البار. شرب زجاجة نبيذ في مطعم الفندق، ثم في الفراش بدأ يبكي مثل طفل صغير.

على مدار الأيام القليلة التالية سمع الكثير من الأوراق وألقى ورقته: «حفظ العينات الباثولوجية تحت التلدين بالسليكون: ملحق مبتكر لتعاليم التشريح الباثولوجي» - مقتطف من أطروحته.

استقبلت كلمته بحماسة. في الوليمة التي تمت في الأمسية الختامية للمهرجان، التقى بعالم تشوّهات خلقية لطيف ووسيم من هنغاريا، أسرَّ له أنه على وشك الذهاب إلى بيت السيدة مول، بدعوة منها.

«إلى منزلها الشاطئي» - أكدّ على كلمة «شاطئي». قال: «فكرث أن أجمع الرحلتين معًا، إنه لا يبعد كثيرًا عن هنا. ثم أسهب حالمًا: «كل ما تركه زوجها أصبح الآن بحوزتها. إذا استطعت أن ألقي نظرة على مختبره... تعرف، لدي نظريتي الخاصة عن التركيب الكيميائي. يبدو أنها تجري مشاورات مع أحد المتاحف في الولايات المتحدة. آجلًا أو عاجلًا ستتبرع بالعينات إضافة إلى كل الوثائق. لكن إذا استطعت الوصول إلى أوراقه هنا والآن سيصبح تأهلي مضمونًا، ربما حتى لدرجة الأستاذيّة».

فكر بلاو: يا له من مغفل. لن يعترف أبدًا لشخص كهذا أنه ذهب إلى هناك أولًا. ثم نظر إليه بعينيها، للحظة واحدة. رأى شعره الداكن، الذي يلمع بجِلٍ من نوع ما، وبقع العرق الصغيرة تحت إبطيه على قماش قميصه الأزرق. بطنه التي بدأت تبرز قليلًا، لكنها لا تزال ممشوقة، شفتاه الرفيعتان، جلده الشاحب الطازج صحبة ظِل الشعر الكثيف على وجهه. كانت عيناه قد أُغبشتا بالفعل من النبيذ والتمعتا بمجدِ النصر الوشيك.

طائرة الماجنين

وجوة شمالية محمرّة باغتتها الشمس على حين غرّة. أشحَبَها الماء المالح، وذلك الشعر الناتج عن الجلوس عدّة ساعات يوميًا على الشطّ. أكياسٌ مليئة بالملابس المتسخة، المخضلة بالعرق. في حقائبهم المحمولة بضائع اشتروها من المطار في الدقيقة الأخيرة: تذكارات لأحبائهم، زجاجات خمر قوي من السوق الحرة. رجالٌ فقط؛ يحتلون الجزء نفسه من الطائرة في جلف ضمني من نوع ما، يستقرون في مقاعدهم، يربطون أحزمتهم - سينامون، سيعوضون سَهر تلك الليالي. جلدهم لا يزال ينضح برائحة الكحول، وأجسادهم لم تنته بعد من هضم تلك الجرعة التي استمرت لأسبوعين - بعد عدة ساعات في الهواء ستكون تلك الرائحة قد شبّعت الطائرة كلها. بالإضافة إلى زَنَخ العَرق المخلوط ببقايا ال-«أيروسول». لو كان معنا باحث في علم الجريمة لاكتشف المزيد من الأدلة - شعرة داكنة واحدة طويلة منتوشة بزر قميص؛ أثر ضئيل لمادة عضوية تحت ظفري السبابة والوسطى حمض نووي بشري، يخصُّ شخصًا آخر، في الألياف القطنية لملابسهم الداخلية، قشور جلديّة مجهريّة؛ في فتحات السُّرة كميات متناهية الصغر من المني.

قبل الإقلاع يتبادلون كلمة أو كلمتين مع الجيران عن يمينهم ويسارهم. بتحفظ يعبرون عن رضاهم بالوقت الذي قضوه مؤخرًا - لا حاجة لقول شيء آخر، وفي أي حال، الأمر مفهوم. قلة قليلة فقط منهم، هؤلاء الأكثر عنادًا، هم من يطرحون أسئلة أخيرة عن الأسعار والخدمات المتاحة، ثم -برضًا- يغفون. لقد تبيّن أن كل شيء رخيص جدًا.

زينة الحاج

ذات مرة أخبرني صديق قديم كيف يكره السفر بمفرده. كانت شكواه: عندما يرى شيئًا خارجًا عن المألوف، شيئًا جديدًا وجميلًا، تراوده رغبة شديدة في مشاركته مع شخص آخر حتى إنه يصبح تعيسًا للغاية إن لم يجد أحدًا حوله.

أشك في أنه سيصبح حَاجًا جيدًا.

خطاب جوزفين سليمان الثاني لفرانسيس الأول إمبراطور النمسا

حيث إنني لم أتلق أي رد على خطابي، سأطلب أن تسمحوا لي بأن أكتب لجلالتكم مرة أخرى، وهذه المرة سأخاطبكم بجرأة أكبر، ولو أنني أتمنى ألا تفهموا ذلك على أنه رفع للكلفة: أخي العزيز. أفلم يجعلنا الرب، أيًّا كان، أخوة وأخوات؟ أفلم يوزع علينا بدأب التزاماتنا لكي نحملها على كواهلنا دائمًا بكرامة وإخلاص، لنرعى صنيعة يديه. لقد عهد إلينا بالأرض والبحر، وعهد إلى البعض بالصناعة، وإلى البعض بالحكم. البعض أسبغ عليهم النسب الكريم، والصحة، والفتنة، بينما جعل الآخرين أدنى نسبًا وأنعم عليهم بهبات جسمانية أقل. ونحن، بعقلنا البشري المحدود، لا نستطيع أن نفهم لذلك سببًا. لا يبقى لنا إلا أن نثق أن له في ذلك حِكمة، وأننا بهذه الطريقة نُشكل جميعًا جزءًا من معماره المعقد، أجزاء لا يمكننا التكهن بالغرض منها، لكن يجب علينا أن نؤمن بهذا من دونها ستتوقف آلية العالم العظيمة عن عملها ببساطة.

قبل بضعة أسابيع لا أكثر، وضعت طفلًا، أطلقنا عليه أنا وزوجي اسم «إدوارد». مع ذلك، فإن فرحتي الأمومية العظيمة مشوبة بحقيقة أن جدَّ ابني الصغير لم يصل بعد إلى مثواه الأخير. أن جسده غير المدفون يُعرض بأمر من جلالتكم أمام العيون الفضولية في «خزانة الأعاجيب» الخاصة بالأمير.

من حُسن طالعنا أننا ولدنا في عصر العقل، في عصر استثنائي طالما أظهر لنا كيف أن العقل هو أكثر نعم الرب تمامًا واكتمالًا. وتكمن قوة العقل في قدرته على تطهير الدنيا من الخرافات والمظالم وجعل الهناء يسود بين سكان العالم كافة. لقد كان والدي مخلصًا لتلك الفكرة تمام الإخلاص. كان يؤمن في أعماقه بأن العقل البشري هو أعظم قوة نستطيع نحن البشر- الظفر بها وتطويعها. وأنا، من نشأ في كنف كل ذلك الحب الذي أسبغه عليّ والدي، أؤمن بذلك أيضًا: العقل هو أفضل شيء كان يمكن أن يمنحه لنا الرب.

في أوراق والدي، التي رتبتها بعد وفاته، ثمة خطاب من جلالة الإمبراطور جوزيف، سَلَف جلالتكم وعمكم؛ خطاب مكتوب بخط يد جلالته ويحتوي على الفقرة التالية، التي سأسمح لنفسي بنقلها هنا: «كل الناس سواسية عند الميلاد. من والدينا لا نرث إلا الحياة الحيوانية، وفي هذا الصدد -نعرف جيدًا- ما من اختلاف على الإطلاق بين الملك، والأمير، والتاجر، والفلاح. وما من قانون في الوجود، مقدّسًا كان أم طبيعيًا، يمكن أن يجابه هذه المساواة».

كيف أصدّق تلك الفقرة الآن.

إنني لم أعد أطلب، وإنما **أتوسّل** لجلالتكم لكي تعيد إلى أسرتي جسد والدي، الذي جرّد من كل شرف وكل كرامة، عولج كيميائيًّا وجرى حشوه، وها هو يعرض أمام العيون الفضولية جنبًا إلى جنب حيوانات برّية ميتة. إنني أكتب إليك، أيضًا، بالنيابة عن غيره من البشر المحشوّين الذين تحتويهم «خزانة جلالة الملك لأعاجيب الطبيعة»، إذ ليس لديهم، على حد علمي، من يثير قضيتهم، ولا حتى من أقربائهم - وهنا إنما أشير إلى تلك الفتاة الصغيرة المجهولة، وإلى «جوزيف هامر» و«بيترو ميكائيل أنجولا». إنني حتى لا أعرفهم، ولن أستطيع أن أحكي ولو نبذة عن حيواتهم البائسة، مع ذلك أشعر بأن من واجبي تجاههم بوصفي ابنة «أنجيل سليمان» أن أقوم بفعل الرجاء المسيحي. إنه من واجبي، أيضًا، الآن وقد أصبحت أمًّا الإنسان.

جوزفين سليمان فون فويشترسليبن

ساريرا

راهبة جميلة صلعاء الرأس في رداء بلون العظام تنحني على صندوق ذخائر مقدسة صغير حيث يرتاح، على وسادة صغيرة من الساتان، ما تبقى من الجسد المحروق لكائن مستنير. أقف إلى جوارها، كلانا ينظر إلى تلك الهباءة. نستعين في مسعانا هذا بعدسة مكبرة هي من المعدات الثابتة في الغرفة. هذا الوجود المستنير الكامل يتخذ شكل هذه البلورة الضئيلة، حصوة صغيرة ضئيلة بحجم حبة رمل تقريبًا. جسد هذه الراهبة، بلا شك، سوف يتحول إلى حبة رمل، بعد بضع سنوات؛ وجسدي. لا، جسدي سيضيع: لم أكن قطّ من المواظبين على العبادات والشعائر.

لكن ذلك لا يجب أن يجعلني حزينة، باعتبار عدد الصحاري والشواطئ الرملية في العالم. ماذا لو كانت جميعها مجبولة من جواهر أجسادِ كائنات مستنيرة بعد إذ لاقت حتفها؟

الشجرة البوذية

قابلت شخصًا من الصين. أخبرني عن أول مرة يسافر إلى الهند في مأمورية عمل؛ كان بانتظاره الكثير من الاجتماعات المهمة الفردية والجماعية. كانت شركته تنتج أجهزة إلكترونية معقدة نوعًا ما تسمح بالاحتفاظ بالدم لفترة أطول، وتسمح بنقل الأعضاء بأمان، والآن كان يتفاوض على فتح أسواق جديدة وتدشين فروع للشركة في الهند.

في الأمسية الأخيرة هناك ذَكَرَ للمتعهد الهندي أنه يحلم منذ طفولته برؤية الشجرة التي بلغ بوذا الاستنارة تحتها - «الشجرة البوذية». كان ينحدر من أسرة بوذية، ولو أنه لم يكن مسموحًا بذكر الدين جهرًا في جمهورية الصين الشعبية في ذلك الوقت. لكن لاحقًا، فور أن بات بوسع كل فرد إعلان الدين الذي يريده، تحوّل والداه -على نحو غير متوقع- إلى المسيحية، إلى تنويعة شرق أقصيّة من البروتستانتية. أحسّا بأن الإله المسيحي قد يكون أكثر نفعًا لأتباعه، أنه سيكون، لنكن صرحاء أكثر فاعلية، ومعه سيسهل عليهم أن يحصلوا على بعض النقود ويتدبروا أمورهم. لكن هذا الرجل لم يشاركهم تلك النظرة وظل محافظًا على عقيدة أسلافه البوذية.

تفهَّم المتعهد الهندي رغبة الرجل. أومأ برأسه وأترَعَ كأس زميله الصيني. في النهاية ثملوا جميعًا على نحو بهيج، مُنفّسين عن كل التوتر المصاحب لتوقيع العقود والمفاوضات. بآخر ما تبقى لديهما من قوة، وهما يتمايلان على أرجل مترنحة، دخلا إلى حمام البخار في الفندق ليستعيدا وعيهما، إذ كان أمامهما عمل ينجزانه في الصباح.

في الصباح التالي وصلته رسالة في غرفته - ملاحظة صغيرة بكلمة واحدة: «مفاجأة». وقد شكت إلى الرسالة بطاقة العمل الخاصة بمتعهده. أمام الفندق كان يقف تاكسي، نقله إلى مروحية تنتظره. بعد طيران استمر لأقل من ساعة وجد الرجل نفسه في البقعة المقدّسة حيث، تحت شجرة تين هائلة، كان بوذا قد بلغ الاستنارة.

اختفت بدلته الأنيقة وقميصه الأبيض وسط زحام الحجاج. كان جسده لا يزال يحتفظ بذكرى الكحول اللاذعة، بحرارة حمام البخار وخشخشة الأوراق التي وقعت في صمت على سطح زجاجي لطاولة حديثة. خربشة قلم ترك اسمه وراءه. هنا، مع ذلك، شعر بأنه ضائع قليل الحيلة مثل طفل. وراحت النساء اللائي يبلغن كتفه طولًا، الملوّنات مثل ببغاوات، يُزحنه جانبًا في طريقهن صوب الوجهة التي كان يتدفق منها هذا التيار البشري العريض. فجأة خاف الرجل من الشيء الذي كان يكرره كبوذي عدة مرات في اليوم، عندما يسمح له الوقت - العهد. إنه سوف يحاول أن يساعد بصلواته وأفعاله، كل الكائنات من

ذوات الحواس على الوصول إلى الاستنارة. فجأة صدمه ذلك بوصفه عهدًا بائنًا.

عندما رأى الشجرة، أصيب -للأمانة- بإحباط. لم يجد في رأسه فكرة واحدة، ولا أي صلاة. توجه للموقع بتحية الإجلال التي يستحقها، راكعًا عدة مرات، فقدّما قرابين ثمينة، ثم بعد نحو ساعتين، عاد إلى المروحية. بعد الظهر كان في فندقه ثانية.

في الحمام، تحت تيار المياه الذي غسل جسده من العرق، والتراب، ورائحة الزحام الغريبة المائلة للحلاوة والأكشاك، والأجساد، والبخور المتغلغل في كل مكان، والكاري الذي كان الناس يأكلونه بأيديهم من صحون ورقية، خَطَرَ له أنه ظلّ طوال حياته، كل يوم، يشهد تلك الأشياء التي زلزَلَت «الأمير غوتاما» بهذه القوة: المرض، التقدّم في العمر، الموت. لم تكن أمورًا جللًا. ولم تترك فيه أي أثر، بل إنه أصبح متمرسًا عليها. ثم فكّر، وهو يجفف نفسه بالمنشفة البيضاء المنفوشة، أنه ليس واثقًا حقًا من رغبته في بلوغ الاستنارة. في أن يرى حقًا، في جزء من الثانية، الحقيقة كاملة. في أن ينظر داخل العالم وكأنما عبر أشعة سينية، أن يلمح فيه البنية الهيكلية للخواء.

لكنه، بالطبع -وهو يطمئن صديقه الكريم تلك الليلة ذاتها- كان ممتنًا إلى آخر الحدود لهذه الهدية. ثم أخرج من جيب سترة بدلته بحرص ورقة شجر مجعدة، مال عليها الرجلان في اهتمامٍ ورعٍ مفتون.

فندقي هو داري

أنظر حولي واستوعب كل شيء من جديد. أنظر إليه من البداية، وكأنني لم أكن هنا من قبل قطّ. أكتشف تفاصيل. أندهش على وجه الخصوص من اهتمام أصحاب الفندق بالأزهار - كبيرة جدًا وجميلة جدًا بأوراقها المتألقة، وتربتها المرطبة كما ينبغي، ونَبتات الـ«تيتراستيغما» تلك: مذهلة.

يا لها من غرفة نوم كبيرة، ولو أن البياضات كان يمكن أن تكون من نوعية أفضل، ملاءات بيضاء ومنشاة جيدًا، عوضًا عن ذلك فهي بلون لحاء الشجر الكالح، حتى أنها لا تحتاج إلى كبس ولا كي. مع ذلك، فالمكتبة بالأسفل مذهلة حقًا - إنها بالضبط من النوع الذي أحبه، وبها كل شيء سأحتاجه إن قدّر لي أن أعيش هنا يومًا ما. في الحقيقة، قد أطيل البقاء هنا فقط من أجل هذه الكتب.

وبصُدفة غريبة أجد بعض الملابس في الدولاب يناسبنني تمامًا، معظمها ملابس داكنة، وهي ما أحب ارتداءه. تناسبني على نحو مثالي - هذه البلوزة ذات القلنسوة، ناعمة جدًا ومريحة جدًا. ثم أرى على طاولة الفراش - وقد بدأ ذلك يكون عصيًا على التصديق بحق- الفيتامينات وسدادات الأذن التي أشتريها دائمًا. هذا كثير جدًا. كذلك يعجبني أنك لا ترى أيًّا من مضيفيك قط، لا خدمة غرف هنا تقرع بابك في الصباح. لا أحد هنا يتسكع في الجوار. لا مكتب استقبال. بل إنني أصنع قهوتي بنفسي في الصباح، تمامًا كما أحبها. على ماكينة الإسبريسو، بحليب مبخر.

في الحقيقة، إنه فندق جيد وأسعاره جيّدة، هذا الفندق، ربما بعيد عن العمران قليلًا، وعلى مسافة من الطريق الرئيسي، الذي يدفن في الشتاء تحت الثلوج، لكن إذا كان المرء يسافر بالسيارة، فلا يهم حقًا. عليك أن تخرج عن الطريق السريع في بلدة (س) وتمضي بضع كيلومترات على الطريق العادي ثم تنعطف عند (ج) إلى جادة تفترشها الكستناء تقودك إلى طريق معبد بالحصى. في الشتاء عليك أن تترك سيارتك بجوار آخر محبس مطافئ وتقطع بقية المسافة على قدميك.

علم نفس السفر: Lectio Brevis II

«سيداتي سادتي»، بدأت المرأة، هذه المرة شابة صغيرة، تنتعل حذاءً عسكريًا، شعرها مثبت لأعلى بطريقة وجدتها لطيفة؛ لا بدّ أنها خرجت لتوها من برنامج الماجستير. «كما قلنا في المحاضرات السابقة -التي ربما سنحت لكم فرصة الاستماع إليها في أحد المطارات أو محطات القطارات المشاركة في هذا المشروع- نحن نعيش الزمن والمكان بطريقة ذات طابع لاواعٍ بالأساس. ما من تصنيفات نستطيع أن نُسمّيها موضوعية، أو خارجية. إحساسنا بالحيز المكاني ينتج عن قدرتنا على الحركة. بينما نحس بالزمن لأننا ذوات بيولوجية متفردة تمر بحالات مميزة ومتغيرة. هكذا فإن الزمن ليس إلا تيّارًا من التغييرات.

الموقع بوصفه مظهرًا من مظاهر الحيز المكاني يوقف الزمن. إنه احتجاز للحظة ندرك فيها تموضعًا معينًا للأشياء. إنه، على خلاف الزمن، فكرة ثابتة.

وإذ نفهم ذلك، نجد الزمن البشري ينقسم إلى مراحل، مثلما تتفكك الحركة في الفضاء عبر الوقفات المكانية، هذه الوقفات تثبتنا داخل تيار الزمن. الشخص الذي ينام ويفقد كل إحساس بالمكان الذي هو أو هي فيه في لحظة ما يفقد أيضًا كل إحساس بالزمن. هكذا، كلما زادت الوقفات في الحيز المكاني، وكلما زادت الأماكن التي تتواجد فيها، انقضى الزمن أسرع على نحو ذاتي، عادة، تشير إلى المراحل المختلفة للزمن بوصفها حلقات. إنها حوادث قائمة بذاتها، كل منها يبدأ من الصفر؛ كل بداية وكل نهاية مطلقة. ما من حلقة واحدة يمكن إكمالها، تستطيع أن تقول ذلك».

الآن كانت هناك بعض الحركة في الصف الأول، إذ لاحظ أحدهم، وسط دمدمة الإعلانات عن الركاب المطلوبين على وجه السرعة، أنه سمع اسمه، وراح يسارع لجمع حقائبه المحمولة وأكياس السوق الحرة ويشق طريقه سريعًا بين جيرانه في هذا التزاحم. راجعتُ بطاقة ركوبي ثانية، وقد أصابني الذعر، ففقدتُ خيط المحاضرة: جاهدتُ من أجل العودة إلى أطروحة تلك المرأة المطوّلة إذ كانت قد شرعت الآن في الحديث عن الجانب العملي من علم نفس السفر. لا بد أنها استشعرت أننا اكتفينا من النظرية الغريبة والمعقدة.

«علم نفس السفر العملي يدرس المعنى المجازي للأماكن. فقط انظر إلى تلك الشاشات التي تعرض وجهات السفر. هل توقفت من قبل التفكر في معنى «أيسلاندا»؟ وما هي «الولايات المتحدة»؟ ما هي الاستجابة التي تجدها في نفسك عندما تنطق هذه الأسماء؟ طَرحُ هذا النوع من الأسئلة على نفسك أمرٌ مفيد على وجه الخصوص في علم النفس التحليلي الطوبوغرافي، حيث التوصل إلى المعاني الأعمق للأماكن يقود إلى فك شفرة ما

يسمى به المسار- الطريق المحدد للمسافر، بمعنى، السبب الأعمق لرحلته.

علم النفس التحليلي السفري أو الطبوغرافي لا يطرح، رغم التشابهات السطحية، الأسئلة نفسها التي يطرحها موظفو الهجرة: لماذا جئتُ إلى هنا؟ سؤالنا يُثير قضايا خاصة بالمعنى والمغزى، فالشخص، من حيث الجوهر، يصبح ما يُشارك فيه. بعبارة أخرى، أنا ما أنظر إليه.

وقد كان هذا -بالطبع- القصد وراء رحلات الحج القديمة. المجاهدة باتجاه -والوصول إلى- مكان مقدّس سوف يسبغ قداسة علينا، يطهرنا من خطايانا، هل يحدث الشيء نفسه عندما نسافر إلى أماكن غير مقدّسة، آثمة؟ إلى أماكن حزينة وخالية؟ أماكن مبهجة ومثمرة؟»

«ثم أليس هذا هو الحال...»، تابعت المرأة كلامها، لكن اثنين من الأزواج في أواسط العمر كانوا يثرثرون من خلفي بأصوات هامسة، ما بدا للحظة أكثر إثارة بالنسبة إليّ من تأمّلات محاضرتنا.

سرعان ما تبيّن أنهم ثنائيان من الأزواج يتبادلان انطباعات من أسفارهما، أحدهما يُحفّز الآخر:

«يجب أن تذهبا إلى كوبا - لكن كوبا التي لديهم الآن، تحت حكم فيدل. عندما يموت، ستصبح كوبا مثل كل مكان آخر. لكن إذا ذهبتما الآن فورًا ستشاهدان فقرًا لا يُصدّق- نوع السيارات التي يقودونها! لكن يجب أن تفعلا ذلك قريبًا- إذ يبدو أن فيدل مريض للغاية».

بنو جلدتنا

في هذه الأثناء، كانت المرأة قد انتهت من الجزء العملي من محاضرتها، وبدأ المسافرون يطرحون أسئلة وجلة، أسئلة تختلف عما كان ينبغي أن يسألوها. على الأقل كان ذلك شعوري. لكنني لم أمتلك الشجاعة لقول أي شيء بنفسي، لذا اتجهت إلى مطعم قريب لتناول القهوة. في مدخله كانت جماعة من الناس تبيّن أنهم يتحدّثون فيما بينهم بلغتي. نظرتُ إليهم من أعلى إلى أسفل بتشكك - بدوا كثيري الشبه بي. أجل، هاته النساء كان يمكن أن يكنّ شقيقاتي. عثرتُ لنفسي على مقعد أبعد ما يكون عنهم، ثم طلبت قهوة.

لم تسرّني على الإطلاق مقابلة بني جلدتي في أراضٍ أجنبية. تظاهرت بأنني لا أفهم أصوات لغتي. فضلت أن أبقى مجهولة الهوية. راقبتهم من زاوية عيني واستمرأتُ غفلتهم عن كونهم مفهومين. رحتُ أرصدهم خلسة، ثم اختفيت.

اعترف لي رجل إنكليزي مرهق، بحزن، أنه يشعر بالشعور نفسه («لا أكون سعيدًا قطّ عندما أقابل أبناء جلدتي في أراضٍ أجنبية») وهو يشرب بيرة أخرى، ويراقب الزبائن وهم يدخلون المطعم. ثرثرتُ معه قليلًا، لكننا لم نجد الكثير مما يُقال.

أنهيتُ قهوتي وعُدت إلى حيث كانت المحاضرة متظاهرة أنني سأضطر إلى المغادرة قريبًا، وذلك ليس صحيحًا. وصلتُ في الوقت المخصص لآخر بضع مناقشات، بينما تشرح المحاضرة قوية العزيمة شيئًا ما للمستمعين الثلاثة، الثابتين على العهد، الملتفين حولها.

علم نفس السفر: خاتمة

«لقد رأينا، سيداتي وسادتي، كيف ترعرعت الفردانية واكتسبت موطئ قدم، وأصبحت واضحة مؤثرة أكثر فأكثر. في السابق لم تكن ملحوظة تقريبًا، كانت عرضةً للتشويش، خاضعة للجمعية. كانت حبيسة الأدوار المقررة الأعراف، مسوّاةً بمكابس التقاليد، خاضعة لقانون الطّلب. الآن تتضخم وتغزو العالم.

في الماضي كانت الآلهة برّانية، بعيدة المنال، من عالم آخر، وكان مبعوثوها الظاهرون هم الملائكة والشياطين. لكن الأنا الإنسانية انفجرت واكتسحت الآلهة داخلها، وفَرّت لها مكانًا في موضع ما بين «قرن آمون» وجذع الدماغ، بين «الغدة الصنوبرية»، و«منطقة بروكا». فقط بهذه الطريقة تستطيع الآلهة البقاء - في الشقوق الساكنة المظلمة من الجسد البشري، في تلافيف المخ، في المساحة الخاوية بين المشابك العصبية. وقد بدأت هذه الظاهرة الفاتنة تُدرس في ذلك الفرع المعرفي الوليد: (علم نفس السفر).

هذه السيرورة تزداد استشراء يومًا بعد يوم - فما يؤثر في الحقيقة هو ما اخترعناه وما لم نخترعه على حدّ سواء. ومن يتحرك في عالم الحقيقة أيضًا؟ نعرف أناسًا يسافرون إلى المغرب عبر فيلم لبرتولوتشي، إلى دبلن عبر جويس، إلى التبت عبر فيلم عن الدلاي لاما.

ثمة متلازمة أعراض شهيرة سُمّيت باسم ستندال فيها يصل المرء إلى مكان معروف من الأدب أو الفن فيعيشه بكثافة شديدة تُوهن قواه أو تُفقده وعيه. ولدينا أولئك الذين يتفاخرون بأنهم اكتشفوا أماكن غير معروفة على الإطلاق، ونحسدهم نحن لأنهم عاشوا الحقيقة الأصدق حتى ولو على نحو عابر قبل أن يسقط ذلك المكان، شأنه شأن غيره، في جوف عقولنا.

«لهذا علينا أن نسأل، مجددًا، وبقوة أكبر، السؤال نفسه: إلى أين يذهبون؟ إلى أي بلاد، أو إلى أي أماكن؟ لقد أصبحت البلاد الأخرى مركبًا نفسيًا خارجيًا، عقدة من الدلالات يستطيع إخصائي علم النفس الطبوغرافي أن يفككها بكل بساطة، أن يفسرها في التو واللحظة.

مهمتنا هي أن نعطيكم لمحة عن علم نفس السفر العملي ونشجعكم على الاستفادة من خدماتنا. لا تخافوا، سيداتي وسادتي، من تلك الزوايا الهادئة بجوار ماكينات القهوة، في أرجاء متاجر الأسواق الحرة، تلك المكاتب المرتجلة حيث يمكنكم الفوز بتحليل سريع، وسري، لا تقطعه إلا من حين لآخر، ربما، إعلانات الرحلات المغادرة. مكاتبنا ليست إلا كرسيّين وراء شاشة عليها خرائط.

«إذًا، أنت ذاهب إلى بيرو»، قد يسألك المحلل النفسي الطبوغرافي. قد تظنه صرافًا أو

موظف تسجيل. «إذًا، بيرو؟».

وسيجري لك اختبار ارتباط قصير، يراقب بعناية أي كلمات ستكون نهاية الخيط. إنه تحليل قصير، ليس فيه أي استطراد زائد أو خارج الموضوع، لا يستحضر تلك المقولة الشائعة القديمة التي تقول إن اللوم يقع على الأمهات والآباء، في جلسة واحدة نصل إلى لب الحقيقة».

«بيرو، لكن لأي سبب؟».

اللسان أقوى العضلات

ثمة بلدان يتكلم فيها الناس الإنكليزية. لكننا لسنا كذلك - لدينا لغاتنا الخاصة مخبأة في حقائبنا المحمولة في شنطات أدوات الزينة، لا نستخدم الإنكليزية قطّ إلا في السفر، وفقط في البلدان الأجنبية، مع الأجانب. إنه أمر يصعب تخيله، لكن الإنكليزية هي لغتهم الحقيقية! بل كثيرًا ما تكون لغتهم الوحيدة. إنهم لا يمتلكون شيئًا آخر يرجعون إليه، أو يلجأون إليه في لحظات الشك.

أي ضياع ذلك الذي لا بد يشعرون به في العالم، حيث كل التعليمات، كل كلمات الأغاني شديدة الغباء، كل قوائم الطعام، كل النشرات والمطويات الفضيّة -وحتى أزرار المصاعد مكتوبة بلغتهم الخاصة. كلامهم قد يفهمه أي شخص في أي لحظة، كلما فتحوا أفواههم. ينبغي عليهم أن يكتبوا الأشياء بشفرات خاصّة. حيثما وجدوا، يكونون متاحين لكل شخص وكل شيء! سمعتُ أن ثمة خُططًا قيد الإعداد لمنحهم لغة صغيرة خاصة بهم؛ لغة من تلك اللغات الميتة التي لم يعد أحد يستخدمها، فقط ليتمكنوا أخيرًا من الاحتفاظ بشيء ما بينهم وبين أنفسهم، بعيدًا عن الآخرين.

تكلّم! تكلّم!

في الداخل والخارج، لنفسك وللآخرين، اسرد كل موقف، سَمِّ كل حالة؛ ابحث عن الكلمات، حاول نطقها. ذلك الحذاء الذي سيحوّل سندريلا على نحو سحري إلى أميرة. حرّك الكلمات هنا وهناك مثل الأقراص التي تضعها على الأرقام في لعبة الروليت. لعل هذه هي اللحظة المناسبة؟ لعلنا نربح هذه الجولة؟

تكلّم. شدّ أكمام الناس، اجعلهم يجلسون أمامك وينصتون. ثم حول نفسك إلى مستمع لهم ولكلامهم. ألا يقولون: أنا أتكلم، إذا أنا موجود؟ هو يتكلم، إذا هو موجود؟

استخدم كل الوسائل المتاحة لذلك، المجازات، الأمثال، التذبذبات، الجمل غير المكتملة، لا يوقفنَك انقطاع الجملة في منتصفها، وكأن هاوية فغرت فاها فجأة بعد إذ نطقت الفعل.

لا تترك أي موقف بلا تفسير، بلا سرد، لا تترك بابًا موصدًا؛ اركله بسباب، حتى تلك الأبواب التي تقود إلى دهاليز محرجة ومخجلة تفضل نسيانها. لا تخجل من أي سقطة، من أي خطيئة. الخطيئة المروية ستفوز بالغفران. الحياة المروية ستفوز بالخلاص. أليس هذا ما علمنا إياه القديسون سيغموند وتشارلز وجيمس؟ من لا يبرع في فن الكلام يظلّ على الدوام عالقًا في شَرَك.

الضفدع والطائر

في العالم وجهتا نظر: نظرة الضفدع ونظرة الطائر. أي نقطة بينهما لا تؤدي إلا إلى الفوضى.

خذ مثلًا خرائط المطارات، المرسومة بجمال بالغ في مطويات شركات الطيران. معانيها لا تتضح إلا عندما ينظر إليها المرء من أعلى، مثل «خطوط نازكا» الهائلة[24]، التي صنعت لكي تراها مخلوقات طائرة - المطار الحديث في سيدني شُيّد على شكل طائرة، على سبيل المثال. ولو أنني أجد ذلك مفهومًا بعيدًا عن الإثارة إلى حد ما - أن تهبط طائرتك على طائرة. الوسيلة تصبح الهدف، والأداة تصبح النتيجة. أما المطار في طوكيو، المشيّد على شكل حرف عملاق من لغة تصويرية، فهو مُربك جدًا. أي حرف هو؟ ما لم تتقن الأبجدية اليابانية، لن نعرف معنى وصولنا، لن نعرف بأي كلمة يحيوننا هنا. ماذا يطبعون على جواز سفرنا؟ علامة استفهام كبيرة؟

على النحو نفسه، تَجلب المطارات الصينية للأذهان الأبجدية المحلية، عليك أن تتعلمها، أن تضعها في نصابها الصحيح، أن تخلق منها جناسًا ناقصًا. بعدها، قد تكشف لك حكمة ما من وراء الرحلة؛ حكمة غير متوقعة. أو عاملها مثل تلك السداسيات الأربع والستين من «آي تشينغ»، وبعدها سيكون كل هبوط بمثابة ورقة من أوراق الحظ. السداسيّة 40، «سِيا»، عِتق. السداسية 36، «مين غيي»، إظلام النور. السداسيّة 10 «لو»، تحسّس الخطى. 17، «شوي»، مُشايعة. 24 «فو»، عودة. 30، «لي»، اعتصام.

لكن لنسترح قليلًا من تلك الميتافيزيقا الشرقية المُلتوية، التي يبدو أن لدينا نقطة ضعف تجاهها. دعونا ننظر إلى المطار في سان فرانسيسكو، الآن لدينا شيء مألوف، شيء يوحي بالثقة، يجعلنا نشعر وكأننا في ديارنا؛ هنا لدينا مقطع عرضي من العمود الفقري. المركز المستدير للمطار هو العمود الفقري، محصور داخل قشرة آمنة جامدة من الأضلاع البشرية، وهنا، تتفرغ منه كالأشعة، الجذور العصبية التي تمتد منها البوابات المرقمة، كل منها مجهزة بمعبر أسطواني يقود إلى الطائرة.

ومطار فرانكفورت؟ مركز السفر العظيم، الدولة داخل الدولة؟ بم يذكرك؟ أجل، أجل، صورة طبق الأصل من الرقاقة؛ رُقاقة الكمبيوتر، صفيحة رقيقة كما الموسى هنا لا مجال للشك - إنهم يخبروننا بحقيقتنا، أعزائي المسافرين. نحن النبضات العصبية المفردة للعالم، أجزاء من اللحظة، نحن ذلك الجزء الضئيل منها الذي يسمح بالتغيير من موجب إلى سالب،

أو ربما في الاتجاه الآخر، ويبقي كل شيء في انسيابٍ دائمٍ.

خطوط وسطوح وأجساد

لطالما حلمت بالمشاهدة من دون أن يراني أحد. بالتجسس. بأن أكون المراقب المثالي. مثل كاميرا «الغرفة المعتمة» التي صنعتها ذات مرة من صندوق أحذية، كانت تلتقط لأجلي جزءًا من العالم عبر فضاء أسود مغلق له حدقة مجهريّة يتسلل منها الضوء إلى الداخل. كنت أتدرب.

أفضل مكان لتدريب كهذا هو هولندا، حيث الناسُ، الواثقون من براءتهم تمام الثقة، لا يستخدمون الستائر. بعد الغسق تتحول النوافذ إلى خشباتِ مسرح صغيرة يؤدي عليها الممثلون أمسياتهم. سلاسل من الصور المغمورة بضوء أصفر دافئ تمثل الفصول المفردة للمسرحية نفسها المسماة «الحياة». لوحة هولندية. حيوات متحركة.

هنا يظهر رجل بالباب، يحمل صينية، يضعها على الطاولة؛ طفلان وامرأة يجلسون حولها. يأخذون وقتهم في الأكل، بصمت، لأن الصوت في المسرح لا يعمل. ثم ينتقلون إلى الكنبة، يشاهدون شاشة متوهجة بانتباه، لكن بالنسبة إلي، أنا الواقفة في الشارع، لا يتضح ما الذي استحوذ عليهم إلى هذه الدرجة. لا أرى إلا ومضات، زفات من الضوء، صورًا ضئيلة، أسرع وأبعد من أن أميزها. وجه شخص ما، فمّ يتحرّك بحماسة منظر طبيعي، وجهٌ آخر... البعض يقول إنها مسرحية مملة ولا شيء يحدث فيها. لكنني أحبها - مثلًا حركة قدم تلعب دون وعي بشبشب، أو فعل التثاؤب المذهل. أو يدٌ تبحث على سطح مخملي عن جهاز التحكم عن بعد، وبعد إذ تجده، تهدأ، تذوي.

واقفة على جنب. لا أرى العالم إلا مجزأً، لا أنتظر عالمًا آخر. لحظاتٌ، فتاتٌ، تكويناتٌ عابرة - لا تظهر في الوجود إلا لكي تتشظى إلى أشلاء. حياة؟ لا شيء من هذا النوع؛ أرى خطوطًا، وسطوحًا، وأجسادًا، وتحولاتها في الزمن، وفي هذه الأثناء، يبدو الزمن مجرد أداة بسيطة لقياس التغيرات الضئيلة، مسطرة مدرسة ذات مقياس مبسّط - عليها ثلاث نقاط فقط: كان، ويكون وسيكون.


泰陵
康陵
茂陵
裕陵
庆陵
献陵
长陵
景陵
定陵
昭陵
德陵
石象生
碑亭
大红门
石牌坊

وترُ أخيل

عام 1542 كان فجر عصر جديد، رغم أن أحدًا لم يلاحظ ذلك، لسوء الحظ. لم يكن عامًا مهمًا، ولا كان نهاية قرن - من منظور علم الأعداد لم يكن فيه شيء، فقط الرقم ثلاثة. ومع ذلك ففي ذلك العام ظهرت الفصول الأولى من كتاب كوبرنيكوس: «حول دوران الأجرام السماوية»، وكامل كتاب «بنية الجسم البشري» لفيساليوس[25].

غنيٌ عن القول، لم يشتمل أي من الكتابين على كل شيء - لكن هل يمكن لأي شيء أن يشتمل على كل شيء؟ فاتَ كوبرنيكوس بقية النظام الشمسي، كواكب مثل أورانوس، الذي كان لا يزال يتحين اللحظة المناسبة لكي يُكتشف، عشيّة الثورة الفرنسية. أما فيساليوس، فقد خلا عمله من بعض الحلول الميكانيكية في الجسم البشري: الانبساط، والمفاصل، والوصلات - ومنها، كمجرد مثال، الوتر الذي يربط ربلة الساق بكعب القدم.

لكن خرائط العالم -هذا العالم الداخلي وذاك العالم الخارجي كانت قد رُسمت بالفعل، وهذا النظام، فور أن وقعت عليه العين، نشر أشعته في العقل، حافرًا فيه الخطوط والسطوح الأولية - الأساسيّة.

دعونا نقول إننا في نوفمبر الدافئ من عام 1689، في وقتٍ ما بعد الظهر. فيليب فيرهاين يفعل ما يفعله عادة، يجلس إلى الطاولة، في بركة الضوء المتدفقة من النافذة، وكأن الضوء يُشع لهذا الغرض تحديدًا، يفحص الأنسجة المرتبة على سطح الطاولة. الدبابيس المغروسة في الخشب تثبت الأعصاب الرمادية في أماكنها. بيده اليمنى، ومن دون أن ينظر إلى الورقة يرسم ما يرى.

الرؤية، في نهاية المطاف، تعني المعرفة.

لكن، الآن هناك من يقرع الباب، والكلب ينبح بشراسة وينبغي على فيليب أن ينهض. إنه متردد. كان جسده قد اتخذ وضعيته المفضلة، رأسه مائل على العينة؛ الآن عليه أن يستند إلى ساقه السليمة ويجرجر من تحت الطاولة الساق التي تتخذ هيئة عكاز خشبي. بِعَرَجة يمضي إلى الباب، حيث يتمكن من تهدئة الكلب. بالباب يقف رجل شاب يتذكره فيرهاين - لكن بعد برهة معتبرة بوصفه تلميذًا عنده، فيليم فان هورسن. إنه قلَّما يسعد بمثل هذه الزيارات الحقيقة أنه لن يسعد بأي زيارة كانت مع ذلك يتراجع خطوة إلى الوراء وساقه الخشبية تدق على ألواح المدخل الحجرية ويدعو ضيفه إلى الدخول.

فان هورسن طويل، له شعر غزير مجعّد، ووجهٌ صبوح. يذهب إلى طاولة المطبخ ويضع عليها الأغراض التي اشتراها في الطريق: قرصٌ من الجبن، رغيف من الخبز، تفاح ونبيذًا. يتكلم بصوت عال، يتباهي بالتذكرتين اللتين حصل عليهما. هذا ما دعاه إلى المجيء اليوم. يجاهد فيليب ليمنع وجهه من فضح انزعاجه بتكشيرة شخص هبط لتوّه وسط ضجيج مروع. يخمن أن سبب وصول هذا الشاب -وهو شاب لطيف، للأمانة- مشروحٌ في الخطاب الذي يقبع غير مفضوض على الطاولة الصغيرة في المدخل. وبينما يضع الضيف الزاد، يخبئ المضيف الخطاب بمهارة وسيتظاهر من الآن فصاعدًا بأنه على علم بمحتواه.

سيتظاهر أيضًا بأنه عجز عن العثور على مضيفة، مع أنه لم يبحث من الأساس. سيتظاهر بأنه يتعرف على كل الأسماء التي يذكرها زائره، ولو أن ذاكرته في الحقيقة ليست بتلك الجودة. إنه عميد لإحدى الكليات بجامعة لوفن، لكنه منذ الصيف لاذ متحصنًا بالريف متشكيًا من سوء صحته.

معًا أشعلا نارًا وجلسا لتناول الطعام. المضيف يأكل مترددًا، لكن يبدو أن كل قضمة تفتح شهيته أكثر. النبيذ ينسجم جيدًا مع الجبن واللحم. فان هورسن يريه التذكرتين. ينظران إليهما في صمت، ثم يتجه فيليب إلى النافذة ويضبط عدسات نظارته لكي يرى على نحو أفضل الرسم المعقد للحروف. فحتى التذكرة نفسها عمل فني - تحت النص المكتوب في الجزء العلوي ثمة رسم توضيحي جميل للمعلم لوش، لوحة من الهياكل العظمية لأجنة بشرية. اثنان منها مرسومان حول تكوين مؤلف من الأحجار والفروع الجافة، يُمسكان في أيديهما بآلتين موسيقيتين من نوع ما، إحداهما تشبه البوق، والأخرى مثل الهارب. وحين تدقق النظر في تشابك الخطوط، ترى المزيد من العظام والجماجم، دقيقة ورقيقة، وأيّ مراقب يَقظ سيرى أيضًا مزيدًا من الأجنّة.

يسأل الضيف، وهو ينظر من فوق كتف المضيف: «جميلة، أليست كذلك؟».

ويجيبه فيليب فيرهاين بأول ما يخطر على باله «ماذا فيها؟ إنها عظام بشرية».

«إنها فَن».

لكن فيليب لا ينجرُّ إلى مناقشة، لا يشبه فيليب فيرهاين ذاك الذي كان فان هورسن يعرفه من الجامعة. المحادثة لا تجري بصورة انسيابية، وقد يخامرك انطباع أن المضيف مستغرق في شيء آخر، لعل العُزلة قد شدّت أفكاره، مدتها وصيَّرتها فتائل طويلة، وعوّدته على الحوارات الداخلية.

يسأله تلميذه القديم بعد فاصل طويل: «هل ما زالت عندك يا فيليب؟».

يقع مختبر فيرهاين في جناح خارجي صغير، تصل إليه من باب في المدخل. لا يفاجئه المنظر بالداخل على الإطلاق، يشبه أكثر ورش الحفارين، يعج بالصفائح، أحواض

الأحماض، أدوات نقش معلقة على الحائط، مطبوعات جاهزة مفرودة لتجف في كل مكان، تشابكات من النسالة متناثرة على الأرضية. يتجه الضيف بلا نيّة مسبقة إلى الأوراق المطبوعة. كلها تظهر عضلاتٍ وأوعية دموية، وأوتارًا، وأعصابًا. مرسومة بتأنٍ، شديدة الشفافية، كاملة الأوصاف. كذلك ثمة مجهر، من أحدث طراز، أداة ستكون موضع حسدٍ للكثيرين، بعدسات صقلها «بينديكتوس اسبينوزا»، يراقب من خلالها فيليب حزم الأوعية الدموية.

الشباك الجنوبي مفرد، لكنه كبير. تحته طاولة عريضة نظيفة، وعليها العيّنة نفسها التي ظلت هنا منذ سنين. بجوارها ترى برطمانًا خاليًا إلا من سائل بلون القش يملأه إلى ثلثيه.

يقول فيليب: «إذا كنا سنذهب إلى أمستردام غدًا ساعدني على ترتيب كل هذه الأغراض». ثم يضيف موبّخًا: «كنت أعمل».

يبدأ بأصابعه الصغيرة، وبرقة، في فك الأنسجة والأوعية الدموية المفرودة بمعونة دبابيس صغيرة. يداه سريعتان مثل البرق، وكأنهما لصائد فراشات لا العالم تشريح، أو لحفار يقور أخاديد في معدنٍ جامد سيحولها الحمض لاحقًا إلى صورة سلبية من لوحة بالحفر. يكتفي فان هورسن برفع برطمان من المستحضر الذي يحوي أجزاء من عيّنة غارقة في سائل شفاف، بني فاتح، وكأنها عائدة إلى دارها.

يقول فيليب: «هل تعرف ما هذا؟». يشير بظفر نصره إلى المادة الأفتح لونًا فوق العظمة. «المسها».

يمتد إصبع الضيف إلى النسيج الميت، لكنه لا يصل إليه، ويظل معلقًا في الهواء. كان الجلد قد قطع على نحو يتيح إظهار هذا المكان بطريقة غير متوقعة إطلاقًا. لا، لا يعرف ما هي، لكنه يخمن:

«إنها العضلة النَّعلية، جزء منها».

ينظر مضيفه إليه لبرهة، وكأنه يبحث عن الكلمات.

يقول: «من الآن فصاعدًا اسمها وتر أخيل».

يكرر فان هورسن وراء فيرهاين، وكأنما ليحفظ هاتين الكلمتين.

«وتر أخيل».

الآن يمد يديه، بعد أن مسحهما بمزقة قماش، ويسحب رسمًا تخطيطيًا من تحت ملفات الأوراق، مرسومًا من أربعة مناظير، دقيقًا بطريقة لا تصدق: الساق السفلية والقدم يشكلان كلًا واحدًا كاملًا. أمرٌ عصي على التصديق: كيف كانا يُفحصان كلًّا على حدة؟ كيف كان المكان بينهما خاليًا، مجرد صورة مشوّشة، سرعان ما راحت طي النسيان؟ لقد ظلا

منفصلين، وها هما يجتمعان. كيف لم يسبق لأي شخص ملاحظة هذا الوتر من قبل؟ أمر عصي على التصديق: الإنسان يكتشف أجزاء جسده وكأنه يشق طريقه إلى أعالي نهر بحثًا عن منابعه، على هذا النحو يتتبع المرء، بمبضع، مسار وعاء دموي ما لكي يحدد منشأه. المساحات البيضاء تُغطَّى بشبكة من الرسوم.

يكتشف المرء ويُسمّي. يغزو وينشر الحضارة. من الآن فصاعدًا، ستخضع قطعة الغضروف الأبيض تلك لقوانيننا، سنفعل بها الآن ما نفعل.

لكن أكثر ما يدهش فان هورسن الشاب هو اسمها. إنه شاعر، في الحقيقة، وبرغم دراسته الطبية، سيفضل لو ينظم الأشعار. الاسم هو الذي يطلق في عقله صورًا من الحكايات الخرافية، وكأنه ينظر إلى لوحات قماشية إيطالية تسكنها حوريات وآلهة تنبض بالحياة. ما من اسم أفضل لهذا الجزء من الجسد؛ هذا الجزء الذي أمسكت منه الإلهة ثيتس أخيل الصغير لتُحمّمه في نهر ستيكس وتحصّنه من الموت إلى أبد الآبدين؟

ربما عثر فيليب فيرهاين في أثر نظام خفي. ربما ثمة عالم كامل من الميثولوجيا في أجسادنا؟ ربما ثمة انعكاس للكبير والصغير، ربما يربط الجسد البشري في داخله كل شيء بكل شيء - القصص بالأبطال، الآلهة بالحيوانات، تراتب النباتات وائتلاف المعادن؟ ربما ينبغي علينا أن نأخذ المسمّيات في ذلك الاتجاه - عضلة أرتميس، أورطي أثينا، مطرقة وسندان هيفايستس، لوالب ميركوري.

ذهب الرجلان إلى الفراش بعد ساعتين من حلول الليل، ناما في فراش واحد، سرير مزدوج لا بد وأن مُلّاكًا سابقين تركوه هنا - فيليب لم يتزوج قطّ. الليل بارد، لذا عليهما النوم تحت عدد من جلود الغنم، التي - جنبًا إلى جنب الرطوبة المتغلغلة في أرجاء البيت- تشيع رائحة دهن أغنام؛ رائحة حظيرة.

يبادر فان هورسن: «ينبغي عليك أن ترجع إلى ليدن، إلى الجامعة. نحتاجك هناك».

يفك فيليب السيور الجلدية ويضع ساقه الخشبية جانبًا.

يقول: «شيء مؤلم».

يفهم فان هورسن أنه يتحدّث عن الجدعة الموضوعة على طاولة الفراش، لكن فيليب يشير إلى ما وراءها، إلى الجزء الذي لم يعد موجودًا من الجسد، إلى فضاء خال.

يسأل الشاب: «الندبة تؤلمك؟». أيًّا كان ما يسبب الألم، فهذا لا يقلل من تعاطفه الهائل مع هذا الرجل النحيل الرهيف.

«ساقي تؤلمني. أشعر بالألم بطول العظمة، وقدمي تدفعني إلى حافة الجنون. إصبع قدمي الكبير ومفصله. منتفخان وملتهبان. أشعر بحكة في الجلد. هنا بالضبط»، يقولها، ويميل إلى

أسفل مشيرًا إلى جعدة صغيرة في أغطيته.

فيليم صامت. وماذا يقول؟ ثم يرقدان على ظهريهما ويشدّان الأغطية إلى عنقيهما. ينفخ المضيف الشمعة فيختفي، ثم يقول من وسط الظلام:

«يجب أن نبحث في أوجاعنا».

مفهوم أن تمشيات النقاهة لرجل يتحرك على جُرم خشبي لا تكون خفيفة نشيطة، لكن فيليب مقدام ولولا العَرَجة الطفيفة وقعقعة طرفه الاصطناعي على الطريق الجامد، لما انتبه أحد إلى أن ذلك الرجل فقد إحدى ساقيه. كذلك كان بطء الإيقاع يعني وقتًا أطول للكلام. صباح منعش، الشوارع تنبض بالحيوية، الشمس مشرقة، أشجار الحور الممشوقة تخدش قرص الشمس - إنها تمشية بهيجة. في منتصف الطريق يتمكنان من إيقاف عربة تحمل خضروات إلى سوق ليدن، بفضلها يجدون الوقت لتناول إفطار حقيقي في «حانة الإمبراطور».

ثم من المرفأ على القناة يستقلان قاربًا تجرّه خيول هائلة من على البرّ؛ يختاران أماكن رخيصة على سطحه تحت خيمة تحميهما من الشمس، ولأن الجو لطيف، تصبح الرحلة بهجة خالصة.

هنا سأتركهما. فوق صندل في طريقهما إلى أمستردام، في بقعة الظل التي تنزلق على سطح الماء؛ تلك التي يرميها غطاء الخيمة الذي يحمي رأسيهما. كلاهما يرتدي ملابس سوداء، ويضع ياقات بيضاء من قماش الباتيستا؛ فان هورسن أكثر أناقة، أحسن هندامًا وذلك يعني أن لديه زوجة تعتني بملابسه، أو أنه يطيق أجر خادم - ليس أكثر من ذلك على الأرجح. فيليب يجلس وظهره إلى اتجاه رحلتهما، مُرخيًا ظهره، ساقه السليمة منحنية، وخُفُّه الجلدي الأسود مُزيّن بشريط بنفسجي مهترئ. الجُرم الخشبي يستند إلى عقدة في ألواح الصندل. يرى كل منهما زميله على خلفية منظر طبيعي عابر، حقول مكسوة بأشجار الصفصاف، وقنوات صرف، وأرصفة مرافئ صغيرة، وبيوت خشبية مغطاة بالبوص. إوزٌ يطفو مثل زوارق ضئيلة بحذاء الشط. نسيم دافئ خفيف يُحرّك الريشات المثبتة في قبعتيهما.

سأضيف فقط أن فان هورسن، بعكس معلمه، لا يتمتع بموهبة الرسم. إنه عالم تشريح، وفي كل عملية تشريح يستأجر رسامًا محترفًا. عمله يقوم على تسجيل ملاحظات دقيقة، ملاحظات بالغة الدقة يقرأها ثانية فيعود كل شيء فورًا أمام عينيه. فالكتابة أيضًا منهج.

علاوة على ذلك، بوصفه عالم تشريح، يبذل قصارى جهده لتنفيذ وصية السيد إسبينوزا،

التي ظلت تعاليمه تُدرّس بحماسة هنا إلى أن منعت - أن ينظر إلى الناس بوصفهم خطوطًا، وسطوحًا، وأجسادًا.

تاريخ فيليب فيرهاين، كتبه تلميذه وخليصه فيليم فان هورسن

ولد مُدرّسي وأستاذي عام 1648 في إقليم فلاندر. كان بيت أبويه مثل أي بيت فلمنكي. شُيّد من الخشب وغُطّي بسقف من البوص المقطوع بانتظام مثل قصّة فيليب الصغير. كانت الأرضية قد مُهّدت مؤخرًا بطوب من الطين، والآن أصبح أفراد الأسرة يعلنون عن حضورهم لبعضهم بعضًا بقرقعة قباقيبهم. يوم الأحد كانت القباقيب تستبدل أحيانًا بأحذية من الجلد، وعلى الطريق الطويل المستقيم المحفوف بأشجار الصفصاف كان أبناء فيرهاين الثلاثة يتوجهون إلى الكنيسة في «فيريبروك». يتخذون أماكنهم وينتظرون الخوري. أياديهم التي أبلاها العمل تمتد بامتنان لكتب الصلوات؛ الصحف الرقيقة والحروف الضئيلة تقوّي إيمانهم بأنها أكثر صلابة من حياة الإنسان الهشة. كان خوري كنيسة «فيريبروك» دائمًا ما يبدأ موعظته بكلمتي vanitas vanitatum [الحياة متاع الغرور]. كان يمكن اعتبارها تحيّة؛ هكذا، في واقع الأمر، كان يفهمها فيليب الصغير دائمًا.

كان فيليب صبيًا هادئًا مسالمًا. كان يساعد والده في المزرعة، لكن سرعان ما أصبح جليًا أنه لن يتّبع خطاه. لن يصب الحليب كل صباح ويخلطه بالمسحوق المستخرج من مِعَد العجول الصغيرة لصناعة أقراص الجبن العملاقة، ولن يكوّم القش في أكوام مستوية. لن يراقب في بواكير الربيع ليرى إن كانت شقوق الأرض المحروثة قد جمعت أي قدر من المياه. خوري كنيسة «فيريبروك» أفهَم والديه أن فيليب موهوبٌ يستحق استكمال الدراسة بعد إتمام تعليمه في مدرسة الكنيسة. وهكذا التحق ابن الأربعة عشر ربيعًا بـ«كلية الثالوث الأقدس»[26]، حيث أظهر قدرته الفائقة على الرسم.

إن كان صحيحًا أن من الناس من يرى الأشياء الصغيرة، ومنهم من لا يرى إلا الأشياء الكبيرة، إذا فأنا على يقين من أن فيرهاين ينتمي إلى ذلك الفصيل الأول. بل إنني أظن أن جسده كان يشعر من البداية أنه في أفضل أحواله في تلك الوضعية تحديدًا - مائلًا على طاولة، وساقاه مستريحتان على قضبان كرسيه، وعموده الفقري مَحنًّي في قوس، ويداه مجهزتان بريشة كتابة لا تنشغل على الإطلاق بالأهداف بعيدة المدى، بل تُصوّب إلى القريب، داخل مملكة التفاصيل، عالم التفاصيل الصغيرة، الشرط والنقاط، حيث ولد الصورة. الحفر والنقش التظليلي الذي يترك في المعدن آثارًا وعلامات صغيرة، رسم السطح الناعم غير المبالي للصفيحة المعدنية، ينحتُ وجهها إلى أن تتبدّى عليها الحكمة. أخبرني أن المراقبة دائمًا ما تفاجئه وتؤكد قناعاته بأن اليسار واليمين بُعدان مختلفان تمام

الاختلاف؛ أن وجودهما ينبغي أن يظهر لنا في الواقع- الطبيعة المريبة لما نظنه - بسذاجة- حقيقة.

ورغم أن فيرهاين كان شديد البراعة في الرسم، شديد الانشغال بالحفر والنقش، بالصبغ والطبع، فقد انطلق وهو في العشرينيات من عمره صوب ليدن لدراسة اللاهوت، ومثل خوري كنيسة «فيريبروك»، مرشده الناصح، أصبح خوريًا.

لكن حتى قبلها كما أخبرني وهو يحدثني عن ذلك المجهر البديع الذي ينتصب على الطاولة. كان ذلك الخوري ينطلق من حين لآخر في رحلات استكشافية قصيرة، بضعة أميال على الطريق المُكسّر، لكي يزور صانع عدسات بعينه، يهودي أرعن تلعنه طائفته، كما كان يصفه. كان هذا الرجل يؤجر غُرفًا في بيت حجري، وبدا أنه شخص استثنائي للغاية، حتى أن كل زيارة له كانت بالنسبة لفيرهاين حدثًا جللًا، مع أنه كان أصغر من أن يشارك في أي محادثات، بل ولم يكن يفهم منها إلا القليل. ويبدو أن صانع العدسات كان يتصرف بطريقة شاذة عجيبة. كان يلتحف بعباءة طويلة، ويعتمر طاقية عالية جامدة، لا يخلعها قط. كان يبدو مثل خط، مثل مؤشر رأسي. وهكذا أخبرني فيليب ممازحًا أنك لو وضعت هذا الرجل الشاذ في حقل قد يصلح لأن يصير ساعة شمسية تفيد الناس. كان أناسٌ مختلفون يتجمعون في بيته، تجار، طلاب، أساتذة، يجلسون حول الطاولة الخشبية تحت صفصافة كبيرة ويشتبكون في مناقشات لا تنتهي. ومن حين لآخر كان المضيف أو أحد الضيوف يلقي محاضرة فقط لكي يُشعل المناقشة من جديد. تذكر فيليب أن المضيف كان يتحدث وكأنه يقرأ، بسلاسة، من دون همهمة. كان يصوغ جملًا طويلة معانيها تنفلت على الفور من الصبي الصغير، لكن المتحدث كان يسيطر عليها ببراعة. كان الخوري وفيليب يحضران معهما دائمًا بعض الطعام. بينما يوفر مضيفهما النبيذ، الذي كان يشعشعه بكثير من الماء. كان هذا كل ما يتذكره فيرهاين من تلك الاجتماعات، وظل إسبينوزا طوال الوقت أستاذه، الذي يقرأه ويتصارع معه بحرارة. ولعل تلك اللقاءات بهذا العقل المرتّب، إضافة إلى قوة عقل فيليب الشاب ورغبته في الفهم، هي ما حفزته لدراسة اللاهوت في ليدن.

أنا واثق أننا لا نستطيع التعرف على القدر الذي نقشه لنا «الكتبة المقدّسون» في الجانب الآخر من الحياة. لا بد أنه لا يظهر لنا إلا عندما يتخذ شكلًا مفهومًا لبني الإنسان، بالأسود والأبيض. الرب يكتب بيده اليسرى وبطريقة معكوسة كما في مرآة.

أثناء سنته الثانية في الجامعة، عام 1676، في أمسية من أمسيات مايو، مزّق فيليب سرواله بمسمار وهو يصعد درجات السلم الضيقة المؤدية إلى القاعة الصغيرة التي استأجرها من أرملةٍ ما، وجرح ربلة ساقه جرحًا هينًا- لم يلاحظه إلا في اليوم التالي. خلّف الجرح علامة حمراء على جلده، رُسمَت برأس المسمار، شَرطَةٌ طولها بضعة سنتيمترات

مزينة بنقط صغيرة من الدم؛ حركة طائشة من «الكاتب» على الجسد البشري الرقيق. بعد بضعة أيام كانت الحمى قد بدأت تستحوذ عليه. عندما استدعت الأرملة الحكيم في نهاية المطاف، تبين أن الجرح الصغير تلوّث بالفعل؛ تهيجت حوافه واحمرّت وتورّمت. وصف الحكيم لبخات وحساء ليمنحه القوة، لكن في المساء التالي مباشرة أصبح واضحًا أنه ما من سبيل لوقف التدهور، وأن الساق يجب أن تُبتَر تحت الركبة مباشرة.

«لا يمر أسبوع إلا وأضطر إلى بتر شيء ما من شخص ما. ما زالت لديك ساق أخرى»، يبدو أن هذا ما قاله الحكيم لكي يخفف عن فيليب. ولسوف يصبح الحكيم بعد ذلك صديقه، وكان عمي، «ديرك كيركرينك»، الذي أنجز فيليب لحسابه مؤخرًا عدة نقوش تشريحية. «سيُصنع لك عكازٌ خشبي، وكل ما في الأمر أنك ستسبب ضوضاء أكثر قليلًا من التي كنت تسببها حتى الآن».

كان كيركرينك طالبًا لدى فريدريك رويش، أفضل عالم تشريح في هولندا، وربما في العالم، لذا كانت عملية البتر نموذجية وانتهت إلى نتيجة ممتازة. فصل الجزء عن الكل بنعومة، ونشرت العظمة باتساق، وأغلقت الأوعية الدموية، وكويت بدقة بقضيب ساخن متوهج، قبل العملية، شدّ المريض صديقه المستقبلي من كفه وتوسل إليه أن يحفظ الساق المقطوعة. لطالما كان شديد التدين، ولا بد أنه فهم مسألة البعث حرفيًا: إن أجسادنا ستنهض من القبر في هيئتنا الجسدية، مع مجيء المسيح. أخبرني لاحقًا أن خوفًا رهيبًا خامره من أن تنهض ساقه بمفردها، أراد أن يدفن جسده، عندما يحين أوانه، كاملًا متكاملًا. لو كان حكيمًا عاديًا بخلاف عمّي - لو كان شخصًا من الشارع، حلاق صحة عادي، من ذلك النوع الذي يفقأ البثور ويخلع الأسنان - لما حقق له، بالطبع، هذا الطلب الغريب. عادة كان الطرف المجدوع يُنقل، مكفنًا بالقماش، إلى المقبرة، حيث يوضع بإجلال، وإن من دون طقوس دينية، في حفرة صغيرة، وبلا شاهد. لكن عمّي، بينما كان المريض نائمًا، وقد فقد وعيه بفعل الكحول المكرر، أولى عناية فائقة للساق. قبل كل شيء، وبمعاونة حُقنة من مادة معينة، حافظ أستاذه على مكوناتها سرًا، أزال عن الأوعية الدموية والليمفاوية كل الدم الملوث وارتشاحات الغرغرينا. وبعد تجفيف الساق من السوائل بهذه الطريقة، وضعها في وعاء زجاجي مملوء ببلسم مصنوع من براندي «نانت» والفلفل الأسود؛ لحمايتها من التلف بصورة نهائية، عندما استيقظ فيليب من دواره الكحولي، عرض عليه صديقه الساق المغموسة في البراندي، تمامًا كما يُعرض على الأم وليدها بعد الوضع.

تعافي فيرهاين ببطء، في عليّة بيت متواضع في أحد شوارع ليدن الصغيرة، حيث كان يقيم مع الأرملة. سهرت هي على رعايته. فن يعرف كيف كان لينتهي به الحال لولاها. أصيب المريض باكتئاب شديد، بطبيعة الحال من الصعب تحديد أكان بسبب الألم المتواصل من ذلك الجرح المتعافي، أم فقط بسبب وضعه الجديد. في نهاية المطاف، كان قد صار عاجزًا في الثامنة والعشرين من عمره، وأصبحت دراساته اللاهوتية بلا معنىً - إذ لن

يستطيع أن يصبح خوريًا بساق واحدة. لم يسمح لأي شخص بإخبار والديه، إذ غمره إحساس بالعار من أن يخيب أملهما. كان ديرك يزوره، وكذا زميلان لم يهتما في ما يبدو- بمعاناة المريض قدر اهتمامهما بحضور ساقه المبتورة فوق لوح فراشه الخلفي. بدا أن تلك الجُذاذة من الجسد البشري صارت تعيش الآن حياتها الخاصة كعيّنة، مغموسة في الكحول، في سديم دائم، حالمة أحلامها الخاصة بالركض، بعشب الصبح الندي، بالرمال الدافئة على الشاطئ. كذلك جاء بعض زملائه من طلبة اللاهوت لزيارته، ولهم اعترف فيليب في النهاية أنه لن يرجع إلى دراساته.

عندما كان الضيوف ينصرفون، كانت صاحبة البيت، الأرملة، السيدة فلير -التي قابلتها بعد ذلك واعتبرتها ملاكًا من السماء تظهر في غرفة فيليب. عاش فيليب في بيتها لبضع سنوات أخرى، حتى اشترى بيتًا في «ريجنسبرغ» واستقر به المقام هناك نهائيًا. كانت تجلب معها طستًا وكوزًا من الصفيح مملوءًا بالماء الساخن. ومع أن المريض لم يعد مصابًا بالحمى، وجرحه لم يعد ينزف الآن، كانت المرأة تغسل ساق الطالب برقة وتساعده على الاستحمام. بعدها، تُلبسه قميصًا وسروالًا نظيفين. كانت قد خيّطت الأرجل اليسرى لسراويله، وكان كل شيء تلمسه بيديها الماهرتين يبدو طبيعيًا، في مكانه، وكأنما خلق هكذا، وكأن فيليب فيرهاين ولد من دون ساقه اليسرى. عندما كان يضطر للنهوض لاستخدام مبولة الغرفة، كان يستند على الكتف القوية للأرملة، وكان ذلك في البداية أمرًا مربكًا إلى أبعد الحدود، لكنه صار طبيعيًا بعد ذلك، مثل كل ما يتعلق بها. بعد عدة أسابيع، نقلته إلى أسفل، حيث راح يأكل معها ومع طفليها على طاولة المطبخ الخشبية الثقيلة. كانت طويلة ومتينة. لها شعر وحشي أشقر مجعد، مثل الكثير من الفلمنكيات، تُخفيه تحت طاقية من الكتان، وإن كانت خصلة واحدة منه دائمًا ما تفرّ لتنسدل على ظهرها أو فوق جبينها. أظنها بعد أن يخلد طفلاها إلى نومهما البريء ليلًا، كانت تزوره، مثلما كانت تفعل عندما يحتاج للمبولة، وتنسل في فراشه. ولا أرى مشكلة في ذلك، إذ أومن بأن الناس يجب أن يساندوا بعضهم بعضًا بأي طريقة يستطيعون.

في الخريف، بعد أن التأم الجرح بالكامل، ولم يبق على الجذعة إلا أثر الاحمرار، صار فيليب فيرهاين يذهب كل صباح، وهو يدق بوتده الخشبي على أحجار شوارع ليدن غير المستوية، لحضور محاضرات في مركز الجامعة الطبي، حيث بدأ دراسة التشريح.

سرعان ما أصبح أحد أكثر الطلاب احترامًا، إذ كان قادرًا على استغلال موهبته في الرسم أفضل من أي شخص آخر، لينقل على الورق ما يبدو للنظرة الأولى من العين غير الخبيرة حفنة من الأنسجة المشوشة في الجسد البشري - أوتار، وأوعية دموية، وأعصاب. كذلك قام بنسخ أطلس فيساليوس الشهير الذي يبلغ عمره مئة عام وأثبت جدارة كبيرة في هذا التمرين. كان ذلك أفضل مقدمة لعمله الخاص، الذي سيحقق له الشهرة. بالنسبة للكثيرين من طلابه، وأنا من بينهم، كانت علاقته أبويّة - مليئة بالحب، لكنها لا تخلو من حزم أيضًا،

تحت إشرافه كنا نقوم بعمليات التشريح، ثم يقودنا، بعينه اليقظة ويده الخبيرة، إلى ممرات تلك المتاهة الأكثر تعقيدًا. كان الطلبة يقدرون صموده ومعرفته التفصيلية. كانوا يراقبون حركات قلمه السريعة وكأنهم يُشهدون معجزة. الرسم ليس مجرد استنساخ. لكي ترى، ينبغي أن تعرف كيف تنظر، وينبغي أن تعرف ما تنظر إليه.

لطالما كان صموتًا كتومًا، واليوم، حين أنظر إليه بعد مرور هذا الزمن، أستطيع القول إنه كان أيضًا غائبًا نوعًا ما، مستغرقا في نفسه. تدريجيًا، تخلى عن محاضراته، وتحول بالكامل إلى العمل الوحداني في ورشته. كنت أزوره كثيرًا في بيته في ريجنسبرغ. كنت أسعد بأن أنقل له أخبارًا من المدينة، نميمة وفضائح من الجامعة لكنني كنت أنزعج حين ألاحظه وهو يزداد هوسًا بموضوع واحد، كانت ساقه، وقد فككت إلى أجزاء، وفحصت بأقصى قدر ممكن من التفصيل، منتصبة دائمًا داخل برطمانها فوق لوح الفراش الخلفي، أو ممددة على الطاولة في مشهد مخيف. عندما أدركت أنني الشخص الوحيد الذي يتواصل مع فيليب، فهمت أيضًا أنه قد تجاوز حدًا غير مرئي، نقطة لاعودة. في ذلك اليوم من نوفمبر رسا صندلنا في «هيرينغراخت» في أمستردام بعيد الظهيرة، وذهبنا مباشرة من المرفأ إلى وجهتنا، ولما كان الشتاء قد حل فعلًا، لم تكن القنوات آسنة بلا رحمة كما في الصيف، وكان من دواعي البهجة أن نمشي في الضباب الحليبي الدافئ، الذي يطفو إلى أعلى أمام أعيننا، كاشفًا سماء خريفيّة رائقة. انعطفنا في أحد الشوارع الجانبية الضيقة في الحي اليهودي وأردنا التوقف في مكان ما لتناول الجعة. من حسن حظنا أننا تناولنا إفطارًا سخيًا في ليدن، لأن كل الحانات التي مررنا بها كانت تفيض بالبشر، وكنا سنضطر إلى الانتظار طويلًا حتى تستجاب طلباتنا.

في السوق، بين الأكشاك، يقع مبنى «المقياس»، حيث تُوزن البضائع بعد تفريغها. في واحد من الأبراج كان رُويش المغامر قد نصب مسرحه، وإليه وصلنا أبكر قليلًا من الموعد المطبوع على تذكرتينا. ومع أنهم لم يسمحوا لأي من الحضور المتلهفين بالدخول، كانت مجموعات صغيرة من المشاهدين تتجمع عند المدخل. عاينتهم بفضول، إذ كان مظهر وملابس الكثيرين منهم شهادة على أن شهرة البروفيسور رُويش قد تجاوزت حدود هولندا منذ زمن طويل. سمعتُ محادثات بلغات أجنبية، ورأيتُ باروكات فرنسية فوق رؤوس الناس وأساور إنكليزية تبرز من أكمام بدلات ضيقة. كان كثيرون من الطلاب قد جاءوا أيضًا، لا بدّ أنهم حجزوا مقاعد أرخص، بلا أرقام، لأنهم تزاحموا حول المدخل، يريدون تأمين أفضل الأماكن.

رأينا أشخاصًا عرفناهم عندما كان فيليب أكثر نشاطًا في الجامعة - أعضاء بارزين في المجلس البلدي أو في طائفة الجراحين، مهتمين بما سيعرضه رُويش علينا؛ بما توصّل إليه. وظلوا يأتون لتحيّتنا. ثم وصل عمّي، المسؤول عن إصدار التذاكر، في حُلته السوداء بالغة النظافة، وحيا فيليب بحماسة.

بدا المكان مثل مسرح نصف دائري بمقاعد مدرجة صعودًا إلى النهاية، حتى السقف تقريبًا. كان جيد الإضاءة ومجهزًا بعناية للمشهد المسرحي. بطول جدران المدخل والقاعة نفسها وضعت هياكل الحيوانات، عظام مربوطة إلى بعضها البعض بأسلاك ومدعومة بتراكيب لا تظهر للعين، تعطي انطباعًا أن الهياكل قد ترجع إلى الحياة في أي لحظة. كذلك كان هناك هيكلان بشريان - واحد جالس على ركبتيه، ويداه مرفوعتان في صلاة والآخر في وضعية تأمليّة، رأسه مستندة إلى ركبتيه، وعظامه الصغيرة رُبطت معًا بدقة باستخدام الأسلاك.

عندما دخل الجمهور إلى القاعة، وهم يتهامسون ويراوحون أقدامهم، وتوجهوا واحدًا بعد آخر لاتخاذ المقاعد المحددة في تذاكرهم، مرّوا كذلك بتراكيب رُويش الشهيرة المعروضة في خزائن عَرض، منحوتات أنيقة. على البطاقة تحت إحداها قرأتُ عبارة: «الموت لا يستبقي حتى الصغار» - تركيب يصور هيكلين جنينيين يلعبان معًا: عظام صغيرة رقيقة بلون القشدة جماجم صغيرة وكأنها بثور مزروعة حول تلة شيّدت من عظام على القدر نفسه من الرقة؛ عظام أيادٍ وأقفاص صدرية صغيرة. وقبالتها وضع تابلوه آخر، هياكل بشريّة صغيرة بعمر أربعة أشهر تقريبًا تقف على تلة من (بحسب ما فهمتُ) حَصوات مرارة مغطاة بأوعية دموية مجهزة ومجففة (على أغلظ فروعها يقف طائر كناري محشو). كان الهيكل العظمي على الجانب الأيسر يمسك بمنجل مُنَمنَم، بينما الآخر، في وضعية البائس، يرفع إلى محجري عينيه الخاليين منديلًا مصنوعًا من نسيج مجفف، أهو نسيج الرئة؟ كانت يد مرهفة قد زينت التابلوه بأكمله بدانتيل له لون السلمون، ولخصته في حروف أنيقة على شريط حريري: «ما الذي يجعلنا نفتقد الأشياء المهمة في هذا العالم؟»، وهي العبارة التي تعني أنه سيكون صعبًا علينا أن نتأثر بالمنظر. وقد تأثرت بالعرض حتى قبل أن يبدأ، إذ شعرت بأنني أرى دليلًا رقيقًا، لا على الموت، وإنما على موتٍ مُنَمنَم. كيف استطاعوا أن يموتوا حقًا من دون أن يُولدوا من الأساس؟

اتخذنا أماكننا في الصف الأول بجوار بقية الضيوف المميزين.

على الطاولة في مركز الخشبة، وسط همساتِ نداء عصبيّة، كان الجسد راقدًا بالفعل، جاهزًا للتشريح، لا يزال مُغطىً بقطعة من القماش اللامع الفاتح الذي يكاد لا يعطي أي فكرة عن شكله. كانت تذاكرنا تحمل إعلانًا عن العرض المرتقب، مثل طبق شهي، **الطبق الخصوصي**: «جسد جُهّز بفضل موهبة الدكتور رُويش العلمية في حفظ وإعادة إنتاج الألوان الطبيعية وتماسك القوام، حتى يبدو ناضرًا وحيًا تقريبًا». كان رويش يستبقي مكونات هذا المستحضر غير العادي في سرية تامة؛ لا شك في أن المادة كانت تطويرًا لتلك

التي كانت تحفظ ساق فيليب فيرهاين.

سرعان ما شغلت كل الأماكن. في النهاية أدخل المسؤولون بضع عشرات من الطلاب؛ معظمهم أجانب، وصاروا يقفون الآن بحذاء الجدران وسط الهياكل العظمية في نوع غريب من التواطؤ معهم، مشرئبين بأعناقهم ليتمكنوا من رؤية أي شيء. قبيل العرض، في الصف الأول، كانت أفضل الأماكن قد شغلت بعدد من الرجال المتأنقين في حلل أجنبية.

خرج رُويش مع اثنين من مساعديه. وبعد تقديم قصير من البروفيسور، رفعا الغطاء من الجانبين في وقت واحد، وكشفا الجسد.

لا غرابة أننا سمعنا شهقة من كل مكان.

كان جسد امرأة شابة نحيلة؛ بحسب ما عرفتُ كانت الثانية من نوعها التي تعرض للتشريح أمام الجمهور. حتى تلك اللحظة، لم يكن مسموحًا إجراء دروس التشريح إلا على أجساد الذكور. همس عمي لنا أنها كانت عاهرة إيطالية قتلت طفلها الوليد. بدا جلدها الكامل، الناعم، الداكن من هنا، من الصف الأول، على بعد متر واحد لا أكثر، متوردًا وناضرًا. كانت شحمتا أذنيها وأصابع قدميها محمرّة قليلًا، وكأنها رقدت لوقت طويل في غرفة باردة ومجمّدة. كانت بلا شك مغطاة بنوع من الزيوت، أو ربما كان هذا جزءًا من معالجات الحفظ الخاصة برُويش، لأنها كانت متوهجة. من الضلوع إلى أسفل، كانت بطنها غائرة، وفوق هذا الجسد الضئيل ذي البشرة الزيتونية ترتفع تلة فينوس (العانة) وكأنها العظمة الأهم والأبرز في المنظومة، حتى بالنسبة إلي، أنا المعتاد على التشريح، كان منظرًا مؤثرًا. في العادة كانت عمليات التشريح تُجرى على أجساد مجرمين لم يكونوا يعتنون بأنفسهم، يعبثون بحياتهم وصحتهم. أما الصادم هنا، فكان كمال هذا الجسد، وعندها شعرت بتقدير حقيقي لحرص رُويش وبصيرته إذ استطاع إبقاءه في هذه الحالة الطيبة وتجهيزه على هذا النحو الرائع.

بدأ رُويش الدرس، مخاطبًا المجتمعين، حريصًا على ذكر لقب كل الحضور، من دكاترة الطب، وأساتذة التشريح، والجراحين، والمسؤولين.

«تحياتي يا سادة، وأشكركم على الحضور بهذا العدد الكبير. بفضل كرم رئيس البلدية أكشف أمام عيونكم ما خبأته الطبيعة في أجسادنا. ولا أبتغي بذلك إنزال أي أذىً بهذا الجسد المسكين، ولا عقابه على ما اقترفه من أفعال، ولكن بالأحرى لكي نستطيع أن نكتشف أنفسنا، والطريقة التي صنفتنا بها يدُ الخالق».

أخبرنا أن الجثمان عمره سنتان، ما يعني أنه ظل خلال تلك الفترة راقدًا في ثلاجة حفظ الجثث، وأنه بفضل الطريقة التي ابتكرها، استطاع الحفاظ عليه ناضرًا حتى اليوم. عندما نظرتُ بهذه الطريقة إلى الجسد الجميل، الأعزل، العاري، شعرت بغصة في حلقي، وفي

النهاية أنا لست ممن يترك فيهم منظر الجثامين البشرية أي أثر. لكنه جعلني أفكر أن بوسعنا الحصول على أي شيء، أن نكون أي شخص تريده - كما يقولون. إن كانت لدينا الرغبة الحقيقية في ذلك، فالإنسان يقف في مركز الخلق، وعالمنا عالم بشري، ليس عالم الإله أو غيره. هناك شيء واحد فقط لا نستطيع أن نناله. الخلود. لكن، بالله، من أين طرأ على بالنا هذا التصوّر؛ فكرة أن نكون خالدين؟

بدأ بشق جدار البطن بحركة خبيرة في مكان ما في الجانب الأيمن من القاعة بدا أن شخصًا قد أصيب بوعكة، لأن همهمة سادت للحظة وسط الحضور.

«هذه المرأة الشابة شنقت»، قالها رُويش، ورفع الجسد ليظهر لنا الرقبة؛ بالفعل، كنت ترى أثرًا أفقيًا، مجرد فسحة لا أكثر، يصعب تصديق أنها كانت السبب في موتها.

في البداية، ركز على الأعضاء داخل التجويف البطني، ناقش بالتفصيل الجهاز الهضمي، لكن قبل أن ينتقل إلى القلب، تركنا ننظر إلى كل ما تحته، حيث برز الرحم من أسفل التلة، وقد تضخم بعد الولادة. وكل ما فعله، بدا لنا، حتى نحن -زملاءه الذين ننتمي للطائفة نفسها- أشبه بعرض سحري. كانت حركات يديه الناضرتين النحيلتين دائرية، انسيابية، مثل حركات السحرة في الأسواق. راحت عيوننا تتابعه، مفتونة. انفتح الجسد الصغير أمام الجمهور، كاشفًا عن أسراره، بثقة، مؤمنًا بأن يدّين كهاتين لن تُلحقا به أي ضرر. كانت تعليقات رُويش قصيرة، متماسكة ومفهومة. بل وأطلق بعض الدعابات، وإن كانت دعابات مهذبة، لا تُقلل من مقامه، بعدها فهمت أيضًا جوهر هذا العرض، سبب شعبيته؛ كان رُويش بهذه الحركات الدائرية يحول الجوهر الإنساني إلى جسدٍ ويُعرّيه من غموضه أمام عيوننا؛ يُكسّره إلى عناصر أولية وكأنه يُفكك ساعة معقدة. انسل خطر الموت بعيدًا. لم يعد هناك ما يخيف. نحن ماكينات، أشبه بساعات «هويغنز».

بعد العرض غادر الحضور في صمت وافتتان، وغُطّي ما تبقى من الجسد على نحو رحيم بالقماشة نفسها. لكن بعد لحظة واحدة، بالخارج، حيث كانت السحب قد أجبرت الشمس على الاختفاء، بدأوا يتكلمون بجرأة أكبر، وذهب الجمهور - ونحن معهم - إلى مأدبة أعدت لهذه المناسبة في بيت رئيس البلدية.

ظل فيليب عابسًا وصامتًا ولم يظهر أي اهتمام بالطعام والنبيذ والتبغ الشهي. للحقيقة، لم أكن أنا نفسي في مزاج طيّب. يظن الناس خطأ أننا - معشر علماء التشريح نباشر كل تشريح وكأنه جزء من نظامنا اليومي. أحيانًا، مثلما حدث اليوم، «يُثار» شيء ما، شيء أسميه أنا «حقيقة الجسد»، قناعة غريبة أن الجسد المتروك لحاله، بالرغم من مواتِه الواضح، بالرغم من غياب الروح، يبقى كاملًا، فعالًا. بالطبع، الجسد الميت ليس حيًا؛ لكن ما أقصده هو بقاءه في شكله. شكل حي على طريقته.

كان درس رُويش ذاك إيذانًا ببداية موسم الشتاء، والآن في «دي فاغ» ستنظم محاضرات عادية، ومناقشات، وعروض لتشريح حيوانات حيّة، سواء للطلاب أو لعموم الجمهور. وإذا وفّرت الظروف أجسامًا ناضرة، ستجرى عمليات التشريح العمومية بيد علماء تشريح آخرين أيضًا. وحده رويش كان قادرًا، إلى الآن، على تجهيز جسدِ مقدّمًا، بل وقبلها بسنتين كاملتين، كما قال اليوم (وهو شيء لا زلت أجده عصيًا على التصديق) - ووحده لم يكن عليه أن يقلق من حر الصيف.

لولا مرافقتي لفيليب فيرهاين في اليوم التالي في طريقه إلى بيته -بالقارب أولًا، ثم على الأقدام. لما اكتشفت قطّ معاناته. مع ذلك، يظلّ ما سمعته منه غريبًا واستثنائيًا بالنسبة إليَّ. كطبيب وعالم تشريح، كنت قد سمعت بهذه الظاهرة مرارًا، لكنني طالما عزوتُ هذه الآلام إلى الحساسية المفرطة للأعصاب، إلى خيال جامح. لكنني كنت أعرف فيليب منذ سنوات، وما من أحدٍ كان يضاهيه في انضباط العقل، ولا في دقة الملاحظات وصواب الأحكام. العقل الذي يطبق المنهج الصحيح يمكنه التوصل إلى معرفة حقيقية ونافعة عن أدق التفاصيل في العالم بالاستناد إلى أفكاره الخاصة الواضحة الجلية - هكذا علّمنا في الجامعة نفسها حيث كان عالم الرياضيات ديكارت يلقي محاضراته، قبل خمسة عشر عامًا. لأن الرب، الكامل كمالًا غير منقوص، الذي أمدنا بهذه الملكات المعرفية، لا يمكن أن يكون مخادعًا: إذا استخدمنا تلك الملكات على نحو صحيح، لا بد أن نصل إلى الحقيقة.

كانت الآلام تأتي في الليل، بدأت بعد بضعة أسابيع من العملية، بينما كان جسده يسترخي وينسل عابرًا الحدود الواهية بين اليقظة والنوم، المملوءة بصور السفر المربكة، بالمسافرين داخل العقل النائم. كان يخامره انطباعٌ أن ساقه اليسرى نَمِلة، وأن عليه حتمًا أن يضبطها في الوضعية الصحيحة - كان يشعر بوخز في أصابع قدمه، إحساس مزعج. كان يتململ، نصف واعٍ. يريد أن يحرك أصابع قدمه، لكن عجزه عن أداء تلك الحركة كان يوقظه يقظة ما بعدها نوم. يجلس على السرير، ينزع البطانية عن نفسه وينظر إلى موضع الألم - أسفل الركبة بنحو ثلاثين سنتيمترًا، هناك فوق الملاءة الفكرية، يغمض عينيه ويحاول أن يحك موضع الألم، لكنه لا يلمس شيئًا، بل تُمشط أصابعه الفراغ في يأس، فلا تجلب لفيرهاين أي تفريج.

ذات مرة، في نوبة يأس، بينما الألم والحكة يثيران جنونه، وقف وأشعل شمعة بيديه المرتعشتين. قافزًا على قدم واحدة، نقل إلى الطاولة وعاء الساق المبتورة الذي كانت فلير، بعد أن عجزت عن إقناعه بنقله إلى العليّة، قد غطته بشال مرسوم عليه أزهار. أخرج الطرف وحاول، على ضوء الشمعة، تحديد موضع الألم عليه، الآن بدت الساق أصغر قليلًا، صار الجلد بنيًا بفعل البراندي، لكن الأظافر ظلت منتصبة، متلألئة، وخامر فيرهاين انطباع بأنها قد نَمَت. جلس على الأرض ومد ساقيه أمامه، ووضع الطرف المبتور في

مكانه أسفل ركبته اليسرى مباشرة. أغمض عينيه ومد يده ليتحسس موضع الألم. لمست يده قطعة باردة من اللحم - لكنها لم تصل إلى الألم.

عمل فيرهاين على أطلس الجسد البشري الذي ينجزه بمنهجيّة ودأب.

أولًا: التشريح - التجهيز الحريص للنموذج من أجل رسمه، كشف العضلة، وحزمة الأعصاب، بسط الوعاء الدموي، مدّ العينة في فضاء ثنائي الأبعاد، الحصر في أربعة اتجاهات: فوق، تحت، يسار، يمين. استخدم مسامير خشبية ضئيلة لمساعدته في جعل المعقد أكثر شفافية ووضوحًا. حينها فقط كان يشرع في العمل، يغسل يديه ويجففهما جيدًا، يغيّر ملابسه الخارجية، ثم يعود بالأوراق والمنقاش المصنوع من الغرافيت، لكي يرسم النظام على الأوراق.

كان يشرح جالسًا، محاولًا عبثًا السيطرة على السوائل الجسدية التي تُفسد وضوح ودقة الصورة. كان ينقل التفاصيل إلى الورق في إسكتشات سريعة. ثم، بعد أن يهدأ، ينقحها بحرص، تفصيلة بعد تفصيلة، عصبًا بعد عصب، وترًا بعد وتر.

واضح أن البتر أنهك صحته، لأنه كثيرًا ما كان يعاني من نوبات وهن وكآبة. الألم في ساقه اليسرى، الذي كان يُزعجه بلا توقف، أطلق عليه «الشبح»، لكنه خاف أن يتحدث عنه لأي شخص، ظنًا منه أنه قد يكون ضحية لوهم عصبي ما، أو جنون ما. لو اكتشف أحدهم ذلك الأمر، سيفقد بكل تأكيد مكانته المرموقة في الجامعة. سرعان ما بدأ يعمل طبيبًا وقُبل في طائفة الجراحين. ولأنه فقد إحدى ساقيه، كان يُطلب أكثر من غيره لإجراء كل أنواع البَتر، وكأن خبرته الشخصية تضمن له نجاح العملية، أو كأن الجراح الأبتر يجلب الحظ الحسن إن جاز لنا القول على المرض. نشر أعمالًا حول تشريح العضلات والأربطة. وفي عام 1689، عندما عُرض عليه منصب رئيس الجامعة، انتقل إلى لوفن، حاملًا وسط أمتعته الوعاء الذي يحوي الساق، مصرورًا جيدًا داخل لفات من الكتان.

أنا، فيليم فان هورين، كنت المرسال الذي أرسله صاحب المطبعة إلى فيرهاين، بعدها بسنوات، في عام 1693، ليعرض عليه الطبعة الغليظة من كتابه الأول - الأطلس التشريحي العظيم، «تشريح الجسد البشري»[27]، وهو لا يزال رطبًا من حبر الطباعة. كان يحتوي على منجز عشرين سنة كاملة من عمله، كل رسم مثالي، شفاف وواضح، وقد ألحق به نص تفسيري، بطريقة جعلت الجسد البشري يبدو، في هذا المجلد، مثل ماكينة معقدة رُسمت أجزاؤها بأدق التفاصيل، بعد إذ خُلّصت من العناصر سهلة الإتلاف، مثل الدم واللمف، تلك السوائل المشبوهة، هدير الحياة، التي كشف سكون الأبيض والأسود منظومتها المثالية. جلب له ذلك الكتاب شهرة واسعة، وبعد بضع سنوات صدرت منه طبعة منقحة،

بعدد أكبر من النسخ، وتحول إلى كتاب مدرسي.

آخر زياراتي لمنزل فيليب فيرهاين كانت في نوفمبر عام 1710، بعد أن استدعاني خادمه. وجدتُ صديقي في حال شديد البؤس وكان من الصعب التواصل معه. كان يجلس بجوار النافذة الجنوبية، ينظر منها، لكنني كنت واثقًا بأن الرجل لا يرى إلا صوره الداخلية الخاصّة، لم يظهر أي استجابة لدخولي عليه، بل اكتفى بالنظر إلي بلا اهتمام، ولا إيماءة، ثم استدار ثانية إلى النافذة. على الطاولة كانت ساقه، أو ما تبقى منها، إذ كانت قد فككت إلى مئات أو آلاف الأجزاء الصغيرة: أوتار، وعضلات، وأعصاب قُسّمت إلى أصغر مكوناتها. غطت سطح الطاولة بأكمله. كان خادمه، وهو شخص بسيط من الأرياف، يشعر بالخوف. يخاف حتى أن يدخل غرفة سيده. وظل يشير إليّ من خلف ظهره، معلقًا بصمت على ردود أفعاله، ومحركًا شفتيه بلا صوت. فحصتُ فيليب بأفضل ما استطعت، لكن التشخيص لم يكن جيدًا - بدا أن دماغه قد توقف عن العمل وأنه سقط في نوع من أنواع الزهد. كنت أعرف بالطبع، أنه يعاني من نوبات من المالنخوليا؛ الآن كانت العصارة السوداء قد وصلت إلى مستوى مخه - ربما بسبب تلك الآلام «الشبحية»، كما يصفها. في زيارتي السابقة كنت قد جلبتُ له خرائط، لأنني سمعت أن لا شيء يعالج المالنخوليا مثل النظر إلى الخرائط. وصفتُ له طعامًا غنيًا ليمنحه القوة، وأوصيته بالراحة.

في نهاية يناير عرفتُ بوفاته، فهرعتُ إلى «ريجنسبرغ». وجدتُ جسده مهيّأ بالفعل للجنازة مغسلًا وحليقًا، راقدًا في تابوت. كان بعض أقاربه من ليدن في بيته الذي نُظّف مؤخرًا، وعندما سألتُ الخادم عن الساق، اكتفى بهز كتفيه. كانت الطاولة الكبيرة بجوار النافذة قد فُركَت وغُسلَت بغسول قلوي. عندما حاولت أن أسأل أكثر عما حدث لتلك الساق، التي أكد فيليب مرارًا على رغبته في أن تدفن مع جسده، تجاهلني أقاربه. لقد دفن من دونها.

من باب التعزية والاسترضاء أعطيت لي كومةً كبيرة من أوراق فيرهاين. أقيمت الجنازة في اليوم التاسع والعشرين من يناير في دير «فليربيك».

خطابات للساق المبتورة

الأوراق المتفرقة التي تسلّمتُها بعد وفاة فيرهاين وضعتني في حالة ارتباك. خلال سنوات حياته الأخيرة عَكَف معلمي على تسجيل أفكاره في شكل خطابات موجهة لمُستقبِلٍ بِعينِه، وهو سلوك لا بدّ أن أي شخص سيعتبره دليلًا كافيًا لإثبات جنونه. مع ذلك عندما يقرأ المرء بعناية هذه الرسائل التي كُتبت على عجل، والتي كان يقصد بها، لا بد أن تكون مذكرات تفسيرية لا مجرد رسائل يقرأها شخص آخر، يرى فيها سجلًا لرحلة إلى أراض مجهولة ومحاولة لرسم خريطتها.

فكّرت طويلًا وبإمعان: ماذا أفعل بهذه التركة غير المتوقعة؟ لكنني قررت عدم نشرها بأي شكل. أنا تلميذه وصديقه، وأردتُ أن يتذكره الناس كعالم تشريح ورسّام مخططات رائع، مُكتشِف كعب أخيل وغيره الكثير من أجزاء جسمنا التي لم يلتفت إليها أحد من قبل. فضلت أن يتذكر الناس نقوشه الجميلة ويتقبلون استحالة فهم كل شيء في حياة أي إنسان آخر. لكن من أجل التصدي للإشاعات التي راحت تنتشر بعد موته في أمستردام وليدن - أن المعلم قد جُن- أود أن أقدم هنا باختصار عددًا من المقتطفات من أوراقه لأظهر أنه لم يكن مجنونًا. مع ذلك، فليس لدي شك في أن فيليب ترك نفسه فريسة لهاجس معين متعلّق بالألم الذي شعر به ولم يجد له تفسيرا. والهاجس، بطبيعته، إشارة غيبيّة بوجود لغة خاصة؛ لغة لا تتكرر، إن استخدمناها بحرص استطعنا كشف ستار الحقيقة. علينا أن نلاحق تلك الإشارة الغيبية وندخل وراءها مناطق قد تبدو للأخرين عبثية ومجنونة. لا أعرف لماذا تبدو لغة الحقيقة هذه ملائكية للبعض، بينما يراها الآخرون علامات رياضية أو رموزًا موسيقية. لكنها أيضًا تتحدث لأهواء البعض بطريقة مختلفة تمام الاختلاف.

في «خطابات الساقِ المبتورة»، حاول فيليب تقديم دليل متماسِك وغير عاطفي مفادُه الآتي: لقد كان الجسد والروح في جوهرهما شيء واحد، لما كانا هبتَين من إله سرمدي، يَسِعُ كلّ شيء، فلا بد، إذًا، أن «الخالق» قد خلق بينهما تناسبًا ما. «الطبيعة كلها فرد واحد»[28]. هذا ما شغله بالأساس أكثر من أي شيء آخر: كيف تتصل مادتان متمايزتان مثل الجسد والروح داخل الجسم البشري وتُؤثّر كل منها في الأخرى؟ كيف يستطيع الجسد، الذي يشغل مكانًا، إقامة اتصال عفوي بروحٍ لا تشغل أي مكان؟ كيف ومن أين ينبع ذلك الألم؟ كتب على سبيل المثال:

ما الذي يوقظني، عندما أشعر بالألم والمعاناة، لقد كانت قدمي قد فُصلت عني وهي تسبح الآن في الكحول؟ لا شيء يقرصها، لا سبب لمعاناتها، ما من مبرر منطقي للألم ومع ذلك

فهو موجود. الآن أنظر إليها فأشعر فيها، في الأصابع، بسخونة لا تُحتمل، وكأنني غطّستُها في ماء ساخن، وهو إحساس حقيقي جدًا، واضح جدًا، حتى أنني لو أغمضت عيني، لرأيت في خيالي دلو الماء بالغ السخونة وقدمي مغمورة فيه من الأصابع إلى الكاحل. ألمسُ طَرفي الموجود جسمانيًا في هيئة كتلة من اللحم المحفوظ - ولا أشعر به. مع ذلك، أشعر بشيء لا وجود له، إنه مكان خالٍ بالمعنى الجسماني، لا شيء هناك يمكن أن يُعطي أي إحساس كان. الشيء الذي يؤلمني لا وجود له. شبحي. ألم شبحي.

هذه الصياغة بدت لي غريبة لأول وهلة، لكنه سرعان ما بدأ استخدام العبارة بهمَة. كذلك دون ملحوظات مفصّلة حول التشريح المتدرّج للساق. راح يفككها أكثر فأكثر؛ بعد فترة لم يعد أمامه خيار للمتابعة إلا الاستعانة بمجهر.

كتب يقول:

الجسد شيء شديد الغموض. وكوننا نَصفه بدقة بالغة لا يعني إطلاقًا أننا نعرفه. الأمر أشبه ببرهان من براهين إسبينوزا، صانع العدسات الذي يصقل الزجاج بدقة ليتيح لنا فحص كل شيء عن قرب، الذي يخلق لغة صعبة على نحو لا يصدق لكي يعبر عن فكرته لأنه يقال: «الرؤية معرفة».

أريد أن أعرف، لا أن أستسلم للمنطق. فيم يهمني إثباتٌ يأتي من الخارج، مصاغًا كبرهان هندسي؟ إثبات كهذا لا يوفر إلا مظهرًا من مظاهر النتيجة المنطقية ومن نظام يُرضي العقل. هناك (أ)، وبعد (أ) تأتي (ب)، التعريفات أولًا، ثم المسلمات والمبرهنات الرياضية المرقمة، وبعض الاستنتاجات التكميلية - وتشعر أن هذا الترتيب يشبه خربشة رائعة في أطلس، حيث تُعلّم أقسام معينة بالحروف، حيث يبدو كل شيء واضحًا وشفافًا. لكننا في النهاية لا نعرف كيف يعمل كل هذا.

مع ذلك فقد آمن بقوة العقل. وبأن من طبيعة ذلك العقل النظر إلى الأشياء بوصفها حتمية، لا تصادفية. لولا ذلك، بالطبع، لناقض العقل نفسه. دفع مرارًا وتكرارًا بضرورة أن نثق في عقلنا لأنه هبة لنا من الرب، والرب بطبيعته كامل مطلق الكمال، فكيف يزودنا بشيء يخدعنا؟ الرب ليس مخادعًا! إذا استخدمنا قوى العقل التي وهبت لنا بالطريقة الصحيحة، سوف نصل إلى الحقيقة، سوف نعرف كل شيء عن الرب وعن أنفسنا، إذ إننا أجزاء منه، مثل كل شيء آخر.

أصر على أن الحدس، لا المنطق، هو أرقى أنواع الإدراك. إذا تعلمنا بطريق الحدس،

لاحظنا على الفور حتمية وجود كل الأشياء. كل ما هو ضروري ما كان له أن يكون غير ما هو عليه. عندما ندرك ذلك حق الإدراك سوف نشعر بانعتاق عظيم وتطوّر هائل. لن يزعجنا فقدان أغراضنا، لن يزعجنا مرور الزمن، لن يزعجنا التقادم في العمر ولا الموت. بهذه الطريقة سنحوزُ سيطرة على عواطفنا، ونصل إلى بعض من سلام العقل. علينا ببساطة أن نتذكر الرغبة البدائية في الحكم على الأشياء، ما الصحيح وما الخطأ، تمامًا كما يجب على الرجل المتحضر أن يتذكر الغرائز البدائية - الانتقام، والطمع، وشهوة الامتلاك. الرب، الذي هو الطبيعة، ليس جيدًا ولا سيئًا؛ إنه عقلٌ يُساء استخدامه فيلوث عواطفنا. لقد آمن فيليب أن كل معرفتنا بالطبيعة ليست إلا معرفة رَبّانية. هذا ما يمكن أن يحررنا من الحزن، واليأس، والحسد، والقلق التي هي لنا بمثابة الجحيم.

صحيح أن فيليب كان يخاطب ساقه وكأنه يتكلّم إلى شخص حي، مستقل. لن أنكر ذلك. بعد أن انفصلت عنه، اتخذت شكلًا من أشكال الاستقلال الشيطاني، وفي الوقت نفسه حافظت على علاقة مؤلمة معه. أعترف كذلك أن تلك هي الأجزاء الأكثر إرباكًا في خطاباته. لكن في الوقت نفسه، لا يراودني أدنى شك أن تلك الأجزاء ليست سوى مجازات، طرق عقلية مختصرة. كان يعتقد بأن ما كان يشكل كلًا واحدًا ثم انقسم إلى أجزاء لا يزال مرتبطًا برابطة قويّة؛ رابطة غير مرئية يصعب استقصاؤها. إذ إن طبيعة تلك العلاقة ليست واضحة، ولا شك ستراوغ المجهر.

مع ذلك، فمن الواضح، بالطبع، أننا لا نستطيع الوثوق إلا في علم النفس واللاهوت. إنهما ركيزتا المعرفة. وكل ما يقع بينهما يجب ألا يحتسب.

ولا بد لنا، لدى قراءة ملاحظات فيليب فيرهاين، أن نتذكر أنه عاش معاناة لا تنقطع ولم يعرف لألمه سببًا. دعونا نضع ذلك في الحسبان ونحن نقرأ كلماته:

لماذا أتألم؟ ألأن الجسد والروح في جوهرهما، كما يقول صانع العدسات - ولعل ذلك قوله الوحيد الذي لا يخطئ، جزء من شيء أكبر؛ شيء يشتركان فيه، حالتان من المادة نفسها؟ مثل الماء الذي يكون سائلًا أو صلبًا؟ كيف لشيء غير موجود أن يسبب لي ألمًا؟ لماذا أشعر بهذا النقصان؛ أحس بهذا الغياب؟ أيكون محكوم علينا بالكلية؟ أيكون كل تشظٍ، كل تجزئة، مجرد مظهر خارجي، لا يحدث إلا على السطح، في حين تظل الخطة سليمة تحته، لا ينالها تغير ولا تبذل؟ هل تظل حتى أصغر الشظايا تنتمي للكل المتكامل؟ ولو قُدّر للعالم أن يهوي من حالق، مثل جرم زجاجي هائل، ويتهشم إلى مليون قطعة - ألا يبقى شيءٌ عظيمٌ، قويٌ وغير محدودٍ، سليمًا ومتكاملًا.

هل ألمي هو الرب؟

لقد قضيتُ حياتي مسافرًا، في جسدي ذاته، في طرفي المبتور ذاته. أعددتُ أدق الخرائط.

فككتُ ذلك الشيء وتفحّصتُه باستخدام أفضل المنهجيات، مُكسّرًا إياه إلى عناصر أساسية. عددتُ العضلات، والأربطة والأعصاب والأوعية الدمية. استخدمت عيني ذاتهما لهذا الغرض، لكنني اعتمدتُ، أيضًا، على عين المجهر الأشد براعة. وأعتقد بأنني لم أفوت ولا أصغر الأجزاء.

اليوم أستطيع أن أسأل نفسي هذا السؤال: عَمَّ كنتُ أبحث؟

حكايات السفر

هل أفعل خيرًا بحكاية القصص؟ أليس من الأفضل أن أربط العقل بمشبك، أن أشدّ وثاقه وأعبّر عن نفسي لا بطريق القصص والتواريخ، وإنما ببساطة المحاضرات، حيث تتكشف كل فكرة جملةً بعد جملة ثم تُبنى عليها أفكار أخرى في الفقرات التالية؟ أستطيع أن أستخدم مقتطفات وهوامش، أستطيع بترتيب النقاط أو الأقسام أن أجني ثمار توضيح ما أقصده خطوة بعد خطوة؛ أتحقق من فرضية سالفة الذكر وأتمكن في النهاية من رفع حُججي مثل ملاءاتِ بعد ليلة زفاف، أمام أعين الجمهور. سأكون سيدةً على نَصّي. أستطيع أن أتقاضى أجرًا منصفًا على ذلك، وفقًا لعدد الكلمات.

في تلك الحالة سألعب دور القابلة، أو دور البستاني الذي لا تُميّزه إلا قدرته على بذر البذور ثم مكافحة الحشائش بجهد ودأب.

أما الحكايات، فتتميز بقدر من الهمود الفطري يجعل السيطرة عليها بالكامل أمرًا مستحيلًا. إنها تتطلب أناسًا مثلي - غير مطمئنين، غير حاسمين، يسهل تشتيتهم؛ ساذجون.

ثلاثمئة كيلومتر

حَلمُتُ أنني أنظر من أعلى على مدن مفلطحة ممتدة على الوديان وفوق سفوح الجبال. من ذلك المنظور كان واضحًا جليًا أن هذه المدن ليست إلا جذوعًا مقطوعة لأشجار هائلة، لعلها أشجار سيكويا وجينكو عملاقة. تساءل كم كان يبلغ ارتفاع الأشجار من قبل، لقد كانت جذوعها تحتوي اليوم بلدات كاملة. منفعلة، حاولت حساب ارتفاعاتها، باستخدام نسبة بسيطة تذكرتها من أيام المدرسة.

(أ) لـ (ب) مثل

(ج) لـ (د)

(ا) x (د) = (ج) x (ب)

إذا كانت (أ) هي سطح المقطع العرضي للشجرة و(ب) ارتفاعها، و(ج) مساحة سطح البلدة، و(د) ارتفاع شجرة البلدة الذي كنت أحاول حسابه، إذا فبافتراض أن مساحة المقطع العرضي للشجرة المتوسطة تبلغ نحو 1 متر مربع في قاعدتها وارتفاعها 30 مترًا، إذًا فإن البلدة أو بالأحرى القرية الصغيرة ستكون مساحتها هكتارًا واحدًا (أو 10000 متر مربع):

1:30 = 10,000: (د)

(د) = 10,000x30 = 300,000م

والذي يعطي نتيجة 300 كيلومتر.

تلك كانت الإجابة التي حصلت عليها في الحلم سيكون ارتفاع الشجرة ثلاثمئة كيلومتر. أخشى أن حِسبة المنام هذه لا يمكن أن تؤخذ بجدية.

30000 غيلدر

«ليس مبلغًا كبيرًا بحق، في نهاية المطاف. إنه يعادل الدخل السنوي لتاجر يتاجر مع المستعمرات، بافتراض أن السلام يسود العالم والإنكليز لا يحتجزون السفن الهولندية، ما يؤدي إلى نزاعات قانونية لا تنتهي، إنه في الحقيقة مبلغ معقول. يجب أن تُضاف إليه كلفة شراء صناديق قوية ومتينة، وتكاليف النقل».

كان بيتر الأول، قيصر الامبراطورية الروسية، قد دفع هذا المبلغ مقابل مجموعة من العينات التشريحية التي جمعها فريدريك رويش على مر السنين.

كان القيصر يتجول في أرجاء أوروبا بصحبة حاشية من مئتي شخص عام 1697. راح يلتهم كل ما تقع عليه أنظاره بشراهة، لكنه انجذب في المقام الأول إلى «خزائن الأعاجيب»[29]. ربما كان يعاني، هو الآخر، من متلازمة ما. بعد أن رفض لويس الرابع عشر أن ينعم على القيصر بشرف لقائه، ظل لعدة شهور في هولندا. كثيرًا ما كان يذهب متخفيًا، بصحبة عدد من الرفاق الخشنين، إلى «دي فاغ»، إلى مسرح التشريح[30] حيث يشاهد وعلى وجهه نظرة تركيز حركات البروفيسور الانسيابية وهو يعمل مبضعه ليفتح أجساد المجرمين ويكشفها أمام الجمهور. وقد عقد أيضًا صداقة من نوع ما مع الأستاذ. ويمكننا القول إنهما أصبحا مقرّبين، إذ عَلّم رويش القيصر كيف يحفظ الفراشات.

لكن أكثر ما أعجبه كان مجموعة رويش - مئات العينات المتضمّنة في برطمانات زجاجية، تسبح في السائل، بانوبتيكون من الخيال البشري كُسّر إلى مكوناته الأولية، عالم ميكانيكي من الأعضاء. أصابته قشعريرة حين نظر إلى أجنة بشريّة، ولم يستطع أن يرفع عينيه عنها، وقد استحوذ عليه المنظر. والتراكيب الدرامية، الخيالية، للعظام البشرية التي جعلته في مزاج طيب، تأملي. كان يجب أن يحصل على تلك المجموعة لنفسه.

عُبّئت البرطمانات بحرص في صناديق مبطنة بنسالة القماش، ورُبطت بالحبال المجدولة، ونُقلت بالجياد إلى الميناء، قضى نحو عشرة بحارة يومًا كاملًا في شحن البضائع الثمينة تحت سطح السفينة. البروفيسور بنفسه أشرف على الشحن، لاعنًا ومنفجرًا في الغضب لأن حركة واحدة طائشة خرّبت بالفعل نموذجًا جميلًا لحالة انعدام رأس، عيّنة شديدة الندرة. عادة، لم يكن يحتفظ بالشذوذات، مفضلًا التركيز على القطع التي تعكس جمال الجسد وتناغمه. الآن تهشم الغطاء الزجاجي، وراح مزيجه الحافظ الشهير ينسكب على الرصيف ويتسرّب بين أحجاره. كانت العينة، في هذه الأثناء، قد تدحرجت في الشارع القذر،

وانكسرت في موضعين. على إحدى الشظايا الزجاجية كانت بطاقة مكتوبة بحرص بيد ابنة البروفيسور، بخط يدوي منفق داخل إطار أسود:Monstrum humanum acephalum [مسخ بشري عديم الرأس]. عيّنة نادرة، غير عادية. عارٌ. لفها البروفيسور بمنديل وحملها متوجهًا إلى بيته، وهو يعرج. ربما لا يزال بالإمكان عمل شيء لها.

كان منظرًا حزينًا - الغرف الآن خاوية بعد بيع المجموعة. ألقى البروفيسور رُويش نظرة متمهلة عليها ولاحظ على الرفوف الخشبية بعض البقع الأكثر دكنة - مساقط مسطحة لبرطمانات ثلاثية الأبعاد، آثار في التراب المنتشر في كل مكان، مجرّد عَرض وطول، من دون لمحة من إشارة إلى محتوياتها.

كان يقترب من الثمانين الآن. وكانت المجموعة نتاج عمل استمر على مدار الثلاثين عامًا الماضية، إذ بدأ مبكرًا نوعًا ما. يظهر البروفيسور في لوحة لرسام اسمه بابر، يقدم أفضل دروس التشريح في البلدة في سن الثانية والثلاثين. استطاع الرسام أن يقبض بدقة على التعبير المرتسم على وجه رويش الشاب - ثقة بالنفس ودهاء تجار. في اللوحة نرى أيضًا جسدًا مُعدًّا للتشريح، جثة شاب مُقصّرة انسجامًا مع المنظور، تبدو ناضرة. الجسد يبدو حيًا - الجلد بلون وردي حليبي، لا يشبه لون جثة على الإطلاق، ركبتاه المحنيّتان تجلبان إلى الأذهان حركة شخص يرقد عاريا على ظهره لكنه بالغريزة، يمد يديه لستر الأعضاء المخجلة من جسده أمام العيون المتطفلة. إنه جسد المجرم المشنوق «يوريس فان إبيرين»، لصّ. كذلك يظهر الجراحون المسربلون بالأسود في تناقض مُربك مع هذا الجسد المُحرج الأعزل. لوحة تظهر مصدر الثروة التي تحصّل عليها البروفيسور بعد ثلاثين عامًا - فهذا المزيج الذي ابتكره يحافظ على نضارة الأنسجة لزمن طويل جدًا. لعله المركب نفسه الذي استخدمه رُويش لحفظ عيّناته التشريحية النادرة، في أعماقه يراوده قلق ألا يسمح له العمر بجمع مجموعة مقتنيات جديدة، رغم أنه يشعر بأنه بصحة جيدة بصورة استثنائية.

ابنة البروفيسور، امرأة في الخمسين من عمرها مكرّسة له بالكامل، لها يدان رقيقتان مخبأتان في دانتيل بلون القشدة، تُشرف على الفتيات اللائي يعملن على تنظيف المكان. لا أحد تقريبًا يتذكر اسمها، وهي راضية تمام الرضا باسم «ابنة البروفيسور رويش» أو «الآنسة»، كما تناديها النساء اللاتي ينظفن المكان. لكننا نتذكر - اسمها «تشارلوتا». لديها حق توقيع الوثائق بالنيابة عن أبيها، ولا يمكن التفرقة بين توقيعيهما. بالرغم من يديها الرقيقتين، وذلك الدانتيل، ومعرفتها التشريحية الواسعة، لن يذكرها التاريخ إلى جانب والدها. لن تنال الخلود مثله، في الذاكرة البشرية والكتب الدراسية، حتى العيّنات سوف تعيش أطول منها، تلك العينات التي أعدّتها بإخلاص هائل، منكرة اسمها. كل تلك الأجنة الصغيرة الضئيلة الجميلة سوف تعيش أطول منها، تعيش حيواتها الفردوسيّة الهادئة في

السائل الذهبي، في إكسيرها الجهنمي. بعض تلك العينات، الأنفس من بينها، النادر مثل زهور الأوركيد، له زوجان إضافيان من الأيدي أو الأقدام، لأنها على عكس والدها، مفتونة بما هو مشوه ومَعيب. الجنين معدوم الرأس الذي اقتفت أثر القابلات وقدمت لهن الرشوة للحصول عليه، أو الأمعاء العملاقة، المتضخمة، التي حصلت عليها من الجراحين. كان الحكماء في الأرياف يقدمون عروضًا خاصة لابنة البروفيسور رويش لأورام معينة، وعجول بخمس سيقان، وأجنة ميتة لتوأمين ملتصقين بالرأس. لكنها تدين أكثر ما تدين إلى قابلات المدينة. كانت زبونة جيدة، ولو أنها تساوم كثيرًا.

سيترك والدها مهنة العائلة لأخيها، هينريك، الذي يظهر في اللوحة التي رسمت بعد ثلاثة عشر عاما من اللوحة الأولى - تراها تشارلوتا يوميًا في طريقها إلى الطابق السفلي. فيها، يظهر والدها، وقد صار رجلًا ناضجًا بلحية إسبانية مشذبة جيدًا. يضع على رأسه باروكة؛ هذه المرة يده، المجهزة بمقص جراحي، مرفوعة فوق جسد مفتوح لطفل رضيع. الجدران البطنية مبسوطة، كاشفة عن ترتيب الحشا. هذا الجثمان يذكر تشارلوتا بدمية عزيزة على قلبها كان لها وجهة خزفي صغير شاحب وجذعٌ من مزق القماش محشو بنشارة الخشب.

لم تتزوج قَطّ، ولم يزعجها ذلك، إذ كرّست حياتها لوالدها بأي حال. لن تنجب أطفالًا، إلا إذا حسبت تلك الأجنة الشاحبة التي تسبح في الكحول.

لطالما شعرت بالأسف لأن أختها راشيل تزوجت. كانت تعمل معها، تجهز العينات. لكن راشيل كانت أكثر اهتمامًا بالفن من العلم. لم ترغب قَطّ في أن تبلل يديها بالفورمالين، وكانت تشعر بالغثيان من رائحة الدم. لكنها زينت برطمانات العينات بموتيفات من الأزهار. كما كونت تراكيب خاصة من العظام، وبخاصة هذه العظام الصغيرة، كانت تعطيها بعد ذلك أسماء خيالية. لكنها انتقلت للعيش مع زوجها في «لاهاي»، وتركت تشارلوتا وحيدة، لأن الأخوة الذكور لا يحسبون.

تُمرر إصبعها على السطح الخشبي للرف، تاركة أثرًا. في لحظة ستمحوه أقمشة الفتيات الملتزمات. تشعر ببالغ الأسف لفقدان مجموعة المقتنيات، التي أعطتها كل شيء. تُدير رأسها إلى النافذة حتى لا تلاحظ الخادمات دموعها، وترى هرج المدينة المعتاد. تخشى على مصير البرطمانات؛ ألا تُخزّن أو تحفظ بشكل مناسب هناك، في أقصى الشمال. اللاكيه الذي يقفل الأغطية يَفقد تماسكه أحيانًا من أثر الأبخرة المنبعثة من مزيج الحفظ، ثم يتبخر الكحول. كتبت هذا كله بحرص شديد في مكتوب مفصل مطول ضمته مع العينة، باللاتينية. لكن هل يستطيعون قراءة اللاتينية هناك؟

لن تنام الليلة. إنها قلقة وكأنها قد رأت لتوها أبناءها ينطلقون في رحلة إلى جامعة بعيدة. مع ذلك، فهي تعرف من خبرتها أن أفضل دواء للقلق هو العمل، العمل من أجل العمل، الذي هو بهجة لذَاتُه ومكافأة لذاته. أسكتت الفتيات المرحات، اللاتي كن يَخفن من هيئتها

العابسة، لا بدّ أنهن يفكرن أن شخصًا مثلها سيذهب إلى الجنة مباشرة.

لكن ما الجنة بالنسبة لها؟ ما الذي ستجده في جنة علماء التشريح؟ إنها مظلمة ومملة، وهم ملتقون في مجموعات بلا حراك، يقفون فوق أجساد بشرية مفتوحة، تمامًا مثل الرجال في الملابس الداكنة الذين لا يكادون يظهرون وسط الظلام. على وجوههم، المضاءة إضاءة خفيفة بوهج ياقاتهم البيضاء، ترى تعبيرات الرضا، أو حتى الانتصار. إنها وحدانية، لا تعبأ بأن تكون في جوار الناس. لذا لا الفشل ولا النجاح يهمها. تتنحنح بصوت عال الآن، لتمنح نفسها الشجاعة، ثم تضم تنورتها بحركة عنيفة تثير سحابة من الغبار، وتمضي إلى الخارج.

لكنها لا تذهب إلى البيت، بل تنجذب إلى الاتجاه العكسي، إلى البحر، إلى الميناء، وبعد برهة تلاحظ من بعيد الصواري العالية النحيلة لسفن «شركة الهند الشرقية»؛ تقبع في الخور بينما تطفو حولها قوارب صغيرة، تنقل البضائع إلى الميناء. براميل وصناديق تحمل علامة «مركبات عضوية متطايرة» مطبوعة ومدقوقة عليها. رجال نصف عراة، متلألئون بالعرق، لوحت الشمس بشرتهم، يحملون صناديق من الفلفل، والقرنفل، وجوزة الطيب نزولًا على الألواح الخشبية. رائحة البحر، سمكية، مملحة، تفوح هنا بنكهة القرفة. تمضي بحذاء الساحل إلى أن ترى من بعيد سفينة القيصر ثلاثية الصواري؛ تمر بها سريعًا لأنها لا تريد حتى أن تنظر إليها أو تتخيّل أن البرطمانات تقبع الآن في مخزن سفينة داكن ينتن برائحة السمك، قذر، أن أيادي مجهولة تلمسها، وأنها ستقضي عدة أيام هنا، بلا ضوء بلا عيونٍ بشرية عليها.

تُسرع الخطى وتستمر في المسير حتى الأحواض حيث ترى سفنًا تستعد للإبحار؛ سرعان ما ستنطلق إلى بحار دنماركية أو نرويجيّة. تلك السفن تختلف كثيرًا عن سفن الشركة؛ مزخرفة، مطلية بألوان بهيجة، بينها سفن غليون تشبه الجنيات النداهة والشخصيات الأسطورية. أما تلك فبالغة البساطة، خام...

تصادف تدريبًا عسكريًا. اثنان من المسؤولين في أردية سوداء وباروكات بنية يجلسان على الساحل أمام طاولة قابلة للطي، وأمامهما مجموعة معتبرة من المجندين - صيادون من القرى المجاورة، منهكون، غير حليقين، لم يتحمموا منذ عيد الفصح على الأقل، لهم جماجم مستطيلة.

تخطر بعقلها فكرة مجنونة - أنها تستطيع أن تتخفى في أسمال رجال، تدهن كتفيها بزيت نَتِن، تستخدمه لإدكان وجهها، تقص شعرها، ثم تذهب للالتحاق بالطابور. الزمن الرحيم يفتك بالفروق بين الرجل والمرأة؛ وهي تعرف أنها ليست جميلة، يمكنها أن تبدو مثل رجل - بخديها اللذين تهذلا بعض الشيء بالفعل وفمها المحصور بين قوسين من التجاعيد. الأطفال الرضع والكبار يبدون متشابهين. فما الذي يمنعها؟ فستان ثقيل، التنانير الداخلية الكثيرة، تُويج أبيض غير مريح يشد شعرها البائس؛ والدها المسن، المجنون ونوبات الطمع

التي تأتيه عندما يدفع بإصبع مهزول على خشب الطاولة عملة فضية لإعالة المنزل؟ والدها الذي قرّر، بجنونه الذي أخفاه بحرج وراء قناع، أن يبدأ ثانية من الصفر - عليها أن تستعد. سوف يعيدان تكوين المجموعة في بضع سنوات، يدفعان للقابلات ليعملن لحسابهما ولا يفوتن طفلًا أجهض أو نزل ميتًا.

تستطيع أن تنطلق في الغد؛ لقد سمعت أنهم بحاجة إلى بحارة في الشركة. تستطيع أن تصعد إلى واحدة من تلك السفن التي ستأخذها إلى «تيكسل»، حيث ينتظر أسطول كامل. سفن الشركة جسيمة، لها بطون هائلة، بدينة، حتى تتسع لأكبر قدر ممكن من البضائع - حرير، وخزف، وسجاد، وتوابل. ستكون هادئة مثل فأر، لن يكشف أحد أمرها؛ إنها طويلة ومتينة نوعًا، وسوف تشدّ ثدييها بحزام من القماش. وحتى إذا افتضح أمرها، سيكونون وسط البحر المفتوح، في الطريق إلى جزر الهند الشرقية - ماذا سيفعلون لها إذا؟ أقصاها سيطردونها في مكان متحضر ما، في «باتافيا» مثلًا، حيث تجري القرود - هكذا رأتها على لوحات منقوشة - في جماعات وتجلس فوق أسطح البيوت، وتنمو الفاكهة طوال العام كما في الجنة، والجو دافئ جدًا حتى أن لا أحد يرتدي جوارب.

هكذا تفكر، هكذا تتخيل، لكن عندها يلفت انتباهها رجل ضخم، قوي، بكتفيه العاريتين، وجذعه العاري موشومًا، مُغطىً برسوم ملونة تغلب عليها السفن، والأشرعة، ونساء نصف عاريات ذوات بشرات أكثر دكنة؛ وكأن هذا الرجل يحمل قصة حياته مكتوبة على جسده، تلك الرسوم لا بد تُصور أسفاره وحبيباته. لا تستطيع تشارلوتا أن ترفع عينيها عنه. يرمي الرجل على كتفه صُررًا مخيطة من قماش رمادي ويحملها فوق الألواح الخشبية إلى قارب متوسط الحجم. لا ريب أنه شعر بنظراتها عليه، لأنه يرميها بنظرة عابرة؛ لا مبتسمًا ولا عابسًا، لأنها ليست فتنة لعينيه. عانسٌ عجوز في رداء أسود. لكنها لا تستطيع رفع عينيها عن وشومه. ترى على كتفه سمكة زاهية الألوان، حوتًا عملاقًا، ولأن عضلات البحَّار تعمل، يُخامرها انطباع أن هذا الحوت حيٌّ وأنه يعيش مع هذا الرجل في نوع غير مسبوق من التكافل، على جلده، ملتصقًا به لا يفارقه، يسافر من لوح الكتف إلى الصدر. هذا الجسد القوي الضخم يخلف فيها انطباعًا هائلًا. تشعر بساقيها تتباطأن وتتثاقلان، وبجسدها ينفتح من الأسفل، هكذا تشعر - ينفتح، لذلك الكتف، لذلك الحوت.

تجزُّ على أسنانها بقوة حتى تسمع هديرًا في رأسها. تبدأ في السير بحذاء القناة متوجهة إليه، لكنها في النهاية تبطئ وتتوقف. يجتاحها شعور غريب أن الماء هنا يفيض على الضفاف. برقة، متحسسًا في البداية بأولى أمواجه موضع تمدّدِه، ثم يصبح أكثر جرأة، يتدفق على أحجار الرصيف، وفي لحظة يكون قد وصل إلى أولى درجات أقرب سلالم المنازل. تشعر تشارلوتا بوضوح بثقل ذلك العنصر - تنورتها تمتص الماء، تصبح وكأنها مثقلة بالرصاص، لا تستطيع الحركة. تشعر بهذا الفيضان في كل شبر من جسدها وترى القوارب المباغَتَة وهي تضرب في الأشجار، دائمًا مصفوفة ومقدماتها في مواجهة التيار،

الآن فقدت اتجاهها.

مجموعة مقتنيات القيصر

في فجر اليوم التالي، رفَعَت السفينة الشراعية الروسية، التي تحمل المجموعة مرتبة بعناية في مخزنها، مرساتها وتوجهت صوب البحر. صادفها حظ سعيد وهي تجتاز المضايق الدنماركية، وبعد عدة أيام استقبلها البلطيق. كان القبطان في مزاج جيد، يتأمل في صفقته الأخيرة، ساعة فلكية من صنع حِرفيين هولنديين. لطالما أثارت مثل هذه الأغراض اهتمامه أكثر بكثير من الإبحار نفسه، وهو يفضل في أعماقه- لو أنه صار فلكيًا، رسام خرائط، شخصًا يصل إلى ما وراء الفضاء المتاح لأنظارنا وسفننا.

من حين إلى آخر كان ينزل إلى المخزن ويتفقده ليتأكد أن الشحنة الثمينة لا تزال في مكانها، لكن في مكان ما حول «غوتلاند» تغير الطقس - بعد عاصفة ليست عنيفة خفت الرياح. عَلِقَ الهواء فوق البحر، مشكلًا كتلة هائلة من الكهرمان الجوي. من آخر موجات أغسطس الحارة. ارتخت الأشرعة، واستمر الحال هكذا لعدة أيام. ولكي يشغل القبطان رجاله بشيء ما، أمرهم بشدّ حبال القلوع ثم بسطها، بغسل السطح وفركه، وفي الأمسيات كان يجعلهم يقومون بتمرينات. بعد نزول الظلام، كانت سلطته تغيم، فينسل عائدًا إلى شرنقته الحميمة في المقصورة، من ناحية احترازًا من أولئك البحارة الأجلاف، البدائيين، ومن ناحية أخرى لمتابعة سجل أسفاره، الذي كان يكتبه لأجل ولديه.

في اليوم الثامن من السكون التام بدأ البحارة أنفسهم يهتاجون، وتبيّن لهم أن الخضروات التي اشتروها في أمستردام، وبخاصة البصل، من نوعية سيئة، والعفن ضرب في كثير منها. كان مخزونهم من الفودكا قد أوشك على النفاد - كان القبطان خائفًا بحق من النظر تحت السطح، حيث يحتفظون بالبراميل، لكن تقارير ضابطه الأول لم تبشر بأي خير. شعر القبطان بالتوتر بينما كانت الطقطقات الليلية على السطح تصل إلى مسمعيه. في البداية كانت خطوات فرديّة. لكن بعدها أصبح الدق يصدر من عدة أزواج من السيقان، وفي النهاية سمع هرولة وديعة وصيحات إيقاعيّة (أيمكن أن يكون رقصًا؟)، تحوّلت أخيرًا إلى صرخات سكرانة جشّاء وجوقات غير منتظمة تُغنّي غناءً مثيرًا للشفقة ومؤلمًا ذَكّره بعويل بعض الحيوانات البحرية. حدث هذا على مدار عدّة ليالي طويلة، حتى الفجر تقريبًا. في النهار كان يرى عيون البحارة المنتفخة وأجفانهم المتورمة ونظراتهم التي تتحاشاه. لكنه اتفق مع ضابطه الأول أن الظلمة الأكثر عمقًا في البحر الساكن لا تشجع على أي تدابير لتصويب السلوك. وهكذا، انتظر عشرة أيام من الصمت، قبل أن يخرج إلى السطح، بعد إذ لم يعد بإمكانه التسامح مع التجاوزات الليلية، في عز الشمس حتى تظهر كتفياته وشارته جيدًا أمام العيون، واعتقل رأس الفتنة، رجلًا اسمه كالوكين.

لسوء الحظ، بقلب مرتجف، تأكدت شكوكه أن بعض عينات الشحنة قد أتلفت. كانت بضع عشرات، أو نحو ذلك، من بين مئات البرطمانات التي ينقلونها، قد فتحت، وشربت محتوياتها السائلة، من البراندي القوي، حتى آخر قطرة. كانت العينات نفسها لا تزال هناك ملقاة على الأرض، مغمورة بالنَسالة ونشارة الخشب. لم يتفحصها عن قرب، اشمئزازًا وخوفًا. في الليلة التالية جعل بعض رجاله يقفون وأسلحتهم في أيديهم لحراسة مدخل المخزن؛ كان ثمة تمرّد على وشك الاندلاع. كان حرّ أغسطس يثير جنون الرجال. وصفحة المياه الناعمة. والشحنة نفسها.

في النهاية لم يجد خيارًا آخر - أمر القبطان بجمع ما بقي من الرفات في كيس قماشي، وإغلاقه بالخياطة ورماه شخصيًا من فوق سطح السفينة. عندها، وكأنما بلمسة من عصا سحرية، تلمَّظ البحر وتحرك، وقد استرضته تلك اللقمة. في مكان ما بالقرب من الأراضي السويدية هبت الريح ودفعت سفينة القيصر الشراعية باتجاه الديار.

عندما عادوا إلى بطرسبرغ كان على القبطان أن يكتب تقريرًا سريًّا. أُدين كالوكين وشُنق، أما مجموعة المقتنيات، ولو أنها صارت ناقصة، فقد نقلت بأمان إلى حجرات أعدّت لها خصيصًا.

في هذه الأثناء، أرسل القبطان، جزاءً على فشله في العناية بالشحنة، هو وأسرته إلى أقصى الشمال، حيث ظل لبقية حياته يُنظم رحلات صيد صغيرة ويساهم في رسم خرائط أكثر تفصيلًا لأرخبيل «نوفايا زيمليا».



NOVA ZEMBLA
C. de Nassou
Cruys Eylandt
Willems Eylandt
D. Admiraliteyts Eylandt
De eylanden van Orange
C. Plantio
Loms bay
Lange nes
D'eerste hoeck
Cants hoeck
Swarte klip
Schans hoeck
S. Laurens bay
Meel haven
Lacck Eylandt
Het laeghe landt
Twe Eylanden
Weygats
Stale Eylandt
Tartariæ
Pars
Oby fl.
Colgoy
Valcken hoeck
Deton hoeck
RUSSIAE PARS

إيركوتسك - موسكو

رحلة من إيركوتسك إلى موسكو. تُقلع في الثامنة صباحًا وتهبط في موسكو في الوقت نفسه - في الثامنة من صباح اليوم نفسه. تبيّن أنه وقت الشروق بالضبط ما يعني أن الرحلة بأكملها تحدث أثناء الفجر. يظل الركاب في تلك اللحظة الواحدة. «لحظة آنية» واحدة عظيمة، وهادئة، شاسعة مثل سيبيريا نفسها.

إذا ثمة وقت كاف للاعتراف بمسيرات حيواتِ كاملة. الزمن ينقضي داخل الطائرة لكنه لا يقطرُ متسرّبًا منها.

المادة المعتمة

في الساعة الثالثة من الرحلة، عندما عاد الرجل الجالس إلى جواري من الحمام وكان عليّ أن أنهض لكي أدخله في كرسيه، تبادلنا بعض الملاحظات المهذبة عن الطقس، والمطبات الهوائية، والطعام. أثناء الساعة الرابعة من الرحلة قدم كل منا نفسه للآخر. كان فيزيائيًا، كان عائدًا إلى دياره بعد إلقاء سلسلة من المحاضرات. عندما خلع حذاءه، لاحظت أن لديه ثقبًا واسعًا في كعب جوربه، وهكذا أدركت الحضور الفيزيقي للفيزيائي، ومن تلك اللحظة فصاعدًا رُحنا نتحدث بطريقة أكثر اعتياديّة. حكى لي قصصًا عن الحيتان بحماسة بالغة، ولو أن عمله يتعامل مع شيء آخر.

المادة المُعتمة - كان هذا ما يعمل عليه. إنها شيء نعرف أنه موجود، لكننا لا نستطيع الوصول إليه، بأي أداة. ينشأ الدليل على وجوده من حسابات معقدة نتائج رياضيّة. كل الدلائل تشير إلى أنها تحتل نحو ثلاثة أرباع العالم. أما مادتنا، المادة الرائقة، المادة التي نعرفها والتي تشكل كوننا، فهي أندر كثيرًا. لكن المادة المعتمة موجودة في جميع الأرجاء، يقول هذا الرجل ذو الجورب المثقوب - هنا، في كل مكان حولنا. ينظر من النافذة، مشيرا بعينيه إلى السحب الساطعة على نحو يغشي الأبصار من تحتنا: «إنها هناك، أيضًا. في كل مكان. أسوأ ما في الأمر أننا لا نعرف ما هي. أو لماذا». أردتُ أن أعرِّفه على الفور بعلماء المناخ الذين كانوا يطيرون إلى مؤتمرهم في مونتريال. نهضتُ ونظرتُ حولي بحثًا عنهم، لكنني سرعان ما أدركت، بالطبع، أنهم ليسوا على هذه الرحلة.

الحركية هي الحقيقة

في المطار، إعلان كبير على جدار زجاجي يؤكد بنبرة عليمة:

МОБИЛЬНОСТЬ СТАНОВИТСЯ РЕАЛЬНОСТЬЮ

الحركية هي الحقيقة

دعونا نؤكد أنه مجرد إعلان لهواتف «متحرّكة» (جوّالة).

أسفار

في الليل، يشرق الجحيم على العالم من فوق. أولًا، يشوّه الفضاء؛ يجعل كل شيء أضخم وأكثر تكدسًا، لا يحدُّه حدّ. تَظهر التفاصيل وتفقد الأشياء ملامحها، تُصبح كتلة غليظة وغير واضحة المعالم غريب أن يصفها الناس في النهار أنها «جميلة» أو «مفيدة»: الآن تبدو مثل أجساد هلاميّة؛ يصعب تخمين في أي غرض تستخدم كل شيء افتراضي في الجحيم. كل ذلك التفاوت الشكلي النهاري، حضور الألوان، الظلال، يتبيّن أنه هباء منثور - فيم يفيد قماش التنجيد البني الفاتح، ورق الحائط المزين بالأزهار، الشراشيب؟ ما الفرق الذي يضفيه الأخضر على فستان مَرميٍ على ظهر كرسي؟ من الصعب فهم النظرة المُتهِمة التي تقع عليه وهو مُعلّق على مشجبه في نافذة العرض. ليس ثمة أزرار أو مشابك أو أبازيم الآن؛ الأصابع لا تجد في الظلام إلا نتوءات غامضة، رقعًا خشنة، كتلًا من مادة صلبة.

ما يفعله الجحيم بعد ذلك هو أنه يجرجرك ويخرجك من نومك. بإمكانك أن تركل وتصرخ؛ الجحيم عنيد حرون. أحيانًا يوفر لك صورًا مربكة، مخيفة، أو هازئة- رأس مقطوع، جسد حبيب مغطى بالدماء، عظام بشرية صارت رمادًا - أجل، أجل، الجحيم يحب أن يَصدُم لكنه، في أغلب الأحوال، يوقظك من دون أن يَحفَل بالرسميّات. تنفتح عيناك في الظلام، مطلقة تيارًا من الوعي، نظرتُك، المصوّبة إلى لا شيء، هي الحارس المتقدم لهذا الوعي. الدماغ الليلي هو «بينيلوبي» التي تفك خيوط قماشة المعنى الذي نسجته بأناقة أثناء النهار. أحيانًا تجده خيطًا مفردًا، أحيانًا أكثر؛ تصاميم معقدة تتكسر إلى عناصرها الأولية - سُدى ولُحمة؛ اللُحمة تسقط على جانب الطريق، وفقط الخيوط المستقيمة المتوازية تبقى، «باركود» العالم.

ثم تفهم المغزى: الليل يعيد العالم ثانية إلى مظهره الطبيعي، الأصلي، قبل إلباسه زيه المبهرج؛ النهار رحلة حُلم، خفيفة كأمنية بسيطة، زلّة، عرقلة للنظام العالم في الحقيقة مُعتم، أسودٌ تقريبًا. ساكن وبارد.

تجلس معتدلة الظهر في فراشها، تدغدغها حبات عَرق بين ثدييها. قميص نومها ملتصق بجسدها مثل جلد على وشك أن يطرح. تمدُّ عنقها لتسمع في الظلام وتلتقط النشيج الهادئ الآتي من غرفة بيتيا. للحظة، تحاول العثور على شبشبها بقدميها، لكنها سرعان ما تستسلم. ستركض إلى ابنها حافية القدمين. بجوارها ترى الحدود الخارجية المعتمة لشخص يتزحزح ويتنهد.

«ماذا؟»، يغمغم الرجل، لا يزال نائمًا، وهو يعود ليسقط في وسادته.

«لا شيء. بيتيا».

تضيء المصباح الصغير في غرفة الطفل فترى عينيه على الفور. تراهما مفتوحتين على وسعهما، تنظران إليها من داخل الفجوتين السوداوين المدققتين اللتين يحفرهما الضوء في وجهه. تضع يدها على جبهته، غريزيًا، كالمعتاد. جبهته ليست ساخنة، لكنها متعرّقة ندية الملمس. بحرص تسحب الصبي إلى الوراء وتُجلسه وتدلك ظهره. يسقط رأس ابنها على كتفها. تستطيع أنوشكا أن تشم عرقه، أن تتعرف على الألم فيه، شيء تعلمت أن تفعله. رائحة بيتيا تختلف عندما يتألم.

«هل تستطيع الصمود حتى الصباح؟»، تهمس، برقة لكنها سرعان ما تدرك غباء سؤالها. لماذا ينبغي عليه أن يعاني حتى الصباح؟ تمد يدها إلى الحبوب على طاولة الفراش، تُخرج واحدة من شريطها وتضعها في فمه. ثم كوب من الماء الفاتر. يشرب الصبي، يَشرَق، تنتظر برهة ثم تعطيه رشفة أخرى، بحرص أكبر. سيبدأ تأثير الحبة في أي لحظة الآن، لذا تُمدد جسده الرخو على جنبه الأيمن، وترفع ركبتيه إلى بطنه، ظنًا منها أن هذا الوضع سيريحه أكثر. ترقد بجواره على طرف الفراش وتريح رأسها على ظهره بارز العظام، منصتة إلى الهواء وهو يتحول إلى أنفاس إذ يدخل رئتيه وينطلق منهما إلى الليل. تنتظر حتى تصير تلك العملية إيقاعية، سهلة، أوتوماتيكية، ثم تنهض، بحذر شديد، وتسير على أطراف أصابعها عائدة إلى الفراش. كانت تفضل النوم في غرفة بيتيا، كما كانت تفعل إلى أن عاد زوجها. كان ذلك أفضل، كان بالها مرتاحًا أكثر، تروح في النوم وتستيقظ في مواجهة طفلها. لا تطوي ذلك السرير المزدوج كل مساء: تتركه مهجورًا. لكن الزوج هو الزوج.

كان قد عاد منذ أربعة أشهر، بعد عامين من الغياب. عاد في ملابس مدنية، الملابس نفسها التي كان يرتديها عندما غادر، وقد عفا عليها الزمن، وإن كان واضحًا أنها لم تُلبس إلا مرات قليلة. كانت قد شمّتها. رائحتها لا تشبه أي شيء آخر، ربما تشبه قليلًا رائحة الرطوبة رائحة الركود، رائحة مخزن مغلق.

عاد مختلفًا - هكذا لاحظت على الفور. وإلى الآن، ظل مختلفًا. تلك الليلة الأولى فحصت جسده - كان مختلفًا هو الآخر، أصلب، أكبر، عضلاته أقوى، لكنه ضعيف على نحو غريب.

تحسست الندبة على كتفه وفروة رأسه، واضح أن شعره آخذٌ في الصلع والمشيب. يداه أصبحتا جسيمتين، أصابعه أغلظ، وكأنما بفعل الجهد البدني. وضعتها على ثدييها العاريين، لكن أصابعه ظلت مترددة. جربت يدها ذاتها لكي تقنعه، لكنه ظل راقدًا هناك بسكون تام،

بأنفاس شديدة الضحالة، إلى درجة جعلتها تشعر بالخجل.

في الليل كان يستيقظ بأنين خشن، غاضب، يجلس في الظلام، ثم بعدها بلحظة ينهض ويتجه إلى رف المشروبات الروحية ويصب لنفسه رشفة. تفوح أنفاسه برائحة الفاكهة، برائحة التفاح. ثم يقول: «ضعي يديك عليّ، المسيني».

تقول، هامسة في أذنه، تغويه بأنفاسها الساخنة: «خبرني كيف كانت الأمور هناك، ستشعر بتحسن، خبرني».

لكنه لم يخبرها بأي شيء.

بينما تُراعي بيتيا، كان هو يروح ويجيء في الشقة في بيجامته المخططة، يشرب قهوة سوداء قوية، ينظر من النافذة على المباني السكنية. بعدها ينظر إلى الداخل باتجاه الصبي، أحيانًا يربض إلى جانبه، يحاول التواصل معه. ثم يُشغّل التلفزيون ويغلق الستائر الصفراء، فيصبح ضوء النهار سقيمًا، كثيفًا ومحرورًا. لم يكن يرتدي ملابسه حتى الظهيرة، قبيل حضور ممرضة بيتيا، وحتى عندها لا يرتدي ملابسه دائمًا. أحيانًا، كان يغلق الباب فحسب. صوت التلفزيون يخفت، يصبح دمدمة مثيرة للأعصاب، استحضارًا لعالم فقد كل معنى. كانت النقود تأتي في موعدها بانتظام، كل شهر. والحقيقة أنها كانت كافية - لشراء أدوية بيتيا، لشراء كرسي متحرك أفضل، مستعمل بالكاد، لاستئجار ممرضة.

اليوم لن تراعي أنوشكا الصبي. إنه يوم إجازتها. حماتها ستأتي قريبًا، ولو أنها لا تعرف إن كانت ستأتي لمراعاة هذا أم ذاك، ابنها أم حفيدها، اللذين من أجلهما تصنع كل هذا الهرج والمرج. ستضع حقيبتها البلاستيكية ذات المربعات على الأرض بجوار الباب وتخرج منها معطفًا بيتيًا من النايلون وشبشبها - زيّها الرسمي المنزلي. ستعرُج أولًا على ابنها، تسأله سؤالًا ويجيبها، من دون أن يرفع عينيه عن التلفزيون: نعم أم لا. لا شيء آخر، لا جدوى من الانتظار، وهكذا تذهب إلى حفيدها. يَلزمه حمام وطعام؛ ملاءاته، الغارقة في العرق والبول، تحتاج إلى تغيير، وهو يحتاج إلى أدويته. ثم الغسيل يجب أن يوضع في الغسالة، والغداء يجب أن يُعدّ.

بعدها تقضي الوقت مع الطفل؛ إذا كان الجو صحوًا، يمكن إخراج الصبي إلى الشرفة، ولو أنه لن يرى الكثير من هناك. فقط بنايات سكنية تشبه شعابًا مرجانيّة رمادية في محيط نضب ماؤه، تسكنها كائنات كادحة، قاع محيطهم هو الأفق المغبش للمدينة العملاقة موسكو. لكن الصبي يرفع رأسه إلى السماء دائمًا، محلّقًا فوق الجوانب الخفية من السحاب، متتبعًا إياه لبرهة إلى أن ينجرف بعيدًا عن أنظاره.

أنوشكا ممتنة لحماتها على هذا اليوم في الأسبوع. في طريقها إلى الباب تمنحها قبلة سريعة على خدها المخملي الناعم. هذا هو إجمالي الوقت الذي يقضيانه معًا، دائمًا عند الباب، ثم تسارع بنزول السلم، تشعر بخفة أكثر كلما نزلت أكثر. أمامها اليوم بطوله. لا يعني ذلك أنها ستقضيه مع نفسها، بالطبع. لديها أمور كثيرة تعتني بأمرها. ستدفع الفواتير، تذهب لشراء البقالة، تجلب أدوية بيتيا، تزور المقابر، وأخيرا ترجع كل تلك المسافة إلى الطرف الآخر من تلك المدينة غير الإنسانية لكي تستطيع أن تجلس في الظلام المخيم وتنفجر في البكاء. كل شيء يستغرق زمنًا لا ينتهي بسبب الاختناقات المرورية في كل مكان، وتقف هي محشورة بين الناس تنظر من نوافذ الحافلة بينما تنساب السيارات العملاقة ذات النوافذ الداكنة بلا جهد إلى الأمام، مدفوعة بقوة شيطانية ما، فيما تظل بقية السيارات بلا حراك. تنظر إلى الميادين الممتلئة بالشباب، إلى الأسواق المتنقلة التي تبيع بضائع صينية رخيصة. دائمًا تغير الخط في محطة كييفسكي، حيث تمرُّ بكل أنواع البشر وهم يصعدون السلالم ويخرجون من الأرصفة تحت الأرضية، لكن ما من أحد يجذب انتباهها، لا أحد يرعبها مثل هذه الهيئة الغريبة الواقفة بجوار المخرج، ووراءها خلفية من الأسوار المرتجلة تخفي أساسات الحفر الخاصة ببناية ما قيد الإنشاء أسوار امتلأت بملصقات إعلانية حتى بدت وكأنها تصرخ في وجوه المارة.

المدار الذي تدور فيه تلك المرأة هو شريط برّي من الأرض بين الحائط وأحجار الرصيف المكدسة فوق بعضها البعض؛ بهذه الطريقة تقف شاهدة على المسيرة التي لا تنقطع، تستقبل موكبًا من المشاة المرهقين والمتعجلين الذين تصادفهم وهم في منتصف رحلاتهم من العمل إلى البيت أو بالعكس - الآن سيغيرون وسيلة المواصلات، محوّلين من المترو إلى الحافلة.

ثيابها مختلفة عنهم جميعًا - ترتدي تشكيلة من الملابس: بنطلونات، وفوقها عدة تنورات، لكنها مرتبة بطريقة تجعل كل منها تظهر من أسفل التالية، في طبقات؛ والأمر نفسه في الجزء العلوي - قمصان متعددة، فرو أغنام، صدريات. وفوق كل شيء معطف مبطّن من الدريل، ذروة البساطة الأنيقة، صدىً يتردد من دير شرقي بعيد أو أحد معسكرات العمل. تلك الطبقات مجتمعة تُشكّل منطقًا جماليًا ما، منطقًا لا تقبله أنوشكا فقط، بل تحبّه؛ يدهشها أن الألوان قد اختيرت بعناية، ولو لا يتضح إن كان الاختيار بشريًا أم إنه تصميمٌ راق من تصميمات العشوائية - ألوان حائلة متنقلة ومتداعية.

لكن الأغرب من كل ذلك هو رأس المرأة - ملفوف بإحكام بقطعة من القماش، مضغوطٌ بقبعة دافئة لها واقيات أذن - ووجهها المخفي؛ كل ما تراه هو فمها وهي تُطلق تيارًا متدفقًا من الشتائم. إنه منظر شديد الإزعاج حتى إن أنوشكا لا تحاول قطّ أن تفهم المعاني التي قد تحتويها تلك الشتائم. والآن، أيضًا، تُسرع أنوشكا الخطى وهي تمرّ بتلك المرأة، خشية أن تعلق بها. بل وخشية أن تسمع أنوشكا اسمها وسط هذا السيل من الكلمات الغاضبة.

إنه طقس ديسمبري لطيف، الأرصفة جافة، نظفت من الثلج، وحذاؤها مريح. لا تستقل أنوشكا الحافلة، بل تقطع الجسر ثم تتريض بمحاذاة الطريق السريع متعدّد الحارات، شاعرة وكأنها تمشي بمحاذاة شظ نهر عظيم بلا جسور. تستمع بالتريض، لن تبكي إلى أن تصل إلى كنيستها، في الزاوية المظلمة حيث تركع دائمًا وتظل في تلك الوضعية غير المريحة إلى أن تفقد إحساسها بساقيها، إلى أن تصل إلى المرحلة التي تأتي بعد الألم الحاد، الذي يجعل جسدها يتيبس - مرحلة العدم. لكنها الآن ترمي حقيبة يدها على ظهرها وتقبض على الكيس البلاستيكي الذي يحوي الزهور البلاستيكية لأجل المقبرة. تحاول ألا تفكر في أي شيء، على الأقل في كل ما يتعلّق بالمكان الذي أتت منه. تقترب من الحي الأكثر رقيًا في المدينة، حيث تظهر أشياء يمكن النظر إليها - المكان هنا حافل بالمتاجر، حيث تنتصب مانيكانات، ناعمات، رشيقات، بلا مبالاة لعرض أغلى الملابس سعرًا. تتمهل أنوشكا لإلقاء نظرة على حقيبة يد مصنوعة من مليون حبة خرز، مزركشة بالتّل والدانتيل، أعجوبة من الأعاجيب. أخيرًا تصل إلى الصيدلية المتخصصة، حيث سيكون عليها أن تنتظر. لكنها ستحصل على الأدوية الضرورية. أدوية عبثية، بالكاد تُخفّف أعراض ابنها لا أكثر.

تتوقف أمام طاولة مخبوزات مغطاة وتشتري كيسًا من فطائر البيروشكي وتأكلها جالسة على مقعد مستطيل في الميدان.

في كنيستها الصغيرة تجد الكثير من السياح. الكاهن الشاب الذي عادة يروح ويجيء في صخب مثل تاجر وسط بضائعه مشغول الآن، يحكي للسياح عن تاريخ المبنى ويحدّثهم عن جدار الأيقونات. في صوت رتيب يتلو تعاليمه، والرأس على جسده الطويل النحيل يعلو فوق الحشد الصغير، لحيته الخفيفة الأنيقة تشبه هالة غريبة انزلقت عن رأسه وسقطت إلى صدره. تتراجع أنوشكا: كيف يمكنها الصلاة والبكاء في معية كل هؤلاء السياح؟ تنتظر وتنتظر، لكن عندها تأتي المجموعة التالية، وهكذا تقرر أنوشكا البحث عن مكان آخر لدموعها - ثمة كنيسة أخرى على مقربة منها، صغيرة وقديمة، غالبًا ما تكون مغلقة. دخلتها ذات مرة لكنها لم تحبها - صدَّها البرد ورائحة الخشب الرطب.

لكن الآن لا مجال للانتقائيّة، عليها أن تجد مكانًا تستطيع البكاء فيه أخيرًا، مكانًا منعزلًا، لكن ليس خاليًا؛ ينبغي أن يتمتع بالحضور الملموس لشيء أكبر منها، ذراعان كبيرتان مفتوحتان ترتعشان بالحياة. تحتاج أنوشكا كذلك إلى أن تشعر بأنظار شخص ما عليها، أن تشعر بأن ثمة شاهدًا على بكائها، أن تشعر بأنها لا تُخاطب الفراغ. يمكن أن تكون عينَيْن مرسومتين على الخشب، مفتوحتين دائمًا، عينين لا تتعبان من شيء، هادئتين هدوءًا أبديًا: لتشهد عليها هاتان العينان، عينان لا تطرفان.

تأخذ ثلاث شمعات وتُسقط بضع عملات معدنية في صفيحة. الشمعة الأولى لأجل بيتيا،

والثانية لأجل زوجها الصموت، والثالثة لأجل حماتها في معطفها المنزلي الذي لا يحتاج للكي. تُشعلها من الشمعات القليلة الأخرى التي تحترق هنا وتنظر حولها فتجد لنفسها موضعًا على الجانب الأيمن، في زاوية مظلمة كي لا تضايق النساء العجائز في صلواتهن. ترسم صليبًا واسعًا على صدرها، وعلى هذا النحو تبدأ طقس البكاء.

لكن عندما ترفع عينيها لتصلي، يبرز وجه آخر من العتمة - وجة هائل للأيقونة العابسة. إنها قطعة من الخشب المربع معلقة عاليًا، تحت قبة الكنيسة مباشرة تقريبًا، وعليها ملامح بسيطة للمسيح، ملونة بدرجات البني والرمادي. الوجه داكن، على خلفية داكنة، بلا هالة بلا تاج العينان وحدهما تتوهجان وهما تحدقان فيها مباشرة، تمامًا كما أرادت. ومع ذلك، لم تكن النظرة التي أرادتها أنوشكا - لقد تمنَّت عينَيْن رقيقتين مليئتين بالحب، هذه النظرة، المُنومة، تشل حركتها. تحت وقعها، يتضاءل جسد أنوشكا. لقد كان هنا للحظة واحدة فحسب، ينزل من السقف البعيد، من أغوار الظلام - هذا مكان الرب، ملاذه ومخبأه. الرب لا يحتاج إلى جسد، فقط الوجه الذي لا بد أنها تواجهه الآن، إنها نظرة نافذة، تخترق رأسها وتؤلمها، وكأنما بمثقاب. تحفر حفرة في دماغها. وربما أيضًا لا يكون وجه المخلص، وإنما وجه رجل غريق لم يمُت، بل يحتمي تحت الماء من الموت كلي الوجود؛ رجل طفا الآن، بفعل تيارات غامضة، إلى تحت السطح، واعيًا، شديد الإدراك، يقول: انظري، ها أنا ذا. لكنها لا تريد النظر إليه. تخفض أنوشكا أنظارها، لا تريد أن تعرف أن الرب ضعيف، أنه خسر معركته، أنه في وصار يزحف الآن حول أكوام قمامة العالم، في أغواره العطنة. لا معنى للبكاء. ليس هذا مكانًا للدموع. هذا الرب لن يُفيد، لن يدعم، لن يُشجع، لن يطهر، لن يخلص. تنخر نظرة الرجل الغريق جبينها، تسمع دمدمة هديرٍ تحت أرضي ينبعث من البعيد، ذبذباتِ تحت أرضية الكنيسة.

لا بد أن ذلك لأنها لم تنم بالأمس تقريبًا، لأنها لم تأكل اليوم أي شيء تقريبًا - الآن تشعر بأنها خائرة القوى. لن تسيل الدموع، لقد نضبت مجاريها.

تهمُّ واقفة وتخرج. بجسد متصلّب، تتجه مباشرة إلى المترو.

تشعر وكأنها مرت بتجربة من نوع ما، بأن شيئًا ما دخلها، جعلها مشدودة من الداخل مثل وتر في آلة موسيقية، تصدر صوتًا صافيًا، لا يستطيع أحد سماعه. صوت ساكن، يقصد جسدها وحده - حفل موسيقي قصير في قاعة صوتية خشنة. لا تزال تنصُت له بأي حال، انقلب انتباهها كله إلى الداخل، لكن أذنيها لا تسمعان إلا تدفق الدم في عروقها.

السلالم تهبط، ويراودها انطباع أن هبوطها يستمر إلى الأبد، البعض ينزل، وآخرون يصعدون. عادة تنزلق نظرتها عن وجوه الآخرين، لكن عيني أنوشكا الآن، بعد أن صدمها ذلك المنظر في الكنيسة، لا تستطيعان السيطرة على نفسيهما. تقع نظرتها على كل واحد من المارة - وكل وجه يشبه صفعة قوية، لاسعة. بعد قليل لن تستطيع تحمُّل الأمر أكثر، سيكون

عليها تغطية عينيها مثل تلك المرأة المجنونة أمام المحطة، ومثلها تمامًا ستبدأ في الصراخ وإطلاق الشتائم.

«الرحمة الرحمة»، تهمس وتغرس أصابعها في الدرابزين، الذي يتحرّك أسرع من السلم؛ إن لم تتركه أنوشكا ستسقط.

ترى أسراب الناس الساكنة تصعد وتهبط، كتفًا بكتف، مكدسة معًا. ينزلقون باتجاه مواقعهم وكأنهم أنعام مشدودة بالحبال، يتجهون إلى مكان ما في الضواحي، إلى طابق عاشر، حيث يستطيعون سحب أغطيتهم فوق رؤوسهم والإخلاد إلى نوم مكون من مِزق النهار والليل. على أرض الواقع، لا يتحلل ذلك النوم في الصباح - بل تكون تلك المِزَق «كولاج»، رقعًا، تشكيلات بارعة، يمكنك القول إنها تكاد تكون مدبرة عن قصد.

ترى هشاشة الأذرع، رخاوة الأجفان، الخط غير الثابت لشفاه الناس، جاهزًا للالتواء في تكشيرة؛ ترى مدى ضعف أيديهم، مدى ضعف أرجلهم - لن تحملهم، لن تستطيع أن تحملهم، إلى أي مقصد. ترى قلوبهم، كيف تدق بإيقاعية، البعض أسرع، والبعض أبطأ، حركة ميكانيكية عادية، حويصلات الرئات تشبه أكياسًا بلاستيكية قذرة، تستطيع سماع هسيس الزفرات. ملابسهم أصبحت شفافة، لذا تراهم في حالة فوضوية. أجسادنا مسكينة، قذرة، غلّةٌ هشة -بلا استثناء- تنتظر الطحين.

السلالم المتحركة تأخذ هاته الكائنات مباشرة للأسفل، إلى الأغوار السحيقة، إلى الهاوية، هاك عيون الكلاب متعددة الرؤوس، حُرّاس العالم السفلي، في المقصورات الزجاجية في قاع السلم، هاكِ الرخام والأعمدة المخاتلة، تماثيل هائلة الحجم لشياطين - بعضهم بمناجل، وآخرون بِحِزمٍ من الغلال. أرجل هائلة مثل أعمدة، أكتافٌ عملاقة. جرّارات ماكينات جهنمية تجز وراءها أدوات تعذيب حادة الأسنان تحفر في الأرض جراحًا لا تندمل. من كل ناحية، تتوافد مجموعات مكتظة من البشر، أيديهم مرفوعة بتوسّل في هلع، أفواههم مفتوحة للصراخ. يوم الدينونة يحدث هنا، في أعماق المترو، المضاء بثريات من الكريستال تلقي ضوءًا أصفر بليدًا. القضاة لا يظهرون في أي مكان، هذا صحيح، لكنك تستشعر حضورهم في كل مكان. أنوشكا تريد أن تتراجع، أن تركض صاعدة ضد التيار، لكن السلالم المتحركة لن تسمح لها بذلك، عليها أن تواصل الهبوط، لن تستطيع النجاة. ستنفتح أمامها أفواه القطارات النفقية بهسيس وتشفطها إلى داخل الأنفاق المعتمة. لكن الهاوية -بالطبع- في كل مكان، حتى في الطوابق العلوية من المدينة، حتى في الطابق العاشر والطابق السادس عشر من البنايات الشاهقة، في قمة الأبراج المستدقة، على رؤوس الهوائيات. ما من مهرب منها. ألا يكون هذا ما تصرخ به المرأة المجنونة بين شتائمها.

أنوشكا تترنح، تستند إلى أحد الجدران. يطبع آثارًا بيضاء على معطفها الصوفي المصنوع من قماش التويل، يباركها كأنما بالزيت المقدس.

ينبغي عليها أن تخرج، لقد حل الظلام، تترجل في محطة عشوائية نوعًا لأنك لا ترى أي شيء من نوافذ الحافلة، لقد نقش الصقيع غصينات فضية عليها - لكنها تحفظ الطريق عن ظهر قلب، كانت محقة. بضع ساحات فقط -تأخذ طريقا مختصرًا- وتصل إلى بنايتها. لكنها تبطئ خطاها، لا تريد ساقاها حَملها إلى وجهتها، تقاومان، تصير خطاهما أقصر فأقصر. تتوقف أنوشكا. ترنو إلى أعلى فترى الأضواء في شقتها. لا بدّ أنهم في انتظارها - لذا تواصل المسير، لكن بعد ثانية تتوقف من جديد. الريح الباردة تخترق معطفها، تُفجر المقعدة إلى أشلاء، تَقبض على الفخذين بأصابعها الثلجية. لمستُها مثل نصال الشفرات، مثل زَجاج مكسور. تتطاير الدموع على خدّيها من البرد، وهو ما يرضي الريح، إذ هكذا تجد طريقة لتَخُزَّ وجهها. تسارع أنوشكا، باتجاه بيت الدرج، لكنها ما إن تصل إلى الباب حتى تستدير، ترفع ياقتها، وبأسرع ما تستطيع ترجع من حيث أتت.

الجو دافئ فقط في صالة الانتظار الكبيرة في محطة كييفسكي أو داخل الحمامات. تقف عاجزة عن اتخاذ قرار بينما تمر بها دوريات الشرطة (دائمًا يسيرون بخطى بطيئة، مرتخية، يحركون أرجلهم بخفة وكأنهم يتنزهون على الكورنيش)، تتظاهر بأنها تقرأ جدول القطارات لا تعرف حتى مما تخاف، فهي لم ترتكب أي خطأ في نهاية المطاف. وعلى أي حال، فالدوريات مهتمة بشيء آخر، فلا يستوقفون من وسط الزحام إلا الرجال أصحاب البشرة السمراء الذين يرتدون سترات جلدية والنساء اللاتي يغطين رؤوسهن بالمناديل.

تخرج أنوشكا من المحطة وترى من بعيد المرأة المكفَّنة لا تزال تتخبط وتترنح، صوتها اخشوشن من كثرة إطلاق الشتائم - في الحقيقة، لا يكاد يلاحظ الآن، لا هو ولا الشتائم. طيّب، إذا - بعد لحظة تردد تقترب منها بهدوء وتقف أمامها. تُباغت المرأة فتتجمد لثانية واحدة لا أكثر - لا بدّ أنها تستطيع رؤية أنوشكا من وراء القماش الذي يغطي وجهها. تتقدم أنوشكا خطوة أخرى باتجاهها وتقف على مقربة شديدة منها حتى أنها تشم أنفاسها - تراب وعفونة، زي قديم. تتحدّث المرأة بنبرة أهدأ فأهدأ حتى تصمت أخيرًا، يتحول تخبطها وترنّحها إلى رجرجة، وكأنها تعجز عن الوقوف ساكنة. يقفان وجهًا لوجه للحظة بينما يمر بهما الناس، لكن بلا مبالاة؛ شخص واحد يلقي نظرة عابرة عليهما، لكنهم متعجلون، قطارهم سيغادر في أي لحظة.

تسألها أنوشكا: «ماذا تقولين؟».

تتجمد المرأة المكفَّنة في مكانها، تكتم نفسها، ثم تتحرّك بالجنب، مرتاعة، باتجاه الممر الذي يعلو موقع البناء، فوق الوحل المتجمد. تتبعها أنوشكا، لا ترفع عينيها عنها، على بعد خطوات قليلة وراءها، وراء معطفها المبطَن، ووراء حذائها اللباد الصوفي المتأرجح. لن تتركها تفلت. تنظر المرأة من فوق كتفها وتحاول إسراع الخطى، تكاد تجري، لكن أنوشكا

شابة وقوية. لديها عضلات قوية - كم من مرة حملت بيتيا وكرسيه نزولًا على السلم، كم من مرة حملتهما صعودًا، عندما يتعطل المصعد.

«إيه!»، تصرخ أنوشكا مرة بعد مرة، لكن المرأة لا تعطي أي ردة فعل.

تمرَّان عبر الساحات بين البيوت، تمرَّان بأكوام القمامة والميادين المطروقة. أنوشكا لا تشعر بتعب لكن حقيبة أزهار المقبرة تسقط من يدها، سيكون إهدارًا للوقت أن تعود لأجلها.

أخيرا تُقرفص المرأة وتلهث، عاجزة عن التقاط أنفاسها. تتوقف أنوشكا على بعد بضعة أمتار وراءها وتنتظر أن تنهض ثانية وتستدير إليها. لقد خسرت المرأة الآن عليها أن تستسلم. وكما هو متوقع تنظر من فوق كتفها، ويظهر وجهها، كانت قد سحبت الحجاب عن عينيها. لديها قزحيتان زرقاوان فاتحتان، مرعوبةً تنظر إلى حذاء أنوشكا.

«ماذا تريدين مني؟ لماذا تطاردينني؟».

أنوشكا لا تجيب، تشعر وكأنها اصطادت حيوانًا كبيرًا سمكةً كبيرةً، حوتًا، والآن لا تعرف ماذا تفعل به: ليست بحاجة إلى هكذا تذكار. المرأة خائفة، واضح أن كل الشتائم هربت منها في خضمّ خوفها هذا.

«هل أنتِ من الشرطة؟».

تقول أنوشكا: «لا».

«ماذا إذا؟».

«أريد أن أعرف ما تقولين. طوال الوقت تقولين شيئًا ما، أراكِ كل أسبوع في طريقي إلى البلدة».

على هذا تجيب المرأة، بجرأة أكبر.

«لا أقول أي شيء. دعيني وشأني».

تنحني أنوشكا عليها وتمد يدها لتعينها على النهوض، لكن اليد تُغيّر مسارها وتُربت على خدّ المرأة. إنه دافئ، لطيف، ناعم.

«لم أرتكب أي مكروه».

في البداية تتجمّد المرأة، مذهولة بهذه اللمسة، لكن بعدها، وقد بدا أن إيماءة أنوشكا هدّأت من روعها، تنبش الأرض بيديها، وتنهض.

تقول: «أنا جائعة. هيا نذهب، هناك كشك قريب، لديهم سندويتشات ساخنة رخيصة، يمكنك شراء شيء آكله».

تسيران بصمت، جنبًا إلى جنب. في الكشك تشتري أنوشكا شطيرتين ملفوفتين من الجبن والطماطم، وتبقي عينيها على المرأة كي لا تهرب منها. لا تستطيع تناول أي شيء. تمد شطيرتها أمامها مثل ناي على وشك أن يعزف لحنًا شتويًا. تجلسان على جدار منخفض. تأكل المرأة شطيرتها، ثم دون كلمة واحدة تتناول شطيرة أنوشكا. إنها مسنّة، أكبر من حماة أنوشكا. خدّاها مقسمان بتجاعيد تمتد قطريًا من جبهتها إلى ذقنها. تأكل بصعوبة لأنها فقدت أسنانها. تنزلق شرائح الطماطم من الخبز، تتلقفها، تنقذها في اللحظة الأخيرة وتعيدها بحرص إلى مكانها. تلتهم قضمة كبيرة بشفتيها فقط.

«لا أستطيع العودة إلى بيتي»، تقولها أنوشكا فجأة وتُنكّس بصرها إلى قدميها. يذهلها أن تقول شيئًا كهذا والآن تفكر مرتعبة في معنى ذلك. تدمدم المرأة بشيء غير مفهوم ردًا عليها، لكن بعد أن تبتلع قضمتها، تسألها:

«هل لديك عنوان؟».

«نعم»، تقولها أنوشكا، وتتلوه عليها: «46 شارع كوزنتسكايا، شقة 78».

تقول المرأة من دون تفكير، بفم ممتلئ: «إذًا انسيه وحسب».

فوركوتا. هناك وُلِدت في الستينيات، عندما كانت البنايات السكنية، التي تبدو الآن عتيقة، لا تزال تُشيَّد. تتذكرها وهي جديدة - ملاط خشن، رائحة الأسمنت والاسبستوس المستخدم كمادة عازلة. النعومة الواعدة لبلاط البولي فينيل». لكن في الطقس البارد كل شيء يتقادم بسرعة، الصقيع يكسر تماسك الجدران، يبطئ الإلكترونات في دورانها الذي لا ينقطع.

تتذكر بياض الشتاء الذي يغشي الأبصار. البياض والحواف الحادة للضوء في المنفى. بياض كهذا لا يوجد إلا لكي يخلق إطار عملي للظلام، الذي يُنتظر منه المزيد بكل تأكيد.

كان أبوها يعمل في مصنع تدفئة عملاق، وأمها في كافيتريا، هكذا كانا يسيّران أمورهما - كانت دائمًا ترجع للبيت ببعض الطعام. الآن تفكر أنوشكا أن الجميع هناك كانوا مصابين بمرض غريب من نوع ما، مختبئ في أعماق الجسد، تحت الملابس، حزن هائل، أو ربما شيء أكثر هولًا من الحزن، بيد أنها لا تستطيع التفكير في الكلمة المناسبة.

كانوا يعيشون في الطابق السابع من بناية من ثمانية طوابق، واحدة من البنايات العديدة المتطابقة، لكن بمرور الوقت، حين شبَّت، خلت الطوابق العليا، وانتقل الناس إلى مطارح أكثر انفتاحًا، غالبًا إلى موسكو، لكن أيضًا إلى أي مكان، إلى أبعد ما يمكن عن هناك. أما من بقوا فقد انتقلوا إلى أسفل، سكنوا في أدنى شقق أتيحت لهم، حيث ينعمون بدفء أكبر، ويصبحون أقرب من الناس، من الأرض. كانت الحياة في الطابق الثامن أثناء شهور الشتاء القطبي الطويل أشبه بالتدلي من خزائن العالم الأسمنتية داخل قطرة مياه مثلجة، وسط جحيم

متجمد. عندما زارت أختها وأمها آخر مرة، كانتا تعيشان في الطابق الأرضي. وكان والدها قد مات منذ زمن طويل.

من حسن حظ أنوشكا أنها دخلت مدرسة تدريس جيدة في موسكو، ومن سوء حظها أنها لم تكمل الدورة الدراسية. لو أكملت، لكانت الآن مُدرّسة، وربما ما قابلت قطّ الرجل الذي أصبح زوجها. ما كانت جيناتهما لتمتزج معًا في ذلك الخليط المسموم المسؤول عن مجيء بيتيا إلى هذا العالم مريضًا بمرض لا شفاء منه.

لقد حاولت أنوشكا مرات عديدة أن تُقايض مع أي كان، مع الرب، مع العذراء، مع القديسة باراسكيفا، مع جدار الأيقونات بأكمله، بل مع عالم القدر الأقرب، الأكثر غموضًا. خُذوني بدلًا من بيتيا. سوف آخذ أنا المرض. سوف أموت أنا، فقط دعوه يتعافى. ولم تتوقف عند ذلك الحد - رَمت حيوات أخرى على طاولة المقايضة: حياة زوجها المتردد (دعوه يُردى قتيلًا) وحياة حماتها (دعوها تُصاب بسكتة). لكنها، بالطبع، لم تنل أي رد على عروضها.

تشتري تذكرةً وتنزل السلم. لا يزال الزحام متواصلًا العائدون من وسط المدينة إلى أسرتهم، لكي يناموا. البعض يغفو بالفعل داخل العربات. أنفاسهم الناعسة تُغبش الزجاج؛ تستطيع أن ترسم عليها شيئًا بإصبعك، أي شيء، لن يهمّ لأنه سيتلاشى بعدها بلحظة على أي حال. تصل أنوشكا إلى المحطة الأخيرة، «يوغو زابدنايا»، تترجل وتقف على الرصيف، فقط لتكتشف بعدها بلحظة أن القطار سيرجع، القطار نفسه. تعود لتجلس في المقعد نفسه ومن هناك تعود أدراجها، ثم ترجع ثانية، وبعد عدة رحلات من الذهاب والإياب تُغيّر إلى خط «كولتسفايا». يأخذها الخط في دائرة، حتى تصل قرب منتصف الليل إلى محطة «كييفسكي» وكأنها عائدة إلى بيتها. تجلس على الرصيف حتى تأتي إليها سيدة متوعدة، تُصرّ أن تغادر، تقول إنهم على وشك إغلاق المترو. تغادر أنوشكا، ولو أنها لا تريد -الصقيع قارس في الخارج- لكنها سرعان ما تجد حانة صغيرة بالقرب من المحطة، بجهاز تلفزيون مُعلّق من السقف؛ على الطاولات بضعة مسافرين ضائعين. تطلب شايًا بالليمون، كوبًا بعد آخر، ثم شوربة «بورش»، فظيعة مائعة، تسند رأسها على يدها وتنجرف في غفوة قصيرة. إنها سعيدة، لأنها لا تمتلك ولا فكرة واحدة في رأسها، ولا همًّا واحدًا، ولا أمنية أو أملًا واحدًا. وهذا شعور طيّب.

القطار الأول لا يزال خاليًا. في كل محطة يصعد المزيد والمزيد من الركاب، حتى يشتد الزحام في النهاية فتقف أنوشكا مهروسة بين ظهور عمالقة من نوع ما. ولأن يدها لا تستطيع الوصول إلى المقابض يكتب عليها أن تظل مسنودة بفعل أجسادٍ مجهولة. ثم يخف

الحشد فجأة، ويخلو القطار في المحطة التالية. لا يبقى فيه إلا بضعة ركاب. الآن تتعلم أنوشكا أن بعض الناس لا ينزلون في المحطات النهائية. وحدها تخرج وتُغيّر القطار، لكنها ترى الآخرين من النوافذ يعثرون لأنفسهم على مواقع للوقوف في آخر العربات ويضعون حول أقدامهم أكياسهم البلاستيكية أو حقائب ظهرهم، القديمة غالبًا، المنسوجة من خيوط القنّب. يُخرجون بعض الطعام، ويعتذرون مرة بعد مرة، يُدمدمون، يمضغون بإجلال.

تغير القطارات لأنها تخاف أن يراها أحد، أن يشدّها أحد من ذراعها ويهزُها أو -الأسوأ طرًّا- أن يحبسها في مكان ما. أحيانًا تمشي إلى الجانب الآخر من الرصيف، وأحيانًا تُغيّر الرصيف، ثم تأخذ السلم المتحرك، أو النفق، لكنها لا تلتفت قطّ إلى أي لافتات، حُرّة بالكامل. تذهب، مثلًا، إلى «تشيستي برودي»، تُغيّر من «ساكولنيشيسكايا» إلى «كالوشسكا-ريشسكايا» وتذهب إلى «ميد فدكوفو»، ثم ترجع إلى الجانب الآخر من المدينة. تتوقف في الحمَّامات لتُلقي نظرة على مظهرها، لتطمئن أنها تبدو على ما يرام، ليس لأنها تشعر بأنها بحاجة إلى ذلك (الحقيقة أنها لا تشعر بذلك)، لكن بالأحرى خوفًا من أن يلفت منظرها، الأشعث الأغبر، انتباه واحد من «كلاب حراسة العالم السفلي» هؤلاء، الذين يحرسون السلالم المتحركة في مقصوراتهم الزجاجية. هيئ لها أنهم قد برعوا في فن النوم بعيون مفتوحة. من أحد الأكشاك تشتري بعض الفوط الصحية، بعض الصابون، أرخص معجون وفرشاة أسنان. تنام طوال بعد الظهر، في خط «كولتسفايا». في المساء تخرج من المحطة صعودًا على السلم، إذ ربما تقابل المرأة المكفَّنة عند المخرج - لكن لا، ليست هناك. الجو بارد، بل وأبرد من اليوم السابق، لذا تشعر براحة عندما تنزل تحت الأرض من جديد.

في اليوم التالي تعود المرأة المكفَّنة، مؤرجحةً ساقين متيبستين ومطلقة شتائم أشبه بالرطانة. تقف أنوشكا في مرمى بصرها، على الجانب الآخر من الممر، لكن واضح أن المرأة لا تراها، ضائعة في ولولاتها. أخيرًا، تستفيد أنوشكا من الانفراجة اللحظية في وسط الزحام، وتذهب لتقف أمامها مباشرة.

«لنذهب. سأشتري لك شطيرة».

تتوقف المرأة، تُنتزع من غيبوبتها الذهنية، تفرك يديها المقفَّزَتين معًا، تضرب بقدميها مثل بائعة في سوق وقد جمّد البرد عظامها. يذهبان معًا إلى الكشك، أنوشكا سعيدة حقًّا لرؤيتها.

تسألها: «ما اسمك؟».

المرأة، المشغولة بشطيرتها، تكتفي بهز كتفيها. لكن بعد لحظة تقول بفمها الممتلئ:

«غالينا».

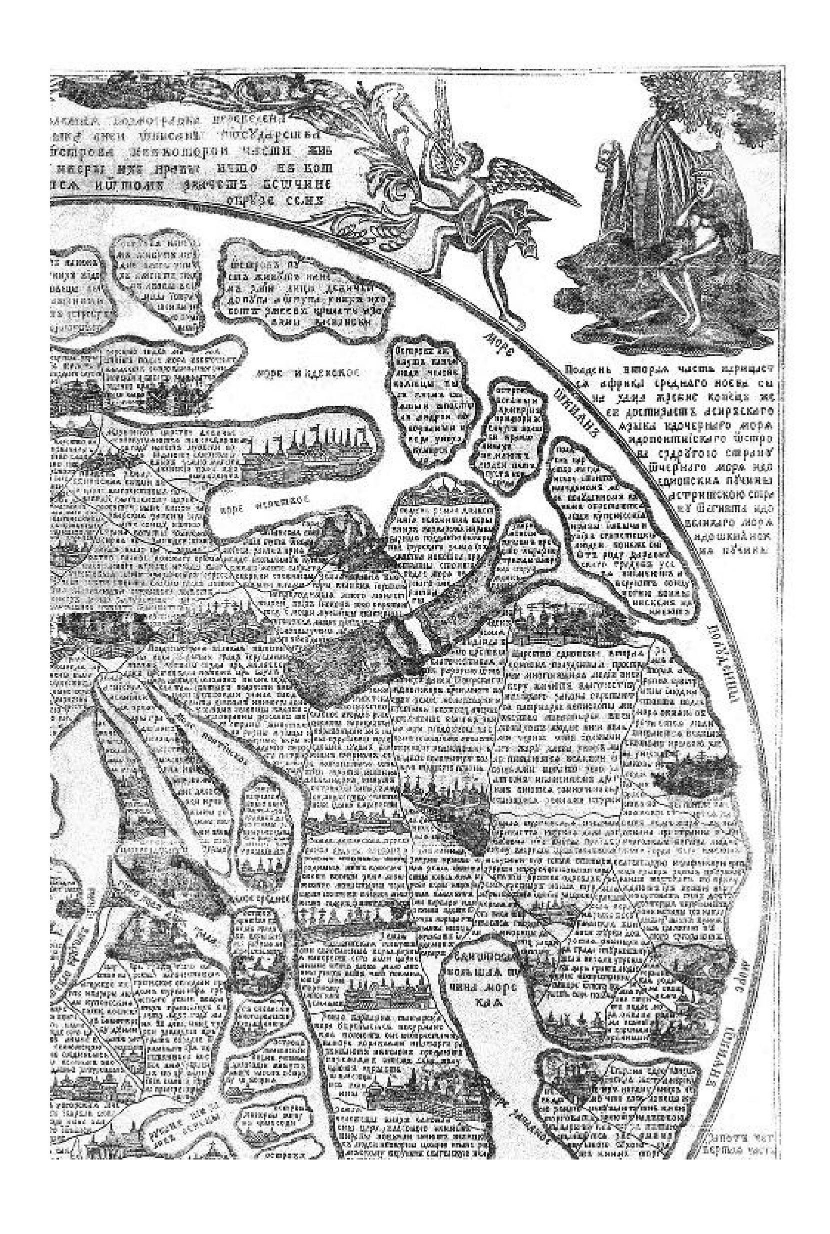
«أنا أنوشكا».

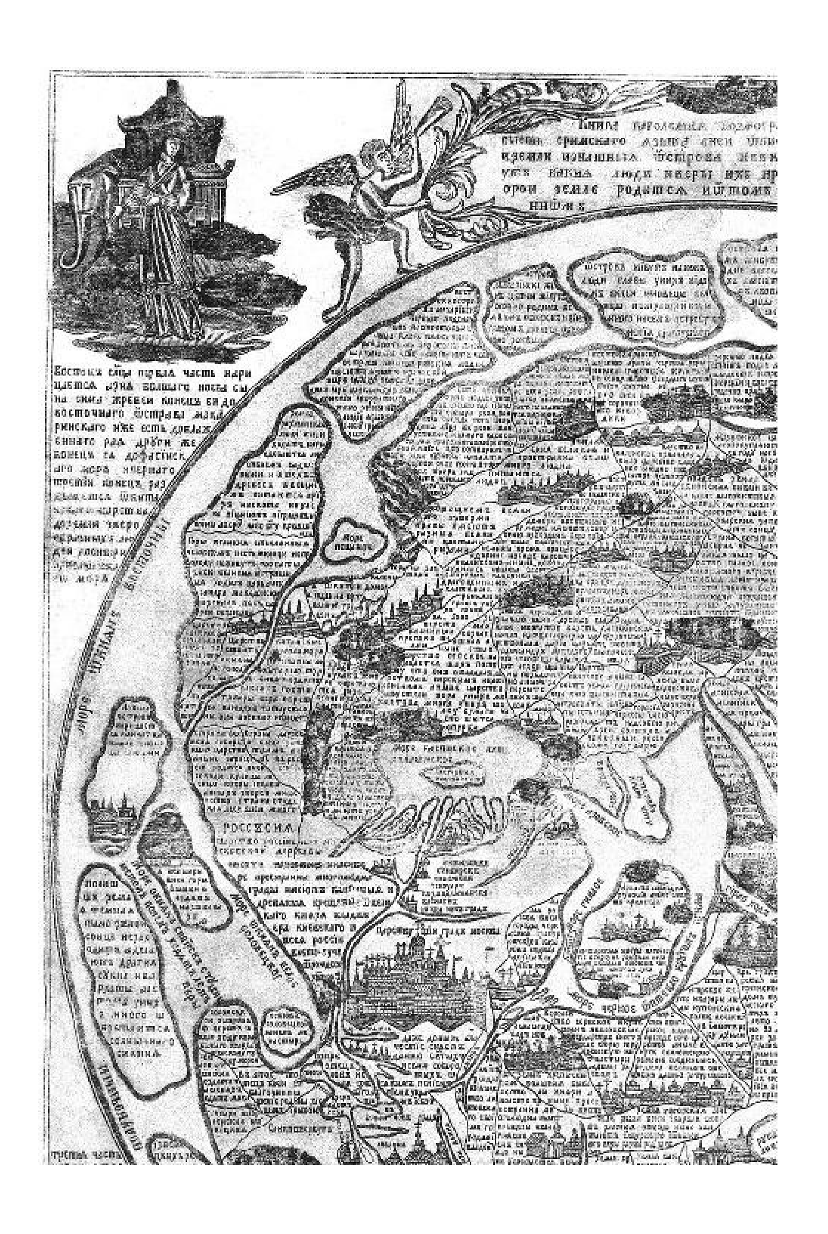
وهكذا تنتهي المحادثة. أخيرًا، عندما يدفعها الصقيع مجددًا إلى المحطة، تسأل أنوشكا سؤالًا آخر:

«غالينا، أين تنامين؟».

تقول لها المرأة المكفَّنة إنها ترجع إلى الكشك عندما يغلق المترو أبوابه.

طوال المساء تركب أنوشكا الخط نفسه وتتفحّص بلا مبالاة وجهها المنعكس على النافذة ومن ورائها الجدران المُعتمة للأنفاق التحتية. تتعرف على شخصين على الأقل. لن تجرؤ على فتح كلام معهما. كانت الآن قد قطعت بضع محطات مع أحدهما - رجل طويل رفيع، ليس كبيرًا في السن، بل ولعله شاب حتى، أمر يصعب تحديده. وجهه مُغطًّى بلحية خفيفة فاتحة تهبط حتى صدره. يرتدي طاقية قماشية مسطحة، طاقية عمال، عادية ورثة، ومعطفًا رماديًا طويلًا، جيوبه محشوة بشيء ما، ويعلّق على ظهره حقيبة أبلاها الطقس. ثم حذاء برباط يبرز منه زوجان من الجوارب المصنوعة يدويًا، ساقا البنطلون البني مدسوستان بإحكام في الجورب. يبدو أنه لا يعير انتباهه لأي شيء، غارق في أفكاره. بهمّة ينطّ إلى الرصيف، مانحًا انطباعًا أنه يقصد وجهة بعيدة لكنها مادية ملموسة. رأته أنوشكا مرتين من الرصيف كذلك؛ مرة كان نائمًا في قطار مهجور بالكامل بدا وأنه قد أنهى رحلاته تلك الليلة؛ والمرة الأخرى كان غافيًا أيضًا، مسندًا جبهته إلى الزجاج؛ أنفاسه تستجلب غبشة تُخفي نصف وجهه.





أما الشخص الآخر فتتذكر أنوشكا أنه شيخ مُسن. يسير بصعوبة، على عكاز، أو بالأحرى، على عصا للمشي، قطعة غليظة من الخشب معقوفة قليلًا عند طرفها. عندما يصعد إلى عربة يضطر إلى التشبث بالباب بيده الأخرى، غالبًا ما تمتدّ إليه يدٌ لتساعده. وفور دخوله يترك الناس مقاعدهم له، مترددين، لكنهم يتركونها. يبدو مثل شحاذ، تحاول أنوشكا تعقُّب ذلك الشخص، كما تعقَّبت المرأة المكفَّنة من قبل. لكن أقصى ما تستطيعه هو الركوب معه في العربة نفسها لبعض الوقت، والوقوف أمامه لنصف ساعة، أكثر أو أقل قليلًا وهكذا صارت تعرف عن ظهر قلب كل تفصيلة من تفاصيل وجهه، وملابسه. مع ذلك، لا تمتلك الشجاعة الكافية لمبادرته بالكلام. يُبقي الرجل رأسه منكسًا، لا يعير ما يحدث حوله انتباهًا. ثم يندفع حشد من الركاب العائدين من أعمالهم إلى بيوتهم ويزيحونها بعيدًا. تترك نفسها ليحملها تيار الروائح واللمسات الدافئ. لا تتحرر منه إلا بعد أن يدفعها خارج الأبواب الدوارة، وكأنما لفظها النفق مثل جسم غريب. الآن سيكون عليها شراء تذكرة للعودة إلى الداخل، وهي تعرف أن نقودها ستنتهي عما قريب.

لماذا تتذكر هذين الشخصين؟ أظن لأنهما ثابتان، نوعًا ما، وكأنهما يتحركان بشكل مختلف، على نحو أبطأ. كل الآخرين يشبهون نهرًا، تيارًا، ماءٌ يتدفق من هنا إلى هناك خالقًا دوامات وأمواج، لكنهم، لطبيعته العابرة يختفون، وينسى النهر أمرهم. أما هؤلاء الاثنان فيتحركان ضد التيار، وهو ما يجعلهما مميزين على هذا النحو. إنهما لا يلتزمان بقواعد النهر، وأظن أن هذا هو ما يجذب أنوشكا.

عندما يغلقون المترو تنتظر أمام المدخل الجانبي حتى تأتي المرأة المكفَّنة، وبينما توشك على الاستسلام، تظهر المرأة أخيرًا. عيناها مغطاتان، تشبه برميلًا بكل هذه الطبقات من الملابس. تقول لأنوشكا أن تتبعها، وتطيعها أنوشكا. إنها متعبة جدًا، للأمانة، وليس لديها أي طاقة وستغمرها البهجة إن أتيح لها فقط الجلوس في مكان ما، أي مكان. تسيران على جسر الألواح الخشبية فوق حفرة البناء، تمرَّان بسور من الصفيح مغطىً بالملصقات، ثم تنزلان إلى نفق. لبرهة تسيران في ممر ضيق، حيث يشيع دفء سارٌّ. تشير المرأة إلى موضع على الأرض، فترقد أنوشكا من دون أن تخلع ملابسها وسرعان ما تروح في النوم. وبينما تغفو، تمامًا كما أرادت دائمًا. بعمق، بلا أي فكرة في رأسها - تعود إلى تحت جفنيها تلك الصورة التي رأتها منذ قليل وهي تسير في الدهليز الضيق.

غرفة مظلمة، فيها باب مفتوح يقود إلى غرفة أخرى، ساطعة الإضاءة. ثمة طاولة، وأناس يجلسون حولها. أيديهم مصفوفة على سطح الطاولة، يجلسون منتصبين. يجلسون وينظرون إلى بعضهم بعضًا في صمت مطلق ودون حراك. تستطيع أن تُقسم أن أحدهم ذلك الرجل الذي يعتمر طاقية العمَّال.

تنام أنوشكا قريرة العين. لا شيء يوقظها، لا جلبة، لا صرير فراش، لا تلفزيون. تنام وكأنها صخرة تتحطّم عليها أمواج عنيدة، أو شجرة سقطت وهي الآن تُكسى بالطحالب وغَزل عيش الغراب. قبيل استيقاظها يراودها حلمٌ طريف - أنها تلعب بحقيبة أدوات زينة مبهجة الألوان، مرسوم عليها أفيال صغيرة وقطيطات، تُقلّبهم في يديها. ثم فجأة تترك الحقيبة، لكنها لا تسقط بل تظل طافية بين يديها، معلقة في الهواء، وتكتشف أنوشكا أنها تستطيع اللعب بها من دون حتى أن تلمسها. إنها تستطيع تحريكها بقوة إرادتها. يبهجها هذا الاكتشاف، يجلب لها فرحة هائلة لم تشعر بها منذ أمد بعيد، منذ الطفولة، في الحقيقة. لذا تستيقظ في مزاج طيّب، والآن ترى أن هذا المكان ليس مهجع عمَّال مهجور، كما ظنت بالأمس، وإنما غرفة تدفئة عاديّة. هذا هو سبب دفء المكان. وهي تنام على لوح كرتون بجوار كومة من الفحم. على قطعة من ورق الجرائد تجد رُبع رغيف من الخبز، يابس جدًا، وكمية وافرة من شحم الخنزير المخلوط بالفلفل الحار. تخمن أنه من غالينا لكنها لن تلمس الطعام حتى تقضي حاجتها في الحمام المقزز الذي بلا أبواب، وتتمكن من غسل يديها.

آه، يا له من إحساس طيب -طيب على نحو لا يصدق- أن تصبح جزءًا من الزحام الذي يقوم بإحماء تدريجي. المعاطف والملابس المصنوعة من الفرو تفوح برائحة بيوت الناس- شحم، مطهرات، عطور حلوة. تجتاز أنوشكا الباب الدوار ومن هناك تترك أول موجة تحملها. خط «كالينينسكايا» هذه المرة. تقف على الرصيف، ثم تشعر بهواء الأنفاق الدافئ. فور أن تنفتح الأبواب تجد أنوشكا نفسها في الداخل، محشورة بين الأجساد، حتى أنها لا تُضطر إلى التشبث بأي شيء. عندما ينعطف القطار تُسلم نفسها لحركته، تميل مثل عشبة وسط المزيد من الأعشاب، مثل نبتة وسط غيرها من النباتات. في المحطة التالية يواصل الناس الدخول رغم أنك لا تستطيع حتى أن تحشر عود ثقاب وسط الأجساد الآن. تغمض أنوشكا عينيها نِصف إغماضة وتشعر وكأن أحدًا يمسك بيديها، وكأن ثمة من يعانقونها بحب من كل الجوانب، وأيادٍ مطمئنة تهدهدها. ثم فجأة يتوقفون في محطة حيث ينزل الكثيرون، فيجد المرء نفسه مضطرًا إلى الوقوف على قدميه ثانية، بلا مساعدة.

عندما توشك العربة على الخلوّ بالقرب من المحطة النهائية، تعثر على صحيفة. في البداية تُحدّق فيها باسترابة -أتكون نسيت القراءة؟- لكنها تلتقطها بعد ذلك وتتصفحها بلهفة. تقرأ عن عارضة أزياء قضت نحبها من فقدان الشهية، وكيف أن السلطات تفكر في منع استخدام الفتيات العجفاوات في عروض الأزياء. كذلك تقرأ عن إرهابيين- مخطط آخر أحبط. «تي إن تي» وفتائل تفجير عُثر عليها في شقة. تقرأ عن الحيتان الجانحة التي تسبح إلى الشواطئ حيث تموت. عن الشرطة التي تتعقب حلقة من مشتهيي الأطفال على الإنترنت. عن التنبؤات بطقس أكثر برودة. عن الحركية وكيف تصير صنوًا للحقيقة.

ثمة شيء غريب في هذه الصحيفة؛ لا بد وأنها ملفقة بشكل ما، زائفة. كل جملة تقرأها

مؤلمة، تفوق احتمالها. تمتلئ عينا أنوشكا بالدموع وتفيض، تتساقط قطرات كبيرة في حوض الأخبار. وسرعان ما تمتصها الصحيفة، المصنوعة من ورق فقير، مثل ذلك الرقيق، شبه الخفي، الذي يُطبع عليه الكتاب المقدس.

عندما يصعد القطار فوق الأرض تُريح أنوشكا رأسها على الزجاج وتنظر إلى الخارج. المدينة بكل درجات الرماد، من الأبيض الترابي إلى الأسود. مصنوعة من مستطيلات وكتل عديمة الأشكال، من مربعات وزوايا مستقيمة. تتعقب خطوط الجهد العالي والكابلات، ثم ترنو فوق الأسطح وتعد الهوائيات. تغمض عينيها. عندما تفتحهما مجددًا يكون العالم قد قفز من مكان إلى مكان. عند الغسق بالضبط، تعيد زيارة المكان نفسه مرة أخرى، ترى، لبرهة فقط، للحظات قليلة فقط، الشمس الواطئة تنفذ من وراء السحابات البيضاء المزهرة لتضيء البنايات السكنية بوهج أحمر؛ تضيء قممها فقط، الطوابق العليا، ويبدو المنظر مثل مشاعل عملاقة أشعلت معًا.

ثم تجلس على مقعد على الرصيف تحت إعلان كبير. تأكل ما تبقى من فطورها. تغتسل في الحمام وتعود إلى مقعدها، ساعة الذروة توشك على البدء. هؤلاء الذين مضوا في أحد الاتجاهات في الصباح سيرجعون الآن في الاتجاه العكسي. القطار الذي يتوقف أمامها جيد الإضاءة وخالٍ تقريبًا. العربة بأكملها لا تحمل إلا شخصًا واحدًا - الرجل ذا الطاقية. يقف مشدودًا مثل وتر. عندما يتحرك القطار، يهزّه قليلًا ليحتك بجدرانه؛ ثم يختفي القطار، تبتلعه فوهة النفق السوداء.

«سأشتري لك شطيرة»، تقول أنوشكا للمرأة المكفَّنة التي تتوقف عن الاهتزاز لثانية، وكأنها لا تستطيع استيعاب أي جملة إلا حين تبقى ساكنة. ثم بعد ثانية تنطلق قُدُمًا حيث تباع الساندويتشات.

تستندان إلى مؤخرة الكشك وتأكلان، بعد أن ترسم المرأة علامة الصليب على صدرها عشر مرات أو نحو ذلك، وتركع.

تسألها أنوشكا عن الناس الذين كانوا يجلسون في صمت في غرفة التدفئة يوم أمس، ومجددًا تتجمد، هذه المرة وقضمة من الشطيرة في فمها. تقول شيئًا غير مترابط، شيئًا من قبيل «كيف؟». ثم ببغضٍ تصرخ فيها: «اغربي عن وجهي أيتها الآنسة الصغيرة».

تغادر. تركب أنوشكا المترو وتظل فيه حتى الواحدة صباحًا، ثم، عندما يغلق أبوابه وتبدأ كلاب الجحيم في مطاردة الجميع وطردهم، تدور حول المكان الذي تظنه مدخل غرفة التدفئة الدافئة، لكنها لا تعثر عليه. لذا تذهب إلى المحطة وهناك، مبدّدة كل ما لديها من نقود

تقريبًا، تقضي الليل على سلسلة من الشايات وشوربات البورش في أكواب بلاستيكية صغيرة، متكئة بجرأة على مرفقيها على سطح الطاولة المغطى بالبلاستيك.

لحظة تسمع صليل القضبان وهي تنفتح، تشتري تذكرة من الآلة وتنزل إلى أسفل. في نافذة القطار تري أن شعرها قد صار ملبَّدًا، لم يبق أثر من تسريحتها القديمة، وأن الركاب الآخرين يترددون نوعًا ما في الجلوس بجوارها الآن. من حين إلى آخر، ترتعب من فكرة عابرة: أن يراها شخص تعرفه، لكن الذين يعرفونها لا يستقلون هذا الخط؛ مع ذلك تختار، تحسبًا، مكانًا في الزاوية، لصق الحائط. فكر في هذا: من الذين تعرفهم أنوشكا أصلًا؟ ساعية البريد؛ المرأة التي تعمل في المتجر أسفل بيتها؛ جارهم الذي يعيش في مواجهة شقتهم؛ إنها حتى لا تعرف أسماءهم. تشعر برغبة في تغطية وجهها، مثل المرأة المكفنة، والحقيقة أنها فكرة جيّدة - أن تضع غطاء على عينيك لتكون رؤيتك لنفسك أقل ما يمكن، وليرى الناس منك أقل ما يمكن يصطدمون بها، لكن ذلك لا يجلب لها إلا السعادة، أن يلمسها شخص ما. تجلس امرأة عجوز بالقرب منها تخرج تفاحة من كيس بلاستيكي وتقدمها لها، مبتسمة. عندما تصل إلى محطة «بارك كولتوري» وتقف أمام كشك فطائر البيروشكي يأتي شاب ذو شعر حليق ويشتري لها طلبًا. تفهم معنى ذلك: لا بدّ أنها لا تبدو في أفضل أحوالها. تقول شكرًا لك، ولا ترفض، مع أنها لا تزال تمتلك بضع عملات معدنية. تشهد عددًا من الحوادث: الشرطة تقبض على رجل في سترة جلدية. زوجان يتشاجران، يصرخان بأعلى صوت، كلاهما سكران. فتاة صغيرة، مراهقة، تصعد إلى القطار في «تشيركيزوفسكايا» وتنشج، مكررة: ماما، ماما، لكن لا أحد يجد الشجاعة لفعل أي شيء لمساعدتها، ثم يفوت الأوان، فقد ترجلت الفتاة في «كومسامولسكايا». ترى شخصًا يركض هاربًا، رجلًا قصيرًا داكن البشرة، يصطدم بالمارة، لكنه يحتجز وسط الزحام عند السلم فيلقي رجلان آخران القبض عليه، يفتحان يديه بالقوة. امرأة تولول من الحسرة على نحو عابر- بعد أن سُرق منها للتوّ كل شيء، كل شيء، لكن صوتها يزداد ابتعادًا يتلاشى تدريجيًا ثم ينقطع. ومرتان يوميًا ترى شيخًا مسنًا ناشفًا ذا عينين ذاهلتين يومض أمامها في القطار ذي الإضاءة الساطعة. لا تعرف حتى أن الظلام قد حل منذ وقت طويل، وأن الفوانيس والمصابيح قد أضيئت، تقطر ضوءًا أصفر داخل الهواء الثلجي الكثيف، اليوم فاتها ضوء الشمس تمامًا. تصعد إلى السطح في «كييفسكايا» وتتوجه صوب الممر المؤقت بطول البناية قيد الإنشاء على أمل العثور على المرأة المكفَّنة.

تجدها حيثما تكون عادة تفعل ما تفعله عادة - تُراوح مكانها مهرولة هنا وهناك، متعقبة أثر دوائر ما وأشكال 8 وهي تُبعبع بشتائمها القديمة ذاتها، تبدو أشبه بكومة من الأسمال البالية. تقف أنوشكا أمامها طويلًا إلى أن تلاحظها المرأة أخيرًا وتتوقف. ثم من غير تخطيط تبدآن سريعًا في السير، من دون كلمة، وكأنهما تهرعان باتجاه هدف مرحلي سيختفي للأبد

إذا لم تُسرعا بما يكفي، عند الجسر تضربهما الريح مثل مُلاكمة توجه لكماتها إلى خصمها.

عند الكشك في «أربات» يتناولان فطائر «بليني» لذيذة، ليست غالية، يتساقط منها الشحم وفوقها قشدة حامضة. تضع المرأة المكفَّنة بعض العملات المعدنية في الصحن الزجاجي الصغير وتحصل على طلبين دافئين. تعثران على مكان بجوار الحائط حيث يمكنهما تناول الحلوى، تحدّق أنوشكا وكأنها منوّمة في الشباب الذين يشغلون كل المقاعد المستطيلة برغم البرد، يلعبون على الغيتار ويشربون البيرة. ضجيج أكثر منه غناء. يصرخون في بعضهم البعض، يتعابثون. شابتان تمتطيان حصانين؛ منظر غير معتاد حقًا. الحصانان عاليان، واضح أنهما يتلقيان عناية جيدة، ويبدو أنهما جاءا من الاسطبل مباشرة، إحدى هاتين الفتاتين يُخيّل لك أنهما من نسل الأمازونيات المحاربات- تُحيي الصبية ذوي الغيتار، تترجل برشاقة، تُدردش، تظل قابضة بقوة على الرسن. أما الفتاة الأخرى فتحاول إقناع بعض السياح المتسكعين بإعطائها بعض النقود لإطعام حصانها أو هكذا تُخبرهم لكنهم يفهمون أنها تريد نقودًا لشراء البيرة. إذ لا يبدو الحيوان بحاجة إلى تغذية.

تنكزها المرأة المكفَّنة بمرفقها. تقول: «كلي».

لكن أنوشكا لا تستطيع أن ترفع عينيها عن هذا المشهد الصغير، تنظر بنهم إلى الشباب الصغار وفي أيديهم فطائر البليني يتصاعد منها البخار. فيهم جميعًا ترى بيتيا، إنهم في سنّه تقريبًا. يرجع بيتيا إلى جسدها، وكأنها لم تسلمه للعالم قطّ. إنه هناك، ملتف على نفسه، ثقيل مثل حجر، مؤلم، ينتفخ داخلها، ينمو - لا بد أن عليها أن تلده من جديد، هذه المرة من كل مسام جلدها تتعرّقه. فهو الآن يصعد إلى حلقها، يلتصق برئتيها، ولن يخرج إلا بالنشيج. لا، لن تستطيع أن تأكل البليني - إنها متخمة. بيتيا واقف في حلقها، في وقت كان يمكن أن يكون جالسًا هناك يمد يده بصفيحة بيرة، يعطيها للفتاة على الحصان، مائلًا عليه بكامل جسده، ينفجر ضحكًا. كان يمكن أن يكون متحركًا، كان يمكن أن يرفع ذراعيه ويضع قدمه في الركاب، ويؤرجح ساقه الأخرى عاليًا. يمتطي هذه المطية، يقطع الشوارع معتدل الظهر ومبتسمًا، شارب هزيل يظلل شفته العليا. كان يمكن أن يكون قد نزل السلالم، نهبها نهبًا، فهو في نهاية المطاف في مثل سن هؤلاء الصبية تقريبًا، وكان يمكن لها هي، أمه، أن تخاف عليه من الرسوب في صف الكيمياء، من ألا يلتحق بالجامعة وينتهي به الأمر مثل والده، تخاف أن يعاني من أجل العثور على وظيفة، أن يختار زوجة لا تعجبها، أن يتسرعا في إنجاب طفل.

يتراكم بحر الرصاص الثقيل هذا داخلها ويصبح غير محتمل ويصطدم بإيماءة تقوم بها إحدى الفتاتين، رغبة منها في ترويض الحصان المتبرّم - تَنتِش رأسه لأسفل من رسنه لتجبره على الوقوف ساكنًا. وعندما يحاول الحصان أن يسحب رأسه تضرب بالسوط على ظهره وتصرخ: «مكانك يا ملعون. اثبت مكانك».

والآن، تَسقط فطائر البليني ذات القشدة الحامضة من يد أنوشكا، وتهجم على الفتاة التي تعارك الحصان، وتبدأ في ضربها عشوائيًا بقبضتيها. تصرخ فيها: «اتركيه لحاله!»، صوتها مشدود في حلقها. «اتركيه لحاله!».

يستغرق الأمر لحظة قبل أن يخرج الصبية الذين باغتهم الموقف من ذهولهم، ويحاولوا سحب هذه المرأة بمعطفها ذي المربعات، وقد أصابها فجأة مسٌّ من جنون، لكن سرعان ما هرعت امرأة أخرى لمساعدتها، مخبولة مكفَّنة مسربلة بالأسمال، ثم أخذتا تحاولان اختطاف اللجام من الفتاة ودفعها بعيدًا. تنشج الفتاة، تحمي رأسها بيديها - لم تتوقع هذا الهجوم الشرس. يرفس الحصان، يصهل وينفلت من الفتاة، يجري في وسط شارع «أربات»، مرتاعًا (من حسن الحظ أن المنتزه شبه خال في هذه الساعة)، يتردد صدى طقطقة حوافره على جدران المباني فيذكر الأذهان بمعركة شوارع، إضراب. تُفتح نوافذ البيوت. لكن الآن يظهر شرطيان في نهاية الشارع، يمشيان بهدوء، لعلهما يتكلمان عن ألعاب الفيديو لا شيء يحدث. ثم يلاحظان الهرج والمرج، وعلى الفور يندفعان للفعل، يقبضان على هراوتيهما، ويطلقان سيقانهما للريح.

تقول المرأة المكفَّنة: «تمايلي. تحركي».

تجلسان في مركز الشرطة بانتظار دوريهما لكي يأخذ الشرطي الكريه ذو الوجه الأحمر إفادتيهما.

«تمايلي». وعلى مدار هاتين الساعتين تهذي مهتاجة خائفة بلا شك. لقد أيقظ الأدرينالين لسان المرأة المكفَّنة. تهمس في أذن أنوشكا حتى لا يتبين أحد فحوى محادثتهما -لا الرجل الذي تعرّض للسطو، ولا العاهرتان الشابتان ذاتا البشرة الداكنة، ولا الرجل ذو الرأس المجروح الذي يضغط على الضمادة بإحدى يديه ليثبتها مكانها. في هذه الأثناء تبكي أنوشكا، تنسكب الدموع على خدَّيها بلا انقطاع، ولو أن مخزونها سينضب قريبًا، هذا واضح.

ثم، عندما يأتي دورهما، يصيح الشرطي أحمر الوجه من فوق كتفه لشخص في الغرفة الأخرى:

«إنها تلك المرأة المشردة».

ويجيب الصوت من هناك:

«هذه تستطيع إطلاق سراحها، لكن سجل اسم الأخرى لتكدير السلم».

وهكذا يقول الشرطي للمرأة المكفَّنة:

«المرة القادمة سنُرحّلك خارج المدينة، سَنُبعدك مئة كيلومتر، تفهمين؟ لا نريد أيًّا من أتباع الطوائف هنا».

في هذه الأثناء يأخذ بطاقة هوية أنوشكا، ثم، وكأنه لا يعرف القراءة، يجعلها تكرر اسمها الأول، واسمها المركب، واسمها الأخير، وعنوانها؛ يسألها عن عنوانها. تلمس أنوشكا سطح الطاولة بأناملها وتغمض عينيها نصف إغماضة وكأنها تتلو قصيدة، تعطيه معلوماتها. تكرر عنوانها مرتين:

«46 شارع كوزنتسكايا، شقة 78»

يطلقون سراحهما واحدة بعد الأخرى، بينهما ساعة من الزمن، المرأة المكفّنة أولًا، لذا عندما تخرج أنوشكا، لا تجد أثرًا لها. لا تفاجأ بذلك، فالبرد رهيب. تهيم على وجهها حول مركز الشرطة، ساقاها تحثانها على المسير، ستحملانها في تلك الشوارع الواسعة إلى حيث منبع كل الشوارع، إلى حيث تخرج من الضواحي وافرة التلال، وما وراءها، إلى حيث تنفتح آفاق جديدة ومختلفة - للسهل الفسيح الذي يتنفس بأريحية. لكن حافلة أنوشكا تصل، فتركض وتلحق بها في اللحظة الأخيرة.

الناس في حالة حركة، والحركات الصباحية استحوذت على الشوارع فعلًا مع أن الشمس لم تظهر بعد. تبقى أنوشكا في الحافلة لوقت طويل، تصل إلى حافة المدينة، ثم تقف أسفل بنايتها، ترنو إلى أعلى صوب نوافذها، حتى شقتها بالأعلى. لا تزال مظلمة لكن عندما تبدأ السماء في الاستنارة ترى مصباحًا يضاء في مطبخ شقتها، فتتقدم إلى المدخل.

ما كانت تقوله المُكفَّنة المشرَّدة

تمايلي، هيا، تحرّكي. هذا هو السبيل الوحيد للهروب منه، هذا الذي يحكم العالم وليس له سلطان على الحركة ويعرف أن أجسادنا المتحركة مقدّسة، عندها فقط تستطيعين الإفلات منه، فور أن تقلعي. إنه يبسط سلطانه على كل ما هو ثابت وجامد، كل ما هو سلبي وهامد.

لذا هيا، تمايلي، سيري، اركضي، اهربي، لأنك لحظة تنسين وتقفين ساكنة ستقبض عليك يداه العملاقتان وتحولانك إلى مجرد دمية، ستغلّفك أنفاسه، التي تنشن برائحة الدخان والأبخرة ومكبات النفايات الكبيرة خارج البلدة. سيحول روحك ذات الألوان البهيجة إلى روح باهتة ضئيلة مصنوعة من ورق، من ورق الجرائد وسيهددك بالنار، بالمرض والحرب، سيخيفك حتى تفقدين راحة البال وينقطع عنك النوم. سيضع علامة عليك ويسجلك في سجلاته، يقدّم لك مستندات تملئينها. سيحتل أفكارك بأشياء غير مهمة، ماذا تشترين، ماذا تبيعين، أين تجدين الأشياء أرخص، وأين تجدينها أغلى. من وقتها فصاعدًا ستنشغلين بالتفاهات. سعر البنزين وكيف يؤثر على سدادك لقروضك. ستعيشين كل يوم في ألم، وكأن حياتك عقوبة تقضينها، لكن على أي جريمة؟ متى ارتكبت ومن ارتكبها؟ لن تعرفي أبدًا.

ذات مرة، قبل زمن طويل، حاول القيصر إصلاح العالم لكنه اندحر، وسقط العالم في أيدي المسيح الدجال، الرب، الرب الحقيقي، الرب الطيب، نُفي من العالم، وتحطّم فلك القوّة السماوية، ابتلعته الأرض، اختفى في أعماقها. لكن عندما كان يتكلم هامسًا من مكمنه، كان رجل واحد صالح يسمعه، جندي اسمه فيم، ينتبه إلى كلماته. في الليل كان يلقي بندقيته بعيدًا. يخلع زيه العسكري، يفك الضمادة عن قدميه ويخلع نعليه. كان يقف تحت السماء عاريًا، كما خلقه الرب، ثم يركض في الغابة، يتسربل بمعطف ويتسكّع من قرية إلى قرية، يُنذر بنبوءات كئيبة. فِرُّوا، اخرجوا من بيوتكم، اذهبوا، اهربوا، تلك هي الطريقة الوحيدة لتجنب فخاخ المسيح الدجال. أي معركة مفتوحة معه ستخسرونها في التو. اتركوا كل ما تملكون، تخلوا عن الأرض واخرجوا إلى الطريق.

إذ إن كل ما له مكان ثابت في العالم -كل بلد، كنيسة كل حكومة بشرية، كل ما يحتفظ بشكل في هذا الجحيم- واقع تحت سطوته. كل ما هو محدد، ما يمتد من هنا إلى هناك، ما يمكن إدخاله في إطار مكتوب في ثبته، مرقم، مشهود عليه، متلوٌ عليه بالقسم؛ كل ما جُمع، ما عُرض، ما وُضع له اسم ووَسم. كل ما بقي على حاله؛ بيوتٌ، كراسٍ، أسرّة، أُسُرات، أراضٍ، غرَس، زرع، التحقق من النمو. التخطيط، انتظار النتائج، تنظيم المواعيد، حماية النظام. رَبِّي أبناءك على هذا، فقد جاؤوك بلا فهم، وانطلقي إلى الطريق؛ ادفني أبويك، اللذين جاءا بك إلى هذا العالم بلا فهم واذهبي. اخرجي من هنا، اذهبي بعيدًا، بعيدًا عن

مرمى أنفاسه، بعيدًا عن كابلاته وأسلاكه وهوائيّاته وذبذباته، قاومي قياسات آلاته الحسّاسة.

كل من يتلكأ سيتحجر، كل من يتوقف سيُسمّر مثل حشرة، ستغوص في قلبه إبرة خشبية، ستُثقب يداه وقدماه وستُسمّر في العتبة والسقف.

هكذا تحديدًا مات، فيم، هذا الذي تمرّد. قُبِض عليه وثُبّت جسده بالمسامير إلى صليب، شلّت حركته مثل حشرة، معروضًا للعيون البشرية وغير البشرية، لكن على الغالب للعيون غير البشرية، التي تبتهج أيما بهجة بكل تلك المناظر، فلا مفاجأة إذا أنهم يعيدونها كل سنة ويحتفلون، يصلون للجثمان.

هذا هو السبب الذي يجعل الطغاة على مختلف المشارب والمآرب، هؤلاء الخدم الجهنميّون، يشعرون بتلك الكراهية العميقة للرحالة - هذا هو السبب الذي يجعلهم يضطهدون الغَجَر واليهود، وهو السبب الذي يجعلهم يُجبرون الشعوب الحرة على الاستقرار، يخصصون لنا عناوين هي بمثابة عقوبات نقضيها.

ما يريدونه هو خلق نظام متجمد، إبطال حركة الزمن. يريدون من الأيام أن تكرر نفسها، بلا تغيير، يريدون بناء ماكينة كبيرة حيث يجبر كل مخلوق على اتخاذ مكانه والقيام بأفعال زائفة. مؤسسات ومكاتب، أختام، رسائل إخبارية، هيراركية، مناصب، درجات، استمارات وتأشيرات بالرفض، جوازات سفر، أرقام، بطاقات، نتائج انتخابات، خصومات وتجميع نقاط، جمع مقتنيات، مقايضات لأشياء بأشياء.

ما يريدونه هو تثبيت العالم ومسمرتُه بمساعدة الشفرات الشريطية [الباركود]، تصنيف كل الأشياء التأكيد على أن كل شيء بضاعة، سعرها هكذا. لتبقى هذه اللغة الأجنبية الجديدة مُستغلقة على البشر، لتبقى قراءتها مقصورة على الروبوتات، الماكينات. بهذه الطريقة يستطيعون ليلًا، في متاجرهم تحت الأرضية الشاسعة، تنظيم قراءات شعرية لقصائدها المكونة من الشفرات الشريطية.

تحركي. استمري في الحركة. مبارك هو من يرتحل.

خطاب جوزفين سليمان الثالث لفرانسيس الأول امبراطور النمسا

جلالتكم اعتصمتم بالصمت ولا شك عندي أنكم مشغولون بشؤون الدولة الجلل. لكنني لن أنصرف عن مسعاي، لذا أكتب إلى جلالتكم مرة أخرى لكي أتوسّل منكم الرحمة. لقد كتبتُ خطابي الأخير قبل أكثر من سنتين، ولم أتلقّ جوابًا. فها أنا ذا، إذًا، أكرر، التماسي هذا.

أنا الابنة الوحيدة لأنجيل سليمان، خادم جلالتكم، الدبلوماسي البارز للإمبراطورية الرجل المستنير الذي يحظى باحترام واسع. إنني أتوسل إليكم الرحمة لنفسي، إذ إنني لن أعرف سلامًا قَطّ طالما أعرف أن أبي، جسد أبي، لم يحصل على دفنة مسيحية. عوضًا عن ذلك يظل معروضًا -بعد حشوه ومعالجته كيميائيًا- في «خزانة الأعاجيب الطبيعية» في بلاط جلالتكم.

منذ ولادة ابني، ظللت أعاني من علّة تسوء يومًا بعد يوم. وأخشى أن يكون مسعاي هذا عصيًا على الشفاء مثل صحتي، وأعتقد الآن بأنني إن كان لي أن أحصل على أي شيء - وأظنني لن أحصل على شيء لن يكون ذلك إلا بشق الأنفس، أو كما يقال: «بجلد أسناني». وكلمة «جلد» مناسبة تمامًا هنا، فجلد أبي. إذا كان لي أن أذكر ذلك مرة أخرى - سُلخ بعد موته، ثم حُشي، والآن يعرض وسط مجموعة مقتنيات جلالتكم.

جلالتكم رفضتم طلب الأم الشابة، لكن لعل ذلك لا ينطبق على أم شابة على فراش الموت. لقد زرت هذا المكان الرهيب قبل أن أغادر فيينا. إذ إنني تزوجت من خادم جلالتكم المهندس العسكري هر فون فويشترسليبن، الذي نُقل بعدها إلى الأصقاع الشمالية لبلادنا - إلى كاركاو، كنت هناك ورأيتُه. ويمكن أن أقول إنني زرت أبي في الجحيم، إذ إنني أؤمن، ككاثوليكية أنه لن يبعث من دون جسده يوم الدينونة. ويخبرني إيماني أيضًا أن الجسد، رغم ما يظنه البعض، هو أعظم النعم التي وهبها لنا الرب- أنه مقدّس.

عندما أصبح الرب رجلًا، اكتسب الجسد البشري قداسة أبديّة، واتخذ العالم كله هيئة رجل واحد. لا سبيل للاتصال بغيره من البشر، أو بالعالم، إلا عبر الجسد. لو لم يتخذ المسيح جسدًا بشريًا، لما نلنا الخلاص.

أبي سُلِخَ مثل حيوان، وحُشِي كيفما اتُفق بالحشائش، ووضع رفقة غيره من البشر المحشوين وسط رفات حيوانات وحيد القرن، والعلاجيم البشعة، والأجنة مزدوجة الرؤوس التي تسبح في الكحول، وما على شاكلتها من أعاجيب. لقد رأيتهم يتوافدون لرؤية مجموعة مقتنيات جلالتكم بأم أعينهم، يا مولاي، ورأيت كيف تورّدت وجوههم حين وقعت أبصارهم على جلد والدي. سمعتهم يمتدحون جلالتكم على همّتكم وشجاعتكم.

عندما تزورون معرضكم، يا مولاي، اذهبوا إليه. اذهبوا إلى أنجيل سليمان، خادمكم المخلص، الذي يخدمكم جلده حتى بعد وفاته. هاتان اليدان، اللتان من وقتها حُشيتا بالعشب، كانتا تعانقاني وتطمئنانى، ذلك الوجه، الذي جفف الأن وأصبح ممصوصًا، كان يحك خذه بخدي، ذلك الجسد أعطى حبًا وأخذ حبًا، حتى هجم الروماتيزم أخيرًا وأجهز على والدي.

أخرج طبيبكم دم أبي من ذراعه. هذه الرّفات المعنونة باسم أبي كانت ذات مرة رجلًا حيًا. إنني أتساءل -سؤال يقض مضجعي كل ليلة. ما السبب الحقيقي لهذه المعاملة القاسية لجثمان أبي (ليرقد في سلام)

أيكون ببساطة لون جلده؟ كونه داكنًا؟ أسود؟ والرجل أبيض الجلد الذي ينتهي به الحال في أحد تلك المطارح الغرائبية أيعامل بالمثل. يُحشى ويُعرض أمام أعين المارة الفضوليين؟ هل يكفي أن يكون الآخر مختلفًا، سواءً من الخارج أم من الداخل وأيًّا ما كان اختلافه، ليجرّد من الحقوق القانونية والعُرفية المكفولة عادة للإنسان؟ هل وُضِعَت تلك الحقوق وخُلقت فقط لأجل الناس المتطابقين مع بعضهم البعض؟ لكن العالم مليء بالتنوع. على بعد عدة أميال إلى الجنوب هناك أناسٌ مختلفون عن هؤلاء الذين يسكنون الشمال. وفي الشرق، ثمة أناسٌ مختلفون عن أولئك الذين في الغرب. ما الفكرة من وراء قانون يطبق فقط على البعض؟ القانون يجب أن يحترم لصالح الجميع من دون استثناء حيثما استطاعت سفننا وأموالنا أن تأخذنا. أكنتم جلالتكم لتحشون رسولًا لو كان أبيض البشرة؟ حتى أدنى الناس مكانه يستحق جنازة. لكنكم تنكرون على والدي هذا الحق، فهل بذلك تحرمونه من إنسانيته ذاتها؟

أظن أن هؤلاء الذين يحكموننا لا يستهدفون حُكم أرواحنا، كما هو شائع. «الروح» مفهوم من الصعب تصوّره أو التماهي معه هذه الأيام. إذا كان الرب -وليسامحني على هذه المرارة- هو ذلك الواحد الأحد الذي يدير زُنبرك الساعة، صانع الساعات، أو، في الحقيقة، روح الطبيعة، التي تظهر بتلك الطريقة المشوشة اللامشخصنة على الإطلاق، إذًا «الروح» كفكرة مزعجة، مُحرجة. وأي حاكم ذاك الذي يحكم عبر وسيلة عابرة وغير محددة على هذا النحو.

أي حاكم مستنير ذاك الذي يطلب سلطانًا على شيء لم يثبت وجوده في المختبر؟ ما من شك، جلالتكم، أن قوة الإنسان الحقيقي لا يمكن أن تؤثر إلا في جسد الإنسان - وهكذا تمارس سلطانها. إنشاء البلاد وإقامة الحدود بينها إنما يتطلب من الجسد البشري أن يظل في فضاء متناه واضح الحدود؛ وجود التأشيرات وجوازات السفر يقيد رغبة الجسد الطبيعية في الترحال والتجوال. الحاكم الذي يفرض ضرائب لديه سلطان على ما يأكله رعاياه، ما يفترشونه، وما إن كانوا سيلبسون الكتّان أم الحرير.

كذلك فأنتم تحددون الأجساد المهمة وتلك الأقل أهمية، هكذا يُقسم الغذاء بغير تساو من ثديي الأم المُترعين بالحليب. طفل القصر فوق التل يرضع حتى التخمة، بينما طفل القرية

في الوادي يكتفي بلعق ما تبقى. وعندما تُعلنون الحرب، فإنكم بذلك تُلقون بآلاف الأجساد البشرية في بحيرات من الدم.

أن تبسط نفوذك على الجسد يعني أن تكون ملكًا حقيقيًا للحياة والموت على حد سواء، وهو أعظم من أن تكون إمبراطورًا على أعظم البلاد. لذا أكتب إليكم الآن بناء على ذلك، وكأنني أكتب لمُكتري الحياة والموت، لطاغية ومغتصب، ولا أطلب بعد، بل أطالب. أعد إليّ جسد أبي، حتى أتمكن من دفنه. سوف ألاحقك، يا مولاي، مثل صوتٍ من الظلام، حتى عندما أموت لن أتركك، لن أتوقف عن الهمس في أذنيك.

جوزفين سليمان فون فويشترسليبن

أشياء لا تصنعها أيدي الإنسان

بعد رؤية عرض الرُفات البوذية أستطيع القول إنني لم أعد أفاجأ كثيرًا بالأشياء التي لم تصنعها أيدي الإنسان. وهذه تتضمن المجلدات التي تظهر تلقائيًا في الكهوف الجبلية الرطبة وتترك نفسها ليكتشفها، بين حين وآخر، رجال صالحون، ثم ينقلونها بطقوس رسمية إلى المعابد. وتتضمن أيضًا الأيقونات التي تحمل وجوه الآلهة. ليس عليك إلا أن تترك لوحة خشبية نظيفة ذات سطح مدهون بطلاء تحضيري بالخارج وتنتظر. أحيانًا في الليل قد يظهر عليها وجه سماوي، ينظر من تحتها، يطفو من أعمق الظلمات، من أساسات العالم المشبعة بالمياه. لأننا ربما نعيش داخل «غرفة معتمة» عملاقة محصورين داخل علبة مظلمة، وبمجرد أن يُصنع ثقب صغير، بمجرد أن تشق إبرة ما طريقها إلينا، تصطدم صورة من الخارج بشعاع من نور وتترك أثرها على سطح العالم الداخلي، الحساس للضوء.

يُقال إن أحد تماثيل بوذا ظهر بنفسه، مثاليًا، مصنوعًا من أفضل المعادن. كان فقط يحتاج لمن يزيل عنه التراب. تمثال يصور بوذا جالسًا مريحًا رأسه على يديه. هذا البوذا يبتسم قليلًا، لنفسه، بمسحة من سخرية، مثل شخص سمع لتوه نكتة ذكية. نكتة لا تأتي خلاصتها في الجملة الأخيرة، وإنما في أنفاس من يسردها.

نقاء الدم

امرأة ما من سكان الجزر من النصف الآخر من الكرة الأرضية التقيتُها في أحد فنادق براغ، أخبرتني بالآتي:

يسير الناس متثاقلين يحملون ملايين البكتيريا، والفيروسات، والأمراض؛ ما من طريقة لإيقاف ذلك. لكننا نستطيع المحاولة على الأقل. بعد ذُعرٍ اجتاح العالم من مرض جنون البقر صاغت بعض البلدان تشريعًا جديدًا. أي من أبناء جزيرتها يسافر إلى أوروبا يحظر عليه التبرع بالدم بعد عودته؛ يمكننا القول إنهم يصبحون، وفقًا للقانون، ملوثين مدى الحياة. وتلك حالتها الآن - لن يعود بإمكانها التبرع بدمها. كان هذا ثمن رحلتها، غير شامل تكلفة التذكرة. فقدان النقاء. فقدان الشرف.

سألتها إن كانت الرحلة تستحق، إن كان من المنطقي أن تضحي بنقاء دمها للاستمتاع بمشاهدة بعض المدن، والكنائس، والمتاحف.

أجابتني بجدية أن لكل شيء ثمنًا.

Kunstkammer[31]

كل حَجّة من حَجّاتي ترمي إلى حَجّة أخرى، هذه المرة لاحظت على الفور يد تشارلوتا الرقيقة. في برطمان مستطيل، له غطاء يبدو مثل منحوتة، كان يطفو جنين صغير بعينين مغمضتين مُعلّق من شعرتي حصان. قدماه الصغيرتان تلمسان بقايا الفرشة المصبوغة بالأحمر في قاع البرطمان. على غطاء البرطمان المصنوع من حجر الطفل رسم لطبيعة صامتة تحت الماء - كل شيء يستحضر البحر، حتى بطل هذا العرض، الجنين. لقد جئنا جميعًا من الماء. ولا بد أن هذا ما جعل تشارلوتا تُزين هذا البرطمان بالأصداف، ونجوم البحر، والمرجان، والإسفنج، وفي مركزه، حصان بحر مجفف - قرن آمون.

عينة أخرى تركت فيّ أثرًا. توأمان ملتصقان محفوظان في ماء جهنمي، وبجوارهما، هيكلهما العظمي المجفف. دليل على اقتصاد عظيم في الخامات. عينتان بجسد مزدوج واحد.

Mano di Constantino

أول ما خَطف عيني لدى الوصول إلى «المدينة الأبدية» كان ذلك الرجل الجميل، بائع حقائب اليد والمَحافظ. اشتريتُ محفظةً حمراء للعملات المعدنية، لأن آخر واحدة عندي سُرقت في ستوكهولم. الشيء التالي كان الأكشاك المثقلة بالبطاقات البريدية - بطبيعة الحال يمكنك أن تترك الأمر عند هذا الحد، وتقضي بقية وقتك في الظل على ضفاف نهر «التيبر»، ربما تتناول كأسًا من النبيذ لاحقًا في واحد من المقاهي الصغيرة الغالية. البطاقات البريدية للمناظر طبيعية، وبانورامات الأطلال القديمة البطاقات الطموحة المصمّمة لإظهار أكبر قدر ممكن على هذه المساحة المسطحة - تختفي تدريجيًا وتحل محلها صور فوتوغرافية تركز على التفاصيل. وهي فكرة جيدة بلا شك، لأنها تهدّئ الأذهان المتعبة. العالم كبير جدًا، لذا من الأفضل التركيز على التفاصيل بدلًا من الكل.

هاك تفصيلة لطيفة من فسقية، قُطيطة صغيرة تجلس على إفريز روماني، الأعضاء التناسلية لتمثال دافيد لمايكل أنجلو، قدم عملاقة لتمثال حجري، جذعٌ مبتور يجعلك تتساءل على الفور: ترى أي وجه كان يحمله ذلك الجسد. نافذة وحيدة على جدار بلون المغرة الصفراء، وأخيرًا -نعم- مجرد يد إصبعها الأوسط مرفوع إلى السماء، بشعة المنظر، مفصولة عن كل مدهش هنا في هذه النقطة تحديدا، عند الرسغ - يد الإمبراطور كونستانتين.

لقد أصبتُ بعدوى تلك البطاقة البريدية. عليك أن تنتبه حقًا لما تنظر إليه في بداية رحلتك. من تلك النقطة فلاحقًا ظللت أرى أيادي تشير إلى شيء ما في كل مكان. أصبحتُ عبدة لهذه التفصيلة، التي استحوذت علي.

تمثال المحارب نصف العاري، يعتمر خوذة حربية وفي إحدى يديه عصًا رامحة؛ وآخر يشير إلى شيء في الأعلى، اثنان من الأطفال الملائكية بأصابع ملساء، كل منهما يشير إلى الآخر؛ ينبهه إلى ذلك الشيء بالأعلى - لكن أي شيء؟ والمزيد: سائحتان منحنيتان من الضحك، وأصابعهما، وحشد من الناس أمام فندقٍ راقٍ - لأن ريتشارد غير ونيكول كيدمان خرجا منه للتو - وفي ميدان «سان بيتر» تستطيع رؤيةَ مئات من هذه الأصابع المشيرة.

في «الكامبو دي فيوري» رأيت امرأة حَجَّرتها الحرارة بجوار صنبور به ماء، إصبعها مرفوع إلى أذنها، وكأنها تريد تذكر لحن ما من أيام شبابها، وقد جاءتها للتو أولى نغماته.

ثم رأيت شيخًا مسنًا، مريضًا في كرسي متحرك تدفعه فتاتان. كان مشلولًا، ومن أنفه يبرز أنبوبان بلاستيكيان شفافان يختفيان في حقيبة ظهر سوداء. كان رعبٌ هائلٌ قد تجمد

على وجهه، وكانت يده اليمنى، بإصبع معقوف يشبه أصابع الكواسر، تشير إلى شيء ما لا بد أنه فوق كتفه اليسرى مباشرة.

خريطة للفراغ

أبحر جيمس كوك في البحار الجنوبية لمراقبة مرور كوكب الزهرة فوق القرص الشمسي. لم يكشف له فينوس جماله فقط، بل كشف له أيضًا الأرض التي سبق وانتبه لها تاسمان الهولندي. من ملاحظاته كان البحارة يعرفون فعلًا أنها لا بد موجودة هنا في مكان ما. كل يوم كانوا يتطلعون بحثًا عنها، وكل يوم يرتكبون الأخطاء نفسها - يرون سحابًا فيظنونه أرضًا. في الأمسيات كانوا يتكلمون عن الجزيرة الغامضة - أنها ستكون جميلة لا شك، باعتبار أنها في وصاية الزُّهرة، لكن لا ريب أيضًا أنها تمتلك سمات فائقة، كونها أرض الزُّهرة. كل منهم كانت تراوده خيالات خاصة عنها.

الضابط الأول كان من تاهيتي؛ كان متأكدًا أن هذه الأرض ستكون فردوسه - دافئة، استوائية، مشمسة محاطة بشواطئ طويلة لا تنتهي، تعج بالأزهار، والأعشاب النافعة، والنساء الجميلات ذوات الصدور العارية. القبطان نفسه جاء من يوركشاير (وكان فخورًا جدًا بذلك)، والحقيقة أنه لم يكن ليمانع إطلاقًا أن يكون هنا مثل هناك. بل وتساءل إن لم تكن الأراضي على الجانب الآخر من الكرة الأرضية مرتبطة، ربما، بنوع مشابه من التطابق، الحميميّة الكوكبيّة، التشابه - إن ليس بشكل واضح وبديهي، فلعله يتجلى بطريقة أخرى، أعمق. صبي الخدمة في السفينة، «نيلس يونغ»، حلم بالجبال، تمنى أن تكون هذه الأرض جبلية، تمنى لجبالها أن تُقارع عنان السماء وأن تكون قممها مغطاة بالثلوج، وبينها، تمنّى وديانًا خصيبة، ترعى فيها الأغنام، وأنهارًا تسبح فيها أسماك السلمون المرقط (واضح أنه جاء من النرويج).

وكانت عيناه هما ما أبصرتا نيوزيلاندا للمرة الأولى في 6 أكتوبر عام 1769.

من وقتها فصاعدًا ظلت سفينة «المسعى» تبحر في مسار مباشر، وبرز منظر الأرض من وسط السحاب، ميلًا بعد ميل في الأمسيات كان الكابتن كوك المنفعل يَنقُل مخططاتها الكونتوريّة على الورق، يرسم الخرائط.

على مدار عدة أعوام من رسم الخرائط على هذا النحو خاضوا مغامرات عديدة، وصفت هي الأخرى بتفاصيل نابضة بالحيوية. عندما أفصح أحد أفراد الطاقم عن ظنونه بأن أرضًا غير عادية كهذه لا بد أن تكون مسكونة، في اليوم التالي رأوا دخانًا فوق الدغل. عندما بدأوا يشعرون بالخوف من الصعوبات التي تنتظرهم في تأمين المؤونة على الأرض ويتخيلونها مسكونة بمتوحشين أشاوس، في ذلك الصباح نفسه ظهروا على الأرض - مخيفين ومريعين. كانت لهم وجوة موشومة، كانوا يخرجون ألسنتهم ويهزون رماحهم. ولكي

يُظهروا تقدّمهم بوضوح ويؤسسوا هيراركية على الفور، أطلقوا النار على عدد من المتوحشين - عندها هُوجم المستكشفون.

كانت نيوزيلاندا - في ما يبدو- آخر أرض اخترعناها.

كوك آخر

في عام 1841، انطلق توماس على قدميه إلى اجتماع لـ«جمعية الاعتدال». إذ كان من كبار مناصري العقل المعتدل - من مسقط رأسه «لوفيرا» إلى «ليستر»، الأبعد بأحد عشر ميلًا. رافقه عدد من السادة الآخرين. على طول الطريق، الذي كان طويلًا ومرهقًا، ظلت فكرة تخامر «كوك» هذا يبدو الآن غريبًا جدًا أن أحدًا لم يفكر فيها من قبل، لكنها بالطبع البساطة الشهيرة للأفكار الألمعيّة- ألا وهي، استئجار عربة قطار لنقل كل المسافرين معًا في الرحلة التالية.

بعدها بشهر استطاع تجهيز أول سفرة لعدة مئات من الناس (وإن كنا لا نعرف إن كانوا جميعًا يقصدون «جمعية الاعتدال»). وهكذا ولدت أول وكالة سفريات.

توماس كوك (توماس الطباخ) وجيمس كوك (جيمس الطباخ): اثنان من «الشيفات» الذين ابتدعوا «طَبخَات» الواقع الذي نعيشه اليوم.

حيتان أو: الغرق في الهواء

في أستراليا، تجد كل من في الجوار يخرجون إلى شاطئ البحر عندما تتداول أخبار أن حوتًا شاردًا آخر قد جنح إلى الأرض. يتناوب الناس، في ورديات، غرفُ الماء بإحسان وصبه على جلده الناعم ومحاولة إقناعه بالعودة إلى دياره. السيدات المسنات اللاتي يرتدين مثل «الهيبيز» سيؤكدون أنهم يعرفون ما يفعلون الواضح أن كل ما يجب فعله هو أن تقول: «اذهب، اذهب يا أخي»، أو إذا اقتضت الحاجة، «اذهبي، اذهبي يا أختي». وأن تنقل إليه، بعد أن تغمض عينيك جيدًا بعضًا من الطاقة.

على مدار اليوم، ستتسكع هيئات صغيرة ضئيلة على الشاطئ، بانتظار مدٍّ عالٍ: دع الماء يسترده. ستُجرى محاولات لربط الشباك بالقوارب وسحبه بالقوة. لكن سرعان ما يتبيّن لهم أن ذلك الحيوان العملاق حملًا ثقيلًا عاطلًا، جسدًا لا مبالٍ بالحياة. ليس غريبًا، إذا، أن يسميه الناس «انتحارًا». ستظهر مجموعة صغيرة من النشطاء لتدفع بأن علينا أن نسمح للحيوانات أن تموت ببساطة، إذا رغبت في ذلك. لماذا يكون فعل الانتحار مزية إشكالية حكرًا على بني الإنسان؟ لعل ثمة حدودًا خاصة مقررة لكل كائن حي، غير مرئية للعين، وفوز أن تُجتاز تلك الحدود، تنتهي الحياة وحسب، بنفسها. يجدر بهم أن يضعوا ذلك في الاعتبار أثناء عملهم، الجاري في هذه اللحظة عينها في سيدني أو بريزبان، على صياغة «إعلان حقوق الحيوان». أخوتي الأعزاء، نحن نمنحكم حق اختيار موتكم.

الكهنة المطببون المرتابون سينزلون إلى الحوت المحتضر ويؤدون طقوسًا فوقه، ومن بعدهم يأتي المصورون الفوتوغرافيون الهواة والباحثون عن الإثارة. مدرسة من مدرسة قروية جلبت فصلها بأكمله، وكلفت الأطفال برسم موضوع عنوانه «وداع الحوت».

عادة يستغرق الحوت عدة أيام لكي يموت. في هذه الأثناء، يعتاد مرتادو الشاطئ على الكائن الهادئ، الجليل، ذي الإرادة التي لا تقهر. شخص ما سيطلق عليه اسمًا، عادةً اسمًا بشريًا. محطة التلفزيون المحلية ستظهر، والبلد بأكملها، والعالم بأكمله، سيشارك في موته، بفضل القنوات الفضائية. مشكلة هذا الفرد على الشاطئ ستعرض في ختام كل نشرة إخبارية في ثلاث قارات. ثم سيتحينون الفرصة للكلام عن الاحتباس الحراري العالمي وعن البيئة. سيأتون بالباحثين إلى الأستوديوهات للنقاش، والساسة سيتناولون مواضيع متعلقة بكوكب الأرض من فوق منابرهم الانتخابية. لماذا تفعل الحيتان ذلك؟ علماء السّمَاكة وعلماء البيئة يطرحون أجوبة متباينة.

انهيار منظومة تحديد المواقع بالصدى. تلوث المياه. قنبلة نووية حرارية في قاع البحر لن

تعترف أي بلد بتفجيرها، ألا يمكن أن يكون قرارًا، كذلك الذي تتخذه الأفيال؟ تقدّم في السن؟ خيبة أمل؟ لقد اكتشفنا مؤخرًا، في نهاية المطاف، أن مخ الإنسان لا يتميز عن مخ الحوت إلا بالقليل؛ بل إن مخ الحوت يحتوي على مناطق معينة يفتقر إليها الـ«هومو سابينز»، في الجزء الأفضل، والأكثر تطورًا، من الفص الجبهي.

في النهاية، سينهي الحوت احتضاره، وسيلزم رفعه عن الشاطئ. ستكون الحشود قد تفرقت في هذه الأثناء - في الحقيقة، لن يتبقى أحد، باستثناء عمال الخدمات، في ستراتهم الخضراء الزاهية، الذين سيقطّعون الجثة ويحملونها في مقطورات تَقطُرها إلى مكان ما. لو كانت هناك مقبرة للحيتان، لاتجهوا إليها بكل تأكيد.

«بيلي»، حوت من فصيلة الأوركا، غرق في الهواء.

والكل حزانى لا يخفف عنهم عزاء ولا رثاء.

مع ذلك، فثمة أمثلة على أناس استطاعوا إنقاذ الحيتان. استجابة للجهود العظيمة والمخلصة لعشرات المتطوعين، كانت هاته الحيتان تأخذ أنفاسًا عميقة وتتوجه عائدة إلى البحر المفتوح. تُظهر النافورة الشهيرة وهي تنبثق بفرح إلى أعلى صوب السماء، ثم تغطس في أعماق المحيط. ويضج الحشد بالهتاف والتصفيق.

بعدها ببضعة أسابيع سوف تظهر على ساحل اليابان، وتتحول أجسادها الرقيقة الجميلة إلى طعام للكلاب.

بلد الرَّب

ظلت تحزم أمتعتها لأيام. أغراضها تقبع في كومات على السجادة في غرفتهما. إذا أرادت أن تصل إلى السرير سارت بينها، خاضت وسط أكوام القمصان والملابس الداخلية والجوارب المكورة، البنطلونات المطوية بعناية على كنزاتها، وبضع كتب من أجل الطريق، الروايات التي يتكلم عنها الجميع ولم يتسن لها وقت بعد لقراءتها. ثم كنزة ثقيلة وحذاء شتوي، اشترتهما لهذا الغرض - فهي، في نهاية المطاف، توشك على المغامرة في أعماق الشتاء.

إنها مجرد أغراض - جلود ناعمة ملتبسة يمكن طرحها مرة بعد مرة، جرابات واقية للجسد الهش في خمسينياته، تحميه من الأشعة فوق البنفسجية والأنظار المحدقة. لا غنىً عنها في رحلتها الطويلة، ولا عندما تصل إلى هناك، للأسابيع التي ستقضيها في أبعد أصقاع العالم. لقد وضعت كل شيء على الأرض، مسترشدة بقائمة قضت أيامًا في إعدادها، تعمل عليها في لحظات الفراغ النادرة، وقد عرفت يقينًا أنها يجب أن تذهب. فور أن تعطي كلمة، عليك الالتزام بها.

بينما توضّب حقائب سفرها الحمراء بحرص، تعترف بأنها لا تحتاج إلى الكثير حقًا. مع كل عام يمر كانت تكتشف أن احتياجاتها تقلّ. لهذا استبعدت التنورات، رغوة تصفيف الشعر، طلاء الأظافر وكل ما له علاقة بأظافرها، الأقراط، مكواتها المحمولة. السجائر. هذا العام فقط اكتشفت أنها لم تعد بحاجة إلى فوط صحية.

«ليس عليك أن تقلّني»، تقولها للرجل الذي يدير وجهه إليها الآن، لا يزال نعسانًا. «سآخذ تاكسي».

بظهر أصابعها تمسح جفنيها الشاحبين الرقيقين، وتقبله على الخد.

يغمغم: «اتصلي بي فور وصولك إلى هناك وإلا سأموت من القلق»، ثم يُسقط رأسه ثانية في الوسادة. كان قد قضى وردية الليل في المستشفى. كانت حادثة؛ ومات المريض.

ترتدي بنطلونًا أسود وسترة كتانية سوداء. تسحب حذاءها في قدميها وترمي حقيبة يدها على كتفها. الآن تقف بلا حراك في الردهة من دون أن تعرف لماذا. في بيتها كانوا يقولون إنك يجب أن تجلس دقيقة قبل الخروج في أي رحلة -عادة قديمة في الأقاليم البولندية. لكن هذا المدخل الصغير ليس به مكان للجلوس، لا مقعد. هكذا، تقف هناك وتضبط ساعتها الداخلية، الميقاتية الجوانية الدقيقة، إن جاز التعبير، بالمصطلحات الكوزموبوليتانية، ذلك الفنية المصنوع من لحم ودم، الذي يتكتك برتابة على إيقاع أنفاسها البشرية. وفجأة تلملم

شتات نفسها، تمسك مقبض حقيبة السفر بيدها، مثل طفلة شتت ذهنها شيء ما، وتفتح الباب بقوة. حان وقت الذهاب، فتذهب.

سائق تاكسي ذو بشرة داكنة يرتّب حقيبتيها بعناية في الصندوق الخلفي. تصدمها الكثير من حركاته، تبدو لها غير ضرورية، حميميّة بشكل زائد عن الحد: مثلًا وهو يضع حقيبة سفرها، هيئ لها أنها رأته يُمسّدها برقة.

«ذاهبة في رحلة، أليس كذلك؟»، يقولها، مبتسمًا، كاشفًا عن أسنانه الكبيرة البيضاء.

تؤكد له ذلك. تزداد ابتسامته اتساعًا، عبر ذلك الوسيط المتحفظ المتمثل في المرأة الأمامية.

تُضيف: «إلى أوروبا»، ويعرب سائق التاكسي عن إحساسه بالرهبة بصوت نصف متسائل ونصف متنهد.

تمضي السيارة بحذاء الخليج، المدّ ينحسر للتو، والماء يكشف ببطء عن قاعه الصخري، الذي يتناثر عليه بلح البحر. الشمس حامية جدًا، تُغشي الأبصار. عليك أن تنتبه لبشرتك. الآن تفكر ببؤس في نبتاتها في الحديقة وتتساءل ما إذا كان زوجها سيسقيها حقًّا كما قال. تفكر في ثمار اليوسفي وتتساءل إن كانت ستظل موجودة حتى عودتها - إن عادت ووجدتها، ستصنع المربى وتفكر في تينها الذي بدأ ينضج للتو وفي أعشابها التي نُفيت إلى الزاوية الأكثر جفافًا من الحديقة، حيث التربة صخرية تقريبًا، ولو أنها تحب حياتها هناك، في ما يبدو، الآن نبات الطرخون نما هذا العام بطول غير مسبوق. حتى الملابس المنشورة لتجف فوق الحديقة تتشبع برائحته الحزينة المنعشة.

«عشرة»، يقولها سائق التاكسي.

تدفع له.

في ذلك المطار المحلي، تُبرز تذكرتها عند الشباك، وتأخذ حقائبها إلى الجمارك. لم يعد معها إلا حقيبة ظهرها، وتتجه مباشرة صوب طائرتها، التي كانت تحمل بالفعل بالركاب الناعسين، بصحبة الأطفال، والكلاب وأكياس بلاستيكية مملوءة لقينها بالمؤن.

عندما تحلّق الطائرة الصغيرة التي ستنقلها إلى المطار الرئيسي في الهواء، ترى منظرًا بديع الجمال حتى أنها تشعر للحظة بنوع من التسامي يجتاحها. «تسامي»، كلمة غريبة، متعالية، تعني في الأصل «أن تعلو إلى فوق»، والآن ها هي حرفيًا تُرفع إلى داخل السحاب. تلك الجزر، الشواطئ الرملية، جزء منها مثل يديها وقدميها البحر الذي يتمعّج

لينتهي في لفَّات مزبدة على السواحل، سفن وقوارب صغيرة، خط الساحل المتموّج اللطيف، الدواخل الخضراء للجزر كلها تنتمي إليها. بلد الرب، هكذا يسميها سكان الجزيرة. إنها المكان الذي استقر فيه الرب، جالبًا معه كل جمال العالم. الآن يمنح هذا الجمال، بالمجان، لكل سكان الجزيرة، ولا يطلب شيئًا في المقابل.

في المطار الكبير تذهب إلى الحمام لتغسل وجهها. تراقب الطابور الصغير المتبرم الذي ينتظر استخدام الكمبيوتر المجاني لبعض الوقت. يتوقف المسافرون هنا اللحظة ليخبروا القاصي والداني أنهم هنا. خطر لها أن تتجه هي الأخرى إلى إحدى تلك الشاشات، تدخل على بريدها الإلكتروني، وتتفقد من قد يكون كَتَب لها، أيضًا - لكنها تعرف ما ستجده: لا شيء ذا قيمة. شيء ما عن المشروع الذي تعمل عليه الآن، نكات من صديق في أستراليا، ربما رسالة نادرة من أحد أبنائها. مُرسِل الرسالة التي أفضت إلى هذه الرحلة صامت منذ فترة.

تفاجأت بكل الطقوس الأمنية، لم تطر منذ فترة طويلة. يفحصونها هي وحقيبة ظهرها بالأشعة. يصادرون قصّافة أظافرها، وتتحسّر هي على الخسارة، لأنها تحبها، وظلت تستخدمها لسنوات. يحاول مسؤولو المطار، بنظرتهم الخبيرة، تحديد من بين الركاب قد يكون مسلحًا بمادة متفجرة، يحدّقون على وجه الخصوص في أصحاب البشرة الأكثر دكنة والفتيات اللاتي يضعن أغطية الرأس، اللاتي يزقزقن في مرح. قد يظن المرء أن العالم الذي تتوجه إليه، وتقف على حدوده مباشرة الآن، وراء الخط الأصفر مباشرة، محكوم بقواعد مختلفة، وأن دمدماته العابسة والغاضبة تقطع كل تلك المسافة وتصل إلى هنا.

بعد مراجعة الجوازات تشتري بضعة أغراض، من دون تخطيط مسبق، من متجر الأسواق الحرة. تجد بوابتها رقم تسعة. وتجلس في مواجهتها وتحاول القراءة.

تقلع الطائرة بلا جهد، في الموعد تحدث المعجزة مجددًا: أن تنزلق آلة ضخمة بحجم بناية بِرِقَّة منفلتة من قبضة الأرض، محلقة بخفة إلى أعلى وأعلى.

بعد طعام الطائرة البلاستيكي يبدأ الجميع في الاستعداد للنوم. قلة فقط يضعون السمّاعات في آذانهم ويشاهدون فيلمًا عن الرحلة الخيالية لعدة علماء شجعان جرى تصغيرهم باستخدام أحد أجهزة معالجة الجسيمات وأصبحوا في حجم البكتيريا، والآن يدخلون جسد أحد المرضى، تشاهد الشاشة من دون سماعات يعجبها التصوير الرائع - المناظر التي تشبه قاع المحيط الأروقة القرمزية للأوعية الدموية، نبض الشرايين المنقبضة، وداخل تلك الخلايا الليمفاوية الحربية التي تشبه زوارًا من الفضاء الخارجي، والخلايا الدموية المقعرة الرقيقة، البريئة مثل الحِملان. تمرُّ إحدى المضيفات في الممر ومعها ماء، شريحة ليمون واحدة للدورق بأكمله. تشرب كوبًا.

عندما أمطرت السماء أغرقت مسالك الحديقة كاسحة إياها وجامعة الرمال الرقيقة الخفيفة؛ تستطيع أن تكتب شيئًا عليها بطرف عصا -هذه الشرائط المتموّجة تتلهف لمن ينقش عليها. تستطيع رسم مربعات للعبة الحجلة وأميرات في تنورات ذات أقواس لهن خصور شديدة الضيق، ثم بعد بضع سنوات، ألغاز واعترافات ورموز جبرية من قبيل (م) + (ب) = (ح ك)، ما يعني أن «مارك» أو «ماتسيك» يحب «باسيا» أو «بوجينا»، بينما (ح ك) تعني «حب كبير». يحدث هذا دائمًا عندما تطير: تتاح لها نظرة طائر على حياتها بأكملها، على لحظات معينة تظن وأنت على الأرض أنها صارت طي النسيان. آلية الـ«فلاش باك» المبتذلة؛ استعادة ميكانيكية للذكريات.

عندما وصلتها الرسالة الإلكترونية، لم تستطع أن تتبيّن ممن قد تكون، من الذي يتخفى وراء ذلك الاسم وكيف يخاطبها من دون كلفة هكذا. استمرت حالة فقدان الذاكرة تلك معها لبضع ثوان - لا بد أنها شعرت بالخجل. من الظاهر، كما تبيّنت لاحقًا، كانت مجرد معايدة كريسماس. وصلت في منتصف ديسمبر، حين كانت جزيرتها تستقبل أولى أمواج الحر المميزة لموسم الأعياد. لكن الواضح أنها كانت تتجاوز العبارات العادية التي يقولها الناس في الأعياد. شعرت بأنها صرخة استغاثة من الجانب الأخر من أنبوب تخاطب، بعيدة مكتومة، مبهمة. لم تفهم شيئًا من الرسالة، وأزعجتها بعض الجمل، مثل تلك الجملة عن كيف تبدو الحياة «مثل عادة مقززة فقدنا السيطرة عليها منذ زمن بعيد». ثم أضاف: «هل توقفت عن التدخين؟». أجل، لقد توقفت عن التدخين. وكانت تجربة صعبة.

ليومين كاملين ظلت تفكر مليًا في ذلك الخطاب الغريب من شخص عرفته منذ أكثر من ثلاثين سنة، ولم تره من وقتها؛ شخص نسيته بالكامل الآن، لكنها، في نهاية المطاف، كانت قد أحبته ذات مرة، لسنتين كثيفتين في شبابها. رأت بتهذيب، بنبرة مختلفة تمامًا ومن تلك النقطة فصاعدًا أصبحت تتسلم خطابات منه بصورة يومية.

حرمتها تلك الرسائل الإلكترونية راحة البال. واضحٌ أنها أوقظت قسمًا هاجعًا في عقلها حيث خزّنت تلك السنوات ووُزعت وحُزمت في صور، وأجزاء من محادثات، وأشتات من الروائح، الآن، كل يوم، وهي تقود سيارتها إلى العمل، وفور أن تُدير المحرك، تتتالى عليها تلك الشرائط، تلك التسجيلات المصورة بأي كاميرا كانت في المتناول، بألوان حائلة أو حتى بالأبيض والأسود، مناظر عمومية، لحظات، بلا رابط منطقي، مبعثرة، بلا نظام، ولا تعرف ماذا تفعل بها. ترى نفسها معه، على سبيل المثال، وهما يسيران إلى خارج حدود المدينة أو بالأحرى حدود البلدة الصغيرة إلى التلال، إلى حيث تمتدّ خطوط الجهد العالي، ومن هناك فصاعدًا تخرج كلماتهما رفقة طنين لا يتوقف، مثل نغمة تحتية تشدد على أهمية هذه النزهة، نغمة رتيبة منخفضة، توتر لا يزيد ولا ينقص. تتشابك يداهما تلك حقبة القبلات الأولى، التي لا يمكن وصفها إلا بالغرابة.

كانت مدرستهما الثانوية بناية قديمة باردة حيث تتكرر الفصول الدراسية على طابقين داخل الردهات الواسعة. كلها تبدو متشابهة على نحو أو آخر - ثلاثة صفوف من المقاعد، وأمامها مكتب المدرس. سبورات مغطاة بطبقة من المطاط الأخضر الداكن يمكن تحريكها إلى أعلى وأسفل. يُكلّف أحد الصبية بترطيب الاسفنجة قبل بداية كل درس. على الجدران عُلّقت بورتريهات الرجال بالأبيض والأسود - لم تكن ترى في المدرسة كلها إلا وجهًا أنثويًا واحدًا، في قسم الفيزياء؛ مدام سكودوفسكا كوري، الدليل الوحيد على المساواة بين الجنسين. لا بدّ أن هذه الوجوه عُلقت فوق رؤوس الطلاب لتذكيرهم بأن المدرسة، بمعجزة ما، حافظت على انتمائها لأسرة المعرفة والعلم الكبيرة، أنها بالرغم من ريفيّتها تظل وريثًا لأرقى التقاليد، وأنها تنتمي لعالم حيث كل شيء يمكن أن يوصف، ويُشرح، ويُثبت، ويُوضح بالأمثلة.

في سنتها الأولى هناك بدأت تهتم بالبيولوجيا. كانت قد عثرت على مقالة -ربما أعطاها لها والدها- عن الميتوكوندريا. رجحت المقالة أن الميتوكوندريا كانت، في الماضي البعيد، في البحر البدائي، مخلوقات مستقلة بذاتها قبل أن تعترض سبيلها كائنات أخرى وحيدة الخلية وتجبرها، لبقية التاريخ، على العمل الصالح عوائلها. كان التطور قد أقر هذا الاسترقاق - وكانت تلك هي الطريقة التي جعلتنا نصبح على ما نحن عليه. هكذا وصفت الأمور، في تلك المصطلحات: «استيلاء»، «إجبار»، «استرقاق». في الحقيقة، لم تستطع قطّ التصالح مع هذا. مع الفرضية القائلة بأنه في البدء كان العنف.

هكذا، عرفت منذ كانت في المدرسة أنها تريد أن تصبح عالمة بيولوجيا، ولهذا السبب درسَت البيولوجيا والكيمياء بهفة وحماسة. في حصة اللغة الروسية، كانت تكتب رسائل حافلة بالنميمة، يمررها زملاؤها بإخلاص تحت المقاعد إلى أقرب أصدقائها. وفي حصة اللغة البولندية كانت تموت من الملل، حتى وقعت، في الصف السادس، في غرام صبي من نفس عمرها لكنه في فصل آخر، صبي يحمل اسم مؤلف تلك الرسائل الإلكترونية، ووجهًا تحاول الآن -جاهدة- استدعاء ملامحه. لا بد أنه هو من جعلها تتعلم ذلك القدر القليل عن «الفلسفة الوضعية» و«حركة بولندا الفتية».

كانت رحلتها اليومية رحلة بندولية على طول قوس رقيق الانحناء، ثمانية كيلومترات من الساحل، ذهابًا وإيابًا، من البيت إلى العمل وبالعكس. البحر موجود دائمًا في هذه الرحلة، ويمكن للمرء أن يقول من دون تردد إن رحلتها كانت رحلة بحرية.

في العمل، كانت تتوقف عن التفكير في هذه الرسائل الإلكترونية. ترجع لنفسها، فما من مكان هنا للذكريات المشوشة. فور خروجها بالسيارة من مدخل بيتها والتحامها بالطريق

السريع كانت تشعر دائمًا بنوع من الإثارة تجاه كل الأشياء التي تنتظرها في المختبر وفي مكتبها، ثم كان الرسوخ المألوف لهذا المبنى الزجاجي الواطئ يعيد تكييف وعيها، فيبدأ عقلها بالعمل بكفاءة أكبر، بتركيز يشبه تركيز محركٍ مشحّم جيدًا، مؤتمن من ذلك النوع الذي يوصلك دائمًا إلى وجهتك.

كانت تشارك في برنامج هائل يهدف إلى القضاء على آفات مثل ابن عرس والأبوسوم، التي أدخلها البشر بحماقة إلى المنطقة - الآن تعيث فسادًا وسط أنواع الطيور المتوطنة، تتغذى في الأغلب على بيضها.

كانت تعمل في فريق يختبر السموم على تلك الحيوانات الصغيرة. كان السم يحقن في البيض، ومن ثم يوزع كطُعم في أقفاص خشبية خاصة في أرجاء الغابات والأدغال كان المطلوب أن يكون سريعًا، إنسانيًا، وأيضًا قابلًا للتحلّل بدرجة كبيرة، حتى لا تُسمّم الحيوانات المقتولة السكان أيضًا. سم واضح كالشمس، آمن تمامًا للعالم، يستهدف الآفة وحدها، في نوع واحد مختار من الكائنات، يتحلّل ذاتيًا بعد أداء مهمته. جيمس بوند علم البيئة.

هذا ما كانت تفعله. كانت تستحدث هذه المواد، وظلت تعمل عليها لسبع سنوات كاملة.

وقد عرف ذلك، على نحو ما. لا بد أنه عرف من الإنترنت - كل شيء على الإنترنت في مكان ما. إن لم تكن على الإنترنت، فذلك يعني تقريبًا أنك غير موجود أصلًا. يجب أن يكون لك ولو ذِكر واحد صغير على الأقل، حتى إن كان في قائمة لخريجي المدرسة. وما يجعل تعقبه لها أسهل أنها لم تغير اسمها قطّ. إذا لا بد أنه وضع اسمها على «جوجل»، فظهرت على الفور عدة صفحات: مقالاتها، والمناهج التي درستها، ونشاطها في المجال البيئي، في البداية ظنت أن ذلك ما جذب اهتمامه، وهكذا تركت نفسها تنسحب إلى تبادل الرسائل معه.

يصعب النوم في هذه الطائرة الهائلة العابرة للقارات. كاحلاها متورمان، قدماها نَمِلتان. تغفو على دفعات متقطعة، ما يشتت وعيها بالزمن أكثر. هل يمكن أن يكون الليل طويلًا إلى هذا الحد؟ هكذا يتساءل الجسد البشري الضائع حين يغترب عن الأرض، عن مكانه حيث الشمس تشرق وتغرب، والغدة الصنوبرية، تلك العين الثالثة الخفية، تُسجل بكل دقة ونزاهة حركاتها في السماء. أخيرا بدأ ضوء الصباح يظهر في الخارج، وغيرت محركات الطائرة نغمتها. من التينور الذي اعتادت عليه الأذن إلى نغمات أخفض، باريتون وباس؛ وأخيرًا، أسرع مما توقعت، تشرع الآلة الهائلة في الهبوط، برشاقة ونعومة. وهي تتوجه إلى المطار عبر جسر الطائرة تشعر بمدى سخونة الهواء هنا، ينحشر بين الشقوق، لزجًا، رطبًا - الرئات تشبُّ، تحاول أن تسحبه. لكن لحسن الحظ لن تضطر إلى التعامل معه. رحلتها

التالية تغادر في غضون ست ساعات تقريبًا، وهي تنوي قضاء الوقت هنا في المطار، تُقيل وتغفو، تحاول تحديد موضعها في الزمن. تنتظرها بعد ذلك رحلة أخرى من اثنتي عشرة ساعة.

كانت تفكر كثيرًا في الرجل الذي أرسل إليها تلك الرسالة الالكترونية على غير انتظار. ثم المزيد من الرسائل، شكلت مراسلات حافلة بالتلميحات والإيحاءات. إنها أشياء غير مكتوبة، لكن بالنسبة لهؤلاء الذين كنت على علاقة جسدية حميمة معهم ذات مرة يبقى نوع معين من الإخلاص ساريًا، في نهاية المطاف - هذا ما تفهمه. هل كان ذلك لأنه بادر إليها؟ هذا أمرٌ واضح. فقدان عذريتك حدث فريد وغير قابل للنقض، لا يمكن محوه؛ ما يجعله حدثًا مشهودًا بشكل ما، سواء أردت أم لم تُرد، وبغض النظر عن اختلاف الأيديولوجيات. إنها تتذكر بدقة كيف كان الأمر: الألم الخارق، القصير، ثَلم، أضحية - كم كان مدهشًا أن يُجرى بهذه الأداة الخفيفة الكليلة.

تتذكر أيضًا المباني البيج-الرمادية حول الجامعة الصيدلية المعتمة المضاءة دائمًا، أيًّا كان الطقس، في كل الفصول، والبرطمانات البنية القديمة بمحتوياتها المكتوبة بخط دقيق منمّق على بطاقات التعريف. عبوات حبوب الصداع الصفراء الصغيرة، ست حبات في كل عبوة، مربوطة معًا بشريط مطاطي. تتذكر الشكل البيضاوي المبهج لهذه الهواتف، المسبوكة من مطاط قوي، معظمها أسود أو بلون الماهوغني - لم تكن لها أقراص دوارة، فقط ذراع تدوير صغيرة، وصوتها يشبه زوبعة صغيرة تدور في أعماق قنوات الكابلات لكي تجلب لك الصوت الذي تريده.

اندهشت لكونها ترى كل هذا بوضوح - للمرة الأولى في حياتها. لا ريب أن ذلك من علامات التقدم في العمر، إذ يبدو لها أنك لا تبدأ إلا في العمر المتقدم في سماع الأصوات المنبعثة من تلك الشقوق الصغيرة في مخك، التي تضم سجلات لكل ما حدث. لم يسبق لها أن وجدت الوقت للتفكير في هذه الأشياء من الأيام التي ولت؛ كان الماضي أشبه بشريط فيلمي مشوّش. الآن يتباطأ الفيلم ويكشف التفاصيل - يا لقدرة العقل البشري. احتفظ عقلها حتى بحقيبة يدها البنية الصغيرة، من أيام ما قبل الحرب، التي كانت لأمها في الأصل، والتي لها أجنابٌ ناعمة مصنوعة من مادة مبطنة بالمطاط، بمشبك معدني جميل يشبه جوهرة. كان داخلها ناعمًا وبارد الملمس؛ عندما تمد يدك داخلها يبدو لك وكأن فرعًا ميتًا من الزمن قد انحشر هناك.

الطائرة التالية، تلك المتجهة إلى أوروبا، أكبر وأكبر، بقصص مختلفة. إنها تطير بسيّاح مرتاحين لوّحت الشمس بشرتهم. يحاولون حشر هداياهم التذكارية الغرائبية في الخزائن

العلوية. طبلة عالية مغطاة بأشكال إثنية، قبعة من القش، تمثال خشبي لبوذا. تجلس محشورة بين امرأتين، في وسط الصف بالضبط، في مكان غير مريح على الإطلاق. تسند رأسها إلى غير مريح إلى الوراء على مقعدها، لكنها تعرف أنها لن تستطيع النوم.

جاءا من البلدة الصغيرة نفسها للدراسة، هو للتخصص في الفلسفة، وهي في البيولوجيا. كانا يتقابلان كل يوم بعد المحاضرات، كلاهما خائف قليلًا من المدينة الكبيرة، ضائع قليلًا. أحيانًا كان أحدهما يُهرِّب الآخر إلى داخل مهجعه؛ ذات مرة - الآن تتذكر - تسلق ماسورة صرف إلى الطابق الثاني لمهجعها. تتذكر رقم غرفتها، أيضًا: 321. لكن الجامعة والمدينة لم تستمرا إلا لسنة واحدة. استطاعت أن تجتاز امتحانات نهاية العام، ثم غادروا. والدها باع عيادته بكل ما فيها من أثاث ومعدّات: كرسي طبيب الأسنان، الخزائن المعدنية والزجاجية، أجهزة التعقيم والمعدات. بالمناسبة، الآن تتساءل، أين انتهى الحال بكل هذه الأغراض؟ في كومة القمامة؟ هل لا يزال الطلاء الفاتح يتقشر عنها؟ والدتها باعت الأثاث. لم يكن هناك حزن، ولا يأس - فقط الانزعاج المرافق للتخلص من كل شيء، لأن ذلك كان يعني البدء من جديد. كان كلاهما أصغر سنًا منها الآن (ولو أنهما وقتها بدوا لها أكبر منها بكثير)، وكانا يستعدان للانطلاق في مغامرة جديدة، أي مكان سيكون جيدًا: السويد، أستراليا، ربما مدغشقر - أي مكان، فقط أبعد ما يستطيعان عن حياتهما الشمالية بأجوائها الفاسدة الخانقة في ذلك البلد الشيوعي الطارد في أواخر الستينيات. قال والدها إنه بلد لا يناسب البشر، ولو أنه لاحقًا قضى بقية حياته ممزقًا بالحنين إليه. وهي أرادت أن ترحل، أرادت أن ترحل حقًا، مثل أي فتاة في التاسعة عشرة من عمرها - أرادت أن تنطلق إلى العالم.

لم يكن بلدًا مناسبًا للبشر، بل للثدييات الصغيرة، للحشرات، للعث. إنها نائمة. الطائرة معلقة في هذا الهواء الصافي المثلج الذي يقتل البكتيريا. كل رحلة تعقمنا. كل ليل يطهرنا بالكامل. ترى صورة مطبوعة وإن كانت لا تعرف عنوانها - تتذكرها من طفولتها: امرأة شابة تلمس جفني شيخ مسن يركع أمامها. إنها صورة من مكتب والدها، وهي تعرف مكان الكتاب، في الرف السفلي الأيمن، مع بقية كتب الفن. الآن تستطيع أن تغمض عينيها وتدخل الغرفة بنوافذها المطلة على الخليج حيث يمكنك رؤية الحديقة. إلى اليمين، على مستوى العين، كان هناك المفتاح المطاطي الصلب الأسود ذو الاسطوانة الصغيرة التي كان عليك أن تأخذها بين سبابتك وإبهامك وتلفها. كان القفل يقاوم بعض الشيء قبل أن يذعن. ثم يشتعل الضوء في الثريّا ذات التيجان الخمسة التي تشبه كؤوس الأزهار، التي تشكل بدورها ما يشبه ساقية دوارة. بيد أن ضوء السقف ذاك كان خافتًا، وعاليًا جدًّصا، ولم تحبه. كانت تفضل تشغيل مصباح الأرض ذي القبعة الصفراء، الذي كانت بداخله لا أحد يعرف كيف- بعض أوراق العشب، وتجلس بجواره في ذلك الكرسي القديم المتهالك. كطفلة كانت تفكر أن

الـ«بوبوك» يعيشون في الداخل، هاته المخلوقات البشعة، غير محددة المعالم. ثم كانت تفتح كتابًا على حجرها - تتذكر الآن أنه كتاب لمالتشفسكي. تفتحه على الصفحة حيث تغمض الشابة الجميلة ذات المنجل بهدوء وحب عيني الشيخ الراكع أمامها.

شُرفتها تطل على مروج شاسعة، ومن خلفها مياه الخليج اللازوردية؛ يلعب المد الصاعد بالألوان، يخلطها، يطلي الأمواج بلمعة فضية. في المساء، بعد العشاء، تخرج دائمًا إلى الشرفة - عادة قديمة من أيام كانت تُدخن. تقف هناك وتراقب الناس يمارسون كل أنواع المتع والمباهج. لو رسمتهم، لبدوا مثل لوحة مرحة مشمسة، وربما طفولية قليلًا، من لوحات بروغيل. بروغيل من الجنوب. الناس يطيرون طائرات - إحداها كانت بشكل سمكة كبيرة زاهية، زعانفها الطويلة الرفيعة تطفو في الهواء ببركة ذيلها المهدول. واحدة أخرى كانت على شكل باندا، شكل بيضاوي هائل يرتفع فوق هيئات الناس الصغيرة الضئيلة. واحدة أخرى كانت شراعًا أبيض يسحب عربة صاحبه الواطئة على الأرض. فكر في كل الاستخدامات الممكنة للطائرة الورقية! فكر في الريح وكيف أنها مفعمة بالأمل. طيّبة.

الناس يلعبون مع الكلاب، يرمون لها كرات صغيرة ملونة. الكلاب تستعيدها بحماسة لا حدود لها. هيئات بالغة الصغر تركض وتركب الدراجات وأحذية التزلج وتلعب الكرة الطائرة وكرة الريشة وتمارس اليوغا. على طول الطريق السريع القريب تنزلق سيارات بمقطورات، عليها قوارب، وزوارق مزدوجة، ودراجات، وبيوت متحركة. ثمة نسيم خفيف، والشمس ساطعة، وطيور صغيرة تتشاجر فوق فتات طعام منسي تحت شجرة.

هكذا تَفهم الأمر: الحياة على الكوكب تتطور بفعل قوة قوية متضمّنة داخل كل ذرة من المادة العضوية. إنها قوة لا يمكن إثباتها بالأدلة الملموسة، إلى الآن - لا تظهر حتى في أدق الصور المجهرية، ولا في الصور الضوئية للطيف الذري. إنها شيء يقوم على التفجر، الاندفاع قدمًا، تجاوز كيانه بلا توقف. إنها المحرك الذي يقود التغيرات، محرّك أعمى وقوي. وأن نعزو لها أهدافًا أو نوايا لهو ضرب من سوء فهم. قرأ داروين هذه الطاقة بقدر استطاعته، لكن قراءته كانت خاطئة. «منافسة»، يقول. كلام فارغ! كلما ازددت خبرة كعالم بيولوجيا، وكلما أطالت النظر وأمعنته في البُنى والصلات المعقدة للنظام الحيوي، تعزّز حدسك بأن كل الأشياء النابضة بالحياة تتعاون في هذا النمو والانفجار، تدعم بعضها بعضًا. الكائنات الحية تهب أنفسها لبعضها البعض، تسمح لبعضها البعض باستغلالها. إن كانت المنافسة موجودة، فهي ظاهرة محصورة بمواضعها، إزعاج للتوازن. صحيح أن فروع الشجرة تزيح بعضها بعضًا لتصل إلى الضوء، وفروعها تتدافع في تسابق على مصدر مياه، والحيوانات تأكل بعضها بعضًا، لكن ثقة نوع من الانسجام في كل هذا، كل ما في الأمر أنه انسجام يجده الإنسان مخيفًا. ربما يتضح لنا أننا ممثلون في مسرح دموي هائل، وكأن هذه الحروب التي نشنها ليست إلا حروبًا أهلية. هذه -أي كلمة أخرى يمكن

استخدامها؟- الحيوات، لديها مليون صفة وخصيصة، حتى أن كل شيء متضمن بداخلها، وما من شيء يمكن أن يقع خارجها، كل موتٍ هو جزء من الحياة، وبمعنى ما لا وجود للموت. لا وجود للأخطاء. لا أطراف مذنبة ولا أطراف بريئة، أيضًا، لا محاسن ولا خطايا، لا خير ولا شر؛ ومن خرج بهذه الأفكار - أيًّا كان. قاد الإنسان إلى ضلال.

عادت إلى غرفة النوم وقرأت خطابه، الذي وصل لتوّه، وأعلنت وصوله رنة إلكترونية، وفجأة تتذكر كل اليأس الذي أثاره فيها الشخص هذا، كاتب الخطابات هذا، قبل زمن طويل، طويل. يأس لأنها ستغادر وهو سيبقى. لقد جاء إلى محطة القطار، لكنها لا تتذكره يقف على الرصيف، ولو أنها تعرف أنها كانت تحتفظ بتلك الصورة ذات مرة - لكن كل ما تتذكره الآن هو حركة القطار وومضات وارسو في الشتاء وهم ينسابون بعيدًا أسرع فأسرع، وكلمتا «آخر مرّة»، وقناعتهما أن لا شيء سيفرّق بينهما. الآن يبدو كل ذلك عاطفيًا جدّا، وللصدق، لا تستطيع أن تفهم ذلك الألم. كان ألمًا حميدًا، مثل ألم الدورة الشهرية. شيء يصل إلى خاتمته، عملية داخلية تبلغ منتهاها، تمحو كل ما هو غير ضروري. لهذا السبب يؤلم، لكنه ألمّ التطهير لا أكثر.

واظبا لبعض الوقت على تبادل الخطابات خطاباته هو كانت تصل في مظاريف زرقاء فاتحة عليها طوابع بلون الخبز الأسمر. كانت خطتهما، بالطبع، أن يذهب هو يومًا إلى حيث تعيش. لكنه، بالطبع، لم يذهب قطّ؛ كيف استطاعت أن تصدّق ذلك؟ كانت لديه أسباب، كلها تبدو غامضة الآن، بل وغير مفهومة - لا جواز سفر، السياسة، مزالق الشتاءات، التي يمكن أن تعلق فيها وكأنك قد سقطت في صدع أعجزك عن الحركة.

قبيل مجيئها إلى هنا كانت موجات من الحنين الغريب قد ضربتها على حين غرّة. غريب لأنه متعلق بأشياء أتفه كثيرًا من أن يفتقدها المرء: الماء الذي يتجمع في بركٍ موحلة في الفتحات داخل الأرصفة، الألوان النيونية التي تخلفها قطرات شاردة من البنزين على سطح تلك البركة، الأبواب القديمة الثقيلة المشققة التي تفتح على سلالم مظلمة. كذلك افتقدت الصحون الخزفية البرّاقة ذات الشريط البني المرسوم عليه شعار «تعاونية سبوويم» التي كانوا يستخدمونها في الكافتيريا لتقديم فطائر بيروجي سريعة التحضير مع الزبدة الذائبة والسكر المرشوش. لكن ذلك الحنين كان قد تسرّب، في تلك الأثناء، داخل شقوق أرض جديدة مثل الحليب المسكوب، ولم يعد له أثر. لقد تخرجت وحصلت على منحة. سافرت حول العالم وتزوجت من الرجل الذي لا تزال معه إلى الآن. أنجبا توأمين سينجبان بدورهما أطفالًا عمّا قريب. لذا قد تبدو الذاكرة مثل درج مملوء بالأوراق - بعضها لا فائدة منه على الإطلاق، وثائق المرة الواحدة تلك، مثل بطاقات المغسلة وإيصالات شراء حذاء شتوي أو محمصة خبز لم تعد لدينا أصلًا. مع ذلك فثمة وثائق تُستخدَم أكثر من مرة، شهادات لا على أحداث ولكن على عمليات بأكملها: كتيبات تطعيم الأطفال، بطاقتها الطلابية التي تشبه جواز

سفر صغير، صفحاته نصف مملوءة بالأختام قبالة كل فصل دراسي، شهادتها المدرسية، شهادة إتمام دورة خياطة.

في الخطاب التالي الذي وصلها منه، كتب لها أنه في المستشفى، لكنهم قالوا إنهم سيخرجونه لقضاء الكريسماس، ولن يرجع ثانية. كانوا قد فعلوا كل ما بوسعهم، أجروا كل الفحوصات، شخصوا كل الأمراض. لذا سيكون في البيت، وهو يعيش في الريف خارج وارسو، وهناك ثلج، وبرد قارس في كل أرجاء أوروبا، بل ويتجمد الناس حتى الموت. أخبرها أيضًا باسم مرضه، لكن بالبولندية، لذا لم تعرف عنه شيئًا، لأنها لا تعرف اسمه البولندي. كتب يقول: «هل تتذكرين عهدنا؟ هل تتذكرين الليلة الأخيرة قبل رحيلك؟ كنا نجلس في الحديقة، على العشب، كان الجو شديد الحرارة، كنا في شهر يونيو، وقد اجتزنا امتحاناتنا بتفوق، وكانت المدينة الآن، بعد أن انصبت عليها السخونة طوال اليوم، تطلق دفئًا ممزوجًا برائحة الأسمنت، وكأنها تتعرق. هل تتذكرين؟ لقد جلبتُ زجاجة فودكا، لكننا لم نستطع إنهاءها. تعاهدنا على اللقاء ثانية. إننا سوف نتقابل من جديد مهما كانت الظروف. وكان هناك شيء آخر. هل تتذكرين؟».

بالطبع تتذكر.

كانت لديه مطواة صغيرة بمقبض من العظم لها برّامة فتحَ بها لتوّه الزجاجة (لأن زجاجات الفودكا أيضًا كانت لها سدادات في ذلك الوقت، وكانت تُختم بالشمع)، وبالطرف الحاد من البرامة حفر في يده إن كانت تتذكر جيدًا، كان قطعًا كبيرًا بين سبابته وإبهامه- ثم أخذت هي تلك الشفرة المعدنية الملتوية من يده وفعلت الشيء نفسه بيدها. ثم لامسا بقعتي الدم معًا، واضعين الجرح على الجرح. هذه الإيماءة الرومانسية الشبابية كانت تسمى أخوّة الدم، ولا بد أنها جاءت من فيلم ما كان رائجًا وقتها، أو ربما من كتاب، ربما إحدى سلاسل «كارل ماي» حول زعيم الأباتشي.

الآن تتفحص كفيها، اليسرى ثم اليمنى، لأنها لا تتذكر أيهما كانت، لكنها بالطبع لا ترى شيئًا. الزمن يخلد ذكرى جراح من نوع آخر.

بالطبع تتذكر تلك الليلة من ليالي يونيو -مع تقدّم العمر، تفتح الذاكرة تدريجيًا صدوعها الهولوغراميّة يومًا يجر الآخر، بسهولة ويسر، وكأن الأيام معلّقة بخيط، ومن الأيام إلى الساعات، إلى الدقائق. تتحرك الصور الساكنة، ببطء أولًا، مكررة اللحظات نفسها مرة بعد مرة، بطريقة تشبه استخراج هياكل عظمية قديمة من الرمال: في البداية ترى عظمة واحدة، لكن الفرشاة سرعان ما تكشف المزيد، حتى تجد، في النهاية، الهيكل المعقد بأكمله معروضًا أمامك، المفاصل والأوصال التي تُشكل البنية التي تدعم جسد الزمن.

من بولندا ذهبوا إلى السويد أولًا. كان العام 1970، وكانت في التاسعة عشرة من عمرها. في غضون سنتين سيدركون أن السويد أقرب مما ينبغي، أن بحر البلطيق يجلب

سوائل مألوفة، حنينًا مألوفًا، بخرًا مألوفًا، هواءً كريهًا مألوفًا. كان والدها طبيب أسنان ماهر، وأمها إخصائية في صحة الأسنان - كانا من هؤلاء المطلوبين في كل مكان في العالم. فقط اضرب عدد السكان في عدد الأسنان التي يمتلكونها، وستعرف فرصهم. وكلما كان المكان أبعد كان أفضل.

كانت قد ردت على هذه الرسالة، أيضًا، مؤكدة في اندهاش ذلك العهد الغريب، وقبل حلول الصباح التالي تلقت رده، وكأنه كان ينتظر بفارغ الصبر، وقد كتب رسالته التالية وحفظها في مكان ما على سطح المكتب جاهزة للقص واللصق.

«تخيلي، إن استطعت، ألمًا ثابتًا وشللًا مستفحلًا يتقدّم خطوة كل يوم. لكن حتى ذلك يمكن تحمّله، لولا معرفة أنه ما من شيء وراء الألم، لا مجال لجبر الضرر، وأن كل ساعة ستكون أسوأ من سابقتها، ما يعني أنك تتجهين إلى أغوار سحيقة، إلى جحيم مصنوع من الهلاوس، به عشر حلقات من العذاب. وما من شخص يرشدك عبرها، لا أحد يأخذ بيدك ويشرح لك ما يحدث لأنه ما من شرح، ما من لائحة واضحة للعقوبات أو المكافآت».

ثم الخطاب التالي، حيث شكا من أنه يواجه صعوبة رهيبة في كتابة أي شيء، حتى العبارات الشائعة: «تعرفين أنهم لا يتساءلون هنا عن أي شيء من هذا النوع، تقاليدنا لا تساعد على هذا النوع من التفكير، وهو ما يتفاقم أكثر بفعل النفور المتأصّل لدى بني جلدتي (أيزالون بني جلدتك أنتِ أيضًا؟) تجاه أي شكل من أشكال التأمل. هذا الأمر يُعزى في العادة إلى تاريخنا المؤلم، إذ كان التاريخ دومًا قاسيًا علينا - بمجرد أن تتحسن الأمور، تعود وتنهار ثانية، وهكذا ترسخ لدينا، نوعًا ما، أن نحترز من العالم، أن نخاف منه، أن نؤمن بالقوة المخلصة للقواعد الحديدية، بيد أننا نرغب أيضًا في كسر تلك القواعد التي وضعناها».

«موقفي كالتالي: أنا مُطلَّق، وليس بيني وبين زوجتي أي اتصال - أختي ترعاني، لكنها لن تنفِّذ لي طلبي أبدًا. ليس لدي أطفال، وهو الأمر الذي أندم عليه أشد الندم - تحديدًا لأمور من هذا النوع يجب أن يكون لديك أطفال، لو ليس لسبب آخر. أنا، لسوء الحظ، شخصية عامة، وغير محبوبة. لن يجرؤ أي طبيب على مساعدتي. أثناء واحدة من مناوشاتي السياسية العديدة التي تورطتُ فيها شوّهت سمعتي، ولم أعد الآن أمتلك ما يسميه الناس اسمًا طيبًا، أعرف هذا، ولا أعبأ به على الإطلاق. أستقبل زائرًا عارضًا في المستشفى من حين إلى آخر، لكنني أشك أن ذلك ليس عن رغبة في رؤيتي، أو من باب التعاطف (هذا ما أظنه)، وإنما بالأحرى - حتى إن لم يكونوا واعين تمامًا - ليشهدوا إقفال الملف. إذًا هكذا انتهى به الحال! ويهزّون رؤوسهم بجانب فراشي. أتفهم ذلك، إنه شعور بشري. أنا نفسي لست نقي القلب على وجه الخصوص، هذا أمر مؤكد. لقد أفسدتُ الكثير من الأمور في حياتي. ليس لدي إلا شيءٌ واحد في صالحي، وهو أنني طالما كنتُ منظمًا، وأريد الاستفادة

القصوى من ذلك الآن».

كانت لديها صعوبات في فهم البولندية - نسيت الكثير من الكلمات تمامًا. لم تعرف على سبيل المثال، معنى «osoba publiczna»، كان عليها أن تفكر في المعنى، ولو أنها أدركت بعد ذلك أنها لا بدّ تعني «شخصية عامة». لكن ما معنى «أفسدتُ الكثير من الأمور؟». أنه جعل الأمور فاسدة؟ أنه سبب الأذى لنفسه؟

حاولت تصوره وهو يكتب ذلك الخطاب، إن كان جالسًا أم راقدًا، وكيف كانت هيئته، إن كان في بيجامته، لكن صورته في رأسها ظلت مجرد حدود خارجية، ليست مملوءة، شكل فارغ يمكنها النظر من خلاله ورؤية الطريق المؤدي إلى المروج والخليج. بعد هذا الخطاب الطويل أخرجت علبة الورق المقوى حيث تحتفظ بصورها القديمة من بولندا، وفي النهاية عثرت عليه. صبي صغير، بتسريحة شعر لائقة، ظلال الشعر النابتة على وجهه الفتي، في نظارة غريبة الشكل وكنزة ممطوطة من النوع الذي يرتديه سكان المرتفعات، بيد مقوّسة حول وجهه - لا بدّ أنه كان يقول شيئًا عندما أُلتُقطت له تلك الصورة بالأبيض والأسود.

مثال على التزامن: بعد بضع ساعات وصلها خطاب ألحقت به صورة. «الكتابة تزداد صعوبة بالنسبة إلي. سارعي أرجوك. هكذا أبدو -يجب أن تعرفي- مع أن هذه الصورة أُلتُقطت قبل عام». رجل عملاق، الشعر الرمادي على رأسه حليق، وجهه ناعم، ملامحه هادئة مغبشة قليلًا، يجلس في غرفة ما حيث الرفوف مثقلة بالأوراق- دار نشر؟ لم يكن هناك من شبه بين الصورتين، ستكون معذورًا إن ظننتهما شخصين مختلفين تمامًا.

لم تعرف نوع المرض. تُدخل اسمه البولندي على جوجل، فتكتشف. آآها. في المساء سألت زوجها عنه. شرح لها بالتفصيل آلية المرض، استعصاءه على الشفاء، التحلل والشلل المستفحل.

وأخيرا قال: «لماذا تسألين؟».

«مجرد فضول. صديق لصديق أصيب به»، هكذا أجابته مراوغة، ثم، وكأنما على نحو عابر، في خطوة فاجأتها هي نفسها، ذكرت مؤتمرًا في أوروبا، حالة طارئة في الدقيقة الأخيرة، ينبغي عليها حضوره.

الرحلة الأخيرة لا تحتسب حقًا، ساعة واحدة من لندن إلى وارسو. لا تكاد تنتبه إليها. شبان كثيرون يعودون من أعمالهم إلى ديارهم. يا له من شعور غريب - الجميع يتحدثون البولندية بشكل تلقائي. في البداية بوغتت وكأنها صادفت ثلة من الإغريق القدامى. كلهم في ملابس ثقيلة: قبعات، قفازات، شيلان، سترات زغبيّة مثل تلك التي ترتديها عندما تذهب

للتزلج - والآن فقط تستوعب حقًا أنها قد هبطت في قلب الشتاء.

جسدٌ مُنهك، يذكرك بوتر عضلي مُفرَد، ممدد على الفراش. لا يتعرف عليها عندما تدخل الغرفة، بالطبع. يتفحصها بانتباه، عالمًا أنها لا بد أن تكون هي، لكنه لا يتعرف عليها حقًا، أو على الأقل هذا ما يبدو.

تقول: «تحياتي».

يبتسم بوهن ويغمض عينيه لبرهة.

يقول: «أنتِ رائعة».

تفسح لها المرأة الجالسة على جنب فراشه، لا بدّ أنها أخته التي تحدث عنها، لكي تتمكن من وضع يدها على يده. يده نحيلة ورمادية لأن دمه من رماد، لا من نار.

تقول له أخته: «انظر هنا. شخص ما لديه زيارة! انظر من جاء لزيارتك»، ثم لها: «تريدين الجلوس؟»

غرفته تشرف على باحة مغطاة بالثلج وأربع صنوبرات عملاقة في المؤخرة ثمة سور وطريق، وبعدهما فيلات حقيقية؛ ذهلت من بهاء معمارها. تتذكر المنطقة بصورة مختلفة. ثمة أعمدة، شرفات، طرق مضاءة للسيارات. تسمع أزيز محرّك بينما يحاول أحد الجيران عبثًا تشغيل سيارته. تفوح من الهواء رائحة حريق خفيفة، رائحة دخان ينبعث من خشب صنوبري.

ينظر إليها ويبتسم، لكن بشفتيه فقط، زاويتهما ملتويتان قليلًا، بينما تبقى عيناه جادتين. ثمة حامل معلّق عليه محلول وريدي على يسار السرير؛ محقنة يبرز من وريد منتفخ أزرق يبدو على شفا الانهيار.

عندما تتركهما أخته، يقول: «هل هذه أنتِ؟».

تبتسم.

«هل ترى؟ لقد أتيت»، تقولها: جملة بسيطة ظلت تتمرن عليها في رأسها لبعض الوقت. وقد تبيّن أنها تؤدي الغرض.

يقول: «شكرًا لك. لم أظن...» ويبتلع ريقه وكأنه على وشك البكاء.

تخاف أن تتعرّض لمنظر غير مريح. تقول: «لا تكن سخيفًا. لم أتردد لثانية واحدة».

«تبدين جميلة. شابة. ولو أنكِ صبغت شعرك»، يقولها، في محاولة لتلطيف الأجواء.

شفتاه مشققتان. تلمح كوب ماء على طاولة فراشه تخرج منه شفاطة ملفوفة بقطعة شاش.

«أتريد بعض الماء؟».

يومئ برأسه.

تبلل قطعة الشاش في الكوب وتنحني على هذا الرجل الجاثم؛ تشم حلاوة مثيرة للغثيان. عيناه ترفان لتغمضا وهي تبلل شفتيه بِرِقّة.

يحاولان إقامة حوار، لكنهما لا يعرفان من أين يبدآن. يظل مغمضًا عينيه لبضع ثوان، ولا تعرف إن كان لا يزال معها أم انجرف إلى مكان ما. تحاول شيئًا من قبيل: «تتذكر عندما...»، لكن ذلك لا يفلح. عندما تلوذ بالصمت يلمس يدها ويقول: «أرجوك، احكِ لي قصة. أرجوكِ تكلمي».

«كم من الوقت...»، تحاول العثور على الكلمات. «سيستمر هذا؟».

يقول إن الأمر قد يستغرق أسابيع.

«ما هذا؟»، تسأله وهي تشير بعينيها للمحلول.

يبتسم ثانية.

يقول: «وجبة فائقة القيمة الغذائية. إفطار، وغداء وعشاء. أضلاع خنزير مع الكرنب، فطيرة تفاح، وبيرة للتحلية».

بهدوء ثعيد وراءه كلمة «كرنب»، apusta، كلمة كانت قد نسيتها تمامًا، وكافية لتشعرها بالجوع. تتناول يده وتدلك أصابعه الباردة بحرص. يدا غريب، غريب - ما من شيء فيه تعرفه الآن. جسد غريب، صوت غريب. كأنها في غرفة شخص آخر.

تسأله: «هل تتذكر شكلي حقًا؟».

«بالطبع أتذكر شكلك. لم تتغيري كثيرًا».

لكنها تعرف أن ذلك ليس صحيحًا. تعرف أنه لا يتذكر شكلها على الإطلاق. ربما لو تسنّى لهما قضاء وقت أطول معًا، زمن يسمح بتكشف جيّد لكل تلك الوجوه، والإيماءات، وعادات الحركة المختلفة... لكن ما جدوى ذلك؟ تفكر أنه انجرف بعيدًا من جديد - أغمض عينيه وكأنه نائم. لا تزعجه. تراقب وجهه الرمادي وعينيه الغائرتين، أظافره شديدة البياض حتى أنها تبدو وكأنها مصنوعة من الشمع، لكن بلا عناية، لأن الخط الفاصل بينها وبين جلد أصابعه مغبش.

بعد برهة يستفيق ثانية، ينظر إليها وكأنما لم تمرُّ إلا ثانية واحدة.

«عثرت عليك على الإنترنت منذ وقت طويل. قرأتُ مقالاتك، ولو أنني لم أفهم معظمها».

يبتسم ابتسامة باهتة. «كل تلك المصطلحات المعقدة».

تسأله مندهشة: «هل قرأتها فعلًا؟».

«تبدين على ما يرام. شكلك على ما يرام».

تقول: «أنا على ما يرام».

«كيف كانت رحلتك؟ كم ساعة؟».

تخبره عن محطات رحلتها، عن المطارات، تحاول حساب الساعات، لكنها لا تفلح: يبدو أن الزمن يتمدّد عندما تطير من الشرق إلى الغرب. تصف له بيتها، ومنظر الخليج. تُخبره عن الأبوسوم، وعن ابنها المسافر إلى غواتيمالا لمدة عام لتدريس اللغة الإنكليزية في مدرسة ريفية. عن والديها، اللذين ماتا في تتابع سريع، راضيين، بشعر أشيب، يُسرَّان إلى بعضهما بالبولندية. عن زوجها، الذي يجري جراحات عصبية معقدة.

يسألها فجأة: «أنت تقتلين الحيوانات، أليس كذلك؟».

ترتبك. تنظر إليه. ثم تفهم.

تقول: «أمر صعب، لكن يجب أن ينجز. تشرب؟».

يهز رأسه.

يقول: «لماذا؟».

تحرك يدها حركة غامضة. إيماءة ضجر. السبب واضح. لأن الناس أدخلوا إلى الجزيرة حيوانات مدجنة لم تكن معروفة من قبل النظام البيئي المحلي. بعضها جلب من باب الطيش، قبل زمن طويل، نحو مئتي عام بينما يبدو أن البعض الآخر جاء إلى الشاطئ من دون خطأ من أحد، هرب فحسب. أرانب. حيوانات أوبوسوم وابن عرس تُربّى لفرائها. نباتات انسلت هاربة خارجة من حدائق الناس. مؤخرًا رأت عناقيد من زهور إبرة الراعي حمراء مثل الدم على جانب الطريق. هرب الثوم وأصبح وحشيًا في البرية. أزهاره بهتت بعض الشيء - من يعرف، ربما اختار أن يتحوّر عبر طفرة محلية هنا، بعد آلاف السنين. أمثالها يعملون جاهدين من أجل حماية الجزيرة من التلوث ببقية العالم؛ من أجل منع البذور العشوائية من التسلل من الجيوب العشوائية والهبوط في تربة الجزيرة؛ من أجل منع الفطريات الأجنبية العالقة بقشور الموز المجلوبة من الخارج من الإطاحة بالنظام البيئي كله. وعلى أحذيتهم، على نعال أحذية التريض، من أجل منع كل مهاجر آخر غير مرغوب من الدخول - بكتيريا، حشرات، طحالب. إنها معركة يجب أن تشن، ولو أنها محسومة من البداية بالطبع. عليك أن تتصالح مع حقيقة أنه في النهاية، لن تكون هناك نظم بيئية فردية. العالم كله يتلاطم معا في عَكارة واحدة.

لكن ينبغي عليك تفعيل لوائح الجمارك. ليس مسموحًا لك بإدخال أي مواد بيولوجية إلى الجزيرة؛ البذور تتطلب تصريحًا خاصًا.

تلاحظ أنه ينصت بانتباه. لكن هل الموضوع مناسب اللقاء كهذا؟ تفكر، ثم تصمت.

يقول: «احكِ لي. احكِ لي».

تُسوّي بيجامته، التي كانت قد سقطت عن صدره، كاشفة عن قسم باهت من الجلد مع بضع شعرات رمادية.

«انظر، هذا زوجي. هؤلاء أولادي»، قالتها وهي تمدّ يدها إلى حقيبتها، ساحبة محفظتها، حيث تحتفظ بصورها في جيب شفاف. تُريه أولادها. لا يستطيع أن يحرّك رأسه، لذا ترفع الصورة قليلًا لأجله. يبتسم.

«هل جئت إلى هنا من قبل؟».

تهز رأسها.

«لكنني ذهبت إلى أوروبا، لمؤتمرات مختلفة. ثلاثة مؤتمرات».

«ولم تشعري برغبة في الرجوع؟».

تفكر للحظة.

«كانت حياتي مزدحمة جدًا، تعرف بالمدرسة، ثم بالأطفال، ثم بالعمل. شيّدنا هذا البيت على المحيط»، هكذا تبدأ، لكنها تسمع صوت أبيها في عقلها يقول لها إنه بلد لا يصلح إلا للثدييات الصغيرة ولحشرات العث. تختتم كلامها قائلة: «أعتقد بأنني نسيت الأمر».

يسألها، بعد وقفة أطول: «هل تعرفين كيف تفعلينها؟».

تقول: «نعم».

«متى».

«في الوقت الذي تريده».

يدير وجهه إلى النافذة بإجهاد ملحوظ.

يقول: «بأسرع ما يمكن. غدًا؟».

تجيب: «طيب. غدًا».

يقول: «شكرًا لك»، ثم ينظر إليها وكأنه أخبرها لتوّه أنه يحبها.

وهي تغادر، يأتي كلب سمين من فرط الطعام ويتشمّمها. الأخت تقف في الثلج في شرفة

المدخل، تدخن سيجارة.

تقول: «دخان؟».

تعرف أنها دعوة للكلام، ولدهشتها، تقبل سيجارة. إنها رفيعة للغاية، بنكهة المنتول. تترنّح من النفس الأول.

تقول المرأة: «إنه يستخدم لصقات المورفين، لهذا لا تجدينه في كامل وعيه». ثم تسألها: «هل كانت رحلتك طويلة؟».

تدرك أنه لم يخبر أخته. لذا لا تعرف ماذا تقول.

«لا. لا. لقد عملنا معًا لبعض الوقت»، تقولها من دون تردد؛ لم يسبق لها أن ظنت نفسها قادرة على الكذب. ثم تضيف بسرعة: «أنا مراسلة أجنبية». تريد اختلاق شيء يفسّر لكنتها، التي تبدو أجنبية بعد كل هذا الزمن.

تقول أخته وقد ارتسمت على وجهها صرامة شديدة: «الرب ظالم، ظالم وقاس. أن يعذبه هكذا». ثم تضيف: «خيرًا أني أتيت. إنه يشعر بوحدة شديدة. لدينا ممرضة تأتي من العيادة في الصباح. تقول إنه سيكون أفضل حالًا في مأوى المرضى الميؤوس من شفائهم لكنه لا يريد ذلك».

تطفئان سيجارتيهما في الثلج في الوقت نفسه. تنطفئان بلا هسيس.

تقول: «سأرجع غدًا، لأودعه، لأنني يجب أن أذهب».

«غدًا بهذه السرعة؟ لقد كان سعيدًا بمجيئك... وتبقين ليومين فقط؟». تقوم المرأة بحركة وكأنها تريد أن تمسك يدها، وكأنها تريد أن تضيف: أرجو لا تتركينا.

عليها أن تعدل تذاكرها - لم تكن قد فكرت في العودة بهذه السرعة. لا يمكنها الآن تغيير الرحلة الأهم، من أوروبا إلى ديارها، لذا تجد أمامها أسبوعًا يجب أن تضيعه. لكنها تقرر ألا تبقى هنا - سيكون أفضل لها أن تذهب وحسب، علاوة على ذلك، تشعر بأنها لا تنتمي إلى هذا المكان في هذا الثلج وهذه الظلمة. هناك مقاعد متاحة إلى أمستردام ولندن عصر اليوم التالي تختار أمستردام. ستكون سائحة لمدة أسبوع.

تتناول العشاء بمفردها، ثم تخرج للتنزه في الشارع الرئيسي بـ«البلدة القديمة». تنظر في واجهات المتاجر الصغيرة، التي تبيع غالبًا تذكارات ومجوهرات من الكهرمان لا تعبأ بها. والمدينة نفسها تبدو محصنة ضد الاختراق، كبيرة جدًا وباردة جدًا. يتحرّك الناس في أرجائها متكورين على أنفسهم، وجوههم نصف مخفية وراء ياقاتهم ولفاحاتهم، شفاههم تنفث سحابات صغيرة من البخار. أكوام من الثلج المتجمّد تقبع على الأرصفة. تتخلى عن فكرة

زيارة مساكن الجامعة التي عاشت فيها ذات يوم. في الحقيقة، كل شيء هنا يصدّها. فجأة يحيرها كيف يختار الناس، بإرادتهم الحرة، الرجوع وزيارة مطارح صباهم المختلفة. ما الذي ينتظرون رؤيته؟ ما الذي يريدون التثبت منه. فقط حقيقة أنهم كانوا هنا؟ أم أنهم قد فعلوا خيرًا بالمغادرة؟ أو ربما حرّضهم أمل ما، أن تَذَكّرهم تلك الأماكن الضائعة بدقة سيكون مثل سحاب يلملم شتات الماضي والمستقبل، ويصنع منهما سطحًا واحدًا مستتبًا، سنًا بعد سِن، لُحمة معدنية.

والواضح أنها تصد المحليين، أيضًا، فلا يكادون ينظرون إليها، يتجاهلونها وهم يمرون بها. وكأن حلم طفولتها، أن تصبح غير مرئية، قد تحقق. أداة مبتكرة مستقاة من الحكايات الخيالية؛ طاقية الإخفاء التي تضعها على رأسك فتجعلك تتوارى مؤقتًا عن أنظار الآخرين.

في السنوات الأخيرة كانت قد أدركت أن كل ما ينبغي عليك لتصير غير مرئي هو أن تصبح امرأة في سنّ معينة، من دون ملامح مميزة: الأمر تلقائي. ليست غير مرئية للرجال فقط، ولكن للنساء أيضًا، اللاتي لم يعدن ينظرن إليها كمنافسة لهن في أي شيء. إنه إحساس جديد ومدهش، كيف تطفو عيون الناس فوق وجهها، فوق خديها وأنفها، لا تعبأ حتى بالانزلاق على السطح. ينظرون إليها مباشرة، لا شك أنهم ينظرون إلى ما خلفها من إعلانات ومناظر طبيعية وجداول زمنية. نعم، نعم، كل الدلائل تشير إلى أنها أصبحت غير مرئية ولو أنها تفكر الآن، أيضًا، في كل الفرص التي قد يوفرها هذا الخفاء - عليها ببساطة أن تتعلم كيفية اقتناصها. على سبيل المثال، إن وقع حادث جنوني ما، لن يتذكر أحد من الموجودين إن كانت هناك، أو إن تذكروا لن يقولوا إلا أن «امرأة ما»، أو «شخصًا آخر ما كان هناك...». الرجال أكثر قسوة في هذا الصدد من النساء، اللاتي يجاملنها أحيانًا فيمتدحن أشياء مثل الأقراط، إذا كانت ترتديها، بينما لا يعبأ الرجال حتى بإخفاء الأمر، لا ينظرون إليها قط أكثر من ثانية واحدة فقط من حين لآخر يثبت طفل ما أنظاره عليها لسبب غير معلوم، متفحصًا وجهها على نحو مدقق ومتجرّد، قبل أن يدير رأسه أخيرًا، صوب المستقبل.

تقضي الأمسيات في ساونا الفندق، ثم تخلد إلى النوم، بسرعة شديدة، مرهقة من اضطراب اختلاف التوقيت، مثل ورقة واحدة سحبت من دكة من أوراق اللعب، ودُسَّت في دكة أخرى، ورقة غريبة. في الصباح، تستيقظ مبكرًا جدًا، وقد استحوذ الخوف عليها. ترقد على ظهرها: الظلام لا يزال قائمًا، وتتذكر زوجها حين ودعها وهو نائم تقريبًا. ماذا لو لم تره ثانية أبدًا؟ وتتصور نفسها تترك حقيبة يدها على الدرج وتخلع ملابسها وترقد إلى جانبه على النحو الذي تحبه، ضاغطة صدرها على جسده العاري، أنفها في رقبته من الخلف. هاتفه. الوقت مساء هناك، وهو عاد لتوه من المستشفى. تُخبره ببعض الأشياء عن المؤتمر. والطقس، كم هو بارد، لا تظنه قادرًا على احتماله. تُذكره بري الأزهار في الحديقة، خاصة الطرخون في البقعة الصخرية. تسأله إن كانوا اتصلوا بها من العمل. ثم تأخذ حمامًا،

تتهندّم، وتنزل لتناول الفطور، حيث تكون أول من يصل.

في الحقيبة الصغيرة التي تحوي أدوات زينتها ثمة أنبوب يشبه عينة من عطر. تأخذه معها اليوم، تشتري محقنًا من صيدلية في الطريق. طريف حقًا أنها لا تتذكر المرادف الغريب لكلمة حقن strzykawka فتقول بدلا من ذلك كلمة «حَقن» zastrzyk. يبدوان متقاربين.

بينما يمضي بها التاكسي في المدينة، يتكشف لها ببطء سبب إحساسها بعدم الانتماء: لقد صارت مدينة مختلفة الآن، لا تُذكر بأي وجه من الوجوه بتلك المدينة التي تحتفظ بها في رأسها؛ لا شيء هنا يمكن لذاكرتها أن تتشبث به. لا شيء يبدو مألوفًا. البيوت مكتنزة جدًا بدينة جدًا، الشوارع واسعة جدًا، الأبواب جامدة جدًا سيارات مختلفة تسير في شوارع مختلفة، بل وفي الاتجاه العكسي لما تعرفه. لهذا السبب لا تستطيع أن تنفض عن نفسها الإحساس بأنها قد انتهت إلى الجانب الآخر من مرآة في أرض خيالية ما، حيث كل شيء غير حقيقي، وهو ما يجعل كل شيء مباحًا أيضًا على نحو ما. لا أحد يستطيع أن يمسك يدها، لا أحد يستطيع أن يعتقلها، تتحرك في تلك الشوارع المتجمدة مثل زائرة من بعد آخر، مثل كائن أعلى على نحو ما عليها أن تنكمش بصورة ما داخل نفسها لكي تستطيع التلاؤم. ومأموريتها الوحيدة هي هذه المهنة، واضحة ومعقمة مهمة حُب.

يضيع سائق التاكسي قليلًا فور وصولهما إلى تلك البلدة الصغيرة ذات الفيلات، والتي لها أيضًا اسم يذكر بحكايات الجنيّات: «زاليشي غورنيه»، بمعنى فوق التلال، ووسط الغابات. تطلب منه التوقف عند المنعطف، عند بار صغير، وتنقده أجره.

تسير عدة عشرات من الأمتار بسرعة، ثم تجاهد عبر كل ذلك الثلج الذي لم يكشطه أحد في الدرب المألوف من البوابة إلى البيت. وهي تفتح البوابة، تُسقط الثلج الذي يعلوها، كاشفة عن رقم البيت من تحتها: 1.

تدخلها أخته ثانية. عيناها محمرّتان من البكاء.

«إنه بانتظارك»، تقولها، ثم تختفي قائلة: «بل وطلب حلاقة ذقنه».

تراه راقدًا على حشيّة جديدة، واعيًا، يواجه الباب - لقد كان في انتظارها فعلًا. عندما تجلس بجانبه على الفراش وتتناول يديه، تلاحظ فيهما شيئًا غريبًا: العرق يتقاطر منهما، حتى من ظهرهما. تبتسم له.

تقول: «إذا، كيف الأحوال؟»

يقول: «بخير».

إنه يكذب: هو ليس بخير.

يشير بعينه إلى علبة مسطحة على طاولة الفراش، ويقول: «الصقي هذه اللصقة عليّ. أنا متألم. علينا أن ننتظر حتى تبدأ في العمل. لم أعرف متى ستأتين، وأردت أن أكون واعيًا عند وصولك. لولا ذلك كان يمكن ألا أتعرّف عليك. كان يمكن أن أظن أنك لست أنت. أنتِ شابة جدًا وجميلة».

تُمسّد صدغه الغائر. تلتصق اللصقة مثل جلدِ ثان، جلد رحيم، تمامًا فوق موضع كليتيه. تُصدم لرؤية قطاع من جسده، محطّم جدًا ومتهالك جدًا. تعضّ شفتها.

يسألها: «هل سأشعر بشيء؟»، لكنها تطمئنه، يجب ألا يقلق.

«خبرني ماذا تريد. هل تريد أن تختلي بنفسك للحظة؟».

يهز رأسه. جبهته جافة مثل ورق الزبدة.

يقول: «لا أريد أن أعترف. فقط امسكي وجهي بين يديك». يبتسم بوهن؛ ابتسامته فيها شقاوة.

تفعلها بلا تردد. تتحسس جلده النحيل وعظامه الرقيقة، محجري عينيه. تتحسس نبضه تحت أصابعها، يرتعش، وكأنه متوتر. الجمجمة، تلك البنية العظمية المُعشّقة، ناشفة وقوية لكنها هشة في الوقت ذاته. تشعر بغصة في حلقها؛ المرة الأولى والأخيرة التي تقترب فيها من البكاء. تعرف أن هذا الاتصال يجلب له الراحة؛ تستطيع أن تحسّه يُهدهد الرعشة تحت جلده. أخيرًا ترفع يديها، لكنه يظل ساكنًا، عيناه مغمضتان. ببطء تنحني عليه وتقبله على جبينه.

يهمس، وعيناه تنبشان بداخلها: «لقد كنتُ إنسانًا طيبًا».

توافقه.

يقول: «احكِ لي حكاية عن شيء ما».

تتنحنح مرتبكة.

يشجعها: «خبريني عن الأجواء في البلد الذي تعيشين فيه».

«إنه منتصف الصيف، الليمون على الأشجار أصبح ناضجًا الآن...».

يقاطعها: «هل ترين المحيط من نافذتك؟».

تقول: «نعم. عندما يتراجع المدّ، تترك المياه أصدافًا في أعقابها».

لكنها مكيدة: لم يكن يخطط للإنصات، وللحظة تتغبش نظرته، لكنها تعود وتستعيد حدّتها السابقة. ثم يتطلع إليها من بعيد جدًا، ثم تعرف أنه لم يعد جزءًا من العالم الذي توجد فيه. ما كان بوسعها أن تحدّد بالضبط ما الذي رأته فيه - أكان الخوف والذعر أو العكس تمامًا:

السكينة. أخيرًا يُعرب لها - بصعوبة وهمسًا- عن امتنانه، أو شيء من هذا القبيل، ثم يخلد للنوم. تُخرج الأنبوب من حقيبتها وتملأ المحقن بمحتوياته. تنزع أنبوب الحقن الوريدي وتحقن ببطء كل قطيرات السائل الذي جلبته معها. لا شيء يحدث عدا أنه يتوقف عن التنفس، فجأة، على نحو طبيعي، وكأن حركة قفصة الصدري من قبل كانت ضربًا من الشذوذ. تُمرر يدها على وجهه، وتعيد توصيل الأنبوب في أداة الحقن الوريدي، وتسوي موضع جلوسها على الملاءة. ثم تغادر.

أخته واقفة في الشرفة الأمامية مجددًا، تُدخِّن.

تقول: «سيجارة؟».

تلك المرة تقول لا.

تسألها المرأة: «هل ستتمكنين من زيارته ثانية؟ كان حضورك مهمًا جدًا بالنسبة له».

تقول: «سأغادر اليوم». ثم تضيف وهي تنزل الدرج «اعتني بنفسك».

عندما تُقلع الطائرة تطفئ عقلها. لا تفكر في الأمر أكثر من ذلك. كل الذكريات تختفي الآن. تقضي يومين في أمستردام، التي كانت في ذلك الوقت من العام عاصفة وباردة ويمكن اختزالها بالأساس في توليفات من ثلاثة ألوان: أبيض، ورمادي، وأسود. تتجول بين المتاحف وتقضي الأمسيات في فندقها. وبينما تسير في الشارع الرئيسي، تصادف معرضًا للتشريح، بعينات بشرية. يثير الأمر فضولها، فتدخل وتقضي ساعتين هناك، تنظر إلى الجسد البشري في كل تباديله الممكنة محفوظًا بعناية فائقة باستخدام أحدث التقنيات. لكن لأنها في حالة عقلية غريبة ومجهدة للغاية، تراها عبر نوع من الضباب، بلا انتباه، فقط الحدود الخارجية. ترى أطرافًا عصبية والقناة المنوية التي تشبه نباتات غرائبية فرّت من سلطان بستانيها، بصيلات، سحلبيات، دانتيل، تطريزًا من الأنسجة، تعصيبًا شبكيًا، كسرات من الأردواز، أسدية، هوائيات وشوارب، نوّارات عنقودية مجارٍ، طيات، أمواجًا، كثبانًا، فوهات بركانية، مرتفعاتٍ، جبالًا، وديانًا، هضابًا، أوعية دموية متعرجة...

في الهواء، فوق المحيط، تجد نشرة المعرض الملوّنة في حقيبة يدها، يظهر عليها جسد بشري، بلا جلد، في وضعية أشبه بتماثيل رودِن: الرأس مستند على يد مستندة على ذراع مستند على ركبة، جسد مهموم، في حالة تفكير تقريبًا، ورغم أنه بلا جلد ولا وجه (يتبيّن أن الوجه واحد من أكثر السمات سطحية في الجسد البشري)، لا تزال ترى أن العينين مائلتان، غرائبيتان. ثم، نصف نائمة، مغمورة في الدمدمات المكتومة القاتمة لمحركات الطائرة، تتخيل أنه لن يمر وقت طويل قبل أن تصبح التكنولوجيا ميسورة أكثر، سوف يُتاح التلدين للجميع. ستكون قادرًا على وضع أجساد أحبابك بدلًا من شواهد القبور، ببطاقات مكتوب

عليها عبارات من قبيل: «فلان الفلاني سكن هذا الجسد لبضع سنوات. ثم غادره في عُمر كذا وكذا». بينما الطائرة تتهيأ للنزول، يستحوذ عليها فجأة خوف وذعر، وتقبض على سندي كرسيها، بقوة.

عندما ترجع أخيرًا، مرهقة، إلى بلدها، إلى تلك الجزيرة الجميلة، يسألها موظف الجمارك بعض الأسئلة الروتينية: هل اتّصلت بأي حيوانات حيث كانت؟ هل ذهبت إلى مناطق ريفية؟ هل يمكن أن تكون قد تعرضت إلى ملوثات بيولوجية؟

تتذكر نفسها في تلك الشرفة الخارجية، تنفض الثلوج عن حذائها، تتذكر الكلب المتخم من فرط التغذية وهو يتسلق الدرج ويحك نفسه بساقيها. وتتذكر يديها وهما تفتحان الأنبوب الشبيه بعينة عطر. لذا، بهدوء، تقول نعم.

يطلب منها موظف الجمارك التنحّي جانبًا. وهناك يُغسل حذاؤها الشتوي الثقيل بمادةٍ مطهرة.

لا تخف

قمتُ بتوصيل شاب صربي في جمهورية التشيك اسمه «نيبويشا». طوال الطريق ظل يحكي لي قصصًا عن الحرب، إلى حدّ أنني بدأت أشعر بالندم كوني أخذته في طريقي.

قال إن الموت يترك بصمته على الأماكن مثلما يضع الكلب علامته حول أراضيه. بعض الناس يستشعرونه على الفور، وآخرون يستغرقون بعض الوقت قبل أن يشعروا بالانزعاج. كل إقامة في أي مكان تفضح التغلغل الهادئ للموت. كما قال:

«في البداية ترين دائمًا الأشياء الحيّة والنابضة. تفرحين بالطبيعة، بالكنيسة المحلية المطلية بألوان مختلفة، بالروائح وكل ذلك. لكن كلما طالت إقامتك في المكان، كلما خبا سحر هذه الأشياء. تتساءلين من عاش هنا قبل مجيئك إلى هذا البيت أو هذه الغرفة، لمن كانت هذه الأغراض، من خدش الحائط فوق السرير، وأي شجرة قطعت منها عتبات الأبواب. يدُ من تلك التي بنت المدفأة المزركشة بتلك التفاصيل الوافرة، يدُ من مهّدَت الفناء؟ وأين هم الآن؟ على أي هيئة؟ من ذا الذي فكر في تلك الدروب حول البركة ومن صاحب فكرة غرس صفصافة أمام النافذة؟ كل البيوت، والجادَات والمنتزهات، والحدائق، والشوارع مشبعة بميتات الآخرين. فور أن تبدئي في الشعور بهذا، يبدأ شيء ما في سحبِكِ إلى مكان آخر، وتبدئين في التفكير أن الوقت قد حان للمضي قدمًا».

وأضاف أننا عندما نكون في حالة حركة، لا نجد وقتًا لمثل هذه التأملات الفارغة. وهذا ما يجعل الناس أثناء الرحلات يرون كل شيء جديدًا ونظيفًا، بكرًا، ومن زاوية ما، خالدًا.

وعندما ترجل في «ميكوليك»، كررتُ لنفسي هذا الاسم ذا الوقع الغريب. «ني-بوي-شا». بدا مطابقًا للكلمة البولندية «ني بوي زي»: لا تخف.

يوم الموتى

يذكر الكتيب الإرشادي أن هذا العيد يستمر لثلاثة أيام. عندما يأتي في منتصف الأسبوع، تضم الحكومة الإجازتين، فتحصل المدارس والمكاتب الحكومية على أسبوع عطلة كامل. تبث محطات الراديو موسيقى شوبان بلا انقطاع، إذ يشيع اعتقاد بأنها تعزز التركيز والتأمل الجاد ينتظر من كل ساكن في هذا البلد أن يزور قبور موتاه في هذا الوقت. ولأن البلد على مرّ الأعوام العشرين الماضية شهدت انتعاشًا اقتصاديًا وتحوّلًا صناعيًا غير مسبوق، أصبح كل السكان تقريبًا في عدد من المدن الجديدة الكبيرة ينطلقون إلى الأقاليم البعيدة. كل رحلات الطيران والقطارات والحافلات تكون محجوزة قبلها بشهور. وهؤلاء الذين يتأخرون يُجبرون الآن على التوجه لزيارة قبور أسلافهم في سياراتهم الخاصة. عشية العيد يختنق المرور في الطرق خارج المدينة. ولأن العيد يحل في أغسطس، لا تكون القيادة وسط زحام مروري في درجة حرارة مرتفعة ممتعة كثيرًا. لذلك ينطلق الناس، الذين يتوقعون شتى أنواع المصاعب، مجهزين بأجهزة تلفزيون بلازما محمولة صغيرة ومبردات. إذا أغلقت النوافذ المطلية وأدرت التكييف، تستطيع اجتياز تلك السويعات، خاصة في الرفقة السارة للعائلة أو الأصدقاء ببوفيه من مأكولات السفر. ويشغل الناس هذه الأوقات بالمكالمات الهاتفية. فبفضل الهواتف المحمولة التي تتيح الاتصال عبر الفيديو، تستطيع استغلال تلك المسافات في التواصل الاجتماعي. بل وتستطيع، وأنت جالس وسط الزحام المروري على هذا النحو، الاتصال بأصدقائك عبر تقنية المكالمة الجماعية، فتتبادلون النمائم وخطط اللقاء بعد أن يرجع الجميع إلى ديارهم.

لأرواح الأسلاف يجلب المرء هدايا: بسكويتٌ خُبزَ خصيصًا لهذا الغرض، فاكهة، صلوات مكتوبة على قطع من القماش.

أما من يبقون في المدن، فيعيشون أحاسيس غاية في الغرابة: مراكز التسوق العملاقة تُغلَق وحتى الشاشات الإعلانية الضخمة تُطفأ في هذه الفترة. عدد قطارات المترو يُقلّص، وتُسكّر بعض المحطات بالكامل (مثلًا: محطة الجامعة ومحطة البورصة). تُغلق مطاعم الوجبات السريعة والملاهي الليلية أبوابها. تصبح المدينة خاوية على عروشها، حتى أن السلطات قررت هذا العام وقف منظومة التحكم الإلكترونية في فسقيات المدينة، الأمر الذي يُنتظر أن يحقق وفرًا هائلًا.

رُوث

بعد وفاة زوجته، وضع قائمة بكل الأماكن التي تحمل اسمها: رُوث.

وجد عددًا منها، ليس مدنًا فقط، وإنما أيضًا أنهار، وقرىً صغيرة، وتلال - بل وجزيرة. قال إنه يفعل ذلك لأجل خاطرها، إضافة إلى أن ذلك كان يمنحه قوة، إذ يراها لا تزال موجودة في العالم، ولو على نحو غير محدد، ولو باسمها فقط. علاوة على ذلك، كلما وقف عند سفح تل اسمه «رُوث»، كان يخامره إحساس أنها لم تمت أصلًا، أنها هنا، لكن بصورة مختلفة.

كان تأمينها على الحياة قادرًا على تغطية نفقات أسفاره.

صالونات الاستقبال في الفنادق الكبرى الفاخرة

أدخل متعجلة فتستقبلني ابتسامة مهذبة من حارس الباب، أجيل النظر وكأنني مشغولة، وكأنني أتيتُ للقاء شخص ما. أصطنع مشهدًا صغيرًا، أنظر إلى ساعتي في صبر نافد، ثم أسقط في أحد الكراسي وأشعل سيجارة.

صالونات الاستقبال أفضل من المقاهي. لا تُضطر إلى طلب أي شيء، لا تُضطر إلى الدخول في نقاش مع الندل، أو تناول أي طعام. الفندق يبسط أمامي إيقاعاته، دوامته، ومركزه هو الباب الدوار. تيارُ الناس المتدفق يتمهل، يدور حول نفسه لليلة أو ليلتين، ثم يمضي قدمًا.

أيًّا كان من يُفترض به المجيء لن يأتي، لكن هل ينتقصُ هذا من روح انتظاري؟ إنه نشاط يشبه التأمل - الزمن يجري ولا يأتي بجديد المواقف تتكرر (تاكسي يتوقف، يخرج منه نزيل جديد، حارس الباب يخرج حقيبته من صندوق السيارة، يتجهان إلى مكتب الاستقبال، ثم إلى المصعد مع المفتاح). أحيانًا تُزدوج المواقف (سيارتا تاكسي تصلان على نحو سيمتري من اتجاهين متقابلين، يخرج منهما نزيلان، حارسان يُخرجان حقيبتين من صندوقي السيارتين)، أو تتضاعف، يعم الزحام، تتوتر الأجواء، تُحلّق الفوضى فوق الرؤوس، لكنه مجرد شكل معقد، تصعب في البداية رؤية تناغمه المركب. في أوقات أخرى يصير البهو فارغًا على نحو غير متوقع، ثم يغازل الحارس موظفة الاستقبال، لكن بذهن شارد، بنصف حماسة يظل على أهبة استعداد فندقية.

أجلس هكذا لنحو ساعة، لا أكثر، أرى هؤلاء الذين يخرجون من المصعد ويهرعون إلى اجتماع، المتأخرين بطبيعتهم. أحيانًا، في استعجالهم، يدورون حول الباب الدوار وكأنهم في طاحونة ستطحنهم في لحظة وتصيرهم غبارًا. أرى هؤلاء المتثاقلين، يجرجرون أقدامهم، وكأنهم يجبرون أنفسهم إجبارًا على وضع قدم أمام الأخرى، يتلكأون قبل كل حركة. نساء ينتظرن رجالًا، ورجال ينتظرون نساءً. النساء يضعن زينةً جديدةً ستزيلها الأمسية الوشيكة عن وجوههن، وفوقهن سحابة من العطر، هالةٌ مقدّسة. الرجال يتصرفون بحرية تامة، لكنهم في الحقيقة متوترون، يعيشون اليوم في الطوابق السفلي من أجسادهم، في أسفل بطونهم.

هذا الانتظار يجلب هدايا لطيفة من حين لآخر - هنا رجل يرافق امرأة إلى تاكسي. يخرجان من المصعد. هي صغيرة الجسم، «بيتيت»، داكنة الشعر، ترتدي تنورة قصيرة

ضيقة، لكنها لا تبدو مبتذلة. عاهرة أنيقة. يسير وراءها، طويل، وخط الشيب رأسه، في بدلة رمادية، يداه في جيبي بنطلونه. لا يتكلمان، ويحافظان على مسافة بينهما: من الصعب تصديق أن أغشيتهما المخاطية، قبل لحظة فحسب، كانت تتحاك في بعضها البعض، أنه كان يفحص دواخل فمها بلسانه فحصًا شاملًا. يسيران جنبًا إلى جنب الآن، لكنه يتركها تدخل أولًا في طاحونة الباب الدوار. التاكسي بالانتظار، وقد أُبلغ مسبقًا. تدخل المرأة من دون كلمة، بابتسامة خفيفة لا أكثر. ما من «أراك لاحقًا»، أو «كان وقتًا لطيفًا». لا شيء من هذا القبيل. يميل على النافذة قليلًا، لكنني لا أظن أنه يقول أي شيء. ربما كلمة وداع لا لزوم لها، ربما من وحي العادة. وتنطلق بالسيارة. يرجع، في هذه الأثناء، ويداه في جيبيه، خفيفًا وراضيًا، بل وثمة شبح ابتسامة على وجهه. لقد بدأ يفكر بالفعل في خطط المساء، يتذكر بريده الالكتروني ومكالماته الهاتفية، لكنه لن يراجعها الآن، سيظل يستمتع بهذه الخفة لبعض الوقت، ربما يخرج لتناول مشروب.

نقطة

حين أمرُّ في تلك المدن، أعرف تمامًا أنه سيكون عليّ، عند نقطة ما، البقاء في إحداها لوقت أطول، بل وربما الاستقرار. أوازن بينها في عقلي، أقارن وأقيّم، ودائمًا يبدو لي أن كلًّا منها أبعد من اللازم، أو أقرب من اللازم.

ما يعني أن ثمة نقطة ثابتة، لا ريب، تدور حولها كل تطوافاتي. أبعد عن ماذا، أقرب إلى ماذا؟

المقطع العَرْضي كوسيلة تعليمية

التعلم عن طريق الطبقات؛ كل طبقة تُذكّر على نحو غامض فحسب بالطبقة التالية أو السابقة؛ عادة ما تكون تنويعة، نسخة معدلة، كل واحدة تسهم في النظام الكلي، ولو أنك لن تعرف ذلك بالنظر إلى كل واحدة على حدة، منزوعة عن الكل.

كل شريحة جزء من الكل، لكنها محكومة بقواعدها الخاصة. النظام ثلاثي الأبعاد، حين يُقلّص ويحصر في طبقة ذات بعدين، يبدو مجردًا. بل وقد تظن أنه لا وجود للكل، أنه لم يوجد قط.

قلب شوبان

من المعروف أن شوبان مات في الساعة الثانية صباحًا («aux petites heures de la nuit»، كما تخبرنا ويكيبيديا الفرنسية) في 17 أكتوبر عام ´. حول فراش موته كان عدد من أقرب أصدقائه، من بينهم شقيقته لودفيكا، التي ظلت ترعاه بكرم وإحسان حتى النهاية، وكذا الأب ألكسندر يلوفيتسكي الذي، وقد زعزعه الهلاك الحيواني الهادئ لذلك الجسد التالف، والمعركة الطويلة الممتدة مع كل شهيق، أغشي عليه أولًا في بيت الدرج ثم، انصياعًا لحس متمرد لم يكن يعرف بوجوده، فكر في رواية أفضل عن موت الفنان العبقري يوردها في مذكراته. كتب يقول، بين أشياء أخرى، إن الكلمات الأخيرة لفريدريك شوبان كانت: «لقد وصلت إلى منبع كل سعادة»، وهي كذبة واضحة، ولو أنها بالتأكيد جميلة ومؤثرة. في الحقيقة، كما تتذكر لودفيكا، لم يقل شقيقها شيئًا؛ في الحقيقة، ظل غائبًا عن الوعي لبضع ساعات. ما فرَّ حقًا من شفتيه في النهاية كان تيارٌ من الدم الثخين الداكن.

الآن تسافر لودفيكا، المتجمدة والمنهكة، في عربة حنطور. تقترب من ليبسك. إنه شتاء ممطر، وسحاب ثقيل بكروش سوداء يقترب من ناحية الغرب؛ الأرجح أنها ستمطر ثلجًا. لقد مرت شهور طويلة منذ الجنازة، لكن جنازة أخرى، في بولندا، تنتظر لودفيكا الآن. لطالما أكد فريدريك شوبان رغبته في أن يدفن في مسقط رأسه، ولأنه يعرف تمامًا أنه يحتضر، رَتّب لموته بعناية. ولجنازتيه أيضًا.

ما كاد يموت حتى وصل زوج زولانغيه. وصل على الفور وكأنه كان ينتظر ظرفًا على بابه مرتديًا معطفه وحذاءه. ظهر ومعه حقيبة جلدية فيها كل معداته. أولًا، غطَّى يد المتوفى الخالية من الحياة بالشحم، ووضعها بأناة وتبجيل فوق طست خشبي صغير، وصب عليها الجبس. ثم بمساعدة لودفيكا، صنع قناع موت - كان عليهما فعل ذلك قبل أن تتصلّب خطوط وجهه على نحو غير ملائم، قبل أن يتدخل فيه الموت، إذ يجعل الموتُ كل الوجوه متشابهة.

بهدوء، وبلا صخب، حققت أمنية فريدريك شوبان الثانية. في اليوم الثاني بعد موته طَلب طبيب أوصت به الكونتيسة بتوكا أن يُعرِّي الجسد حتى الخصر ثم بعد أن وضع حفنة من البياضات حول القفص الصدري للجسد العاري، فتحه بمبضعه بضربة واحدة خاطفة. لودفيكا، التي كانت هناك شاهدة على ذلك، شعرت بأن الجسد قد ارتعش، بل وأخرج ما

يشبه تنهيدة. لاحقًا، عندما اسودت البياضات من الدم المتخثر، أدارت وجهها للحائط.

غسل الطبيب القلب في حوض، واندهشت لودفيكا كم كان كبيرًا، بلا شكل، بلا لون. كان البرطمان المليء بالكحول يتسع له بالكاد، لذا أوصاهم الطبيب أن يأتوا ببرطمان أكبر. النسيج العضلي يجب ألا يضغط وألا يلمس جدران البرطمان.

تغفو لودفيكا الآن، تهدهدها القعقعة المنتظمة للعربية وفي المقعد المواجه لها، إلى جوار رفيقة سفرها، أنبيلا تظهر سيدة، امرأة لا تعرفها، لكن لعلها عرفتها قبل زمن طويل، عندما كانت في هولندا، ترتدي زي حِدَاد مُترَب مثل أرامل انتفاضات عام 1830، وتعلّق على صدرها صليبًا مبهرًا. وجهها منتفخ، صار رماديًا بفعل الصقيع السيبيري؛ يداها، في قفاز رمادي رث، تمسكان بالبرطمان. تستيقظ لودفيكا بأنين وتلقي نظرة على محتويات سلتها. كل شيء على ما يرام. تدفع قبعتها إلى الخلف؛ كانت قد انزلقت على جبهتها. تشتم بالفرنسية: رقبتها متيبسة جدًا. تستيقظ أنبيلا، أيضًا، وتفتح الستائر. المنظر الشتائي الباهت حزين على نحو صادم. في البعيد ثمة نجوع، مستوطنات بشرية غارقة في رمادي رطب. تتخيل لودفيكا نفسها تزحف على طاولة كبيرة، مثل حشرة تحت العين المنتبهة لعالم حشرات رهيب. ترتجف وتطلب تفاحة من أنبيلا.

تسأل، وهي تنظر من النافذة: «أين نحن؟».

تقول أنبيلا بنبرة مهدئة: «ما زال أمامنا بضع ساعات». تُناول رفيقتها إحدى التفاحات المجعدة التي تعود إلى العام الماضي.

كان يُفترض بالجنازة أن تقام في «لا ماديلين». كانوا قد رتَّبوا القدّاس بالفعل، لكن في هذه الأثناء كان الجسد معروضًا في «بلاس فيندوم»، حيث ظلت جحافل من الأصدقاء والرفاق تتوافد لتقديم احتراماتها. بالرغم من النوافذ المغطاة، ظلّت الشمس تحاول التسلل إلى الداخل لتلعب مع الألوان الدافئة لأزهار الخريف: الأستر الأرجواني، الأقحوان العسلي. بالداخل كانت السيادة للشموع حصرًا، ما خلّف انطباعًا بأن لون الأزهار عميق وريَّان، ووجه المتوفي ليس بهذا الشحوب كما في ضوء النهار.

كما تبيّن، سيصبح من الصعب تحقيق أمنية فريدريك أن يعزف قدّاس موتسارت الجنائزي في جنازته. كان أصدقاؤه قد استطاعوا، عبر علاقاتهم العديدة، تجميع أفضل العازفين والمغنين، ومعهم أفضل مغني باس في أوروبا، لويغي لابلاش - إيطالي ظريف كان باستطاعته تقليد أي شخص يريد بطريقة يجدها الجميع مؤثرة. بل إنه، في إحدى الأمسيات عندما كان الجميع ينتظرون الجنازة، قام بتشخيص رائع لشوبان حتى أن الرفاق كلهم ضجوا بالضحك، وهم لا يعرفون حقًا إن كان يجدر بهم ذلك. فالمتوفي لم يوارَ التراب بعد. لكن في النهاية قال أحدهم إن ذلك ليس إلا دليلًا على الحب والتذكر. وإنه بتلك الطريقة

سوف يبقى مع الأحياء لوقت أطول. وتذكر الجميع كيف كان فريدريك يقلد الآخرين ببراعة وخبث. كان هناك شيء واحد أكيد: كان رجلًا متعدد المواهب.

الخلاصة، تعقدت كل الأمور. لم يسمح للنساء بالغناء فرادى - ولا حتى الغناء في الجوقة. في «لا ماديلين». كان هذا تقليدًا قديمًا جدًا عندهم: لا نساء. فقط أصوات رجال، أو على الأكثر أصوات خصيان (بالنسبة للكنيسة حتى الرجل الذي لا يمتلك خصيتين أفضل من المرأة، كما لَخَّصت الموقف المرأة المسؤولة عن أداء مقاطع السوبرانو، المغنية الإيطالية الآنسة «غراتسيلا بانيني»)، أين يتسنى لهم العثور على خصيان في ذلك اليوم والعصر، في عام 1849؟ كيف يمكنهم غناء «توبا ميروم»، إذًا، من دون الأجزاء السوبرانو والألتو؟ كاهن الأبرشية في «لا ماديلين» أخبرهم أن القواعد لا يمكن أن تتغير، حتى لأجل شوبان.

صاحت لودفيكا، التي اقتربت من حافة اليأس: «كم من الوقت يفترض أن نظل محتفظين بالجثمان؟ هل سيكون علينا أن نلجأ، بحق الرب، إلى روما للحصول على جواب؟».

ولأن أكتوبر كان دافئًا بعض الشيء هذا العام، تُقِلُّ الجثمان إلى حافظة جثث باردة. كُسي بالأزهار، حتى صار غير مرئي عمليًا من تحتها. رقد في شِبه ظلام، واهٍ، هزيل، بلا قلب، قميص أبيض بلون الثلج يخفي مجموعة الدُرز غير الدقيقة التي أعادت إغلاق القفص الصدري.

في هذه الأثناء استمرت التمارين على «القدّاس الجنائزي»، فيما راح خلصاء المتوفي يتفاوضون بلين مع كاهن الأبرشية. في النهاية تقرّر أن تقف النساء، المغنيات الفرادى وكذا مغنيات الجوقة، وراء ستارة سوداء ثقيلة، غير مرئيات لمرتادي الكنيسة. وحدها غراتسيلا تذمرت، لا أحد آخر، لكن في النهاية تقرر أن هذا القرار، في هذا الموقف تحديدًا، أفضل من لا شيء.

في انتظار الجنازة، ظل أصدقاء فريدريك المقربون يذهبون كل مساء إلى شقيقته أو إلى «جورج ساند» لإحياء ذكراه. كانوا يتناولون العشاء معًا ويتبادلون آخر نمائم المجتمع. كانت تلك الأيام هادئة بشكل غريب، وكأنها لا تنتمي إلى الروزنامة العادية.

غراتسيلا، الضئيلة وداكنة البشرة، التي لها زوبعة من الشعر المتموّج، كانت صديقة «دلفينا بتوكا»، وكانت المرأتان قد جاءتا لزيارة لودفيكا في عدة مناسبات. غراتسيلا، وهي ترتشف الـ«ليكور»، سخرت من الباريتون ومن قائد الفقرة الموسيقية لكنها كانت سعيدة جدًا بالحديث عن نفسها. كما هو حال الفنانين دائمًا. كانت تعرج على إحدى ساقيها لأنها أصيبت إصابة فادحة العام السابق في فيينا أثناء معركة شوارع. كانت الجماهير قد قلبت عربتها، بعد أن ظنوا لا شك أنها تقل أرستقراطية ثرية، لا ممثلة. كانت غراتسيلا ضعيفة تجاه الأقراط الغالية والزينة الفاخرة غالبًا لأنها انحدرت من أسرة من الإسكافيين في

لومباردي.

«ألا تستطيع الممثلة أن تسافر في عربة مترفة؟ هل يعيب الإنسان، حين يُحرز النجاح، أن يسمح لنفسه بقليل من المتعة؟»، قالتها بلكنتها الإيطالية، ما جعلها تبدو وكأنها تُتأتئ قليلًا.

من سوء حظ غراتسيلا أنها وجدت نفسها في المكان الخطأ في الوقت الخطأ. الجماهير، بميولهم الثورية، إذ لم يجرؤوا على مهاجمة قصر الإمبراطور المحاط بالحرس، بدأوا ينهبون مجموعات مقتنياته. رأتهم غراتسيلا يجرّون كل ما يمكن أن يكون رديفًا، في عقل الشعب، للتحلل الأرستقراطي، والترف، والقسوة. ألقى الحشد المهتاج بالكراسي الوثيرة من النوافذ، مزّق الكتب الفرنسي إربًا، نزع ألواح التكسية الغالية عن الحوائط. هشم المرايا البلورية الجميلة. دمَّر، أيضًا، الخزانات الزجاجية التي تحوي كنوزًا أثرية. رمى الحفريات على الرصيف، كسر النوافذ. في دقائق معدودة سلبوا الأحجار نصف الكريمة؛ ثم استداروا إلى الهياكل العظمية والحيوانات المحشوّة. دعا شخص بدا وكأنه متحدث باسم الشعب أن تُمنح كل الأجساد البشرية المحشوّة وغيرها من المومياوات جنازات مسيحية لائقة، أو على الأقل أن تدمر تلك البراهين على اغتصاب السلطات للجسد البشري. نُصبت محرقة كبيرة؛ أحرقوا كل ما وقعت عليه عيونهم.

سقطت العربة في وضعية فظيعة حتى أن أسلاك التنورة المنتفخة جرحت ساقها ويبدو أنها قطعت بعض الأعصاب، لأن الطرف بقي خاليًا من الحياة نوعًا ما. وبينما كانت تحكي تلك الحوادث الدرامية، رفعت تنورتها وعرضت على السيدات الأخريات ساقها، الموثوقة إلى عظمة حُوت بكمَّة قماشية، مثبتة في مكانها بالحلقات التي تثبت فستانها أيضًا.

قالت المغنية: «هاكم فائدة التنورات ذات الأسلاك».

كانت إيماءة المغنية - التي أُستقبل صوتها وأداؤها بإعجاب بالغ في القداس الجنائزي - هي التي أوحت للودفيكا بالفكرة. الإيماءة: رفع الفستان في الشكل الجرسي وكشف أسرار القبة المركبة التي تمتد بطول عظمة الحوت والأسلاك التي تشبه أسلاك مظلة.

توافد على الجنازة عدة آلاف من المشيعين. كان عليهم إعادة توجيه مسار العربات بعيدًا عن طريق الموكب. باريس كلها تعطلت بسبب الجنازة. عندما بدأوا «الافتتاحية»، التي أعدت بعناية وحرص، وضربت أصوات الجوقة سقف الكنيسة المقبب، بدأ الناس في البكاء. كان قدّاس «الراحة الأبدية» الجنائزي قويًا، وتأثر به الجميع بالغ التأثر، لكن لودفيكا لم تعد تُحس بأي حزن، إذ كانت قد أفرغته في بكائها- لكنها أحست بالغضب. فأي عالم بائس مثير للشفقة هذا، حيث تموت في ريعان الشباب - حيث تموت أصلًا؟ ولماذا هو؟ لماذا بتلك الطريقة؟ رفعت منديلًا إلى عينيها، لا لتمسح دموعًا، وإنما فقط لتقبض على شيء صلب

بقدر الإمكان، ولتغطي عينيها، التي لم تحبس ماءً، وإنما نار.

Tuba mirum spargens sonum
Per sepulcra regionum,
Coget omnes ante thronum

هكذا بدأ الباس، لويغي لابلاش، بدفء بالغ، بشجن بالغ، حتى أن غضبها همد. ثم دخلت التينور، والألتو من وراء الستائر:

Mors stupebit et natura
,Cum resurget creatura
.Judicanti responsura
,Liber scriptus proferetur
,In quo totum continetur
.Unde mundus judicetur
Judex ergo cum sedebit
:Quidquid latet apparebit
Nil inultum remanebit.

إلى أن سمعت أخيرًا صوت غراتسيلا الصافي ينطلق مثل الألعاب النارية، مثل تجلّي ساقها المعوّقة، الحقيقة العارية. غنت غراتسيلا أعذب غناء كان هذا واضحًا، ولم تكتم الستائر صوتها إلا قليلًا، تخيلت لودفيكا الفتاة الإيطالية الضئيلة تمد عنقها، عازمة، رأسها مرفوع، عروق رقبتها منتفخة - كانت لودفيكا قد رأتها في التمارين وهي ترفع عقيرتها بالكلمات في صوتها الاستثنائي ذاك، الصافي كالبلور، الصافي كالألماس، رغم الستائر الثقيلة، رغم ساقها، وليذهب العالم اللعين كله إلى الجحيم:

Quid sum miser tunc dicturus
.Quem patronus rogaturus

قبل نحو نصف ساعة من حدود دوقية بوزنان الكبرى، توقفت العربة أمام حانة. حيث غسلت المسافرات وجوههن، ثم تناولن وجبة صغيرة: قليل من اللحم المحمر البارد والخبز والفاكهة، ثم خرجن واختفين، مثل غيرهم من الركاب، وسط الأحراش على جانب الطريق. ظللن لبرهة يتفرّجن على براعم رجل الغراب المتفتحة، ثم أخرجت لودفيكا من سلتها برطمانًا رحيبًا به قطعة عضلية بنية ودسَّته في جراب جلدي مخفي ببراعة. أخذت أنييلا تربط بدقة طرفي الشريط الجلدي إلى السقالة المشكلة من أسلاك التنورة المنتفخة بحذاء تلة العانة. عندما سقط الفستان في مكانه، كان مستحيلًا أن تعرف أن كنزًا كهذا يقبع مخفيًا تحت

السطح. استدارت لودفيكا عدة مرات، غطت نفسها بفستانها، ثم توجهت عائدة إلى العربة.

قالت لرفيقتيها: «لن أصل بعيدًا بهذا. إنه يهرس ساقي».

لكنها لم تكن مضطرة للذهاب بعيدًا. عادت إلى مقعدها وجلست معتدلة الظهر، ربما متصلبة نوعًا، لكنها كانت سيدة، أخت فريدريك شوبان. كانت بولندية.

عندما أمرهن الدرك البروسيّ على الحدود بالخروج من العربة، عندما فحصوها بدقة ليتأكدوا من أن النساء لا يحاولن تهريب شيء إلى «مملكة بولندا» يمكن أن يشجع على ميول استقلالية سخيفة لدى البولنديين، لم يعثروا على أي شيء بطبيعة الحال.

على الجانب الآخر من الحدود، في «كاليش»، أرسلت عربة من العاصمة وكانت بانتظارهن، إلى جانب العديد من الأصدقاء. أصدقاء وشهود على هذا الحفل الحزين. في معاطفهم ذات الذيول وقبعاتهم العالية، شكلوا ما يشبه سياجًا شجريًا، وجوههم شاحبة وحزينة، رؤوسهم تستدير بإخلاص تجاه كل شحنة تنزل من العربة. لكن لودفيكا، بمساعدة أنييلا، التي كانت تعرف بالسر استطاعت الابتعاد للحظة وخلصت البرطمان من الدواخل الدافئة لفستانها. فَتَّشت أنييلا بيديها وسط الدانتيل، وأخرجت البرطمان بسلام وناولته للودفيكا بإيماءة شخص يسلم أمًّا مولودها الجديد. بعدها، انفجرت لودفيكا في البكاء.

برفقة موكب من العربات، نجح قلب شوبان في العودة إلى وارسو في نهاية المطاف.

عينات جافة

كل حَجّة من حَجّاتي ترمي إلى حَجّة أخرى. هذه المرة في التفاصيل المنسدلة على الرفوف المصنوعة من خشب البلوط والمتوّجة بنقش مكتوب بخط يدوي جميل:

Eminet In Minimus

Maximus Ille Deus[32]

هنا، تُجمع ما يطلق عليها «العينات الجافة» من الأعضاء الداخلية. وقد عولجت بتنظيف الجزء أو العضو المراد من الجسد ثم حشوه بالقطن الخام وتجفيفه. بعد التجفيف، يغطى سطح العينة بالورنيش، من ذلك الذي يستخدم للحفاظ على أسطح اللوحات الفنية. توضع عدة طبقات. وبعد إزالة القطن الخام، تُغطّى دواخل العينة، أيضًا، بالورنيش.

لكن الورنيش، لسوء الحظ، لا يستطيع حماية الأنسجة من التقادم، لذا تكتسب كل العينات الجافة بمرور الوقت درجة لون بنية.

هنا، على سبيل المثال، لدينا معدة بشرية محفوظة على نحو بديع، مضخمة تشبه البالون، البطانة رفيعة وكأنها مصنوعة من ورق الزبدة؛ ثم الأمعاء الغليظة والرفيعة - أتساءل أي قدرٍ من سلع العالم استهلكه هذا الجهاز الهضمي، كم حيوانًا مرّ في مسالكه، كم بذرة انزلقت فيه، كم ثمرة تدحرجت بداخله.

بجوارها، وكأنما فوق البيعة، ثمة قضيب سلحفاة وكلية درفيل.

دولة الشبكة

أنا مواطنة في دولة الشبكة. منهمكة في التحرك في اتجاهات مختلفة. لقد فقدتُ اتجاهاتي في الشؤون السياسية لبلدي في الآونة الأخيرة. جرَت محادثات ومفاوضات، ومؤتمرات، وجلسات، وقفات. طافت خرائط هائلة فوق الطاولات حيث الرايات تعلم الأقاليم المدحورة، حيث تُرسم الانتصارات لتوضح وجهات الغزوات القادمة.

منذ أعوام قليلة فقط، كانت شاشة هاتفي المحمول، حين أعبر عَرَضًا حدودًا صارت الآن غير مرئية على الإطلاق، عُرفيّة، تلتقط الأسماء الغرائبية للشبكات الأجنبية، أسماء لا يتذكرها أحد اليوم.

لم نكن نلاحظ الانقلابات العسكرية الليلية، ولا كانت بنود معاهدات الاستسلام تُكشف للعامة قطّ. لم يكن الناس يعرفون بتحركات الجيوش الاستعمارية المشكلة من مسؤولين مهذبين، كيّسين.

الآن، فور خروجي من الطائرة، يخبرني هاتفي، المهذب بذات الدرجة، باسم المقاطعة التي خرجت إليها، من بين مقاطعات «دولة الشبكة». ويعطيني كذلك معلومات ضرورية، يعرض عليّ المساعدة إن حدث لي أي شيء. لديه أرقام للطوارئ، ومن حين لآخر، في عيد الفالنتاين أو الكريسماس، يشجعني على المشاركة في العروض الترويجية أو المسابقات. يخلب هذا عقلي، وتذوب أمزجتي الفوضوية في طرفة عين.

بخليط من المشاعر، أتذكر رحلة بعيدة حيث وجدث نفسي خارج نطاق أي شبكة. بحث هاتفي المذعور أولًا عن طريق للرجوع، لكنه لم يجد. أصبحت رسائله هستيرية بشكل متزايد. ظل يكرر: «لم يتم العثور على شبكة». ثم استسلم ونظر لي بخواء بحدقته المربعة، يا للعجب، مجرد أداة لا طائل منها الآن، قطعة من البلاستيك.

ذكرني ذلك بوضوح بنقش قديم لرحالة وصل إلى نهاية العالم. متحمسًا، ألقى صُرّة متاعه ووقف ينظر إلى العالم الخارجي، إلى ما وراء «الشبكة». ذلك المسافر يمكن أن يعتبر نفسه محظوظًا، فهو يرى النجوم والكواكب، موزعة بالتساوي على قبة السماء. ويسمع موسيقى الأجرام.

لقد حرمنا من تلك النعمة في نهاية أسفارنا. وراء «الشبكة»، لا شيء غير الصمت.

صلبان معقوفة

في إحدى المدن في جنوب آسيا تُميّز المطاعم النباتية نفسها عمومًا بصلبان معقوفة حمراء، رموز قديمة للشمس وقوة الحياة. هذا يجعل حياة النباتيين أسهل في مدينة أجنبية - ليس عليك إلا أن تنظر أمامك وتتتبع ذلك الرمز. هناك يقدمون الخضار بالكاري (تشكيلة هائلة من الخضروات)، الباكورة، السمبوسك والكورما، البيلاف، قطع إسكالوب صغيرة، وأيضا عصيّ الأرز المفضلة لدي ملفوفة في رقاقات من الطحالب.

بعد بضعة أيام أجد نفسي رهينة ارتباط شرطي، مثل كلاب بافلوف. كلما رأيت صليبًا معقوفًا سال لعابي.

باعة الأسماء

رأيت في الشارع بعض المحال الصغيرة للغاية حيث تُباع الأسماء للأطفال الذين سيأتون إلى العالم قريبًا. تدخل مبكرًا وتضع طلبك. تعطيهم التاريخ الدقيق للحمل، وكذا نسخة من صورة الموجات الصوتية - لأن جنس الطفل مهم جدًا عند اختيار الاسم. يسجل البائع هذه المعلومات ويطلب منك الرجوع بعد أيام. في هذه الأثناء يجهزون خريطة الأبراج الخاصة بالطفل المستقبلي ويكرّسون أنفسهم للتأمل. أحيانًا يأتيهم الاسم بسهولة، يتجسّد على أطراف ألسنتهم في صوتين أو ثلاثة، تلتحم معا بفعل اللعاب إلى مقاطع، تحوّلها يد المعلم الخبيرة بعد ذلك إلى رموز حمراء على الورق. في أحيان أخرى يكون الاسم عنيدًا، غير واضح، يظهر في خطوط عريضة؛ يقاوم مقاومة عنيفة. يصعب حصره في كلمات، عندها تستخدم تقنيات مساعدة تبقى، مع ذلك، سرًا لكل بائع أسماء.

بإمكانك رؤيتهم من الأبواب المفتوحة للمتاجر المغطاة بورق الأَرْز. تماثيل صغيرة لبوذا ونصوص صلوات مرسومة بالأيدي، يكدحون بفرشاة في يدهم مصوّبة تجاه الورقة. أحيانًا يتنزل الاسم من السماء مثل صاعقةٍ مدهشًا، صافيًا، كاملًا تام الكمال. في تلك الحالات لا يمكن فعل شيء. بالطبع، في بعض الأحيان، لا ينال الاسم رضا الوالدين، يفضلون اسمًا لطيفًا مفعمًا بالتفاؤل، مثل «وهج القمر» أو «النهر الطيب» للبنات، أو للأولاد، على سبيل المثال، «مقدام»، أو «جسور»، أو «متحقق». وتذهب تفسيرات البائع أن بوذا نفسه قد سمي ابنهم «وثاق» أدراج الرياح. يغادر الزبائن غير راضين، ويتجهون إلى بائع منافس وهم يرغون ويزبدون.

دراما وأكشن

بعيدًا عن البيت، في متجر لتأجير شرائط الفيديو، أفتش الرفوف. أشتُم بالبولندية. وفجأة تتوقف إلى جواري امرأة متوسطة الحجم تبدو في الخمسين من عمرها وتقول بلغتي في ارتباك:

«هل هذه بولندية؟ هل تتحدّثين البولندية؟ أهلًا».

هنا، وا أسفاه، يصل مخزونها من الجمل البولندية إلى نهايته.

والآن تخبرني بالإنكليزية أنها جاءت إلى هنا وهي في السابعة عشرة، مع والديها؛ هنا، تتباهى بالمرادف البولندي لكلمة «ماما». لفرط انزعاجي تبدأ بعدها في البكاء، عارضة ذراعها، ساعدها، وتتكلم عن الدم، أن روحها بأكملها في ذلك المكان، أن دمها بولندي. هذه الإيماءة البائسة تذكرني بإيماءة مدمن - سبابتها تعرض الأوردة، المكان الذي تغرس فيه الإبرة. تقول إنها تزوجت هنغاريًا ونسيت بولنديّتها. تعتصر كتفي وتتركني، تختفي بين الرفوف التي تحمل بطاقات «دراما» و«أكشن».

يصعب عليّ تصديق أن ينسى إنسانٌ اللغة التي بفضلها رُسمت خرائط العالم. لا بد أنها وَضَعَتها في مكان ما ثم نَسيَتها. ربما تقبع ملفوفة على نفسها ومتربة في درج حمالات الصدر والسراويل الداخلية، محشورة في زاوية مثل كيلوتات مثيرة أُبتيعت ذات مرة في نوبة حماسة ثم لم تأت أي مناسبة لارتدائها.

دليل

قابلتُ علماء سماكة لا يشعرون بأي تناقض كونهم يؤمنون بنظرية الخلق. كنا نأكل خضروات بالكاري على الطاولة نفسها وكان أمامنا وقت طويل قبل رحلتنا الجوية التالية. لذا انتقلنا من الطاولة إلى البار، حيث كان شاب ذو ملامح شرقية وذيل حصان يعزف أغنية لإريك كلابتون على غيتاره.

كانوا يتحدثون عن الرب، وكيف خلق أسماكهم الجميلة كل هذا السلمون المرقط، والكراكي، والطربوت، والسمك المفلطح، جنبًا إلى جنب كل أدلة تطورها السلالي. لاستكمال طقم الأسماك، التي استدعاها إلى الوجود في اليوم الثالث، دبر أيضًا هياكلها التي يسهل نبشها من الأرض، وآثارها الثخينة في الأحجار الرملية، أحافيرها.

سألتُهم: «لأي غرض؟ لماذا يخلق هذا الدليل الزائف؟».

كانوا جاهزين لتفنيد شكوكي، فأجاب أحدهم:

«وصف الرب ونواياه يشبه سمكة تحاول أن تصف الماء الذي تسبح فيه».

وأضاف آخر بعد برهة:

«وعالم السماكة الذي يدرسها».

تسعة

في فندق صغير رخيص فوق أحد المطاعم، في بلدة (س)، خُصصت لي الغرفة رقم تسعة. الحاجب، وهو يسلمني المفتاح (المصنوع من الفضة العادية، والرقم مربوط إلى حَلقة)، قال:

«برجاء انتبهي على المفتاح. رقم تسعة أكثر رقم يضيع».

تجمدتُ والقلم مرفوع فوق الاستمارة التي أملأها.

سألته، وقد أصابني انتباه داخلي فجأة: «ماذا يعني هذا؟». لقد اختار النزيلة المثالية، هذا الرجل وراء الضد - أنا، المحققة الخاصة، التحرّيّة المتخصصة في شؤون العلامات والمصادفات.

واضح أنه لاحظ انزعاجي لأنه حرص على تهدئتي، بما يشبه المودة: لا يعني شيئًا. ببساطة، وفقًا لقوانين الصدفة الخالدة يضيع مفتاح الغرفة رقم تسعة أكثر من المسافرين شاردي الذهن. وهو يعرف هذه الحقيقة لأنه يشرف على تعويض العجز في المفاتيح كل عام، وفي كل مرة يطلب كمية أكبر للمفتاح رقم تسعة. حتى صانع الأقفال فوجئ بذلك.

ظللت أحرص على المفتاح طوال إقامتي التي استمرت أربعة أيام في بلدة (س). كنت أرجع إلى الفندق، فأضعه في مكان مرئي دائمًا، وعندما أغادر، أسلمه ليد موظف الاستقبال الأمينة. عندما أخذته معي مرة من دون قصد، وضعته في أأمن جيب وحرصتُ أن يبقى هناك مع أصابعي طوال النهار.

أتساءل أي قانون يحكم المفتاح رقم تسعة، أي سبب ونتيجة. أو لعل حدس موظف الاستقبال التلقائي صحيح - أنها الصدفة. وربما كان العكس - ربما كانت غلطته؛ لعله كان يختار الغرفة رقم تسعة، من دون وعي منه، للنزلاء شاردي الذهن، غير الجديرين بالثقة المعرضين للتأثر بالإيحاء.

بعد مغادرة متعجلة نوعًا ما لـ(س) بسبب تغيير مفاجئ في جدول المواعيد، بعدها بعدة أيام، صُدمت حين وجدتُ المفتاح في جيب بنطلوني - ما يعني أنني أخذته معي سهوًا. فكرت في إرجاعه بالبريد، لكن، للأمانة، كنت نسيت عنوان الفندق. كان عزائي الوحيد أن هناك آخرين مثلي - مجموعة صغيرة من الناس الذين يغادرون بلدة (س) ومعهم رقم تسعة في جيوبهم. بل ولعلنا، بصورة لا واعية، نشكل معًا جماعة من نوع ما، هدفها لا نستطيع

تخمينه بعد. ربما نجد تفسيرًا في المستقبل. مع ذلك، فقد تحققت نبوءة الحاجب - سيكون عليه مجددًا أن يطلب مفتاحًا للرقم تسعة، ويستمر في إرباك صانع الأقفال.

محاولات لعلم قياسات سفري

يستيقظ رجل من نوم مضطرب على متن طائرة كبيرة عابرة للقارات ويلصق وجهه بالنافذة. يرى في الأسفل أرضًا شاسعة مظلمة. ظلمة لا تخترقها إلا مجموعات من الأضواء الواهنة هنا وهناك - تلك هي المدن الكبيرة. بفضل الخريطة المضاءة على الشاشات يتبين أنها روسيا، في مكان ما في قلب سيبيريا. يغطي نفسه ببطانيته ويخلد إلى النوم ثانية.

بالأسفل، في واحدة من تلك البقاع المظلمة، رجل آخر يُخرج لتوه من بيته الخشبي ويرفع عينيه إلى السماء للاطمئنان على طقس الغد.

لو رسمنا خطًا مستقيمًا افتراضيًا من مركز الأرض، قد يتبيّن أن كلا الرجلين -لجزء من الثانية. وقع على هذا الشعاع. ربما التقت أنظارهما للحظة واحدة، هذا الشعاع ربما يربط بين أعينهما.

للحظة قصيرة كان هذان الرجلان جارين رأسيًا؛ إذ ماذا تُمثّل، في نهاية المطاف، أحد عشر ألف متر؟ نحو عشرة كيلومترات لا أكثر. أقل كثيرًا من أقرب قرية لذلك الرجل على الأرض. أقل من المسافة التي تفصل بين الجيران في مدينة كبيرة.



حتَّى

أقود سيارتي. أمرُّ بلوحات إعلانية تعلن بالأبيض والأسود، بالإنكليزية، «يسوع يحب الجميع، حتى أنت». أشعر بانتعاش من هذا التشجيع غير المتوقع؛ فقط أنزعج من كلمة «حتَّى» هذه.

شفيبودزن

بعد عدة ساعات من السير على ضفاف المحيط المنحدرة وسط أوراق اليوكا الحادة، ننزل في بقع الظلال إلى الساحل الصخري. ثمة ملجأ صغير به وصلة مياه نظيفة. في هذه البرية الهائلة ينتصب سطح فوق ثلاثة جدران. بداخله مقاعد مستطيلة للجلوس والنوم. فوق أحدها - للعجب كراسٌ في غطاء بلاستيكي أسود وقلم «بك» أصفر. إنه سجل للزوار. ألقي حقيبة ظهري وخرائطي على الأرض وأقرأه بنهم، من البداية. أعمدة، خطوط يدوية مختلفة، كلمات أجنبية، ملاحظات مقتضبة لكل أولئك الذين وجدوا أنفسهم هنا قبلي بفعل انعطافة قدرية غامضة. رقم، تاريخ، اسم أول وأخير، «أسئلة السفر الثلاثة: بلد المنشأ، آخر مكان زرته، الوجهة». يتضح أنني الزائر رقم مئة وستة وخمسين الذي يأتي هنا. قبلي كان نرويجيون، أيرلنديون، أمريكان، كوريان اثنان، أستراليون، ألمان، لكن هناك سويسريون، أيضًا، بل وحتى صدق أو لا تصدق سلوفاكيون. ثم تتوقف أنظاري على اسم بعينه «سيمون بولاكوفسكي». شفيبودزن، بولندا. أحدّق مُنوّمة في ذلك البند المتأني، أنطق الاسم بصوت عال: شفيبودزن، وعندها - فصاعدًا- يراودني انطباع أن شخصًا ما وضع غلالة رقيقة بلون الحليب فوق المحيط، ونباتات اليوكا، والدرب المنحدر. هذا الاسم الغريب الصعب، الذي يعاند لساني غير المنضبط، حرف Ś الذي يستدعي على الفور إحساسًا غامضًا، شيئًا يشبه ورقًا مشمعًا باردًا مفرودًا على طاولة مطبخ، سلة من حبات الطماطم المقطوفة لتوها من حديقة بلدة ريفية رائحة الأبخرة المنبعثة من مواقد الغاز. كلها تجتمع معًا لتجعل من «شفيبودزن» الشيء الحقيقي الوحيد. لا شيء سواه. بقية الأيام معلقة فوق المحيط - سراب هائل معقد. ورغم أنني لم يسبق لي قط زيارة تلك البلدة الصغيرة، أتصور، أرى صورة غامضة بعض الشيء لشوارعها، ومواقف حافلاتها، ومتاجر جزارتها، وبرج كنيستها. في الليل تجتاحني موجة حنين، مزعجة، مثل انقباض في الأمعاء، ونصف نائمة أرى شفتي غريب تلتويان على نحو مثالي لكي تُخرجا ذلك الحرف المزدوج المذهل: «Św».

كونيكي: الأرض

أغلق الصيف أبوابه في وجه كونيكي. صَفَعَ أبوابه. وها هو يعدّ جلسته، يبدّل صندله بشبشب، وشورته ببنطلون طويل، يبري أقلام الرصاص على مكتبه، يرتب الإيصالات. لقد كف الماضي عن الوجود، تحول إلى مجرد جذاذات من الحياة - لا معنى للندم الآن. لذلك، لا بد أن الألم الذي يشعر به الآن ليس إلا ألمًا شبحيًا، غير حقيقي، الألم الذي يميز كل جسم ناقص، مُثلم، يتوق بطبيعته للاكتمال. ما من تفسير آخر.

يجافيه النوم مؤخرًا. أو بالأحرى - يغفو في المساءات، يسقط في فراشه من فرط الإرهاق، لكنه يستيقظ نحو الثالثة أو الرابعة صباحًا، كما كان يحدث قبل أعوام، بعد الفيضان. لكن في تلك السنوات كان يعرف من أين يأتيه الأرق - كان مرتعبًا من الكارثة. الآن الأمر مختلف. ما من كارثة. ومع ذلك فقد انفتح ثقب ما، فتق ما. يعرف كونيكي أن الكلمات يمكن أن تصلحه؛ إن استطاع العثور على القدر المناسب من الكلمات السديدة، الرشيدة، لتفسير ما حدث، يمكن ترقيع هذا الثقب، لن يعود له أثر، وسوف ينام حتى الثامنة. أحيانًا، نادرًا، يظن بأنه يسمع صوتًا، كلمة أو كلمتين، نافذًا، رنانًا. كلمات منزوعة من الليل الساهد والنهار المسعور. شرارة تندلع بين خلاياه العصبية، نبضات غير مفهومة تقفز من مكان إلى آخر. ألا يعمل الفكر على هذا النحو بالضبط؟

الأشباح الآن مجتمعة بكامل تشكيلها، تقف على بوابات العقل، منتجات جاهزة خارجة من المصنع. إنها ليست مخيفة إلى ذلك الحد، ليست طوفانا توراتيا، لا تتضمن مشاهد دانتية. فقط حتمية المياه الرهيبة وجودها الكلي. جدران شقته تتشربها. يتلمّس كونيكي بأصابعه الجبس المقزز المشبع بالرطوبة، فيترك الطلاء الرطب علامة على جلده. بقع الحوائط تصنع خرائط البلدان لا يتعرف عليها، لا يعرف لها أسماء. تتسرّب قطرات عبر إطارات النافذة، تغرق السجادة. دُق مسمارًا في الحائط، وسينبثق منه جدول صغير. افتح درجًا وستبقبق منه المياه. ارفع حجرًا وستجدني هناك، هكذا تهمهم المياه. غدران كاملة تنصب على لوحة مفاتيح الكمبيوتر، الشاشة تنفث المياه التي تسرّبت تحتها. كونيكي يجري أمام عمارته فيرى أن صناديق الأطفال الرملية وأحواض الزهور قد اختفت، وسياج الشجيرات لم يعد موجودًا. يذهب إلى سيارته والماء يصل إلى كاحليه، سيحاول قيادتها ليهرب من الحي إلى أرض أعلى، لكنه لن ينجح الآن. يتبين أنهم محاصرون، في شرك.

افرح لأن الأمور انتهت على ما يرام، يقولها لنفسه، وهو ينهض في الظلام ليذهب إلى الحمام. ويجيب على نفسه: بالطبع أنا فرحان. لكنه ليس فرحانًا. يعود ليرقد على الملاءات الدافئة ويبقى هناك بعينين مفتوحتين حتى الصباح. ساقاه متقلقلتان، لا تكفان عن التوجه إلى

مكان ما، تأخذان جولة مزعومة على هواهما تحت طيات البطانية، ثمة حكة داخلهما. أحيانًا يغفو قليلًا، ثم يوقظه شخيره. يرقد مكانه ويرى السماء وهي تضيء أكثر فأكثر من النافذة، ينصت إلى جامعي القمامة وقد بدأوا في إثارة الجلبة، أولى الحافلات، عربات الترام تنطلق من مخازنها. في الصباح يبدأ المصعد في العمل، تستطيع سماع صريره اليائس، صرير مخلوق محصور في فضاء من بعدين، أعلى وأسفل، لا قطريًا ولا جانبيًا. العالم يسير قُدمًا، بهذا الثقب الداخلي الذي لا سبيل لرتقه، كسيحًا. يَعرُج.

كونيكي يَعرُج معه إلى الحمام، ثم يشرب قهوته واقفًا، على منضدة المطبخ. يوقظ زوجته. تختفي في الحمام ناعسة، صامتة.

لقد اكتشف ميزة واحدة لانقطاع النوم - يستطيع سماع ما تقوله في نومها. بهذه الطريقة تكشف أعظم الأسرار نفسها. تفرّ مثل نفثات من دخان، على هواها، ثم تختفي فورًا، عليك أن تقبض عليها هناك، على الشفتين. هكذا يرقد مكانه، مفكرًا، يسترق السمع. تنام بهدوء، على بطنها، لا تكاد تسمع صوتًا لأنفاسها. أحيانًا تتنهد، لكن ما من كلمات في تنهدها. عندما تنقلب من جنب إلى جنب، تتحسس يدها بحثًا عن جسد آخر، من تلقاء نفسها، تحاول أن تمسكه، ساقها تركب على وركه. ثم للحظة يتيبس، إذ ما معنى هذا بحق الجحيم؟ ثم يدرك أنها حركة ميكانيكية، ويتركها تفلت بفعلتها.

وكأن شيئًا لم يتغيّر، باستثناء شعرها الذي صار فاتحًا أكثر في الشمس، ونمشتين ظهرتا على أنفها. لكن عندما لمسها، عندما زحلق يده على ظهرها العاري، ظن أنه تبين شيئًا. لا يعرف على وجه اليقين. لقد أصبح الجلد يقاوم الآن، أصبح صلبًا أكثر، مشدودًا أكثر، مثل الترامبولين.

لا يستطيع أن يسمح لنفسه بالمزيد من الاستقصاء يشعر بالخوف، يسحب يده. بين اليقظة والنوم، يتخيل أن يده تلمس أرضًا أجنبية، شيئًا ظلّ يتغاضى عنه على مدار زواجهما الذي استمر سبع سنوات، شيئًا مخجلًا عيبًا ما، شريطًا من الجلد المُشعر، حرشفًا سمكيًا، زغبة طائر ما، هيكلًا غير معتاد، شذوذًا.

ينزاح إلى حافة السرير ومن هناك ينظر إلى تلك الهيئة التي هي زوجته. في الضوء الشاحب لموقع البناء الذي يتدفق من النافذة يبدو وجهها خطًا خارجيًا باهتًا. يسقط في النوم وهو يحدق في تلك البقعة، وعندما تستيقظ هي، يكون الضوء قد بدأ ينتشر في غرفة النوم. ضوء الفجر معدني، يصبغ الألوان بالرمادي. للحظة يخامره انطباع مخيف أنها ميتة - يرى جثتها- جسدها المجفف الفارغ الذي غادرته الروح منذ برهة، لا يشعر بالخوف، بالضبط، بل بالاستغراب، ولكي يطرد هذه الصورة، يسارع بلمس خدها. تتنهد وتستدير إليه، تضع ذراعها على صدره، روحها تعود. من الآن فصاعدًا تنتظم أنفاسها، لكنه لا يجرؤ على الحركة. ينتظر أن يحرّره جرس المنبه من هذا الموقف المربك.

يزعجه تراخيه. ألا يجب عليه أن يسجل كل تلك التغييرات، لكي لا يفوته شيء؟ ألا يجب أن ينهض بهدوء وينزلق من الفراش ويقطع ورقة نصفين على طاولة المطبخ ويكتب: قبل والآن. ماذا سيكتب؟ جلدها أكثر خشونة - ربما من أثر التقدّم في العمر لا أكثر، أو ربما من تأثير الشمس. تي شيرت بدلًا من البيجاما؟ ربما سخانات التدفئة تعمل على درجة أعلى مما اعتادا. رائحتها؟ لقد غيرت مرطب البشرة.

يتذكر طلاء الشفاه الذي كان معها على الجزيرة. الآن لديها واحد آخر! ذاك كان خفيفًا، كريميًا، رقيقًا، بلون شفتيها. هذا أحمر، قرمزي، لا يعرف كيف يُسمّي لونه، لم يكن ماهرًا قط في ذلك، لا يعرف الفرق بين القرمزي والأحمر، ناهيك عن الأرجواني.

بحرص ينزلق من الفراش، يلمس الأرض بقدميه الحافيتين، وفي الظلام الدامس، لكي لا يوقظها، يذهب إلى الحمام. فقط عندما يدخل يضيء النور الساطع الذي يغشي بصره. على الرف تحت المرأة تقبع حقيبة أدوات تجميلها، مطرزة بالخرز. يفتحها بحرص، ليتأكد من افتراضاته. طلاء الشفاه مختلف.

في الصباح يتصرّف على نحو بارع، هكذا يفكر: على نحو بارع. يزعم أنه نسي شيئًا وعليه أن يبقى في البيت لخمس دقائق أخرى.

«اذهبي أنت، لا تنتظريني».

يتظاهر أنه مستعجل، أنه يبحث عن بعض الأوراق. ترتدي سترتها أمام المرآة، تلف وشاحًا أحمر حول كتفيها وتأخذ الصبي من يده. يصفعان الباب. يسمعهما ينزلان السلم. يتجمد فوق أوراقه ويتردد رجع صفعة الباب عدة مرات أخرى في رأسه مثل جرس- بووم، بووم، بووم، حتى يسود الصمت. ثم يأخذ نفسًا عميقًا وينهض منتصب القامة. صمت. يشعر به يلفه ويغلفه والآن يتحرك ببطء ودقة. يذهب إلى دولاب الملابس، يسحب الباب الزجاجي جانبًا ويمد يده إلى البلوزة الفاتحة، لم ترتديها قطّ، إنها رسمية أكثر من اللازم. يجسّها ثم يمرر يده بكاملها عليها، يترك يده تشتبك في طيات الحرير. لكن البلوزة لا تخبره بأي شيء، لذا يواصل؛ يتعرّف على السترة الكشمير، التي نادرًا ما ترتديها أيضًا، وفساتينها الصيفية، بضعة قمصان، واحد بعد الآخر؛ كنزة صوف لا تزال ملفوفة من المغسلة ومعطف أسود طويل. لم يرها كثيرًا في هذا المعطف أيضًا. ثم يخطر له أن هذه الملابس معلقة هنا لتضليله، لخداعه، لتجعله يحيد عن الطريق.

يقفان جنبًا إلى جنب في المطبخ. كونيكي يفرم البقدونس، لا يريد حقًا أن يتطرق إلى الموضوع ثانية لكنه لا يتمكن من كبح نفسه. يستطيع أن يستشعر الكلمات وهي تنتفخ في حلقه، ولا يستطيع أن يبتلعها ثانية. هكذا يكرر العبارة القديمة من جديد: «طيب، وماذا حدث بعد ذلك؟».

تقول بصوت متقب، ولسان حالها يقول «هل سأكرر ذلك **مرة أخرى؟**»، إنه أصبح مملًا، إنه يجعل الأشياء صعبة. «ها نحن، مرة أخرى: شعرت بأنني لست بخير. أظنني أصبت بتسمم من الطعام. لقد أخبرتك».

لكنه لا يستسلم بهذه السهولة. يقول: «لم يكن بك شيء عندما خرجت من السيارة».

«صحيح، ثم شعرت بوعكة. شعرت بوعكة»، تكرر، مذعنة. «وأظنني فقدت الوعي للحظة، ثم بدأ الولد في البكاء، وهذا ما أعادني إلى وعيي. كان خائفًا، وكنت خائفة أنا أيضًا. توجهنا إلى السيارة، لكن كل ما حدث جعلنا ننتهي إلى السير في الطريق الخطأ».

«أي طريق؟ إلى داخل البلدة؟ إلى فيس؟».

«نعم، إلى فيس. لا، أقصد، لا أعرف، سواء أكان إلى فيس أم لا، كيف كان لي أن أعرف، لو عرفت، **لعدت** إلى السيارة. لقد أخبرتك بهذا ألف مرة»، ترفع صوتها. عندما تبيّنت أننا هنا، جلسنا على الأرض في هذه الأيكة الصغيرة، وراح الطفل في النوم. كنت لا أزال أشعر بالوهن...».

يعرف كونيكي أنها تكذب. يفرم البقدونس ويقول في صوت كأنما ينبعث من قبر، من دون أن يرفع عينيه عن خشبة التقطيع، «لم تكن هناك أي أيكة».

تكاد تصرخ. «بالطبع كانت هناك أيكة».

«لا، ليس صحيحًا. كل ما كان هناك هو أشجار زيتون متفرقة وكرمات عنب. أي أيكة؟».

يعم الصمت، ثم فجأة تقول بجدية بالغة: «طيب، لقد كشفت أمري. كم أنت ماهر. لقد خطفنا طبق طائر. أجروا علينا تجارب. زرعوا فينا رقاقات، هنا»، وترفع شعرها عاليًا لتكشف قفاها. نظرتها ثلجية.

يتجاهل كونيكي صراخها. «طيّب، طيب، استمرّي».

«وجدث بيتًا حجريًا صغيرًا. نمنا، وحل الظلام».

«بهذه البساطة؟ حل الظلام؟ ما الذي حدث طوال النهار؟ ماذا فعلتها طوال النهار؟».

تواصل هي: «قضينا صباحًا لطيفًا. فكرت أنك قد تقلق علينا قليلًا، وأن ذلك قد يجعلك تتذكر وجودنا. مثلما في العلاج بالصدمة. كنا نأكل العنب طوال الوقت ونسبح في البحر...».

«تقولين لي إنكما لم تأكلا لثلاثة أيام؟».

«كما قلت، كنا نأكل العنب طوال الوقت».

يلح كونيكي: «ماذا كنتما تشربان؟»

هنا تكشر. «ماء من البحر».

«لماذا لا تخبريني بالحقيقة وحسب؟».

«هذه هي الحقيقة».

يقطع كونيكي الأعواد الصغيرة الريانة بدقة. «طيب، وماذا بعد ذلك؟»

«لا شيء. رجعنا إلى الطريق واستوقفنا سيارة أخذتنا إلى...».

«بعد ثلاثة أيام!».

«وماذا في ذلك؟».

يرمي السكين وسط البقدونس. تسقط خشبة التقطيع وتصطدم بالأرض. «هل لديك أي فكرة عن المشاكل التي تسببت فيها؟ لقد كانت هناك مروحية تبحث عنكما! الجزيرة كلها استنفرت!».

«طيب، لم يكن ينبغي عليهم ذلك. يتصادف أحيانًا أن يختفي الناس لبعض الوقت، تعرف؟ لم يكن هناك داع لأن يصاب أي أحد بالذعر. نستطيع أن نقول إنني شعرت بأنني لست على ما يرام، ثم تحسنتُ بعد ذلك».

«اللعنة عليك، ماذا دهاك؟ ما الذي يحدث؟ كيف تفسرين كل ذلك؟».

«لا شيء يحتاج إلى تفسير. أنا أخبرك بالحقيقة أنت فقط لا تسمع».

إنها تصرخ، لكنها تعود وتخفض صوتها. «فقط اخبرني، ما الذي تظنه أنت، ما الذي تظنه حدث؟».

لكنه لا يجيبها الآن. هذه المحادثة سبق وتكررت مرات عديدة. يبدو أن كليهما فقد القوة على المواصلة.

أحيانًا تسند ظهرها إلى الحائط وتحدّق فيه وتهزأ منه: «حافلة مليئة بالقوادين مرّت بنا وأخذتني إلى بيت دعارة. وضعوا الولد في الشرفة، ظل يعيش على الخبز والماء. خدمتُ ستين زبونًا على مدار تلك الأيام الثلاثة».

عندما تفعل ذلك يدق الطاولة بقبضته لكي لا يضربها.

لم يخطر له ذلك قطُّ أو يتوجس منه - أن يعجز عن تذكر أيام بعينها. ألا يعرف ماذا فعل في يوم اثنين معيّن، أو حتى ليس معيّنًا، بل الاثنين الماضي، الاثنين قبل الماضي. لا يعرف

ماذا فعل أول أمس. يحاول تذكر الخميس السابق على سفرهما إلى «فيس»- فلا يرد أي شيء على ذهنه. لكن عندما يركز تعود له الحوادث، كيف ساروا على الدرب، كيف كانت الأحراش العشبية الجافة تتكسر تحت أحذيتهم، وكيف كانت الحشائش يابسة حتى أنها تنسحق تحت أقدامهم وتصير ترابًا. ويتذكر الجدار الحجري الواطئ، وإن كان على الأرجح فقط لأنه رأى ثعبانًا هناك، هرب منهم. طلبت منه أن يمسك يد الولد. ثم رفعه ونزعت هي الأوراق الصغيرة لنبات ما وحكتها بين أصابعها. قالت: «سَذَاب». ثم أدرك أن كل شيء هنا يفوح برائحته، برائحة هذا العشب، حتى زجاجات العَرَق، يضعون فروعًا كاملة في الزجاجات. لكنه لا يعرف الآن كيف رجعوا وما الذي حدث المساء ذلك اليوم. لا يتذكر المساءات الأخرى. لا يتذكر أي شيء، لقد ضاعت منه جميعًا. وعندما لا تتذكر شيئًا ما فهذا يعني أنه لم يحدث أصلًا.

تفاصيل، ثقل التفاصيل: لم يتعود على أخذها بجدية. الآن يثق أنه إذا رتبها في سلسلة متماسكة -سبب زائد نتيجة- سيجد تفسيرًا لكل شيء. عليه أن يجلس بهدوء في مكتبه، يضع أمامه ورقة، الأفضل أن تكون من مقاس كبير، أكبر ورقة يجدها، لديه بعض من هذه الأوراق التي تلف بها الكتب، ويرسم مخططًا لما حدث. في نهاية المطاف، تلك هي الحقائق.

لذا، طيب. يشق الشريط البلاستيكي من حول طرد الكتب ويُخرج كومة منها من دون حتى أن ينظر إليها. إنها نسخ من أحد الكتب الأكثر مبيعًا، وماذا يهم؟ يتناول فرخ الورق الرمادي ويفرده على المكتب. يربكه هذا السطح الرمادي الممتد، المجعد قليلًا. بقلم أسود غليظ يكتب: الحدود. لقد تشاجرا هناك. لكن ألا ينبغي عليه أن يرجع إلى ما قبل سفرهما؟ لا، سيبدأ من هناك عند الحدود، لا بد وأنه قد مدَّ جواز سفره من نافذة السيارة. كان هذا بين سلوفانيا وكرواتيا. ثم يتذكرهم وهم ينطلقون على الطريق الأسفلتي السريع وسط قرىً خالية. بيوت حجرية بلا أسقف، تحمل آثار حريق أو قنابل. علامات واضحة على الحرب، حقول اكتست بأعشاب كثيفة، جافة، أراض جرداء بلا رعاية. أصحابها في المنفى. طرق ميتة. أسنان مصرورة. لا شيء، لا مشكلة، إنهم في المَطْهر. إنهم في السيارة ينظرون في صمت إلى تلك المناظر الطبيعية الخلابة. لكنه لا يستطيع التذكر، كانت جالسة بجواره، على مقربة شديدة منه. لا يتذكر إن كانوا قد توقفوا في أي مكان أم لا. نعم، لقد تموّنوا وقودًا في محطة صغيرة. يظن أنهم اشتروا «آيس كريم». يظن أن الطقس كان خانقًا. حليب في السماء.

يشغل كونيكي وظيفة جيدة. في العمل، هو رجل حر. يعمل مندوب مبيعات لناشر كبير في وارسو- «مندوب» بمعنى أنه يتجول لبيع الكتب. لديه عدة أماكن في البلدة عليه أن يتوقف فيها بين حين وآخر لترويج بضاعته؛ يأتي دائمًا بأحدث الكتب ويقدّم عروضًا

خاصة.

يمضي بالسيارة إلى متجر صغير في ضواحي البلدة ويخرج الطلبية من صندوق سيارته. المتجر اسمه «متجر الكتب والأدوات المدرسية»، وهو أصغر من أن يتباهى باسم كهذا، وعلى كل حال، معظم مبيعاته من الكراسات والكتب المدرسية.

الطلبية يمكن إدخالها في صندوق بلاستيكي: كتب إرشادية، نسختان من الجزء السادس من الإنسيكلوبيديا، مذكرات ممثل مشهور، وأخر الكتب الأكثر مبيعًا، الذي يحمل الاسم الغامض «كوكبات»- ثلاث نسخ مرة واحدة، يا للهول! يتعهد كونيكي أمام نفسه أنه سيقرأه. يقدّمون له القهوة وقطعة من الكيك. إنهم يحبونه. يبلع قضمات الكيك بالقهوة، ويعرض عليهم الكتالوغ الجديد. يقول: هذا يبيع جيدًا، وهذا الذي تراه نتلقى عليه طلبيات طوال الوقت. هذه هي وظيفة كونيكي. وهو يغادر يشتري روزنامة معروضة في التصفية.

في المساء، في مكتبه الصغير، يملأ الاستمارات بالطلبيات التي تلقاها؛ يرسلها بالبريد الإلكتروني إلى الناشر. سيتسلم الكتب في الصباح.

يسحب أنفاسًا عميقة مستريحة، يسحب دخانًا من سيجارته: لقد انتهى عمل اليوم. ظل في انتظار هذه اللحظة منذ الصباح لكي يستطيع أن يتفحص الصور في سلام. يوصل الكاميرا بجهاز الكمبيوتر.

هناك 64 صورة. لا يمسح أيًّا منها. تظهر بشكل أوتوماتيكي، كل واحدة لمدة 10-12 ثانية. الصور مملة. ميزتها الوحيدة أنها تثبت اللحظات التي لولا ذلك لاختفت ولم تترك أثرًا. لكن هل يستحق الأمر نسخها؟ ينسخها كونيكي، بأي حال، من القرص المضغوط، يطفئ الكمبيوتر وينطلق إلى البيت.

كل أفعاله يؤديها تلقائيًا: يدير المفتاح في المحرك يطفئ جهاز الإنذار، يربط حزامه، يدير مؤشر الراديو، يضع السيارة على ناقل الحركة الأول. على الفور تتدحرج من موقف السيارات إلى الشارع المزدحم، يَنقل إلى الناقل الثاني في الراديو يتكلمون عن الطقس. يقولون إنها ستمطر. وبالطبع، تمطر السماء، وكأن قطرات المطر كانت بانتظار أن يستحضرها الراديو بتعويذته السحرية؛ تتحرك مساحات الزجاج الأمامي.

وفجأة يتغير شيء ما. ليس الطقس، ليس المطر، ليس المنظر من السيارة، لكن بشكل ما، في لحظة واحدة، يرى كل شيء بطريقة مختلفة. وكأنه خلعَ عن عينيه نظارة شمسيّة، أو كأن مساحات الزجاج كشطَت من وسخ المدينة أكثر مما تكشطه عادة. يشعر بسخونة ويضغط على دواسة البنزين رغمًا عن نفسه. يُطلق الناس أبواق سياراتهم عليه. يستجمع شتات نفسه ويحاول أن يساير الفولكسفاغن السوداء. تبدأ يداه في التعرق. كان ليتوقف جانبًا بكل سرور، لكن لا مكان للتوقف، عليه أن يستمر في المسير.

يرى بوضوح رهيب كيف أن الطريق، الذي يعرفه جيدًا، مملوء بعلامات مروعة. علامات هي رسائل له وحده. الدوائر ذات الساق الواحدة، المثلثات الصفراء المربعات الزرقاء اللوحات المرسومة بالأخضر والأبيض، الأسهم. المؤشرات. الأضواء. الخطوط المطلية على الأسفلت، لوحات تحديد المسافات على الطرق السريعة، التحذيرات، الإشارات التذكيرية. الابتسامة على اللوحة الإعلانية، ليست بغيرِ معنىً هي الأخرى، لقد رآها جميعًا صباح اليوم، لكنه لم يفهمها وقتها، صباح اليوم كان بإمكانه تجاهلها، لكن الآن، الآن ما من سبيل لذلك. الآن تتواصل كلها معه، بهدوء، بوضوح سافر، هناك المزيد منها، الحقيقة ما من مكان يخلو منها. أسماء المتاجر، الإعلانات، رمز المكتب البريدي، الصيدليات البنك، لافتة «قف» المحمولة التي ترفعها مدرسة الروضة المشرفة على الأطفال وهم يعبرون الطريق، علامة تخترق علامة، تجتاز علامة، علامة تؤشر لعلامة - بعد قليل، علامة تبتلعها أخرى، تمرر إلى ثالثة، مؤامرة من العلامات، شبكة من العلامات، تفاهم بين العلامات من وراء ظهره. لا شيء بريئًا، ولا شيء غير مهم، كلها أحجية ضخمة لا تنتهي.

مذعورًا، يبحث عن مكان للوقوف عليه أن يغلق عينيه وإلا سيجن. ما خطبه؟ يبدأ في الارتعاش. يتنفس الصعداء حين يرى موقفًا للحافلات ويتوقف. يبدأ في السيطرة على نفسه. يخطر له أنه ربما أصيب بسكتة دماغية، يخاف من النظر حوله. لعله اكتشف طريقة لرؤية الأشياء أو «وجهة نظر أخرى»، بالأحرف الكبيرة، كلها بالأحرف الكبيرة.

تعود أنفاسه بعد برهة قصيرة إلى وضعها الطبيعي، ولو أن يديه لا تزالان ترتجفان. يشعل سيجارة، نعم، يدعها تلوث رئتيه بالقليل من النيكوتين، تُخدّره بالدخان، تطرد العفاريت. لكنه يعرف الآن أنه لن يستطيع أن يمضي قُدمًا، أنه لن يستطيع التعامل مع هذه المعرفة الجديدة التي تجتاحه الآن. يشهق ليلتقط نفسًا ورأسه على عجلة القيادة.

يركن السيارة على الرصيف، يعرف أنه سيحصل على مخالفة، وبحرص يمضي بعيدًا. سطح أسفلت الطريق يبدو لزجًا الآن.

تقول: «ها قد عاد «السيد ممنوع اللمس»!».

باستفزاز، لا يرد كونيكي عليها، تصفع باب الخزانة بعد أن تخرج مظروف شاي، تاركة له برهة ليجيبها.

تسأله، بنبرة صارت عدوانية: «ماذا بك؟». يعرف كونيكي أنه إن لم يرد الآن ستشن عليه هجومًا شاملًا، لذا يقول بهدوء:

«لا شيء. ماذا سيكون بي؟».

تنخر وتقول في صوت رتيب:

«أنت لا تتكلم، لا تدعني ألمسك، تتزحزح إلى آخر حافة الفراش، لا تنام، لا تشاهد التلفزيون، ترجع إلى البيت متأخرًا، تفوح منك رائحة الكحول...».

يفكر كونيكي مليًا في التصرف المناسب. يعرف أن أي رد سيتفوّه به سيكون خطأ. لذا يتجمد. يتصلّب في كرسيه، ينظر إلى الطاولة. يشعر بانزعاج وكأنه ابتلع شيئًا لا ينزل من حلقه. يشعر بهواء المطبخ يتحرّك على نحو منذر. يحاول مرة أخيرة.

«علينا أن نسمي الأشياء بأسمائها...»، هكذا يبدأ لكنها تقاطعه.

«صحيح، لو كنا نعرف أسماءها».

«طيّب. أنتِ لا تخبريني حقيقة ما...».

لكنه لا يكمل، لأنها ترمي الشاي على الأرض وتركض خارجة من المطبخ. بعد ثانية، يصفع الباب.

يفكر كونيكي أنها ممثلة عظيمة. كان يمكن أن تصبح ممثلة عظيمة.

لطالما عرف ما الذي يريده. الآن لم يعد يعرف. لا يعرف أي شيء، لا يعرف حتى ما الذي يجب أن يعرفه. يسحب أدراجًا من الكتالوغات وبلا عناية يلقي نظرة على عُلب متراصة فوق بعضها موصولة بأسياخ. لا يعرف كيف يبحث أو عم يبحث.

ظل جالسًا على الإنترنت طوال ليلة أمس، وماذا وجد؟ خريطة غير دقيقة لـ«فيس»، الصفحة الرسمية للسياحة الكرواتية، جدول تحركات العبارة. عندما كتب كلمة «فيس»، خرجت له عشرات الصفحات. قليل منها عن الجزيرة. أسعار فنادق، معالم سياحية. وأيضًا كل ما يختصر بالإنكليزية بحروف VIS: «نظام التصوير القائم على الانبعاث الحراري»، مع صور ملتقطة بالأقمار الصناعية، بحسب ما فهم. و«بيانات معلومات اللقاحات»، «معهد فيكتوريا الرياضي»، «نظام التحقق والتجميع».

الإنترنت نفسه ظل يقوده من كلمة إلى التالية يعطيه روابط، يشير إلى صفحات أخرى. وعندما كان الإنترنت يقابل شيئًا لا يعرفه، كان إما يلوذ بالصمت بكياسة أو يعرض له الصفحات نفسها بعناد، إلى حد الغثيان. ثم خامر كونيكي انطباع أنه هبط لتوه على حدود العالم المعروف، على الجدار، على الغشاء الفاصل بين الأرض والسماء. لم يكن من سبيل لاختراقه برأسه والنظر من ورائه.

الإنترنت خدعة. يعد بالكثير - بأنه سينفذ كل أمر من أوامرك، بأنه سيجد لك ما تبحث عنه؛ تنفيذ، تحقيق، مكافأة. لكن هذا الوعد، في حقيقته، ليس إلا طُعمًا لأنك سرعان ما تسقط في حالة من الغيبوبة، حالة من التنويم المغناطيسي، الدروب سرعان ما تتشعب، تتضاعف

وتتكاثر، وأنت تمضي فيها، لا تزال تطارد هدفًا سيصير الآن ضبابيًا، يتبدّل ويتعدّل، تفقد الأرض تحت قدميك، تنسى المكان الذي جئت منه، يتوارى هدفك في النهاية عن الأنظار، يختفي وسط تتالي المزيد والمزيد من الصفحات، أعمال تجدك دائمًا بأكثر مما تستطيع أن تمنحك، تتظاهر بلا حياء أن تحت سطح الشاشة المستوي ثمة عالم ما. لكن لا شيء يمكن أن يكون أكثر خداعًا، يا عزيزي كونيكي. ما الذي تبحث عنه يا كونيكي؟ ما الذي تهدف إليه؟ ترغب في فرد ذراعيك والغطس فيه، في تلك الهاوية، لكن لا شيء أكثر خداعًا: يتضح أن المنظر الطبيعي ليس إلا ورق حائط، لا تستطيع المضي أبعد من ذلك.

مكتبه صغير، غرفة واحدة يستأجرها بسعر رخيص في الطابق الرابع من بناية مكتبية متداعية. جاره الملاصق له وكالة عقارات، وبعده صالون لعمل الوشوم. لا يتسع المكان إلا لطاولة مكتب وجهاز كمبيوتر. على الأرض تقبع ربطات من الكتب. على عتبة الشباك غلاية كهربية وبرطمان قهوة.

يدير الكمبيوتر وينتظره إلى أن يعود من سباته. ثم يشعل سيجارته الأولى. ينظر إلى الصور ثانية، لكن هذه المرة يتفحص كل واحدة بحرص، لفترة طويلة، حتى يصل إلى تلك الصورة التي التقطها في النهاية - محتويات حقيبة يدها موضوعة على الطاولة، وتلك التذكرة المكتوب عليها بخط يدوي «كايروس» Kairos، نعم، إنه حتى يتذكر تلك الكلمة: καιρός نعم، تلك الكلمة ستفسر له كل شيء.

إذا فقد عثر على شيء لم يلاحظه من قبل عليه أن يشعل سيجارة، يشعر بإثارة بالغة. ينظر إلى الكلمة الغامضة، سترشده الآن، سيتركها تطير مع الريح مثل طائرة ورقية ويتبعها. «كايروس»، يقرأ كونيكي، «كايروس» يكرر، غير واثق من نطقها الصحيح. لا بد أنها يونانية، يفكر بسعادة، يونانية، ويغطس في رفوف كتبه، لكن ما من قاموس يوناني هنا، فقط «عبارات لاتينية مفيدة»، كتاب لم يفتحه قطّ. الأن يعرف أنه على الطريق الصحيح. الآن لا يستطيع أن يتوقف. يرتب صور محتويات حقيبتها، خيرًا فعل حين فكر في التقاطها. يضعها بجوار بعضها البعض مثلما في لعبة «سوليتير»، في صفوف منتظمة. يشعل سيجارة أخرى ويدور حول المكتب وكأنه محقق يفكر في جريمة. يتوقف، يسحب بعض الدخان، يتفحص طلاء الشفاه والقلم في الصور.

فجأة يدرك أن هناك أنواعًا مختلفة من النظر. أحد أنواع النظر يتيح لك ببساطة رؤية الأغراض المادية الأشياء المفيدة للإنسان، الأمينة والملموسة، التي تراها فتعرف كيف تستخدمها ولأي غرض. ثم هناك الرؤية البانورامية، نظرة أكثر عمومية، تجعلك تلاحظ الروابط بين تلك الأغراض، شبكة انعكاساتها. لا تعود الأشياء أشياء، ولا يعود مهمًا أنها تخدم غرضًا بعينه، مسألة سطحية. الآن هي علامات، تؤشر على شيء ليس في الصور، تُحيل إلى ما وراء إطارات الصور. عليك أن تركز حقًا لكي تستطيع الإبقاء على تلك

النظرة، والحقيقة أنها موهبة، نعمة. يتسارع قلب كونيكي. القلم الأحمر المكتوب عليه «سِبتوليت»[33] يخفي شيئًا خبيثًا لا يمكن معرفته، لا سبيل لسبر أغواره.

يعرف هذا المكان، المرة الأخيرة التي جاء فيها إلى هنا كانت أثناء انحسار الماء بعد الفيضان مباشرة. المكتبة، الـ«أوسولينيوم» المحترمة، شيدت بجوار النهر، في مواجهته مباشرة، خطأ قاتل. الكتب يجب أن تُحفظ في أماكن مرتفعة.

يتذكر ذلك المنظر، عندما كشفت الشمس نفسها ثانية وراح الماء ينحسر. كان الفيضان قد جلب معه رواسب وطميًا، لكن العمال نظفوا بعض الأماكن وبدأوا يضعون فيها الكتب لكي تجف. وضعوها، مفتوحة، على الأرض، كانت هناك المئات منها، الآلاف. في تلك الوضعية، غير الطبيعية بالنسبة لها، بدت مثل مخلوقات حية، هجين بين طائر وشقيقة عمان. راحت أياد في قفازات «لاتيكس» رقيقة تفصل الصفحات الملتصقة بأناة، لكي تجف الجمل والكلمات. لسوء الحظ، ذبلت الصفحات اسودت من الرواسب والمياه، انبعجت. كان الناس يسيرون بينها بحرص، نساء في مرابيل بيضاء، كما في المستشفى، يفتحن مجلدات أمام الشمس، يتركن الشمس تقرأ. بيد أنه، في الحقيقة، منظر مروع، شيء أشبه باجتماع العناصر الطبيعة. كونيكي وقف ونظر مرتعبًا، ثم رأي بعض المارة يمدون يد العون، فانضم إليهم بحماسة.

اليوم في المكتبة الواقعة في وسط المدينة، التي رُممّت واستعادت جمالها بعد الفيضان، المخفيّة وسط بنايات محيطة ببئر المياه في الباحة، يشعر بالانزعاج. عندما يدخل قاعة الاطلاع الفسيحة يرى طاولات وضعت في صفوف مستوية، على مسافات تتيح قدرًا من الخصوصية. إلى كل واحدة تقريبًا يجلس ظهر شخص ما - منحنيًا، محدودبًا. أشجار فوق ضريح. مقبرة.

الكتب الموضوعة على الرفوف لا تظهر للناس إلا كعوبها، ويفكر كونيكي: وكأنها أناس لا تراهم إلا بالجنب. لا تغريك الكتب بأغلفتها الملونة، لا تتباهي بلافتاتها حيث كل كلمة مكتوبة بأروع ما يكون؛ وكأنها معاقبة، وكأنها مجموعة مجندين مذنبين، لا تُقدّم إلا أبسط الحقائق عن نفسها: العنوان والمؤلف، لا شيء آخر.

عوضا عن النشرات الإعلامية المطويّة، والملصقات، والإعلانات، هناك كتالوغات. المساواة التي تقوم عليها تلك البطاقات الصغيرة المكدسة معًا داخل الأدراج توحي بالاحترام. مجرد معلومات بسيطة، أرقام، وصف قصير، لا مجال للتفاخر.

لم يسبق له المجيء إلى هنا. عندما كان في الجامعة لم يستخدم إلا المكتبة الحديثة. كان يكتب العنوان واسم المؤلف على بطاقة ويسلّمها وبعد ربع ساعة يتسلم الكتاب. لكن حتى

إلى هناك لم يكن يذهب كثيرًا. في الحقيقة لم يكن يذهب إلا نادرًا، إذ كان يحصل على معظم النصوص التي يحتاج إليها في أوراق منسوخة على آلة التصوير. كان ذلك جيلًا جديدًا من الأدبيات - نص من دون كعب، نسخة عابرة، شيء يشبه المناديل الورقية التي تولت المقاليد بعد اعتزال المناديل القماشية. المناديل الورقية قادت ثورة البساطة، ماحية الفروق الطبقية. بعد استخدامها مرة واحدة تُلقي بها بعيدًا، وانتهى الأمر.

أمامه ثلاثة قواميس، «قاموس يوناني بولندي».رتحرير «زيغمونت فينسلفسكي»، «لفوف»، 1929. مكتبة صامويل بودِك، 20 شارع باتوري. «القاموس اليوناني - البولندي الصغير»، تحرير «تيريسا كامبوريلي، ثاناسيس كامبوريليس»، منشورات «فيبتزا بوفشيخنا». «وارسو»، 1999. وأربعة أجزاء من «قاموس يوناني بولندي» تحرير «زوفيا أبراموفيتشوفنا»، 1962، منشورات PWN. هناك بصعوبة، بالاستعانة بجدول حروف الهجاء، يفك شفرة كلمة: καιρός.

لا يقرأ إلا المكتوب بالبولندية، بالحروف اللاتينية. «1. (قياس) التدابير الواجبة، ملاءمة، اعتدال؛ فارق؛ معنى. 2. (مكان) موضع حيوي وحسّاس في الجسد. 3. (زمن) لحظة حرجة، الوقت المناسب، الملاءمة، الفرصة، اللحظة الحاسمة، اللحظة المواتية سريعة الزوال؛ ما يظهر بلا انتظار، المساعدة في وقت العاصفة في الموعد، عندما تسنح الفرصة، قبل الأوان، لحظات حرجة، حالات دورية، التتابع الزمني للحقائق، موقف حالة الأشياء، تسكين، خطر بالغ، فائدة، نفع، لأي غرض؟ ما الذي يفيدك؟ ما هو المكان المناسب؟

كان ذلك قاموسًا واحدًا. التالي، أقدم - يمر كونيكي بعينيه على المداخل بالغة الصغر، عابرًا الكلمات اليونانية ومتعثرًا في هجاءات قديمة: «إلى حد بعيد، وسطية، علاقات سليمة، إحراز هدف، تمامًا، اللحظة اللائقة، وقت مناسب، لحظة لطيفة، مناسبة سانحة هناك، زمن، ساعة؛ وفي حالة الجمع: ظروف، علاقات عصور، حالات، وقائع، لحظات حاسمة من الثورة، أخطار، المناسبة سانحة، المناسبة ملائمة، جاء في وقته. ويقال أيضًا: شيء يحدث في الوقت المناسب».في أحدث القواميس يعطون أخيرًا النطق بين قوسين: [kieros]. و: «طقس، وقت، فصل، ما أخبار الطقس؟ هذا موسم العنب، تضييع الوقت، من وقت إلى آخر، ذات مرة، إلى متى؟ كان هذا مطلوبًا قبل زمن طويل».

يجيل كونيكي بصره في قاعة المطالعة يائسًا. يرى قمة رؤوس محنية على الكتب، يعود إلى القواميس، يقرأ المدخل السابق، الذي يبدو مشابها، لا يختلف إلا في حرف واحد: καιριός. وهنا نجد المزيد: «أنجز في الوقت المناسب، هادف، مؤثر، فتاك، قاتل، حُلّت المسألة، و: أماكن الجسد التي تسبب إصابتها خطرًا كبيرًا، ما يأتي في موعده دائمًا، ما يجب أن يحدث بأي حال».

يجمع كونيكي أغراضه ويتوجه إلى البيت. في الليل يجد على ويكيبيديا صفحة عن

«كايروس»، منها يعرف ببساطة أنه إله، قليل الشأن، منسي، هيليني. وأن هذا الإله اكتشف في بلدة «تروغير». كان ذلك المتحف يحمل صورته، لذا فقد دوّنَت الكلمة. هذا كل ما في الأمر.

عندما كان ابنه لا يزال وليدًا، عندما كان رضيعًا، لم يفكر كونيكي فيه قطّ بوصفه شخصًا. وكان ذلك جيدًا لأن ذلك جعلهما قريبين. فالأشخاص متباعدون بطبيعتهم. تعلم كيف يغير حفاضاته بأكبر قدر من الكفاءة، كان يفعل ذلك في حركتين سريعتين لا أكثر، بلا وعي تقريبًا، إلا بصوت الحفاضات. كان يغطس جسده الصغير في حوض الاستحمام، يغسل بطنه، ثم يحمله وهو لا يزال ملفوفًا في منشفته إلى غرفته حيث يُلبسه البيجاما. كان ذلك سهلًا. عندما يكون لديك طفل، لا تضطر أبدًا في التفكير في أي شيء، كل شيء واضح وطبيعي. إرضاع الطفل، وزنه؛ رائحته - المألوفة والمدفئة للقلب. لكن الأطفال ليسوا أشخاصًا. الأطفال يصبحون أشخاصًا عندما يتملصون من بين ذراعيك ويقولون «لا».

كونيكي منهك الآن بفعل الصمت. ماذا كان الطفل يفعل؟ يقف بالباب وينظر إلى الطفل على الأرض، محاطًا بالمكعبات. يجلس إلى جواره ويلتقط إحدى سياراته البلاستيكية الصغيرة. يحركها على الطريق المرسوم. لا يعرف إن كان يفترض به أن يحكي له قصة: كان يا ما كان، كانت هناك سيارة صغيرة ضلّت الطريق. يجهز فمه للكلام عندما ينتزع الولد اللعبة من بين يديه ويعطيه شيئًا آخر - شاحنة خشبية تحمل مكعبات.

يقول الطفل: «هيا بنا نبني».

يرتجل كونيكي: «ماذا نبني؟».

«بيت صغير».

طيب إذا، بيت صغير. يضعان المكعبات في مربع. الشاحنة تجلب المعدّات.

يقول كونيكي: «إيه، ماذا لو بنينا جزيرة؟».

«لا، بيت»، يقولها الطفل وهو يركب المكعبات معًا كيفما اتفق، واحدًا فوق الآخر. يعيد كونيكي ترتيبها بعناية، حتى لا يتداعى البيت بأكمله.

يقول كونيكي: «لكن هل تتذكر البحر؟».

يهمهم الطفل دلالة على أنه يتذكر، وتُفرغ الشاحنة شحنة جديدة. الآن لا يعرف كونيكي ماذا يقول أو ماذا يسأل. بإمكانه أن يشير إلى السجادة ويقول: هذه السجادة هي الجزيرة، ونحن على الجزيرة، لكن الولد تائه على الجزيرة، وبابا يشعر بالقلق، فأين يمكن أن يكون طفله الصغير؟ وهو ما يقوله، لكنه لا يصادف نجاحًا كبيرًا.

يصر الصبي: «لا. هيا نبني بيت صغير».

«هل تتذكر عندما تهت أنت وماما؟».

«لا»، يصرخ الطفل، راشقًا البيت الصغير بالمكعبات في مرح.

يسأله كونيكي ثانية: «هل تهت من قبل؟».

يقول الطفل: «لا»، وتصطدم الشاحنة بالبيت المشيد لتوّه بأقصى سرعة. تسقط الجدران. «بووم! بووم!»، يضحك الصبي.

ويبدأ كونيكي بصبر في بنائه من جديد.

عندما ترجع إلى البيت، يراها كونيكي أولًا من الأرض، مثل الطفل تمامًا. إنها كبيرة، متوردة بفعل البرد، متحمسة على نحو مريب. شفتاها حمراوان. ترمي شالًا أحمر (أو ربما موف، ربما خوخي) على ذراع أحد الكراسي وتعانق الطفل. تسأل: «جائعان يا شباب؟» يشعر كونيكي وكأن ريحًا قد دخلت معها إلى الغرفة الريح العاصفة الباردة الآتية من البحر. يود لو يقول: «أين كنتِ؟»، لكنه لا يطيق.

في الصباح يأتيه انتصاب فيضطر إلى الاستدارة عنها؛ عليه أن يخبئ تلك الأفكار غير اللائقة التي تراود الجسد أحيانًا، حتى لا تقرأها بوصفها تشجيعًا، محاولات للتصالح، أي نوع من التعلّق. يدير وجهه للحائط ويحتفل بانتصابه، الجاهزية الجزافية، حالة التأهب، هذه الضراوة الدبقة، المشدودة؛ يحتفظ بها كلها لنفسه.

رأس قضيبه يرتفع مثل سهم، يشير صوب النافذة صوب العالم خارجها.

ساقان. قدمان. حتى عندما يتوقف، عندما يجلس، تبدوان وكأنهما تواصلان طريقهما، لا تستطيعان أن تكبحا نفسيهما، تقطعان مسافة معينة في خطى صغيرة متعجلة. عندما يريد أن يكبحهما، تتمردان عليه. يخاف كونيكي أن تنطلق ساقاه للريح، أن تجراه معها، تسحباه إلى طريق لا يريده، أن تقفزا في الهواء كما في رقصة فولكلورية، ضد إرادته، أو أن تدخلا الباحات المعتمة لمبنى حجري قديم ينتشر فيه العفن، أن تصعدا سلّم شخص آخر، تدلفا به من كوات في الجدران إلى أسطح زلقة، منحدرة، وتجعلاه يخطو فوق بلاطات السقف الحرشفية، مثل السائرين نيامًا.

لا بد أن هاتين الساقين المتململتين هما اللتين تحرمان كونيكي النوم: من الخصر لأعلى تجده هادئًا، ومسترخيًا، وناعسًا؛ من الخصر لأسفل - عصيًا منيعًا. واضح أنه شخصان في جسد واحد. شخصه العلوي يريد الهدوء والعدل؛ وشخصه السفلي يتجاهل كل المبادئ ولا

يعترف بالحدود. شخصه العلوي لديه اسم وعنوان، ورقم ضمان اجتماعي؛ وشخصه السفلي لا يجد ما يقوله عن نفسه، بل وفاض به الكيل من نفسه.

يتمنى لو استطاع تهدئة ساقيه، تدليكهما بمرهم ملطِّف؛ فهذا الإحساس بالدغدغة الداخلية مؤلم بحق. أخيرًا يتناول حبة منومة. يعيد السلام لساقيه.

يحاول كونيكي السيطرة على أطرافه. يبتكر طريقة لفعل ذلك: يتركها في حالة حركة دائمة، حتى أصابع قدميه داخل حذائه، بينما يبقي بقية جسده في سلام. وعندما يجلس - يحررها أيضًا: يتركها تتململ. يحدّق في مقدّمة حذائه ويرى الحركة الرقيقة للجلد بينما تبدأ قدماه في سير هوسي في المحل. بيد أنه ينطلق أيضًا في جولات متكررة داخل البلدة. لعله في هذه الجولة يكون قد عَبَرَ كل الجسور الممكنة فوق نهر «أودرا» وفوق القنوات. لم يفوت أيًّا منها.

الأسبوع الثالث من سبتمبر مطير وعاصف. عليهم أن يخرجوا أغراضهم الخريفية من الخزين، سترات وأحذية مطاطية للطفل. يُقلّه من الروضة؛ يسيران بسرعة إلى السيارة. الولد يقفز في بركة موحلة وينثر الماء في كل مكان. كونيكي لا يلاحظ، إنه يفكر في ما يجب أن يقوله، يربط الجمل بعضها إلى بعض. من قبيل: «أخشى أن يكون الطفل قد أصيب بصدمة ما»، أو، بثقة أكبر: «أظن أن ابني عاش تجربة صادمة». الآن يتذكر الكلمة «تروما». «عاش تجربة تروما».

يمضيان بالسيارة في المدينة الماطرة، مساحات الزجاج الأمامي تعمل بأقصى قوتها لكشط الماء عن الزجاج، فتكشف لثانية واحدة فقط في كل مرة العالم الغاطس في المطر، العالم الملطخ.

إنه يومه، الخميس. أيام الخميس يذهب هو لإحضار ابنه من الروضة. هي مشغولة بعد الظهر، لديها ورش عمل أو شيء من هذا القبيل، لن ترجع حتى وقت متأخر، لذا سيبقى الطفل مع كونيكي طوال النهار.

يتوقفان أمام مبنى كبير مجدد مشيد بالطوب في قلب المدينة، ويبحثان لبرهة عن مكان لإيقاف السيارة.

يسأل الطفل: «أين نذهب؟»، وعندما لا يجيب كونيكي، يبدأ الصبي في تكرار السؤال مرة بعد مرة: «أيننذهب أيننذهب؟».

يقول الأب: «اهدأ»، لكن بعد لحظة، يعود ويشرح له «سنقابل سيدة».

لا يحتج الطفل. لا بد أن الفكرة أثارت اهتمامه.

لا أحد في غرفة الانتظار، سرعان ما تظهر امرأة بالغة الطول في نحو الخمسين من عمرها وتقودهما إلى مكتبها. الغرفة بهيجة وساطعة الإضاءة - في وسطها سجادة كبيرة، ناعمة، ملونة، عليها ألعاب ومكعبات. بها كنبة وكرسيان بذراعين، مكتب وكرسي مكتب. يجلس الطفل بحرص على حافة الكنبة، لكن عينيه تنجذبان إلى الألعاب. تبتسم المرأة وتمد يدها لكونيكي، ثم تحيي الصبي أيضًا. تتكلّم إلى الطفل وكأنها تريد التأكيد على أن الأب لا يعنيها في شيء. لذا يتكلم هو أولًا، مستبقا أي أسئلة قد تطرحها.

«ابني يعاني من اضطرابات في النوم منذ فترة»، يقولها كذبًا. «لقد أصبح قلوقًا و...».

لا تتركه المرأة يكمل كلامه. تقول: «لنلعب أولًا». يبدو هذا سخيفًا، ويتساءل كونيكي إن كانت ستلاعبه أيضًا. في دهشته يقف متجمدًا في مكانه.

تسأل المرأة الطفل: «كم عمرك؟». يرفع الطفل ثلاث أصابع.

يقول كونيكي: «بلغ الثانية في أبريل».

تجلس على السجادة، بالقرب من الولد، وتناوله بعض المكعبات؛ تقول: «بابا سيجلس في الخارج قليلا ويقرأ، ونحن سنلعب هكذا».

«لا!»، يقولها الطفل، ويقفز واقفًا ويركض إلى الأب. يفهم كونيكي، يُقنع الطفل بالبقاء.

تطمئنه المرأة: «الباب سيظل مفتوحًا».

يدفع الباب برفق ولا يغلقه إلى النهاية. يجلس كونيكي في غرفة الانتظار ويصغي إلى أصواتهما، لكنه يسمعهما بصعوبة، لا يستطيع أن يتبيّن ماذا يقولان. كان يتوقع أسئلة كثيرة، حتى أنه جلب معه الدفتر الصغير الذي يحتفظ فيه بسجل الطفل، والذي يقرأه لنفسه الآن: ولادة بعد حمل مكتمل، ولادة طبيعية، 10 درجات في اختبار أبغار، تطعيمات الوزن 3 غرامًا، الطول 57 سنتيمترًا. في لغتنا، عندما نتكلم عن شخص بالغ نقول «ارتفاع»، لكن عندما نتكلم عن طفل نقول «طول». يتناول مجلة ذات ورق لامع من على الطاولة ويفتحها بشكل آلي، يصادف على الفور إعلانات عن كتب جديدة. يمر على العناوين ويقارن الأسعار. يشعر بدفقة سارة من الأدرينالين. كتبه أرخص سعرًا.

تقول المرأة: «هل يمكن أن تشرح لي مشكلته من فضلك؟ ما الذي تتكلم عنه؟».

يشعر كونيكي بحرج. ماذا يقول؟ إن زوجته وطفله اختفيا لبعض الوقت، إنهما غابا لثلاثة أيام، لتسع وأربعين ساعة - يعرف طول الفترة بالضبط. ولا يعرف أين كانا. لطالما عرف كل شيء يمكن معرفته عنهما، والآن أصبح جاهلًا بأهم شيء. ثم، لجزء من الثانية، يتخيل نفسه يقول: «أرجوك، يجب أن تساعديني، أرجوك نوميه مغناطيسيًا وادخلي على تلك الساعات التسع والأربعين دقيقة بدقيقة. لا بد أن أعرف».

وهي تلك المرأة السامقة، المنتصبة أمامه مثل سهم- تقترب منه كثيرًا حتى أنه يشم رائحة المطهرات في الكنزة التي ترتديها - هكذا كانت رائحة الممرضات في طفولته. وتأخذ يده في يديها الكبيرتين الدافئتين وتضمه إلى صدرها.

لكن الأمور لم تجر على هذا النحو. يكذب كونيكي: «كل ما في الأمر أنه أصبح يتململ كثيرًا مؤخرًا، يستيقظ في الليل، يبكي. في أغسطس أخذنا إجازة وسافرنا، إلى كرواتيا، إلى جزيرة فيس. أظن أن شيئًا حدث هناك شيء لم نعرفه. ربما شيء أخافه...».

يلاحظ أنها لا تصدّقه. تتناول قلمًا ذا رأس كروية وتلعب به. تتحدّث بابتسامة دافئة خلابة. «لديك هنا طفل شديد الذكاء بمهارات اجتماعية تفوق المتوسط. أحيانًا لا تعني هذه الأشياء إلا أن الطفل يعيش مرحلة تطوّريّة عادية. لا تتركه يشاهد التلفزيون الفترات طويلة. لكن بالنسبة إليّ فليس به أي مشكلة على الإطلاق».

ثم تنظر إليه بقلق، أو هكذا يظن.

وهما يخرجان، بينما يودع الطفل المرأة، يبدأ كونيكي باعتبارها عاهرة. يرى ابتسامتها مخادعة. إنها تخبئ شيئًا ما. لم تخبره بكل شيء. الآن يدرك أنه ما كان ينبغي أن يلجأ إلى امرأة. أما من أخصائيين رجال في علم نفس الأطفال في هذه المدينة؟ أم إن النساء رسّخن نوعًا من الاحتكار على الأطفال؟ النساء لسن واضحات مطلقًا من النظرة الأولى لهن، لا تعرف إن كن ضعيفات أم قويات، كيف سيتصرفن، ماذا يردن؛ عليك أن تبقى متحفزًا. يفكر في القلم الذي كانت تمسكه بيدها. قلم «بك» أصفر، تمامًا مثل ذلك الذي في الصورة، الذي أخرجه من حقيبة اليد.

إنه الثلاثاء، يوم إجازتها. ظل مضطربًا منذ الصباح الباكر، يجافيه النوم، يتظاهر أنه لا يراقب تسكعها اليومي، من غرفة النوم إلى الحمام، من المطبخ إلى المدخل ثم إلى الحمام ثانية. يطلق الطفل صيحة سريعة ملولًا، لعلها تحاول ربط حذائه. صوتها وهي ترش مزيل العرق. صافرة الغلاية.

عندما يخرجان أخيرًا، يقف بالباب وينصت في انتظار مجيء المصعد. يُعد إلى ستين - الزمن الذي سيستغرقانه للوصول إلى الطابق السفلي. بأسرع ما يمكنه ينتعل حذاءه ويمزق كيس السترة التي كان قد اشتراها مستعملة حتى لا تتعرف عليه. يُغلق الباب خلفه بهدوء، يتمنى ألا ينتظر المصعد طويلًا.

نعم، ما كانت الأمور لتسير على نحو أكثر سلاسة. يندفع وراءها، على مسافة آمنة، في سترة لا تستطيع التعرف عليها. يُثبت أنظاره على ظهرها، يتساءل إن كانت تشعر باضطراب ما، الأرجح لا، لأنها تسير بسرعة بنشاط، بل ويمكنك أيضًا أن تقول بمرح. تقفز هي والطفل فوق البريكات الطينية، بدلا من الالتفاف حولها - لماذا؟ من أين أتت بكل

تلك الطاقة في يوم خريفي ماطر كهذا اليوم؟ هل فعلت القهوة فعلها؟ بقية العالم يبدو بطيئًا وناعسًا، وهي أكثر حيوية من المعتاد، لفاحها الوردي المسعور يشبه صاعقة من الألق على خلفية ذلك اليوم؛ يتعلّق كونيكي به مثل قشة.

يصلان أخيرًا إلى الروضة. يراقبها وهي تودع الطفل، لكن ذلك لا يحرك أي شيء في نفسه. لعلها همست له بشيء ما وهي تعانقه بهذه الرقة، كلمة ما، الكلمة التي كان كونيكي يفتش عنها على نحو محموم. إن عرفها، بإمكانه أن يكتبها على ويكيبيديا، وفي غمضة عين، سيعطيه محرك البحث الكوني ذاك إجابة بسيطة مباشرة.

الآن يراها تتوقف أمام معبر للمشاة، في انتظار الضوء الأخضر، تُخرج هاتفها وتضرب رقمًا. للحظة راود كونيكي بعض الأمل أن يرنّ هاتفه في جيبه، لديه رنة مختلفة لأجلها - صوت زيز الحصاد، أجل، لقد خصص لها أغنية زيز الحصاد. حشرة استوائية. لكن جيبه يظل صامتًا. تعبر الطريق وهي تتكلّم في محادثة قصيرة مع شخص ما، تُنهي المكالمة. الآن عليه أن ينتظر الإشارة وهو أمر خطير، لأنها تنعطف حول الناصية وخارج مجال نظره، لذا، فورًا، بأسرع ما يستطيع، يسرع خطاه، وقد انتابه خوف من أن يفقدها، انتابه شعور بغضب من نفسه ومن هذه الإشارات الضوئية. آه، أن يفقدها على بعد مئتي متر فقط من البيت! لكن ها هي؛ لفاعها يتموج داخلًا من باب المتجر الدوار. إنه متجر كبير. مركز تجاري، في واقع الأمر، وقد فتح أبوابه للتوّ، وما زال خاليًا تقريبًا، لذا يتردد كونيكي، أيدخل وراءها أم لا، هل سيتمكن حلها من الاختباء بين المعروضات المختلفة. لكن لا مفر من ذلك، لأن للمتجر مخرج آخر، على شارع آخر، لذا يُخفي رأسه بقلنسوة سترته -وهو أمر منطقي، فهي تمطر، في نهاية المطاف- ويدخل المتجر. يراها - تتجول ببطء، وكأن شيئًا يكبح خطاها، تعاين أدوات الزينة، والعطور، تتوقف عند أحد الرفوف وتمد يدها لشيء ما. تمسك بزجاجة شيء ما في يدها. يفتش كونيكي بين الجوارب المعروضة بأسعار مخفضة.

عندما تتحرك، شاردة في أفكارها، إلى قسم الحقائب اليدوية، يتناول كونيكي الزجاجة. يقرأ: «كارولينا هيريرا». هل يحفظ الاسم في ذاكرته أم يطرحه منها؟ شيء ما يخبره أن عليه أن يحفظ الاسم. يكرر لنفسه: كل شيء يعني شيئًا، نحن فقط لا نعرف ماذا.

يراها عن بعد - تقف أمام مرآة وقد علقت حقيبة حمراء على ذراعها، تحدق في انعكاسها من زاوية، ثم من أخرى. ثم تذهب إلى المخرج، إلى حيث كونيكي مباشرة. يتراجع مذعورًا وراء رف الجوارب، منكسًا رأسه. تمر به. مثل شبح. لكنها تستدير فجأة وكأنها نسيت شيئًا، وتنظر إليه مباشرة، محدودبًا، قلنسوته مسحوبة حتى جبهته. يرى عينيها واسعتين ومذهولتين، يشعر بنظرتها، يشعر بها ماديًا؛ تمسح جسده تتحسسه.

تقول: «ماذا تفعل هنا؟ هل لديك أدنى فكرة كيف تبدو؟».

ثم ترقّ عيناها، تعلوهما غبشة ما، وتطرف. تقول: «يا ربي! ما الذي يحدث لك؟ ما الخطب؟».

أمر غريب، ليس هذا ما توقعه كونيكي. لقد توقع مشاجرة. ثم تلف ذراعيها حوله وتضمه إليها، تترك وجهها يستكين في سترته المستعملة الغريبة. تنطلق تنهيدة من كونيكي، آهة صغيرة، لا يعرف إن كانت دهشة من سلوكها غير المتوقع أم لأنه رأى نفسه فجأة ينفجر في البكاء في سترتها الزغبيّة الفوّاحة.

فقط وهما في المصعد تقول له: «هل أنت بخير؟».

يقول كونيكي إنه بخير، لكنه يعرف أنهما الآن في الطريق إلى المواجهة الأخيرة. مطبخهما سيكون ساحة القتال، وكلاهما سيتخذ وضعية هجوم - هو بجوار الطاولة، وهي ظهرها للنافذة، كالعادة. يعرف أنه يجب ألا يهون من شأن اللحظة، أنها ربما تكون الفرصة الأخيرة والوحيدة ليكتشف ما حدث. ليكتشف الحقيقة. لكنه يعرف، أيضًا، أنه يتحرك في حقل ألغام. كل سؤال سيكون أشبه بقنبلة. إنه ليس جبانًا، ولن يتراجع أمام فرصة إرساء الحقائق. مع صعود المصعد، يشعر وكأنه إرهابي يحمل قنبلة تحت ملابسه ستنفجر لحظة يفتحان باب شقتهما، فتُحطّم كل شيء وتُصيره ترابًا.

يفتح الباب ويسنده بساقه ليستطيع إدخال أكياس مشترياته أولًا، ثم يحشر نفسه ليمر بجانبها. والحقيقة أنه لا يلاحظ أي شيء غير طبيعي، يُشعل النور ويضع البقالة على منضدة المطبخ. يصب بعض الماء في كوب ويضع فيه حزمة بقدونس ذابلة. يفكر أن هذا سيعيده إلى يوم مشاجرة البقدونس.

يسير في شقته مثل شبح، يشعر وكأنه يستطيع اختراق الجدران. الغرف فارغة، كونيكي عين تحاول حل إحدى ألغاز «استخرج الفوارق بين الصورة (أ) والصورة (ب)». وينظر كونيكي. ما من شك أنهما مختلفتان، الشقة الآن والشقة من قبل. هذا اللغز لن ينطلي إلا على شخص شديد الغفلة. معطفها اختفى من على شماعة المعاطف، وشالها، وسترة الطفل، ومعرض الأحذية (لم يتبق منها إلا شبشبه الوحيد)، والمظلة.

غرفة الطفل تبدو مهجورة تمامًا؛ لم يبق فيها إلا الأثاث. سيارة لعبة صغيرة وحيدة تقبع على السجادة مثل المخلفات المتناثرة عقب صدمة كونية غير متخيلة. لكن كونيكي يجب أن يعرف على وجه اليقين - ولهذا يمد يده أمامه وينسل إلى غرفة النوم، إلى دولاب الملابس ذي الأبواب الزجاجية، ويفتح درفتيه؛ ثقيلتان، وتنفتحان على مضض، بتذمر حزين. لم يتبق إلا بلوزة حريرية، أفخم من أن تُلبس. تبدو وكأنها تشعر بالوحدة داخل الدولاب. حركة الأبواب. يعاين كونيكي الأرفف الخاوية في الحمام. أدوات حلاقته لا تزال هناك في الزاوية. وفرشاة أسنانه التي تعمل بالبطارية.

يحتاج إلى وقت طويل ليفهم ما يراه. طوال المساء طوال الليل، وحتى في الصباح التالي.

في نحو التاسعة يعد لنفسه قهوة قوية ثم يجمع بعضًا من أدوات حلاقته، وقليلًا من القمصان من دولاب الملابس، وبعض البنطلونات، ويضعها في حقيبة. قبل أن يغادر، وهو على وشك الخروج من الباب، يراجع محفظته: بطاقة الهوية، بطاقات السحب المصرفية. ثم يركض إلى سيارته. لقد هطل الثلج في الليل، لذا عليه أن ينظف الزجاج الأمامي. يفعل ذلك بإهمال شديد، بيده. يُعوّل على قدرته على الوصول إلى زغرب بحلول الليل، ثم إلى سبليت في النهار التالي. ما يعني أنه سيرى البحر غدًا.

يتجه جنوبًا، في مسار مستقيم مثل سهم، صوب الحدود التشيكية.

تناظرات الجزر

وفقًا لعلم نفس السفر، فإن التشابه الظاهر بين أي مكانين يتناسب طرديًا مع المسافة بينهما. الأقرب يبدو مختلفًا جدّ الاختلاف، أجنبيًا بالكامل. أما التشابهات الأكثر إدهاشًا فنجدها غالبًا -وفقًا لعلم نفس السفر- واضحةً على الجانب الآخر من العالم.

المثير خصوصًا هو ظاهرة تناظرات الجزر. إنها ظاهرة مُستغلقة، لا تفسير لها، تستحق دراسة خاصة بها. غوتلاند ورودس، أيسلاندا ونيوزيلاندا. حين يُنظر إلى كل من تلك الجزر بمعزل عن شريكتها، تبدو منقوصة، غير مكتملة. الجروف الجرداء المكونة من الحجر الجيري في رودس لا تكتمل إلا عندما تلتقي جروف غوتلاند المغطاة بالطحالب؛ وهج الشمس الذي يُغشي الأبصار لا يعدُّ حقيقيًا إلا قبالة اللطف الذهبي لأصيل شمالي. جدران المدينة القروسطية يمكنها أن تأخذ شكلًا من اثنين: إما دراميّة أو سوداويّة. هذا أمر يعرفه السياح السويديون في رودس جيدًا؛ هؤلاء الذين أسسوا ما يشبه مستعمرة غير رسمية، لم ترسل بها مكاتبات رسمية للأمم المتحدة.

أكياس دوار الطيران

على طائرة من وارسو إلى أمستردام كنت ألعب بكيس ورقي من دون أن أنتبه؛ ثم نظرتُ فرأيت مكتوبًا عليه:

«10/12/2006: في الطريق إلى آيرلندا. الوجهة النهائية بلفاست. طلبة معهد زوسوف للتكنولوجيا».

كانت الكتابة، بالقلم، مرئية من أسفل الكيس، في المسافة الفارغة بين الطباعة الرسمية التي تكرر العبارة نفسها في عدة لغات: «كيس لدِوَار الطيران» «air sickness bag… sac pour mal de l'air… Spuckbeutel… bolsa de mareo». بين تلك الكلمات كتبت يدٌ بشريّةٌ ما تلك الكلمات القليلة الأخرى مع رقم (1) في البداية، وكأن مؤلفها تردد للحظة هل يترك وراءه هذا التعبير عن القلق، الذي لا يحمل أسماء أم لا. هل فكّر أن الكلام المكتوب على الكيس سوف يجد قارئًا؟ أن أصبح أنا بهذه الطريقة. شاهدةً على رحلة شخص آخر؟

شعرت بالتأثر لهذا الفعل التواصلي الأحادي، وتساءلتُ أي يدٍ كتبته، وكيف نظرت عيناه وهي تُرشد تلك اليد بحذاء النصّ المطبوع سلفًا. تساءلتُ كيف، يا ترى، تسير أمورهم في بلفاست، طلبة زوسوف هؤلاء. بطبيعة الحال تمنيت أن أجد إجابة لسؤالي في المستقبل على متن طائرة أخرى. أردتُه أن يكتب: «لقد سارت الأمور على ما يرام. سنرجع إلى بولندا الآن». لكنني أعرف أن الكتابة على الأكياس شيءٌ لا يفعله الناس إلا بدافع القلق والشك. لا الهزيمة ولا النجاح الباهر ظرفٌ مواتٍ للكتابة.

حلَمَات الأرض

هذان الشابان - فتاة، في التاسعة عشرة على أبعد تقدير، تدرس الأدب الإسكندنافي، وصديقها الصغير الأشقر ذو الضفائر، أصرَّا على الركوب تطفلًا من ريكيافك إلى إيسافيوردر. كانا قد حُذِّرا من ذلك تحذيرًا قاطعًا لسببين: لأن الحركة المرورية ضعيفة في أيسلندا، وخاصة في الشمال، لذا قد يعلَقا في مكان ما على الطريق؛ والثاني، لأن درجة الحرارة عُرضة لانخفاضٍ حادٍ مفاجئ. لكن الشابين لم يسمعا النصيحة. وقد تبيّن أن كِلا التحذيرين صحيح؛ علّقا في البريّة حيث تركتهما السيارة السابقة قبل أن تنحرف عن الطريق السريع متجهة إلى قرية صغيرة بعيدة، ولم تظهر في الأفق أي سيارة أخرى. وفي غضون ساعة انقلب الطقس، وبدأت الثلوج تهطل. ازداد قلقهما وهما واقفان على الطريق، الذي يشق سهلًا مليئًا بالصخور البركانية من أحد طرفيه إلى الطرف الآخر، وراحا يتوسلان الدفء بالتدخين، على أمل أن تأتي سيارة أخرى في نهاية المطاف. لكن أحدًا لم يأتِ. واضحٌ أن الناس تخلّوا عن فكرة الذهاب إلى إيسافيوردر ذلك المساء.

لم يكن هناك شيءٌ لإشعال النار - مجرد طحالب باردة رطبة وشجيرات شحيحة لن تعبأ النار حتى بوضعها في فمها، ناهيك عن التهامها. خيّما في حقيبتي نوم بين الصخور وسط الطحالب، وعندما اختفت سحابات الثلج وانكشفت السماء المجمدة الحافلة بالنجوم، رأيا وجوهًا في الصخور البركانية، وبدأ كل ما حولهما يهمس، يدمدم، يهسهس. تبيّن أنك إذا نبشت تحت الطحالب، تحت الصخور، ستلمس الأرض الدافئة. بوسع يديك استشعار ذبذبات رقيقة، بعيدة، حركة قصيّة، أنفاس - لا مجال للشك: كانت الأرض حيّة.

ثم عرفا من أهل أيسلندا أنه ما من سوء حقيقي كان يمكن أن يصيبهما: تستطيع الأرض أن تكشف حلماتها الدافئة لروحين ضائعتين مثلهما. عليك فقط أن تمصّ تلك الحلمات بامتنان وتشرب حليب الأرض. يبدو أن مذاقه مثل حليب المغنيسيوم - ذلك الذي يبيعونه في الصيدليات لعلاج الحموضة وحُرقة المعدة.

بوغو

غدًا الساباث [السبت] الحسيديم الصغار الناشئون يرقصون رقصة البوغو على الممشى الخشبي على إيقاع موسيقى أمريكية جنوبية رائجة ونابضة بالحيوية. «الرقص» ليس هو الكلمة الصحيحة. إنها قفزات نشوانة جامحة، دوران في المكان، أجساد تخبط في بعضها البعض وترتد - إنها رقصة يُدبدبها المراهقون في كل أرجاء العالم في الحفلات الموسيقية، أمام خشبة المسرح. هنا تنبعث الموسيقى من مكبرات صوت محمولة فوق سيارة يجلس فيها حاخام، يشرف على كل شيء.

بعض الفتيات السائحات الاسكندنافيات المتسلّيات ينضممن إلى الأولاد ويحاولن، على استحياء، وهن يشبكن أياديهن، أداء رقصة الـ«كان كان». لكنه سرعان ما يتلقين أمرًا من أحد المراهقين:

«نطلب من النساء إذا أردن الرقص، أن يفعلن ذلك على جنب»

جدار

البعض هنا يعتقدون أننا وصلنا إلى نهاية رحلتنا.

المدينة بيضاء ناصعة، مثل عظام تُركت في الصحراء، لعقتها ألسنة الحرارة، صقلتها الرمال، تبدو مثل مستعمرة مرجان متكلسة نمت على تلة من أيام البحر الغابر.

يقال أيضًا إن مدرج طيران هذه المدينة ليس مستويًا - صعبًا على أي طيار؛ مدرج كانت تُقلع منه الآلهة في قديم الزمان بعيدًا عن الأرض. لكن من يمتلكون أي فكرة عن تلك الأزمنة يكررون، لسوء الحظ، أشياء متناقضة. لا يستطيعون الاتفاق اليوم على رواية بعينها للوقائع.

انتبهوا أيها الحُجّاج والسياح والجوالة الذين استطاعوا بلوغ هذا الشوط - لقد أبحرتم في سفن، وسافرتم على متن طائرات، واجتزتم على الأقدام مضايق وجسورًا، كردونات عسكرية وأسلاكًا شائكة. كثيرًا ما أُوقفت سياراتكم وقوافلكم، رُوجعت جوازات سفركم بعناية، نُظِر في عيونكم. انتبهوا، اجتازوا هذه المتاهة من الشوارع الصغيرة مهتدين بالإشارات والمحطات. لا تتبعوا سَبّابة يد ممدودة، ولا القصائد المرقمة في كتاب، ولا الأرقام الرومانية المرسومة على حوائط البيوت. لا تضللكم أكشاك بيع المسابح، السجادات، مواسير المياه، العملات التي نُبشت (بحسب ما يزعم) من رمال الصحراء، التوابل المكوّمة في أهرامات ملونة، لا يُلهينكم الزحام المبهرّج لأناس مثلكم، من كل نوع، من كل لون، من كل وجه، وشعر، وزي وقبعة، وحقيبة ظهر.

في قلب المتاهة لا كنزٌ ولا مينوتور ينبغي عليكم مصارعته في معركة؛ الطريق ينتهي فجأة بجدار - أبيض مثل المدينة كلها، عال، يستحيل تسلقه. لعله جدار معبد غير مرئي، لكن الحقائق هي الحقائق - لقد وصلنا إلى النهاية، ما من شيء وراء هذا الجدار.

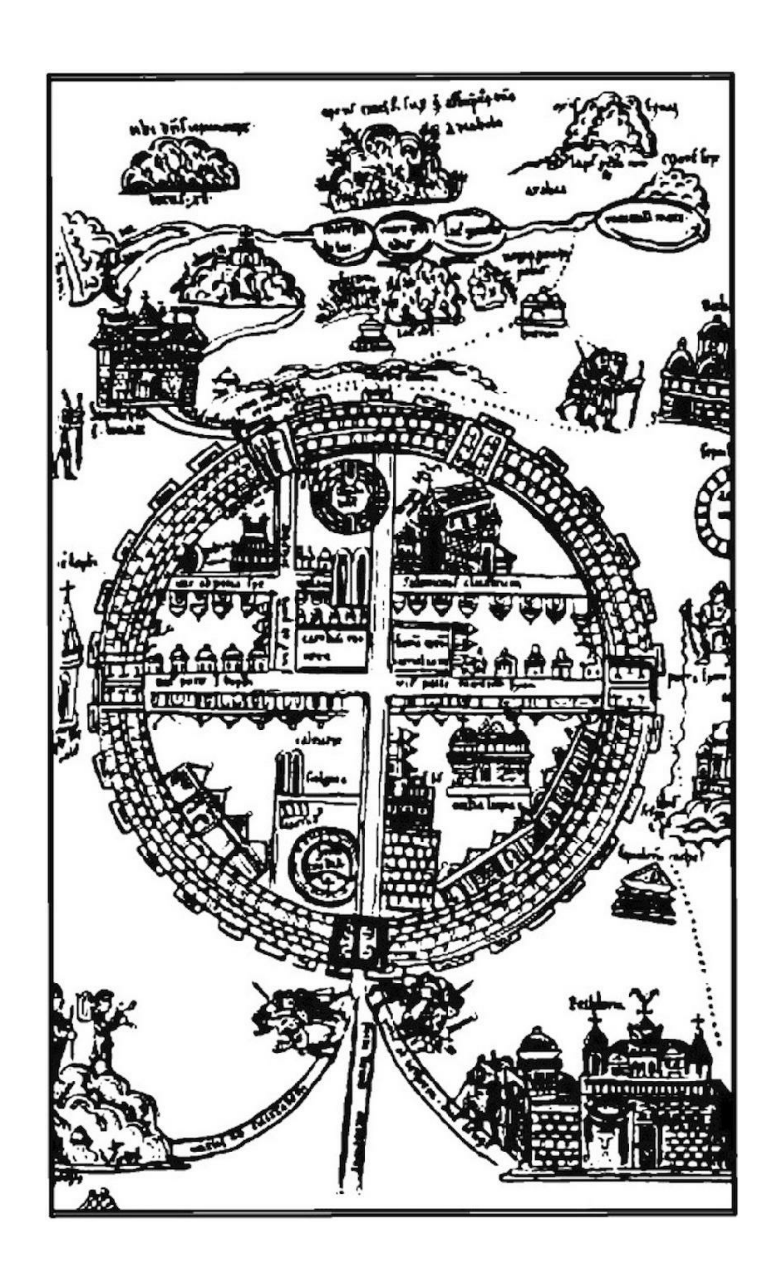
ولذا لا يفاجئنكم منظر هؤلاء الذين يقفون أمام الجدار مصدومين، أو هؤلاء الذين يُبردون جباههم بإراحتها على الحجر البارد، أو حتى هؤلاء -الذين من باب الإرهاق والإحباط- جلسوا مستكينين بجوار الجدار مثل أطفال.

لقد حان وقت الرجوع.

مسرح دائري مُدرَّج في سبات

في ليلتي الأولى في نيويورك حلمت أنني أتجول في شوارع المدينة ليلًا. مع ذلك، كانت معي خريطة، وكنت أراجعها من وقت إلى آخر باحثة عن طريق خارج هذه المتاهة الشبكية. فجأة وصلت إلى ميدان كبير ورأيت مسرحًا دائريًا مدرجًا قديمًا هائل الحجم. وقفت، مذهولة تمامًا. ثم جاء زوجان من السياح اليابانيين وأوضحا لي مكانه على خريطة المدينة. نعم، إنه هناك حقًا. تنهدتُ في راحة.

في أدغال الشوارع المتعامدة والمتوازية التي تتقاطع مع بعضها البعض مثل السُّدى واللُّحمة، في وسط هذه الشبكة الرتيبة، رأيت عينًا دائرية عظيمة تحدّق في السماوات.



خريطة لليونان

تذكر بـ«الطاو الأعظم». إذا نظرت إليها عن قرب، تستطيع أن ترى طاوًا أعظم مجبولًا من ماء وتراب. لكن ما من موضع يتفوق فيه أحد هذين العنصرين على الآخر - كل منهما يعانق الآخر بالتبادل: أرض وماء. مضائق شبه جزيرة بيلوبونيز هي ما تعطيه الأرض للماء، وكريت هي ما تُعطيه الماء للأرض.

أظن أن بيلوبونيز تتمتع بأجمل شكل على الإطلاق. يشبه شكلها يدًا أمويةً عملاقة، لا- بشرية، تنغمس في الماء لترى إن كانت درجة الحرارة مناسبة للاستحمام.

كايروس

«نحن الذين نتصدى للمشكلات وجهًا لوجه»، هكذا قال البروفيسور فور خروجهما من مبنى المطار الكبير، بانتظار سيارة التاكسي التي ستقلّهما. استمتع بأنفاس عميقة من الهواء اليوناني الدافئ اللطيف.

كان في الحادية والثمانين من عمره، مع زوجة أصغر منه بعشرين عامًا، امرأة تزوجها بقرار حكيم، إذ كان الهواء يتسرب من زيجته الأولى، وأبناؤه البالغون غادروا العش. وخيرًا فعل، لأن تلك المرأة الأخرى الآن بحاجة إلى من يراعيها هي نفسها، وتعيش أيامها في دار مسنين معقولة جدًا.

مرت عليه الرحلة بسلام، ولم يُحدِث فارق التوقيت الذي يبلغ بضع ساعات أثرًا ملحوظًا، كان إيقاع نوم البروفيسور قد أصبح، منذ زمن طويل، يشبه سيمفونية متنافرة، جداول مواعيد عشوائية لنوبات نعاس غير متوقعة ونوبات صفاء ذهني مبهرة. وكل ما فعله تغيير التوقيت هو أنه أزاح هذه النغمات الفوضويّة لليقظة والنوم بمقدار سبع ساعات.

أقلهما التاكسي المكيف إلى فندقهما؛ وهناك، أشرفت كارين، زوجة البروفيسور التي تصغره سنًا، على تفريغ أمتعتهما بمهارة، وجمعت معلومات في مكتب الاستقبال عن منظمي الجولة البحرية، وحصلت على المفاتيح، ثم، متقبلة المساعدة من حمال متوجس - إذ لم تكن بالمهمة اليسيرة اصطحبت زوجها إلى الطابق العلوي، إلى غرفتهما. وهناك وضعته في فراشهما بعناية، مرخية وشاحه وخالعة حذاءه. وسرعان ما راح في النوم.

وها هما في أثينا! كانت سعيدة، ذهبت إلى النافذة وجاهدت للحظة مع مشبكها اللوذعي، أثينا في أبريل. الربيع في ذروة اكتماله، أوراق الشجر تنمو صوب السماء بسرعة محمومة. كان التراب يتطاير في الخارج، لكن ليس بكثافة بعدُ؛ والصخب، بالطبع: لا ينتهي. أغلقت النافذة.

في الحمام، شعثت كارين شعرها الرمادي القصير ودخلت تحت الدوش. شعرت بتوترها ينجرف مع الصابون، يتجمع في بركة تحت قدميها، ثم يفرُّ في مواسير الصرف إلى أبد الآبدين.

لا شيء يستدعي الاستعجال، هكذا ذكرت نفسها، في الأعماق. أجسادنا كلها يجب أن تنسجم مع العالم. ما من سبيل آخر.

«إننا نقترب من خط النهاية»، قالتها بصوت عال، وهي لا تزال تقف تحت تيار الماء

الدافئ. ولأنها لم يكن يسعها سوى التفكير في الأشياء بتخيل صور لها- ولطالما كان ذلك، في ظنها، عقبة أمام مسارها الأكاديمي تخيلت شيئًا أشبه بـ«جيمنيزيوم» إغريقي قديم حيث عتبة الانطلاق معلقة بكابلات، بينما يهرول العداؤون، هي وزوجها، بمشقة باتجاه خط النهاية، ولو أنهما لم ينطلقا إلا لتوهما.

لفت منشفة منفوشة حول نفسها ودهنت مرطبًا بسخاء، على وجهها، ورقبتها، وصدرها. الآن، هدأتها الرائحة المألوفة للكريم بالكامل، لذا رقدت للحظات على الفراش المسوّى بجوار زوجها، وغلبها النوم من دون أن تنتبه.


NEW YORK
SÜDL. TEIL.
Maßstab 1:40000
Palmer Dock
Wallabout
Bay
Erie R.R. Stat.
Central R.R.

على العشاء، في المطعم بالطابق السفلي (سمك موسى وبروكلي له، ولها سلطة جبن فيتا)، سألها البروفيسور إن كانا قد جلبا كراساته، وكتبه، وملاحظاته، إلى أن جاء السؤال الذي كان سيصل آجلًا أو عاجلًا، بين الأسئلة الاعتيادية، كاشفًا عن آخر التطورات على الجبهة:

«عزيزتي، أين نحن الآن؟».

استجابت بهدوء. شرحَت له في جمل قليلة بسيطة.

قال بسعادة: «آه، طبعًا. أنا مشوّش قليلًا».

طلبت لنفسها زجاجة «ريتسينا» وجالت ببصرها في المطعم. أغلبهم سياح أثرياء، أمريكان، ألمان، بريطانيون، وأيضا هؤلاء الذين فقدوا في التدفق الحر للأموال، الذي يتركونه يقودهم - كل سمة مميزة. كانوا ببساطة جذابين، أصحاء، يتنقلون بسهولة ويسر من لغة إلى لغة.

على الطاولة المجاورة لطاولتهما، على سبيل المثال، جلست مجموعة لطيفة، أناسٌ لعلهم أصغر منها قليلًا، في الخمسينيات وسعداء بذلك، وجوههم تنضح صحة وعافية. ثلاثة رجال وامرأتان في نوبات من الضحك، يجلب لهم النادل زجاجة أخرى من النبيذ اليوناني - لم يكن لدي كارين شك أنها كانت لتنسجم معهم. خطر لها أن بوسعها أن تترك زوجها، الذي كان لحظتها يكشط الجثة الشاحبة لسمكته بشوكة مرتعشة. بإمكانها أن تأخذ الـ«ريتسينا»، وعلى نحو تلقائي، مثلما تطير بذرة الهندباء وتهبط، تحط على إحدى كراسي تلك الطاولة المجاورة، تلتحق بالنغمات الأخيرة لضحكات هؤلاء الناس، يلتحق صوتها الألتو الناعم بأنغامهم في سلاسة وانسجام.

بالطبع لم تفعل هذا. عليها أن تلملم قطع البروكلي من على مفرش الصحون، بعد أن قفزت من صحن البروفيسور، وقد أهانها افتقاره للكفاءة، مثلما يقفز الركاب من سفينة غارقة.

«يا آلهة السماوات»، هكذا هتفت، وهي تنادي النادل لتطلب بعضًا من شاي الأعشاب. ثم استدارت إليه قائلة: «هل أساعدك؟».

«لن أقبل أن يساعدني أحد في تناول طعامي. أعتبر ذلك خطًأ أحمر»، قالها، ثم عاد، بقوّة مضاعفة، إلى إعمال السكين في سمكته.

كثيرًا ما تغضب منه. كان الرجل متواكلًا عليها بالكامل، ومع ذلك يتصرف وكأن العكس هو الصحيح. فكرت في نفسها أن الرجال، أو على الأقل الأكثر مهارة بينهم، لديهم غريزة

بقاء تدفعهم إلى التشبث، باستماتة تقريبًا، بنساء يصغرنهم بكثير - لكن ليس للأسباب التي يصفها علماء الاجتماع البيولوجي. لا، فالأمر لا يتعلق مطلقًا بالتناسل، أو الجينات، أو حشر أحماضهم النووية داخل أنابيب المادة الصغيرة التي يسري فيها الزمن. بل هو متعلّق بالهاجس المسبق لدى الرجال في كل لحظة من حياتهم، هاجس مكتوم ومخفي بعناد - أنهم إذا تركوا لحالهم، في الرِفقة البليدة الهادئة لحركة الزمن، سوف يصيبهم الضمور على نحو أسرع. وكأنهم قد صُمّموا لدفقة قصيرة من النشاط، لسباق رهاناته عالية فورًا، يتبعه على الفور إنهاك. كأن ما يبقيهم على قيد الحياة هو الإثارة، وهي استراتيجية مكلفة لعيش الحياة؛ إذ تنضب مستودعات الطاقة في نهاية المطاف، وبعدها تصبح الحياة أشبه بالسحب على المكشوف.

تقابلا في حفل في بيت صديق مشترك كان قد أنهى لتوّه وظيفته التي استمرت لعامين في جامعتهما، قبل خمس عشرة سنة. جلب لها البروفيسور كأسًا من النبيذ، وعندما ناوله لها، لاحظت أن دُرزات صدريته الصوفية قديمة الطراز كانت تتفتق، وخيط داكن طويل يخفق عند وركه. كانت قد وصلت لتوها لتحل محل بروفيسور أوشك على التقاعد، واستلمت كل طلابه؛ كانت تعمل على تأثيث بيتها المستأجر وتموينه بالضروريّات بعد طلاقها، الذي كان ليصبح أكثر إيلامًا لو كان لديهما أطفال. كان زوجها قد هجرها، بعد خمس عشرة سنة من الزواج، لأجل امرأة أخرى، كانت كارين تجاوزت الأربعين، وصلت للأستاذية، ونشرت عدّة كتب باسمها. كانت متخصصة في الملل الغابرة الأقل شيوعًا في الجزر اليونانية. كانت الدراسات الدينية مجالها.

استغرق الأمر بضع سنوات، بعد تلك المقابلة، لكي يتزوجا. كانت زوجة البروفيسور الأولى مريضة بمرض خطير، ما جعل حصوله على الطلاق أكثر صعوبة. لكن حتى أولاده كانوا في صفهما.

كثيرًا ما كانت تتأمل في المسار الذي انتهت إليه حياتها، فتصل إلى خلاصة مفادها أن الحقيقة بسيطة: الرجال يحتاجون إلى النساء أكثر مما تحتاج النساء إلى الرجال. في الحقيقة، فكرت كارين، تستطيع النساء المضي في حياتهن على أفضل نحو من دون رجال أصلًا. إنهن يتعاملن مع الوحدة بشكل جيد، يعتنين بصحتهن ويعقدن الصداقات، يعشن أطول - عندما حاولت التفكير في صفات أخرى، أدركت أنها تتخيل النساء كسلالة بالغة النّفع من الكلاب. بقدر من الرضا بدأت تسهب في هذه القائمة من الصفات الكلبيّة: يتعلمن بسرعة، يحببن الأطفال، اجتماعيات، يستمتعن بالبقاء في المنزل من السهل أن توقظ فيهن - خصوصًا في السن الصغيرة- تلك الغريزة الغامضة، الشاملة، التي لا ترتبط فقط بامتلاك النسل. لكن الأمر أكبر من ذلك بكل تأكيد - إحاطة بالعالم؛ تسوية الطرق والمسالك بدقات أقدامهن؛ فرد الأيام والليالي ثم طيها في خزانتها؛ تكريس طقوس مهدئة. ليس من الصعب

استثارة هذه الغريزة بقدر من ادعاء العجز. ثم تُغشى أبصارهن، تتكشف الخوارزمية، وعندها تجدهن ينصبن خيامهن، يُقرن في أعشاشهن، ينفضن عن أنفسهن كل شيء آخر، ولا تلاحظ النساء لو كان الفرخ الصغير في العش وحشًا، مسخًا نبذه شخص آخر.

كان البروفيسور قد تقاعد قبل خمس سنوات، ونال الجوائز والأوسمة عند مغادرته، بما في ذلك إدراج اسمه في سجل أكثر الأكاديميين جدارة، وهي مطبوعة تذكارية تضم مقالات من الطلاب؛ وأقيمت على شرفه عدة حفلات. إحداها حضرها ممثل كوميدي معروف من التلفزيون، وهو، للعلم، أكثر ما أبهج البروفيسور وأنعشه.

ثم استقرا على نحو دائم في بيت متواضع لكنه مريح في بلدتهما الجامعية؛ وهناك شغل نفسه بـ«ترتيب أوراقه».

في الصباح كانت كارين تُعدّ له الشاي وتجهز له إفطارًا خفيفًا. كانت تطالع مراسلاته، وترد على الخطابات والدعوات، وهي المهمة التي تتمحور بالأساس حول الرفض المهذب. في الصباحات كانت تحاول ملاحقة نهوضه المبكر، تجهز له ناعسة بعض القهوة وتعدّ له عصيدة الشوفان. كانت تخرج له ملابس نظيفة. نحو الظهر تأتي مساعدة المنزل، لذا يكون أمام كارين بضع ساعات لنفسها، ويستسلم هو لقيلولته اليومية، بعد الظهر كوب آخر من الشاي، هذه المرة شاي أعشاب، ثم توصله إلى الباب من أجل نزهته التي يأخذها في بواكير المساءات بمفرده. قراءة أوفيد بصوت عالٍ، عشاء، ثم تجهيزات ليلية للفراش. كل هذا يتخلله تقسيم حصص الحبوب وقطرات الأدوية. في كل عام، من تلك الأعوام الخمسة الهادئة، لا ترد بالقبول إلا على دعوة واحدة - النزهات البحرية الفاخرة كل صيف بين الجزر اليونانية، حيث يلقي البروفيسور محاضرات يومية للركاب، باستثناء يومي السبت والأحد. كانت عشر محاضرات إجمالًا، حول الموضوعات التي يفتتن بها البروفيسور، لم تكن هناك قائمة ثابتة بالموضوعات.

كانت السفينة تسمى «بوسيدون» (أحرفها اليونانية السوداء مكتوبة بنقش بارز صارخ على هيكلها الأبيض: ΠΟΣΕΙΔΩΝ)، وتحتوي على سطحين، ومطاعم، وغرفة بلياردو، ومقاهٍ صغيرة، وصالون للتدليك، ومشمس، ومقصورات مريحة. على مدار عدة أعوام ظلا يشغلان المقصورة نفسها، بفراش بحجم ملكي، وحمّام، وطاولة ومقعدين بذراعين، ومكتب مجهري. على الأرض سجادة ناعمة بلون القهوة، ولا تزال كارين، وهي تنظر إليها، يراودها أمل بأن تستطيع العثور بين أليافها الطويلة على القرط الذي فقدته هنا، قبل أربع سنوات. المقصورة تقود مباشرة إلى سطح الدرجة الأولى، وفي الأمسيات، بعد أن ينام البروفيسور، كانت كارين تحب استغلال أسباب الراحة تلك وتقف على الدرابزين لتدخن السيجارة الوحيدة في يومها، وهي تتطلع إلى الأضواء البعيدة التي يمرون بها. الآن، كان

السطح أيضًا يشع دفئًا، بعد أن ظلت الشمس تسخنه طوال اليوم، بينما هواء بارد مظلم ينساب فوق المياه، وبدا لكارين أن جسدها يرسم الحدود بين الليل والنهار.

«فأنت منقذ السفن، مروض جياد الحرب، بوركت يا بوسيدون، يا سلطان الأرض، أيها السعيد الميمون ذو الشعر الحالك، أنزل رحمتك على البحارة»، هكذا كانت تترنّم همسًا، ثم ترمي سيجارتها -التي لم تسحب منها إلا نَفَثتين، حصتها اليومية، للإله - في تبذير مسرف.

لم يتغير مسار السفينة على مدار خمسة أعوام.

من بيرايوس كانت تُبحر إلى إليوسيس، ثم إلى كورنث، ومن هناك ترجع إلى الجنوب، إلى جزيرة بوروس، لكي يرى الركاب أطلال معبد بوسيدون ويتسكعوا في أرجاء البلدة الصغيرة. ثم يأخذهم طريقهم إلى سكلاديس - كل ذلك كان يفترض أن يكون متمهلًا، بل وكسولًا، لكي يتمكن الجميع من الاستمتاع بالشمس والبحر، بمناظر البلدات المصطفة على طول الجزر، بلدات ذات جدران بيضاء وأسقف برتقالية، لها رائحة بساتين الليمون. لم يكن الموسم السياحي قد بدأ لذا لن تكون هناك جحافل من السياح - هؤلاء كان البروفيسور يزدريهم دومًا، لا يستطيع إخفاء تأففه منهم. كان يشعر بأنهم ينظرون دون أن يروا، نظراتهم تنزلق على كل شيء، لا تحطُّ إلا على الأشياء التي حدّدتها لهم كتيباتهم الإرشادية المطبوعة بكميات هائلة - المكافئ المطبوع لـ«ماكدونالدز». بعدها كانوا يتوقفون على ديلوس، حيث يعاينون معبد أبولو، ثم أخيرا يتجهون إلى جزيرة رودس، ضمن الجزر الدوديكانيّة، حيث تنتهي جولتهم هناك ويرجعون من المطار المحلي عائدين إلى ديارهم.

كانت كارين مغرمة بالأصائل حيث يرسون على مرافئ صغيرة، ثم، بعد أن يرتدوا ملابسهم استعدادا للتنزه -ويلف البروفيسور الوشاح حول رقبته- يدخلان البلدة. كانت سفن أكبر حجمًا ترسو أيضًا في تلك المرافئ، وعندها يفتح التجار المحليون متاجرهم الصغيرة على الفور ليعرضوا على الزوار مناشف مكتوب عليها اسم الجزيرة، ومجموعات من الأصداف، وقطع إسفنج، وخلطات من الأعشاب المجففة في سلال شهية، وزجاجات «أوزو»، أو مجرد «آيس كريم».

كان البروفيسور يسير بجرأة، مشيرًا إلى المعالم السياحية بعصاه - بوابات، وفسقيات، وأطلال محاطة بحواجز متضعضعة، وكان يحكي قصصًا لا يجدها مستمعوه حتى في أفضل الكتيبات الإرشادية. ولم تكن هذه النزهات متضمنة في عقده. كان العقد ينص على محاضرة واحدة كل يوم وحسب.

كان يبدأ قائلًا: «ظني أن البشر يحتاجون، لكي يعيشوا حياتهم، إلى الطقس الذي يحتاجه الليمون لكي ينمو».

يرفع عينيه إلى السقف المرصع بأضواء صغير مستديرة ويجعلها تبقى هناك للحظة أطول قليلًا من المسموح.

تضم كارين قبضتيها إلى أن تَبيَضّ براجمها، لكنها تفكر أنها استطاعت احتواء الابتسامة الماكرة، المستفزة قليلًا - حاجبان مرفوعان، تهكم على وجهها.

ويتابع زوجها: «هذه نقطة انطلاقنا. ليس من قبيل الصدفة أن ينسجم القطاع الجغرافي للحضارة الإغريقية، على نحو تقريبي، مع مجال امتداد الفواكه الحمضية. وراء هذا العالم المغمور بالشمس، الباعث على الحياة، يمر كل شيء بتدهور بطيء، لكنه محتوم».

كان الأمر يشبه إقلاعًا مطوّلًا، على غير هدى. وكانت كارين ترى الصورة نفسها كل مرة: طائرة البروفيسور تترنح، عجلاتها تغوص في أخدود، بل وربما تخرج عن المُدرّج - لذا سيقلع من فوق العشب. لكن المحرك يدور في النهاية، متخبطًا من جنب إلى جنب، مهتزًا، وعندها يتضح أن الطائرة ستطير. وتطلق كارين تنهيدة ارتياح خفية.

كانت تعرف مواضيع المحاضرات، تعرف خطوطها العامة من البطاقات الاسترشادية المكتوبة بخط البروفيسور الدقيق، ومن ملاحظاته التي تستخدمها لمساعدته إذا وقع شيء ما - كان بوسعها أن تنهض عن كرسيها في الصف الأول وتتعلق بأي من جمله في منتصف الطريق ثم تتابع من هناك، على الدرب الذي طرقه، لكنها لم تكن تتحدث بالبلاغة نفسها، ولا تسمح لنفسها بإلقاء النوادر الصغيرة التي يقبض بها على انتباه جمهوره، من دون حتى أن يعي. كانت كارين تنتظر لحظة أن ينهض البروفيسور ويبدأ في الرواح والمجيء ما يعني -عودة إلى صورتها- أن الطائرة قد وصلت إلى ارتفاع الطيران المطّرد، أن كل شيء على ما يرام، أنها تستطيع الآن أن تخرج إلى السطح العلوي وتبسط أنظارها في مرج فوق سطح الماء، تاركة إياها تتلكأ على صواري اليخوت التي يمرون بها، على قمم الجبال التي تظهر بالكاد من وراء الشبورة الخفيفة البيضاء.

كانت تنظر إلى المستمعين - يجلسون في نصف دائرة الحضور في الصف الأول أمامهم كراسات على طاولاتهم الصغيرة القابلة للطي، يدونون بلهفة كلمات البروفيسور. أما الحضور في الصفوف الأخيرة، حول النوافذ، فكانوا ينصتون أيضًا، لكن في استرخاء يتباهون بلا مبالاتهم. كانت كارين تعرف أن من بين تلك الصفوف يجلس الأشخاص الفضوليون أكثر من غيرهم، هؤلاء الذين سيرهقون البروفيسور لاحقًا بالأسئلة مستدعين إياها إلى خدمة حماية زوجها من كل الاستشارات الإضافية - غير مدفوعة الأجر.

كان هذا الرجل يذهلها، زوجها. بدا لها أنه يعرف كل ما يمكن معرفته عن اليونان، كل ما كتب، أو نُبش، أو قيل في لحظة ما. لم تكن معرفته هائلة قدر ما كانت وحشية؛ مصنوعة من نصوص، ومقتطفات، وإحالات، واقتباسات، وكلمات فك شفرتها بجهد جهيد على

شقفات المزهريات، ورسوم غير مفهومة بالكامل، ومواقع حفر، وصياغات جديدة في كتابات متأخرة، وخرائب، ومراسلات وفهارس ألفاظ. كان ثمة شيء غير بشري في كل هذا - لا بد أن البروفيسور، لكي يستطيع استيعاب كل هذه المعرفة بداخله، قد قام بإجراء بيولوجي معين، يسمح لتلك المعرفة بالنمو داخل أنسجته، يفتح لها جسده فيصبح هجينًا. لولا ذلك، لكان الأمر مستحيلًا.

كان واضحًا أن هذا المخزون الهائل من المعرفة يستعصي على الترتيب في نظام واضح؛ لا بدّ أنه يتخذ شكل الإسفنجة، شعاب مرجانية في أعماق البحر نفت على مر السنين حتى بدأت تخلق أروع الأشكال. إنها معرفة وصلت بالفعل إلى الكتلة الحرجة ومن وقتها ظلت تعبر متحولة إلى حالة أخرى - وكأنها تتناسل، تتكاثر، تنتظم في أشكال معقدة وثنائية. سافرت الارتباطات في طرق غير معتادة، وظهرت التشابهات في الروايات الأقل توقعًا - مثل صلة القرابة في المسلسلات البرازيلية المطولة، حيث قد يتبين أن أي شخص هو ابن أو زوج أو أخت أي شخص آخر. دروب مطروقة مرارًا أصبحت لا تساوي شيئًا، بينما تلك التي ظنها العلماء وعرة يستحيل اجتيازها ثبت أنها طرق ملائمة. شيء ظل بلا معنى لسنوات أصبح فجأة - في عقل البروفيسور. نقطة الانطلاق لكشف عظيم، نقله نوعية حقيقية في التفكير. كانت تدرك على نحو لا يتزعزع أنها زوجة رجل عظيم.

بينما كان يتكلّم، تبدّلت قسماته، وكأن كلماته مسحت عنه آثار الشيخوخة والإرهاق. ظهر وجه جديد: الآن عيناه تلمعان، خداه مرفوعان ومشدودان. الآن، خبا ذلك الانطباع الكريه الذي كان قائمًا قبل لحظات فحسب؛ انطباع أنه يرتدي قناعًا على وجهه. كان تغيّرًا كبيرًا وكأنه تناول عقارًا، جرعة صغيرة من الأمفيتامين. كانت تعرف أن العقار - أيًّا كان نوعه- عندما ينسحب سيعود وجهه للتجمد ثانية، وتنطفئ عيناه، ويتهدل جسده على أقرب مقعد بذراعين، مسترجعًا مظهر المسكنة الذي تعرفه جيدًا. وسيكون عليها أن ترفع ذلك الجسد بحرص، من تحت الإبطين، واخزة إياه برقة شديدة، مشجعة إياه على جرجرة قدميه والارتماء على الفراش من أجل غفوة في مقصورتهما - سيكون قد بدد طاقة أكثر مما ينبغي.

كانت تعرف مسار المحاضرات جيدًا. مع ذلك، كانت مشاهدته تجلب لها المتعة في كل مرة، مثل وضع زهرة صحراوية في ماء، وكأنه يحكي تاريخه الخاص لا تاريخ اليونان. كل الشخوص التي يذكرها كانت هو، كان ذلك واضحًا، كل المشكلات السياسية كانت مشكلاته مشكلات شخصية بقدر الإمكان. المفاهيم الفلسفية تلك كانت ما يقض مضجعه ليلًا، كانت مفاهيمه. الآلهة كان يعرفها خير معرفة، بالطبع كان يتناول غداءه معهم يوميًا، في مطعم بالقرب من بيتهم. كم من ليال ظلوا مستيقظين يتكلمون، يشربون بحر إيجه من النبيذ. كان يعرف عناوينهم وأرقام هواتفهم، يستطيع أن يهاتفهم في أي وقت. أثينا كان يعرفها مثلما يعرف ما في جيبه، لا المدينة التي أبحروا منها لتوهم (وهذا غني عن القول) - فتلك

المدينة، للأمانة، لم تكن تشغل باله على الإطلاق، وإنما أثينا القديمة، من عصر، لنقل، بريكليس، وخريطتهم كانت مفرودة فوق خريطة عصرنا الحالي، تجعل الحاضر شبحيًا، غير حقيقي.

كانت كارين قد أجرت استطلاعها الخاص عن زملائهما من الركاب ذلك الصباح، عندما رست السفينة في بيرايوس، كان الجميع، حتى الفرنسيون، يتحدّثون الإنكليزية. أحضرتهم سيارات التاكسي مباشرة من مطار أثينا أو من فنادقهم. كانوا مهذبين، وجذابين، وأذكياء. هنا زوجان، في الخمسينيات من عمرهما، رشيقان، ربما أكبر من مظهرهما، في ملابس طبيعية فاتحة اللون، كتان وقطن، هو يلعب بقلمه، وهي تجلس معتدلة الظهر ومرتخية، مثل شخص تمرّن على تقنيات الاسترخاء. بعدهما، امرأة شابة تتألق عيناها بعدستيها اللاصقتين، تدون ملاحظات، عسراء، تكتب في حروف كبيرة مدورة، ترسم أشكال 8 على الحواف. وراءها شابان مثليان، متأنقان، مهندمان، أحدهما يرتدي نظارة غريبة على طريقة «إلتون جون». بجوار النافذة أب وابنته، وهو ما أكداه على الفور لدى تقديم نفسيهما، إذ لعله خاف أن يُتهم بعلاقة مع قاصر، الفتاة ترتدي الأسود دائمًا وقد حلقت شعرها كله تقريبًا، لها شفتان مبوّزتان داكنتان جميلتان تفضحان تعبيرًا من الاحتقار المنتفخ إلى حد يستعصي على السيطرة. الزوجان التاليان، اللذان جمع بينهما الشيب، كانا سويديين، واضح أنهما عالما سماكة- هذا ما عرفته كارين من قائمة الحضور التي تلقياها سلفًا. كان السويديان هادئين وبدوا متشابهين كثيرًا، ولو ليس بالطريقة التي يتشابه بها الناس عند الميلاد - بل كان ذلك التشابه الذي يجب الاشتغال عليه، بقوة، على مر سنوات عديدة من الزواج. بضعة أشخاص أصغر سنًا، كانت تلك النزهة هي الأولى بالنسبة لهم؛ بدوا لا يزالون غير متأكدين إن كانت المواضيع الإغريقية القديمة هي الأنسب لهم، أم إنهم يفضلون الغوص في أسرار زهور الأوركيد أو الفنون الزخرفية الشرق أوسطية في منقلب القرن. أكان مكانهم على هذه السفينة مع هذا الشيخ المسن الذي يبدأ محاضراته بحديث مشتت عن الفواكه الحمضية؟ أطالت كارين النظر إلى الرجل ذي الشعر الأحمر والبشرة الفاتحة في بنطلون جينز متدل حول وركيه، الذي يفرك لحيته الشقراء الفاتحة التي نمت منذ عدة أيام على وجهه، فكرت أنه يبدو ألمانيًا، ألماني وسيم. وعشرة آخرون أو نحو ذلك، في صمت منتبه، يتابعون البروفيسور.

فكرت كارين: هاكَ عقل من نوع جديد، لا يثق في الكلمات المكتوبة في الكتب، في أفضل النصوص الدراسية، في الأوراق، أو الدراسات، أو دوائر المعارف. التي أسيء استخدامها عبر دراستها، الآن يعاني من فُواق مخِّي. لقد أفسدته سهولة تكسير أي بناء حتى الأكثر تعقيدًا إلى عوامله الأولية. دحض كل محاجة غير مدروسة، اتخاد لغة عصرية، جديدة تمامًا، كل بضع سنوات، يمكنها مثل مطواة متعددة الاستخدامات من أحدث طراز- أن تفعل

أي شيء بأي شيء: تفتح صفائح، تنظف سمكًا، تفسّر روايات وتتنبأ بتطور الموقف السياسي في وسط أفريقيا. عقل خلق للحزّورات، عقل يوظف الاستشهادات والإحالات المرجعية مثل الشوكة والسكين. عقل منطقي واستطرادي، وحيد ومعقم. عقل يبدو واعيًا بكل شيء، حتى الأشياء التي لا يفهمها حقًا، لكنه يتحرك بسرعة - نبضة كهربية ذكية وسريعة بلا حدود، تربط كل شيء بكل شيء، مقتنعة بأن كل هذا معًا يعني شيئًا ما، حتى إن لم نستطع معرفة كنهه بعد.

الآن، بدأ البروفيسور الإسهاب، بهمّة، في أصل اسم بوسيدون، وأدارت كارين وجهها صوب البحر.

بعد كل محاضرة كان يحتاج إلى تطمينٍ أنها سارت على ما يرام. في مقصورتهما، وهما يرتديان ملابسهما للعشاء، كانت تضمه إليها، شعره يفوح برائحة شامبو البابونج الخفيفة. الآن صارا جاهزين للخروج، هو في سترته الداكنة الخفيفة ووشاحه المفضل قديم الطراز، وهي في فستان مخملي أخضر، واقفان داخل مقصورتهما الضيّقة ووجهاهما صوب النافذة. ناولته كأسًا صغيرة من النبيذ، وتجرع هو رشفة وهمس ببضع كلمات، ثم غطس أصابعه في الكأس ورش النبيذ في أرجاء المقصورة، لكن بحرص، وكأنما لكي لا يبقع السجادة البنية المزغبة. غاصت القطرات في قماش الكرسي الداكن، مخفية النبيذ داخل الأثاث؛ لن يكون له أثر. وفعلت هي مثله.

على العشاء، انضم الرجل الألماني الذهبي إلى طاولتهما، التي يتقاسمانها مع القبطان، ورأت كارين أن زوجها لم يسعد كثيرًا بهذا الحضور الجديد. مع ذلك، كان الرجل لطيفًا، كيّسًا. قدم نفسه كمبرمج، وقال إنه يعمل على أجهزة كمبيوتر في بيرغن، بالقرب من الدائرة القطبية الشمالية. إذا فقد كان نرويجيًا. في ضوء المصباح الناعم بدت بشرته، وعيناه، والإطار السلكي لنظارته جميعًا مصنوعة من الذهب. كان قميصه الكتاني الأبيض يغطي بلا لزوم جذعه الذهبي.

كان مهتمًا بأحد المصطلحات التي استخدمها البروفيسور أثناء محاضرته، والتي شرحها - في الحقيقة بدقة هائلة.

كرر البروفيسور، وهو يجاهد لإخفاء حنقه: «الحدس التكميلي هو، كما قلت، ضرب من الاستبصار الذي يكشف على نحو تلقائي وجود قوّة أكبر من البشر، وحدة ما أكبر من اللاتجانس»، ثم أضاف بفم ممتلئ بالطعام: «سوف أستفيض في الموضوع غدًا».

أجاب الرجل بنبرة المغلوب على أمره: «صحيح. لكن ماذا يعني؟».

لم يتلق جوابًا، لأن البروفيسور، بعد اجترار دام اللحظات، كان واضحًا أنه يبحث فيها

عبر المخزون في قعر ذاكرته، بدأ أخيرًا في رسم سلسلة من الدوائر الصغيرة في الهواء بيده، وهو يتلو:

«أرفض كل شيء، لا تنظر، أغمض عينيك وغير نظرتك، أوقظ نظرة جديدة يملكها الجميع تقريبًا، لكن لا يستخدمها إلا القليلون».

كان فخورًا بنفسه حتى أن وجهه تورّد فعليًا.

«أفلاطون».

أومأ القبطان برأسه إيماءة العارف، ثم رفع نخبًا - كانت تلك رحلتهما الخامسة معًا.

«نخب سنويّتنا الصغيرة السعيدة».

كان الأمر غريبًا، لكن كارين تأكدت عندها أن تلك ستكون آخر رحلاتهما معًا.

قالت: «عسانا نلتقي ثانية العام القادم».

البروفيسور، وقد دب النشاط في أوصاله الآن، أخبر القبطان وذا الشعر الزنجبيلي، الذي قدّم نفسه باسم «أولي»، بأخر أفكاره.

«رحلة تتبع خطى أوديسيوس»، قالها، ثم انتظر تاركًا الفرصة لكي يندهشوا من فكرته. «على وجه تقريبي، بالطبع. سوف نحتاج إلى تفكير من أجل تنظيمها، من الناحية اللوجيستية». نظر إلى كارين، التي غمغمت:

«لقد استغرقت رحلة أوديسيوس عشرين سنة».

أجاب البروفيسور بابتهاج: «لا يهم. في أيامنا وعصرنا تستطيعين إنجازها في أسبوعين».

ثم التقت أعين كارين وأولي، بالصدفة.

ثم حدث في تلك الليلة، أو التالية، أن وصلت إلى رعشة الجماع، هكذا، في نومها. كان الأمر مرتبطًا بالنرويجي ذي الشعر الأحمر، وإن لم يتضح لها كيف لأنها لم تتذكر كثيرًا مما عاشته هناك، في حلمها. شعرت بأنها تعرف ذلك الرجل الذهبي، بعمق. استيقظت مع أصداء الانقباضات في أسفل بطنها، مشدوهة، مستغربة ثم محرجة. وقبل أن تعرف أنها تفعل ذلك، بدأت تعدّها، وأحصت آخر أربعة منها.

اليوم التالي، وهم يتحركون بحذاء الساحل، اعترفت كارين لنفسها - صراحة- أنه في هذه المرحلة، في العديد من الأماكن، لم يتبق لها أي شيء تراه.

كان الطريق إلى إليوسيس طريقًا أسفلتيًا سريعًا تنطلق عليه السيارات مسرعة؛ ثلاثون كيلومترًا من القبح والابتذال، حارات طوارئ جرداء، بيوت أسمنتية، إعلانات، ساحات انتظار وأرض لا جدوى من زراعتها. مستودعات، منحدرات تحميل، ميناء قذر عملاق، محطة تدفئة.

ذات مرة كانوا على الشاطئ، البروفيسور يقود المجموعة كلها إلى أطلال «معبد ديميتر»، الذي يبدو الآن بائسًا. لم تستطع المجموعة إخفاء إحباطها، لذا دعتهم هي جميعًا لتخيل إعادة الزمن إلى الوراء.

«هذا الطريق من أثينا كان تقريبًا بلا أي أحجار تدعمه في ذلك الوقت، وكان ضيّقًا جدًا - انظروا، الحشود تتحرك بطوله باتجاه إليوسيس، يسيرون، أقدامهم تثير الغبار، خائفين من أعظم حكام في العالم. يصرخ الحشد المتزاحم، وتتعالى أصوات مئات الحلوق».

وقف البروفيسور ساكنًا، مرتكزًا على عقبيه، مثبتًا عصاه كوتدٍ في الأرض، وقال:

«ولعل الصوت كان يشبه شيئًا من هذا»، وانقطع صوته اللحظة، لكي يستجمع أنفاسه، ثم أخرج صوتًا بكل قوة حلقه العجوز، صدح صوته فجأة عاليًا وصافيًا. عويله المحمول على الهواء الساخن جعل الجميع ينظرون إلى أعلى: السياح المتفاجئون الذين يتجولون بمفردهم، يشقون طريقهم وسط الصخور، وباعة الآيس كريم، والعمال الذين يصطفون بحذاء الدرابزين لأن الموسم السياحي أصبح على الأبواب، وطفل صغير ينكز خنفساء مذعورة بعصا، وحماران يرعيان في البعيد، على الجانب الآخر من المنحدر.

«إياخوس، إياخوس»، ارتفعت عقيرة البروفيسور وقد أغمض عينيه.

حتى بعد أن لاذ بالصمت ثانية، ظلت صرخته معلقة في الهواء، ما جعل كل شيء يحبس أنفاسه لدقيقة، لبضع عشرات من الثواني الغريبة. لم يستطع مستمعوه، وقد توترت أعصابهم لهذا السلوك الغريب، أن يجبروا أنفسهم حتى على تبادل الأنظار، وتحولت كارين إلى لون أحمر فاتح، وكأنما هي من صرخ بتلك الطريقة الغريبة. تزحزحت جانبًا، لتُلطّف الحرج والسخونة.

لكن لم يبدُ أن الشيخ المسن قد شعر بأي قدر من الخيبة.

سمعته يقول: «... ولعل بمقدورنا أن نتأمل في الماضي، أن نرجع بأنظارنا إلى الوراء، أن نتخيله "بانوبتيكون" من نوع ما، أو أن نعامل الماضي، يا أصدقائي الأعزاء، وكأنه لا يزال موجودًا، وكأنه نُقل إلى بعد آخر، لا أكثر. ربما كل ما يلزمنا هو تغيير طريقتنا في النظر، أن ننظر شزرًا إلى كل شيء على نحو ما. لأنه إن كان المستقبل أو الماضي لا متناه، لن يكون لدينا ذات مرة، ولا «قديمًا عندما». لحظات الزمن المختلفة معلقة في الفضاء مثل طبقات، مثل شاشات تضيئها لحظة واحدة؛ العالم مشكل من تلك اللحظات

المجمدة. صور شارحة عظيمة، وليس علينا إلا أن نقفز من واحدة إلى الأخرى».

انقطع لحظة ليستريح، لأنهم كانوا يصعدون التل، ثم سمعته كارين يعتصر الكلمات التالية اعتصارًا لتخرج بين أزيز أنفاسه:

«في الحقيقة، لا وجود للحركة. إننا، مثل السلحفاة في مفارقة زينو[34] لا نتجه إلى أي مكان، أو لنقل إننا ببساطة. نتسكع في دواخل لحظة ما، لحظة لا تنتهي، لا وجهه لنا ولا قصد. والأمر نفسه قد ينطبق على الفضاء - فلما كنا جميعًا، وعلى نحو متطابق، قد أبعدنا من الأبدية، لا يمكن أن يكون ثمة «مكان ما». لا شيء في حالة رسوّ حقيقية في أي يوم، ولا في أي مكان».

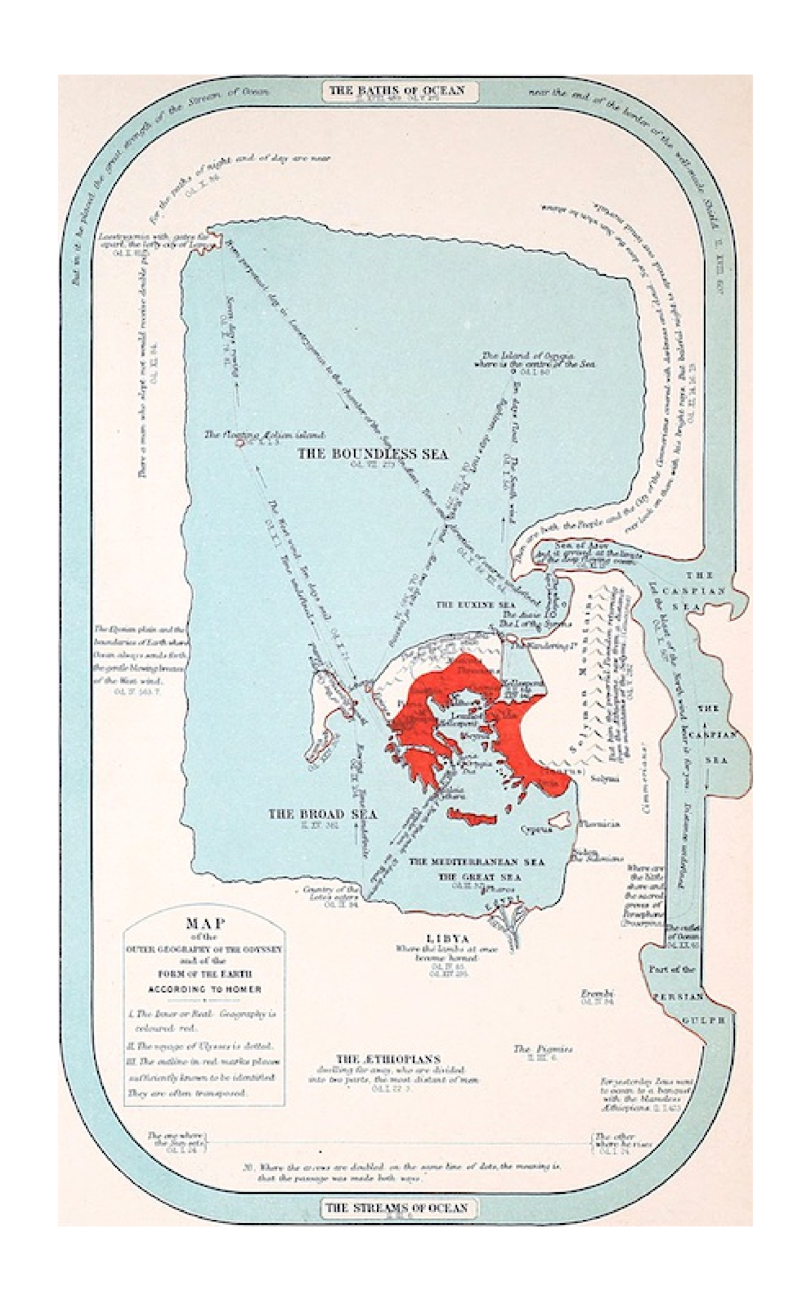
ذلك المساء قامت كارين بـ«تحليل تكلفة» عقلي لتلك الرحلة: أنف وفم محروقان، قدم جريحة ونازفة. كان حجرٌ حاد قد دخل تحت شريط صندله، ولم يشعر به. لا بد أن ذلك كان عَرَضًا خطيرًا من أعراض تصلب الشرايين المستفحل، الذي أصيب به البروفيسور منذ عدة سنوات.

كانت تعرف ذلك الجسد جيدًا، تعرفه حق المعرفة - منكمش، غائر، الجلد الجاف مبرقش ببقع بنية. بقايا الشعر الرمادي على صدره، رقبته الرقيقة التي تحمل بالكاد رأسه المرتعش، العظام النحيلة تحت غطاء نحيل من الجلد وهيكل عظمي بدا مصنوعًا من الألومنيوم من خِفَّته، طيريًا.

أحيانًا كان يغفو قبل أن تتمكن من خلع ملابسه وتجهيز الفراش، عندها تضطر إلى أن تخلع سترته وحذاءه بحرص، ثم تقوده، وهو لا يزال يترنح، إلى الفراش.

كل صباح كانت تواجههما المشكلة نفسها - حذاؤه. كان البروفيسور يعاني من علّة مزعجة - كانت أظافره تنمو إلى الداخل. التهبت أصابع قدميه، انتفخت، واستطالت الأظافر، حافرة ثقوبًا في جواربه، محتكّة على نحو مؤلم بجسم الحذاء العلوي. وحين تتألم القدم هكذا، يكون وضعها في خفها الجلدي الأسود قسوة مجانية. لذا، كان البروفيسور، في مهامه اليومية، ينتعل صندلًا، وأحذية مغطاة طلباها من صانع أحذية معين بالقرب من مسكنهما، ومقابل مبلغ لا يصدق كان يصنع للبروفيسور أحذية ناعمة جميلة، أجزاؤها العلوية مرفوعة، سائبة.

ذلك المساء، أصيب بالحمى، غالبًا بفعل الشمس، لذا تخلت كارين عن العشاء على الطاولة وطلبت الطعام في مقصورتهما.



THE BATHS OF OCEAN
THE BOUNDLESS SEA
THE EUXINE SEA
THE CASPIAN SEA
THE BROAD SEA
THE MEDITERRANEAN SEA
THE GREAT SEA
Cyprus
LIBYA
THE ÆTHIOPIANS
Part of the PERSIAN GULPH
MAP
of the
OUTER GEOGRAPHY OF THE ODYSSEY
and of the
FORM OF THE EARTH
ACCORDING TO HOMER
THE STREAMS OF OCEAN

في الصباح، بينما تبحر السفينة إلى ديلوس، بعد أن غسلا أسنانهما وأنجزا حلاقة مجهدة، خرجا معًا إلى السطح ومعهما معجنات من التي قدمت مع الشاي في اليوم السابق. راحا يكوّرانها ويرميانها في البحر. كان الوقت مبكرًا، والأرجح أن الجميع كانوا نائمين. لكن الشمس كانت قد فقدت حَمَارها وصارت ساطعة تستجمع قوتها لحظة بعد لحظة. كان الماء قد تحوّل إلى لون ذهبي، عسلي، غليظ، وكانت الأمواج قد هدأت وكأن مكواة الشمس العملاقة ضغطتها من دون أن تخلف ولو أرق الخطوط. وضع البروفيسور يده حول كتف كارين، في الحقيقة كانت تلك هي الإيماءة الوحيدة الممكنة في مواجهة تجل واضح كهذا.

إحالة أنظارك مجددًا في أرجاء المكان تشبه النظر إلى صورة فيها مليون تفصيلة تُخفي شكلًا مخبوءًا. فور أن تراه، لا تستطيع نسيان وجوده.

لن أسجل كل يوم من أيام الرحلة، ولا سأحكي كل محاضرة على أي حال، ربما تنشرها كارين يومًا ما. أبحرت السفينة، وكل مساء كان هنالك رقصٌ على السطح، ركاب يمسكون كؤوس النبيذ بأيديهم، يستندون إلى الدرابزينات، يتبادلون أحاديث كسولة. آخرون يتطلعون إلى البحر الليلي، إلى العتمة الصافية الباردة، تضيئها من حين إلى آخر أنوار سفينة كبيرة، تحمل آلاف الركاب، ترسو كل يوم في ميناء مختلف.

سأذكر فقط محاضرة واحدة، تصادف أنها محاضرتي المفضلة. كانت كارين قد خرجت بفكرة، أن تتكلم عن هؤلاء الآلهة الذين لم ينجحوا في الوصول إلى صفحات الكتب الرائجة، المشهورة، هؤلاء الذين لم يذكرهم هوميروس، الذين تجاهلهم أوفيد؛ هؤلاء الذين لم يصنعوا لأنفسهم أسماء بالدراما أو الغراميات الذين لم يكونوا مرعبين بما يكفي، ماكرين بما يكفي، مراوغين بما يكفي، الذين لم نعرفهم إلا من خلال شقف الصخور، من ذكر عابر، من الأثر الضئيل الذي تبقى من المكتبات المحترقة. لكن بفضل ذلك حافظوا على شيء فقده الآلهة المشهورون إلى الأبد. سرعة زوالِ مقدسة وعصيان على الاستيعاب، سيولة من نوع ما، التباس في اللب. يخرجون من الظلال، من اللاتشكل، ثم يرضخون مجددًا للعتمة المحلقة. خذ مثلًا «كايروس»، الذي يشتغل دائمًا عند التقاطع بين الزمن البشري، الخطي، والزمن المقدس - الزمن الدائري. وعند التقاطع بين المكان والزمان، في اللحظة التي تنفتح لبرهة قصيرة، لكي تتسع إلى تلك الإمكانية الواحدة الصحيحة، التي لا تتكرر. نقطة التماس حيث يلتقي الخط المستقيم الذي يمتد من لا مكان إلى لا مكان - للحظة واحدة بالدائرة.

دخل القاعة بخطى سريعة، مجرجرًا قدميه ولاهثًا. ووقف أمام منصته طاولة مطعم عادية صغيرة- وأخرج حزمة من تحت ذراعه، كانت تعرف طرائقه. كانت الحزمة منشفة، أخذها من مقصورتهما. كان يعرف جيدًا أنه بمجرد أن يبدأ في فردها ستغرق القاعة في الصمت،

وتميل الرؤوس في الصف الأخير باتجاهه. الناس أطفال. تحت المنشفة كان، أولًا، وشاحها الأحمر، ثم، أخيرًا، كان شيء أبيض يلمع. قطعة من المرمر، لعلها بدت أشبه بشقفة من الصخر. كان التوتر في القاعة قد وصل إلى ذروته، وأدرك هو ما أثاره من اهتمام، فاحتفل به بابتسامة ماكرة خفيفة، مطلقًا العنان لإيماءاته وإشاراته وكأنه يمثل في فيلم. ثم رفع تلك القطعة المسطحة الخفيفة إلى مستوى النظر تقريبًا، مادًّا ذراعه في محاكاة ساخرة لهامليت، وبدأ يقول:

من النحات، ومن أين جاء؟
من سيسيون واسمه؟
ليسيبوس.
ومن أنت؟
كايروس القهار.
ولماذا تمشي على أطراف الأصابع؟
أنا أبحر حول العالم طوافًا بلا انقطاع.
ولماذا تمتلك جناحين على قدميك؟
لأنني أطير مع الريح.
وفي يدك اليمنى، لماذا تحمل شفرة؟
إنها إشارة للناس أنني أحدُّ من أي نصل.
لماذا يسقط شعرك فوق عينيك؟
حتى يستطيع من يواجهني رأسًا برأس أن يمسك بي.
لكن، بحق زيوس، لماذا مؤخرة رأسك صلعاء؟
لكي لا يستطيع الرجل، حين أدهسه بقدمي المجنحتين،
أن يقبض عليّ من الخلف، مهما رغب في ذلك.
لماذا خلقك النحَّات؟
لأجلكم خصيصًا، أيها الأجانب، ووضعني في المدخل عبرة وعظة.

بدأ بهذه القصيدة الساخرة المحببة لبوسيديبوس. كان عليه أن يستخدمها كمرثية. اتجه البروفيسور إلى المقاعد الأولى وسلم الدليل على وجود الإله لجمهوره. الفتاة ذات الشفتين المُزدرِيّتين المنتفختين مدّت يدها للنقش البارز بحرص مبالغ فيه، مخرجة لسانها قليلًا من فرط الإرهاق. مرّرته إلى جارها، بينما كان البروفيسور ينتظر في صمت، حتى وصل الإله الصغير إلى منتصف القاعة، وعندها، قال، وقد اكتسي وجهه بتعبير متحجر:

«رجاء، لا داعي للقلق، إنه مجرد قالب من الجبس من متجر الهدايا في أحد المتاحف.

بخمسة عشر يورو».

سمعت كارين دمدمة ضحكات، ومراوحة أجساد المستمعين، وزحزحة كرسيّ شخص ما - علامة واضحة على انكسار التوتر. لقد بدأ بداية جيدة. لا بدّ أنه نهاره اليوم سيكون جيدًا.

انسلت بهدوء خارجة إلى السطح وأشعلت سيجارة متطلعة إلى جزيرة رودس وهي تقترب، والعبارات الكبيرة، والشواطئ التي لا تزال خالية في معظمها في هذا الوقت من العام، والمدينة، التي تسلقت المنحدر الحاد، مثل مستعمرة حشرات، صوب الشمس الساطعة. وقفت هناك، مسربلة بالسكينة التي أزهرت فجأة حولها، من يعلم من أين.

رأت شواطئ الجزيرة، والكهوف. ذكرتها الأروقة والمماشي الكنسية التي نحتها الماء في الصخر بمعابد غريبة الشكل. قوة ما شيّدتها بأناء عبر ملايين السنين، القوة نفسها التي تحمل سفينتهم الصغيرة الآن، تؤرجحهم. قوّة شفافة كثيفة، تمتلك ورش عمل على الأرض أيضًا.

فكرت كارين أنها أمام نماذج أولية للكاتدرائيات، والأبراج المستدقة، وسراديب الموتى. طبقات الصخور المتراصة بانتظام على الشاطئ، أحجار كاملة الاستدارة أعدّت بعناية على مر العصور، وحبات رمل، والكهوف البيضاوية. أوردة الجرانيت في الحجر الرملي، أنماطها الفاتنة، اللامتناظرة، الخط المنتظم الساحل الجزيرة ظلال الرمال على الشواطئ. مبان هائلة وجواهر جميلة. أي منظر أجمل من ذلك يمكن أن تتمناه تلك السلاسل الصغيرة من البيوت المصطفّة بحذاء الشواطئ؟ هذه المرافئ الصغيرة، هذه السفن الصغيرة هذه المتاجر البشرية الصغيرة، حيث تُباع الأفكار القديمة -وقد بُسّطت وشبت منها أشكال مصغرة- بثقة مفرطة.

الآن تذكرت المغارة المائية التي رأوها في مكان ما في البحر الأدرياتيكي. مغارة بوسيدون، حيث تتدفق الشمس، مرة في كل يوم، من فتحة في القمة. تذكرت أنها هي نفسها كانت بجوار عمود النور حين شقّ الماء الأخضر- حادًّا مثل إبرة، وكشف القاع الرملي بالأسفل اللحظة واحدة. لم يدم الأمر أكثر من لحظة قبل أن تمضي الشمس في طريقها.

اختفت السيجارة بهسيس في فم البحر الهائل.

كان نائمًا على جنبه، يده تحت خده، وشفتاه مفتوحتان. كانت ساق بنطلونه قد التفّت فانكشف جوربه القطني الرمادي. تمددت إلى جواره برقة، واضعةً ذراعها حول خصره وقبلت ظهره في صدريّته الصوفية. خطر لها أنها سوف تضطر، بعد رحيله، إلى البقاء لزمن أطول قليلًا، ولو لمجرد ترتيب كل أشيائهما وإتاحة مجال لأشياء أخرى. سوف تجمع ملاحظاته، تمر عليها، ولعلها تنشرها. سوف ترتب الأمور مع الناشرين - كان عدد من

كتبه قد تحول بالفعل إلى نصوص دراسية. والحقيقة أنه ما من سبب يمنعها من استئناف محاضراته، ولو أنها ليست واثقة أن الجامعة سوف توجه إليها دعوة لذلك. لكنها بكل تأكيد سوف ترغب في تسلم تلك الحلقات الدراسية، المتنقلة مثل بوسيدون، على متن هذه السفينة المتسكعة (إن طلبوا منها ذلك). عندها سيكون بإمكانها إضافة الكثير من أشيائها الخاصة. فكرت كيف أننا نتقدّم في السن من دون أن يُعلِمُنا أحد، أننا لا نعرف كيف سيكون الأمر. عندما كنا أصغر سنًا كنا نظن بأن السن المتقدمة مرض يصيب الآخرين فقط. بينما نحن، لأسباب ليست واضحة تمامًا، سنبقى شبابًا. كنا نعامل الكبار وكأنهم مسؤولون عن حالتهم بطريقة ما، وكأنهم اقترفوا شيئًا يستحقون عليه التقدم في العمر، وكأنه داء السكري أو تصلب الشرايين. ومع ذلك فقد كان مرضًا يصيب أكثر الناس براءةً على الإطلاق. ثم فكرت، بعينين مغمضتين الآن، في شيء آخر: أنها بلا ظهر. من سيسندها؟

في الصباح كان البحر شديد الهدوء الطقس شديد الجمال، حتى أن الجميع خرجوا إلى السطح. كان شخص ما يصر على أنهم لا بد سيبصرون ساحل «جبل أرارات» التركي من بعيد في هذا الجو الرائع. لكنهم لم يروا إلا شاطئًا صخريًا. من البحر بدا النَّجد قويًا، مبرقشًا ببقع ساطعة من الصخور الجرداء تشبه العظام. وقف البروفيسور منحنيًا إلى الأمام ورأسه ملفوف في وشاحها الأحمر، مضيقًا عينيه. تداعت صورة إلى عقل كارين: كانوا يبحرون تحت الماء، لأن مستوى الماء في الحقيقة كان مرتفعًا، مثلما في أوقات الفيضان؛ يتحركون في فضاء مخضرّ مُضاء يبطئ حركاتهم ويغرق كلماتهم. لم يعد وشاحها يخفق على نحو بغيض، إنما يتموج، بلا صوت، وكانت عينا زوجها الداكنتان تنظران إليها بنعومة بالغة، برقة بالغة، وقد غسلتهما الدموع الملحية كلية الوجود. أما الأكثر تلألؤًا فكان شعر أولي الأحمر الذهبي، جسده كله مثل قطرة صمغ تسقط في الماء فتتصلّب فورًا إلى كهرمان. وعاليًا فوق رؤوسهم كانت يدا شخص ما تطلق طائرًا ليحلق مستطلعًا البر الرئيسي، وسرعان ما سيدركون أن وجهتهم كانت معروفة، وعندها تشير اليد نفسها إلى قمة جبل، بقعة آمنة من أجل بداية جديدة.

في تلك اللحظة سمعت صراخًا من مقدمة السفينة أعقبته مباشرة صافرة تحذير هستيرية، ثم انطلق القبطان، الذي كان يقف قريبًا، يركض باتجاه قمرة القيادة، وهو الأمر الذي أرعب كارين، إذ مثل خروجًا عنيفًا عن رزانته المعهودة. بدأ كل الركاب في الاندفاع والتلويح بأياديهم، ومن يستندون إلى الدرابزين لم يعودوا يوجهون عيونهم المفتوحة صوب جبل أرارات الأسطوري، بل إلى شيءٍ ما بالأسفل. شعرت كارين بالسفينة تُفرمل بحدّة، السطح يترنح ويهتز تحت أقدامهم، وفي اللحظة الأخيرة قبضت على حديد الدرابزين وسارعت بمد يدها لكي تمسك بيد زوجها، لكنها رأت البروفيسور يضرب بيديه في الهواء وهو يتراجع إلى الخلف، في خطوات ضئيلة، وكأنها تشاهد فيلمًا يسير بالعكس. على وجهه أمارات

طرب ناشئة عن الدهشة، لكن لا خوف. كانت عيناه تقولان شيئًا من قبيل: «امسكيني». ثم رأته يضرب ظهره ورأسه في سقالة السلم الحديدي، رأته يرتد عنه ويسقط على ركبتيه. في اللحظة نفسها سمعت من المقدّمة قرقعة تصادم وأناسًا يصرخون، ثم طَشّة أطواق النجاة وارتطام قارب الإنقاذ في الماء بِلطّة عنيفة، لأنهم -كما استجمعت كارين من صرخات الناس- اصطدموا بيخت صغير.

حولها كان الناس ينهضون، لا أحد آخر أصيب، وهي كانت تركع إلى جوار زوجها وتحاول إنعاشه برقة. كان يطرف، طرفات طويلة جدًا، ثم قال بصوت مسموع: «ارفعيني!». لكنها لم تستطع، رفض جسده الانصياع لذا وضعت كارين رأسه على حجرها وانتظرت النجدة.

بفضل التأمين الصحي للبروفيسور -الذي كان قد اختاره بعناية- نُقل في اليوم نفسه بمروحية من رودس إلى مستشفى في أثينا، حيث أجريت له سلسلة من الفحوصات. كشف التصوير المقطعي تلفًا بالغًا في النصف الأيسر من مخه؛ لقد أصيب بسكتة دماغية مستفحلة. لم يكن هناك سبيل لوقفها. جلست كارين بجواره إلى النهاية، تَمتدُّ يده التي صارت رخوة. كان الجنب الأيمن من جسده متيبسًا بالكامل، وظلت عيناه مغمضتين. كانت كارين قد اتصلت بأولاده، ولا بد أنهم في الطريق الآن. جلست بجواره طوال الليل، هامسة في أذنه، واثقة أنه يسمعها ويفهمها. قادته في الطريق المغبّر بين الإعلانات، والمستودعات، ومنحدرات التحميل، والكراجات القذرة، بحذاء الطريق السريع، طوال الليل.

لكن المحيط الداخلي القرمزي في رأس البروفيسور ارتفع بفعل عُباب أنهار الدم وفاض تدريجيًا مغرقًا عالمًا تلو آخر - أولًا سهول أوروبا، حيث ولد ونشأ. اختفت المدن تحت الماء، ومعها الجسور والسدود التي شيدت على نحو شديد المنهجية على أيدي أجيال من أسلافه. وصل المحيط إلى عتبة بيوتها المسقوفة بالخوص ودخلها بوقاحة، بسط سجادة حمراء فوق تلك الأرضيات الحجرية، فوق ألواح أرضية المطبخ، التي تُفرك وتُغسل كل يوم سبت، وأخيرًا أطفأ النار في المدفأة، وأدرك الخزانات والطاولات. ثم تدفق إلى محطات السكك الحديدية والمطارات التي أرسلت البروفيسور في أرجاء العالم. البلدات التي سافر إليها غرقت تحت الماء، ومعها الشوارع التي سكن فيها لبعض الوقت في غرف مستأجرة، والفنادق الرخيصة التي عاش فيها، والمطاعم التي تناول فيها طعامه. الآن، وصل سطح الماء الأحمر المرتعش إلى الرفوف السفلية لمكتباته المفضلة، فانتفخت صفحات الكتب، بما فيها تلك التي تحمل اسمه على أغلفتها. لسان الماء الأحمر لعق الحروف، فذابت الطباعة السوداء وتلاشت. تشرّبت الأرضيات بالأحمر، السلالم التي طلعها ونزلها لاستلام شهادات أطفاله المدرسية، الممرات التي سار فيها أثناء الاحتفال بحصوله على درجة الأستاذيّة. كانت بقع حمراء تتجمع على الملاءات حيث سقطَ هو وكارين للمرة الأولى وحلَّا أربطة

جسديهما الأخرقين الكبيرين. لصّق السائل الدبق جيوب محفظته حيث يحتفظ ببطاقات ائتمانه وتذاكر طيرانه وصور أحفاده. أغرق السيل محطات قطارات وسكك حديدية، مطارات ومدارج طيران - لن تقلع طائرة أخرى منها أبدًا، لن ينطلق منها أي قطار إلى أي وجهة أبدًا.

كان مستوى البحر يرتفع بعناد، المياه تكسح الكلمات والأفكار والذكريات؛ تحته انطفأت أعمدة الإنارة وانفجرت لمبات المصابيح؛ انقطعت الكهرباء عن الكابلات، تحولت الشبكة بأكملها إلى شبكة عنكبوت ميّتة، إلى لعبة مهاتفة عقيمة وعديمة النفع. انطفأت الشاشات. وأخيرًا بدأ هذا المحيط البطيء اللانهائي يصعد إلى المستشفى، وصارت أثينا نفسها ناهضة وسط الدم - المعابد، والطرق والبساتين المقدسة، ساحة الأغورا الخاوية في هذه الساعة، والتمثال البهي للإلهة وزيتونتها الصغيرة.

كانت بجواره عندما اتخذوا قرار فصله عن الجهاز الذي لم يعد ضروريًا الآن، وعندما غطت يدا الممرضة اليونانية الرقيقتان وجهه بالملاءة في حركة واحدة رشيقة.

أُحرق الجسد، ونثرت كارين وأولاده الرماد في بحر إيجه، مؤمنين أن تلك هي الجنازة التي كان ليرغب فيها.

أنا هنا

تدهورت حالتي، في البداية، عندما كنت أستيقظ من النوم في مكان جديد، كنت أظنني في البيت. كان الأمر يستغرق دقيقة لكي أتبيّن التفاصيل غير المألوفة، التي انكشفت في ضوء النهار. ستائر الفندق الثقيلة، شاشة التلفزيون الضخمة، حقيبة سفري المُلخبطة، المناشف البيضاء المطوية بعناية فائقة. بينما يتخذ المكان الجديد شكله وراء الستائر، مختمرًا، ملتبسًا، كثيرًا ما يكون بلون كريميّ أو أصفر بفعل مصابيح الشوارع.

لكن بعدها دخلتُ في المرحلة التي يطلق عليها علماء نفس السفر مرحلة «لا أعرف أين أنا». أصبحتُ أستيقظ بذهن مشوش تمامًا. مثل مخمور يستفيق، أحاول تذكر ما فعلته الليلة السابقة، أين كنتُ وكيف وصلت إلى هناك، مراجعة كل تفصيلة بجهد من أجل فك شفرة الهنا والآن. وكلما طال ذلك الإجراء، تملكني ذعر أكبر - حالة غير سارة، تشبه التهاب التيه الذي يصيب الأذن الداخلية، فقدان التوازن الأساسي، التأرجح على حافة الغثيان. أين أنا باسم الرب؟ لكن العالم رحيم في دقائقه، التي تعيدني دومًا إلى الاتجاه الصحيح في نهاية المطاف. أنا في (م). أنا في (ب). هذا فندق، هذه شقة صديقي، غرفة الضيوف في بيت عائلة (ن). كنبة شخص ما.

كان هذا الاستيقاظ أشبه بالحصول على ختم على تذكرتي للقسم الثاني من رحلتي.

ثم جاءت المرحلة الثالثة، التي يسمّيها علم، السفر المرحلة المفتاحية، مرحلة التتويج. في هذه المرحلة، أيًّا كان مقصدك، تسيرُ دائمًا في ذاك الاتجاه. «لا يهم أين أنا»، لا يصنع ذلك فارقًا. أنا هنا.

في أصل الأنواع

يشهد الكوكب الآن ظهور مخلوقات جديدة، مخلوقات نجحت في غزو كل القارات وكل مكمَنٍ بيئي تقريبًا. إنها تسافر في قطعان وتتلاقح بمساعدة الريح، تُغطّي مسافات كبيرة بلا صعوبة.

الآن أراها من نافذة الحافلة، شقائق النعمان المحمولة على الهواء هذه، قطعان كاملة منها، تطوف في الصحراء. عيّنات فردية تلتصق بنباتات الصحاري القصيفة وتتشبث بها، تخفق بصخب - ربما هكذا تتواصل في ما بينها.

يقول الخبراء إن تلك الأكياس البلاستيكية تفتتح فصلًا كاملًا جديدًا من الوجود على سطح الأرض، تَكسر عادات الطبيعة الراسخة منذ القدم. إنها تتشكل حصرا من سطوحها، خاوية من الداخل، وهذا الترحال التاريخي الخالي من كل محتوى يُسبغ عليها، على غير توقع، منافع تطوريّة هائلة. إنها متحركة وخفيفة؛ آذانها الماسكة تسمح لها بالالتصاق بالأشياء، أو بزوائد الكائنات الأخرى، ومن ثم تُوسع نطاق موئلها. بدأت في الضواحي وأكوام القمامة، واستغرق الأمر عدّة مواسم عاصفة لتصل إلى الأقاليم والبراري القصيّة. لكنها الآن احتلت مساحات شاسعة من البسيطة - من مفارق الطرق السريعة العملاقة إلى الشواطئ المتعرجة، من الساحات المهجورة أمام متاجر البقالة وطوال الطريق حتى سفوح الهيمالايا المعروقة. للوهلة الأولى تبدو رقيقة، واهية، لكن هذا ليس إلا وهمًا - إنها طويلة العمر، وغير قابلة للتلف تقريبًا؛ أجسادها ذات السرعة الخاطفة لن تتحلل قبل نحو ثلاثمئة سنة.

لم يسبق لنا أن واجهنا كائنًا على هذا القدر من العدوانية. البعض، في نشوة ميتافيزيقية، يعتقدون أن الأكياس بطبيعتها تسعى إلى السيطرة على العالم، إلى غزو كل القارات، أنها أشكال بحتَة تبحث عن محتوى لكنها سرعان ما تمل هذا المحتوى، فتلقي بنفسها إلى الريح مجددًا. يزعمون أن الكيس البلاستيكي عين طوّافة تنتمي إلى «هناك» متخيل، أنها مراقب غامض يشارك في الـ«بانوبتيكون». لكن آخرين، بأقدام أكثر رسوخًا في الأرض، يؤكدون أن التطور في أيامنا هذه يفضل الأشكال ذات السرعة الخاطفة التي تستطيع الطيران مرتحلة في أرجاء العالم وتستطيع، في الوقت نفسه، إحراز تغلغل واسع الانتشار.

جدول أخير

كل حَجّة من حَجّاتي ترمي إلى حَجّة أخرى؛ اليوم وصلت أخيرًا. هذه الحَجّة الأخرى كانت مطمورة في زجاج بلاستيكي أو في الغرف الأخرى، ملدّنة. كان عليّ أن أنتظر دوري في الطابور لكي أراها، لكي أنجرف وسط تلك المعروضات، المضاءة ببهاء، الموصوفة بلغتين. مصفوفة أمامي، كانت تشبه شُحنة ثمينة جلبت من مكان قصي، ووضعت أمام العيون لكي تتلذذ بمرآها.

أولًا، عاينت العينات المجهزة بعناية والمحفوظة داخل خزانات من الزجاج البلاستيكي، قطع صغيرة من الجسد، معروضات من البراغي والقُنيطرات، مسامير خابوريّة ووصلات ملحومة، من تلك الأجزاء الأصغر حجمًا، التي لا نعطيها حق قدرها، بل ولا نتذكر وجودها. المنهاج سليم - لا يمكن لشيء أن يدخل أو يخرج. إذا اندلعت حرب، فإن عظمة فكي السفلي التي أراها أمامي في هذه اللحظة سوف تنجو على غالب الظن، تحت الأنقاض، وسط الرماد. إذا انفجر بركان، إذا حدث طوفان، أو انزلاق صخري، سوف يهلل علماء الآثار المستقبليون لذلك الكشف.

لكن هذه ليست سوى البداية. تقدّمنا نحن الحجاج في صمت، في طابور مفرّد، من في الخلف يدفعون من أمامهم. ماذا لدينا هنا، وماذا بعد، أي جزء من الجسد سيعرضه لنا الآن هؤلاء الملدّنون البارعون، ورثة المُحنّطين، والدباغون، والمشرّحون، وعلماء التحنيط.

عمود فقري مستخرج من جسد ومفرود داخل خزانة زجاجية. في احتفاظه بانحناءته الطبيعية بدا أشبه بفيلم Alien- راكب يسافر في جسد بشري باتجاه وجهته، كائن ضخم من عديدات الأرجل. غريغور سامسا[35] مجمع من أعصاب وضفائر عصبية، مصنوعٌ من مسبحة من عظام صغيرة متشابكة مع أوعية دموية. يمكننا أن نتلو صلاة عليه، على الأقل، أو الكثير من الصلوات، إلى أن تأخذ الشفقة أحدهم أخيرًا ويسمح له أن يرقد في سلام.

ثمة شخص كامل - أو الأفضل أن نقول جثة كاملة مقسومة نصفين بالطول، كاشفة عن البنية الفاتنة للأعضاء الداخلية. الكلية، على وجه الخصوص، ميّزت نفسها بجاذبيتها الملحوظة، مثل حبّة فاصولياء جميلة عظيمة، حبة مباركة من إلهة العالم السفلي.

بعد ذلك، في الغرفة التالية - رجل، جسد ذكر، رفيع، عينان مائلتان برغم عدم وجود جفون، لا جلد على الإطلاق ما يمكننا نحن الحجاج من رؤية مبتدأ العضلات ومنتهاها. هل تعلم أن العضلات تبدأ دائمًا بالقرب من الخط المركزي للجسد، وتنتهي باتجاه الأطراف، في

الأبعد؟ وأن الـ«دورا ميتر» ليس اسم ممثلة أفلام إباحية مثيرة، لكنه الاسم اللاتيني للأم الجافية، غطاء المخ؟ وأن العضلات لديها نقاط بداية ونقاط نهاية؟ وأن العضلة الأقوى في الجسد هي اللسان.

عندما واجهنا هذا العرض المكوّن حصرًا من الهياكل العضلية، نظرنا نحن الحُجّاج جميعًا بشكل لا إرادي لنرى إن كان ما يقوله الوصف صحيحًا، قابضين عضلاتنا الهيكلية العضلات التي تُطيع إرادتنا. لسوء الحظ هناك أيضًا عضلات غير مطيعة لا نملك عليها سلطانًا - لا نستطيع إجبارها حقًا على فعل أي شيء، أيًّا كان. لقد استقرت بداخلنا في الماضي البعيد، وهي الآن تحكم ردود أفعالنا المنعكسة.

بعدها تعلمنا الكثير عن طريقة عمل المخ، وكيف أننا مدينون حقًا للوزة الدماغية بوجود الروائح، وكذا بالتعبير عن المشاعر، وبغريزة «قاتِل أو اهرب». على الجانب الآخر، فنحن مدينون لـ«قرن أمون»، حصان البحر الصغير ذلك، بذاكرتنا القصيرة.

«الباحة الحاجزيّة» هي بنية صغيرة في اللوزة الدماغية تنظم العلاقة بين المتعة والإدمان، هذا شيء علينا أن نعيه عندما يحين الوقت للتعامل مع عادات جسدنا. علينا أن نعرف لمن يجب أن نُصلّي من أجل العون والمساندة.

العينة التالية كانت تتشكل من مُخٍ وأعصاب طرفية مصفوفة بشكل مثالي على سطح أبيض. بإمكانك أن تخلط بسهولة بين ذلك التصميم الأحمر على خلفيته البيضاء وخريطة مترو - هنا المحطة الرئيسية، يتفرع منها الطريق الشرياني الرئيسي، ثم الخطوط الأخرى التي تتشعب جانبًا. عليك أن تعترف. كل شيء مُخطط.

كانت تلك العينات الحديثة متعددة الألوان، بهية؛ أوعية دموية وأوردة وشرايين معروضة بجمال في سائل يبرز شبكاتها ثلاثية الأبعاد. لا شك أن المحلول الذي تسبح فيه بسلام هو «كايزرلينغ III»- لقد اتضح أنه أفضل سائل للحفظ.

الآن نتزاحم حول «الرجل المصنوع من الأوعية الدموية». بدا مثل نسخة تشريحية من شبح. شبح يسكن الأماكن المضاءة بنور ساطع، المبلطة، التي تقع في مكان وسطي بين المسالخ ومختبرات مستحضرات التجميل. تنهدنا: ما كنا نظن أن لدينا هذا العدد الكبير من الأوردة بداخلنا. ليست مفاجأة إذا أننا ننزف عند أوهي مساس بتكامل جلدِنا.

الرؤية معرفة، لم يكن لدينا شك في ذلك. واستمتعنا بالمقاطع العرضية أكثر من أي شيء آخر.

أحد هؤلاء الأشخاص/الأجساد مُمدّد أمامنا الآن، مُقطَّع إلى شرائح. ومَنَحَنا ذلك إطلالة من مناظير غير متوقعة على الإطلاق.

الحفظ باستخدام البوليمر خطوة بخطوة:

- أولًا، جهّز الجسد كما تفعل عادة من أجل التشريح، أي: بإفراغ الدم منه؛

- أثناء التشريح اكشف الأجزاء التي تريد عرضها - مثلًا، إذا كانت عضلة، عليك أن تزيل الجلد والنسيج الدهني. في هذه المرحلة، اختر للجسد الوضعية التي تريدها

- تاليًا، حمّم العينة في الأسيتون للتخلص من أي سوائل عالقة؛

- بعد ذلك، غطّس العينة المجففة في حوض من بوليمر السليكون وضعه داخل حجرة فراغية محكمة الإغلاق؛

- في الحجرة، يتبخر الأسيتون، ويحل بوليمر السليكون مكانه، شاقًا طريقه إلى أعمق أغوار الأنسجة؛

- السليكون يُصلِّب لكنه يظل لدنًّا.

لقد لمست كليةً وكبدًا جُهّزا بهذه الطريقة - كانا أشبه بألعاب أطفال مصنوعة من المطاط القوي، مثل تلك الكرات التي ترميها لكلب عندما تلاعبه. وفجأة، يصبح الخط الفاصل بين ما هو مزيف وما هو حقيقي خطًا رفيعًا للغاية. كذلك فقد راودني هذا الشك المثير للأعصاب أن هذه التقنية يمكن أن تحول الأصل، بلا رجعة، إلى نسخة.

ركوب الطائرة

يخلع حذاءه، يضع حقيبة ظهره عند قدميه، وينتظر حتى تبدأ عملية صعود الركاب إلى الطائرة. لديه شعر على وجهه بقيمة بضعة أيام، وهو أصلع تقريبًا، عمره في مكان ما بين الأربعين والخمسين. يبدو مثل رجل اكتشف قبل وقت ليس طويلًا أنه لا يختلف حقًا عن الآخرين - ومن ثم وصل، بمعنى آخر، إلى استنارته الخاصة. لا تزال آثار من تلك الصدمة مرئية على وجهه. العينان اللتان لا تنظران إلا إلى أسفل، في المساحة التي يشغلها حذاؤه، غالبًا لكي يمنع أنظاره من التعثر في رؤية أناس آخرين. لا تعبيرات على الوجه ولا إيماءات، وهي أمور لم يعد يحتاج إليها. بعد برهة يخرج كراسًا لطيف الشكل، مخيطًا باليد، غالبًا من أحد تلك المتاجر التي تطلب سعرًا غاليًا مقابل منتجات رخيصة من العالم الثالث؛ مكتوب عليها «دفتر المسافر» بالإنكليزية على غلاف من الورق المعاد تدويره. الكرّاس ممتلئ إلى ثلثه. يفتحه على حجره، ويباشر قلمه الأسود ذو الرأس الدوارة كتابة جملة أولى.

لذا أخرج كُرّاسي أنا أيضًا وأشرع في الكتابة عن هذا الرجل الذي يكتب. الأغلب أنه يكتب الآن: «امرأة تكتب شيئًا. لقد خلعَت حذاءها ووضعت كتابها عند قدميها...».

لا تكونوا خجولين. أفكر في الآخرين الذين ينتظرون أن تفتح البوابة- أخرجوا كراساتكم أيضًا واكتبوا. فنحن الذين نكتب أشياءَ كثيرون في حقيقة الأمر. نحن لا نكشف عن كوننا ننظر إلى بعضنا البعض؛ نحن لا نرفع أعيننا عن أحذيتنا. نحن ببساطة نكتب بعضنا البعض، وهي أأمن طريقة للتواصل والمرور العابر، سوف تُحوّل بعضنا بعضًا، بالتبادل، إلى حروف وأحرف أولى، تُخلّد بعضنا بعضًا، لأن بعضنا بعضًا نُغطّس بعضنا بعضًا في جمل وصفحات من الفورمالدهايد.

عندما نصل إلى ديارنا سنضع كراساتنا المكتوبة مع البقية - ثمة صندوق مخصّص لها وراء دولاب الملابس، أو في درج المكتب السفلي، أو على رف بجوار الفراش. هنا أرّخنا رحلاتنا الأخرى، وتجهيزاتنا، ورجعاتنا السعيدة. الانتشاء بالغروب على شاطئ مرضع بالزجاجات البلاستيكية، تلك الأمسية في الفندق حيث كانت الحرارة شديدة. شارع أجنبي حيث كلب مريض تسوّل طعامًا، ولم يكن معنا شيء؛ الأطفال الذين تزاحموا حولنا في القرية حيث توقفت الحافلة لتبريد الرادياتور. ثمة وصفة لشوربة الفول السوداني مذاقها مثل مَرَق جوارب متسخة؛ ثمة آكل للنار بشفتين مسفوعتين. هنا ظللنا نتابع نفقاتنا بحرج ونحاول عبثًا رسم الـ«موتِيفة» التي شدّت انتباهنا ذات مرة لجزء من الثانية في المترو.

الحلم الغريب الذي حلمنا به على الطائرة وجمال الراهبة البوذية في مسوحها الرمادية، تقف أمامنا لبرهة صغيرة في طابور. كل شيء مسجل هنا، حتى البخار الذي كان يرقص رقصًا نَقريًا على الرصيف البحري الذي كانت تنطلق منه السفن، واحدة بعد أخرى، في سالف الأيام.

من سيقرأ هذا؟

البوابة على وشك أن تُفتح. المضيفات يقتربن من المكتب، والركاب الذين ظلوا غائصين حتى الآن في النعاس ينهضون ويلملمون متاعهم المحمول. يبحثون عن بطاقات الركوب، يزيحون الأوراق التي لم يكملوا قراءتها بلا ندمٍ ظاهر. في رؤوسهم يقومون باستجوابات صامتة لضمائرهم: هل لديهم كل شيء، جواز السفر، التذكرة، والأوراق، هل غيّروا العملة. وإلى أين يذهبون. ولماذا. وهل سيجدون ما يبحثون عنه، هل اختاروا الوجهة اللازمة.

مضيفات الطيران، الجميلات كملائكة، يراجعن للتأكد أننا لائقون للسفر، ثم، بحركة كريمة من اليد، يسمحن لنا بالغوص في المنحنيات الناعمة المبطنة بالسجاد للأنفاق التي ستقودنا إلى متن الطائرة، ثم إلى طريق جوي بارد صوب عوالم جديدة. تلك الابتسامة التي ترتسم على وجوههن -أو هكذا يخطر لنا- هي وعدٌ أننا قد نولد من جديد الآن، هذه المرة في الزمان المناسب والمكان المناسب.

خريطة مسار

1 - فيينا -ال-«نارينتورم»- «المتحف الفيدرالي للتاريخ الباثولوجي»:

Narrenturm- Pathologisch-anatomisches Bundesmuseum, Spitalgasse 2

2 - فيينا. ال-«جوزفينيوم»، «متحف مؤسسة تاريخ الطب»:

Josephinum- Museum des Instituts fir Geschichte der Medizin-Wahringerstrasse 25

3- دريسدن- «متحف النظافة الصحية الألماني»:

Deutsches Hygiene Museum, Lingnerplatz 1, Dresden Glaesernen Menschen

4- برلين - "متحف برلين للتاريخ الطبي"، التابع ل- "مستشفى جامعة شاريتيه":

Berliner Medizinhistorisches Museum der Charité, Charitéplatz 1

5 - لايدن - «متحف بويرهاف»:

Museum Boerhaave, St. Caecilia Hospice, Lange St. Agnietenstraat 10

6 - أمستردام - «متحف فروليك»، «المركز الطبي الأكاديمي»:

Vrolik Museum, Academisch Medisch Centrum, Meibergdreef 15

7 - ريغا - «متحف بول سترادين التاريخ الطب»:

Pauls Stradins Museum of the History of Medicine, Antonijas iela 1

و"متحف جيكابس بريمانس للتشريح":

Jekabs Primanis Anatomy Museum, Kronvalda bulvaris 9

8 - سان بطرسبرغ - «متحف الأنثروبولوجيا والإثنوغرافيا» («كونستكامر»):

Museum of Anthropology and Ethnography (Kunstkamerr), 3, Universitetskaya Naberezhnaya

9 - فيلادلفيا - «متحف موتر»:

Mutter Museum, 19 South 22nd Street

عن الكاتبة

واحدة من ألمع كتاب بولندا وأكثرهم شعبية، حصلت على جائزة نوبل في الآداب وجائزة مان بوكر الدولية، إضافة إلى جائزة «نايكي»، أعلى الجوائز الأدبية في بلادها، نشرت توكارتشوك ثماني روايات ومجموعتين قصصيتين، وتُرجمت أعمالها إلى أكثر من ثلاثين لغة. وقد بررت لجنة نوبل فوزها بالآتي: الخيال السردي الذي يصوّر بشغف موسوعي عبور الحدود بوصفه شكلًا من أشكال الحياة.

هذه أول ترجمة لأحد أعمالها باللغة العربية.

عن الكتاب

رحَّالة

الكاتب: **أولغا توكارتشوك**

المترجم: **إيهاب عبد الحميد**

الحياة والموت والحركة والهجرة. هنا نرى شقيقة شوبان تغامر في رحلة محفوفة بالمخاطر لكي تعيد قلبه سرًا إلى وارسو بعد موته. نرى امرأة تعود إلى مسقط رأسها في بولندا لكي تحقن بالسم حبيب صباها الذي يرقد طريح الفراش في سكرات مرضه الأخير. عبر شخصيات وقصص مرسومة ببراعة، ومحبوكة بتأملات مؤرقة، ولعوبة، وموحية، تستكشف "رحّالة" معنى أن تكون مسافرًا، طوافًا، جسدًا في حالة حركة ليس فقط عبر المكان وإنما عبر الزمن أيضًا. من أين أنت؟ من أين أتيت؟ إلى أين تذهب، هكذا نسأل المسافرين حين نلتقيهم. ورواية "رحّالة" الفاتنة، المقلقة، بمثابة إجابة تطرحها كاتبة من كبار الحكّائين في عالمنا

توكارتشوك، من أبرز الكتاب ذوي النزعة الإنسانية في أوروبا، "رحّالة" تجعلنا نتذكر ف.ج زيبالد وميلان كونديرا، ودانيلو كيش، لكن تظل توكارتشوك تتمتع بخصوصية بالغة، متمردة ولعوب.. "رحّالة" هي محاولة شغوفة ومسهبة، آسرة وفتّانة، من أجل البحث عن آصرة ذات معنة، من أجل قبول السيولة، والحركية، والإيهام. تذكرنا توكارتشوك أن "البرابرة لا يسافرون، هم ببساطة يذهبون إلى وجهات معينة أو يشنّون غارات" . ولسوف تفعل فنادق أوروبا خيرًا إن وفرت نسخة من "رحّالة" على الطاولة المجاورة لكل سرير، فأنا لا أستطيع أن أفكر في رفيق سفر أفضل منها في تلك الأزمنة المضطربة المهووسة.

الفهرس

Notes

[←1]

ملكة الأمازون: الإشارة إلى «الأمازونيات» في الميثولوجيا الإغريقية، وهن شعب من النساء المحاربات. (المترجم)

[←2]

أنتايس: أحد أبطال الميثولوجيا الإغريقية. كان لا يقهر طالما تُلامس قدماه أمه الأرض. (المترجم)

[←3]

التحويل: حالة في «التحليل النفسي» يسقط فيها المريض مشاعره وانفعالاته الإيجابية أو السلبية، على مُعالجه.
التحقق من النظريات (في علم الإحصاء): عملية تحليل للبيانات بطريقة يمكن أن تُثبت (أو تنفي) فرضيّة مسبقة وضعها العالم أو الإحصائي. (المترجم)

[←4]

سيوران: الفيلسوف إميل سيوران Emil Cioran ولد في رومانيا (1911) وتوفي في فرنسا (1995). (المترجم)

[←5]

بانوبتيكون panopticon، وتعني حرفيًا «مراقبة الكل». و«ووندركامر» Wunderkammer كلمة ألمانية تعني «خزانة الأعاجيب». (المترجم).

[6←]

الإشارة هنا إلى الفيلسوف والمصلح الاجتماعي الإنكليزي «جيرمي بنثام» وابتكاره الذي أصبح يرمز القوة التي تراقب الجميع (الأخ الأكبر كما صاغها «جورج أورويل» لاحقًا في روايته «1984»).

[←7]

مانو دي جيوفاني باتيستا: بالإيطالية «يد جيوفاني باتيستا»، وباتيستا هو الفنان الإيطالي الذي رسم لوحة «يوحنا المعمدان يعظ»، التي تشير إليها الكاتبة في نهاية هذا المقطع. (المترجم)

[←8]

يوسيفوس: هو يوسفوس فلافيوس، المؤرخ اليهودي في القرن الأول الميلادي. وهيرودوت: المؤرخ الإغريقي في القرن الخامس قبل الميلاد. (المترجم)

[←9] Brevis Lectio: (باللاتينية) قراءة قصيرة، أو مدخل، أو مقدمة. (المترجم)

[←10]

هذه الفقرة بالكامل مأخوذة من رواية "موبي ديك" لهرمان ملفيل، يحفظها إيريك عن ظهر قلب ضمن فقرات أخرى. (المترجم)

[←11]

إسماعيل وأهاب: الإشارة إلى بطلي رواية «موبي ديك». (المترجم)

[←12] Peregrinatio Ad Loca Sancta: تعني باللاتينية «حَجّة إلى الأراضي المقدسة». (المترجم)

[←13]

Unus Mundus: باللاتينية، تعني «عالم واحد». (المترجم)

[←14]

النيمونِك mnemonic: تقنية للاستذكار تساعد الشخص على استعادة الأشياء من الذاكرة. (المترجم)

[←15]

لارا كروفت: الشخصية الرئيسية في سلسلة أفلام Tomb Raider. (المترجم)

[←16]

أطلقت السائحة عليه هذا الاسم تيمنًا بالكاتب اللاتيني «لوكيوس أبوليوس»، صاحب رواية «الحمار الذهبي»، وهي أقدم رواية كاملة معروفة حتى الآن. (المترجم)

[←17]

كالي يوغا: هو عصر الظلام، المرحلة الرابعة والأخيرة من مراحل الحياة الدنيا، وفقًا لبعض الكتب الهندية المقدسة. (المترجم)

[←18]

المتحف اليوسفي: في الأصل Josephinum. (المترجم)

[←19]

سداسيّة بلاو رقم 65: الإشارة إلى سداسيات «آي تشينغ» أو «كتاب التغيير»، وهو كتاب صيني كلاسيكي لقراءة الطالع، يضم 64 «سُداسية». (المترجم)

[←20]

مينوتور: مخلوق بجسد إنسان ورأس وذيل ثور في الميثولوجيا الإغريقية. (المترجم)

[←21]

الأسقف: المقصود قطعة الأسقف أو «الفيل» في لعبة الشطرنج. (المترجم)

[←22]

مونادات: جمع «موناد»، وهو مصطلح فلسفي يعني الجوهر البسيط غير القابل للانقسام الذرات «الروحية» أو «غير الملموسة» التي تتكون منها العناصر والمخلوقات. (المترجم)

[←23]

شعب الماوري: السكان الأصليون لنيوزيلاندا. (المترجم)

[←24]

خطوط نازكا: مجموعة من النقوش الصخرية القديمة بالغة الضخامة (بعضها بطول مئات الأمتار) الحيوانات مختلفة، تقع على هضبة قاحلة في صحراء نازكا جنوب بيرو، ويعتقد العلماء بأنها نقشت لأغراض دينية. ويبدو أنها بقيت على حالها بسبب جفاف المناخ. يُرجع بعض العلماء زمنها إلى مئات السنين قبل الميلاد. وتتضح أكثر عندما ينظر إليها من الجو. (المترجم).

[←25]

«حول دوران الأجرام السماوية» De revolutionibus orbium coelestium: «بنية الجسم البشري» De humani corporis fabrica (باللاتينية في الأصل). (المترجم)

[←26]

«كلية الثالوث الأقدس» Drievuldigheidscollege- Heilige (بالهولندية في الأصل). (المترجم)

[←27]

«تشريح الجسد البشري» Anatomia Humani Corporis باللاتينية في الأصل. (المترجم)

[←28]

«الطبيعة كلها فرد واحد» totam naturam unum esse individuum. باللاتينية في الأصل. (المترجم)

[←29]

«خزائن الأعاجيب» Wunderkammers. بالألمانية في الأصل. (المترجم)

[←30]

مسرح التشريح Theatrum Anatomicum. باللاتينية في الأصل. (المترجم)

[←31]

Kunstkammer: تعني «خزانة الفنون» أو خزانة الأعاجيب» بالألمانية. (المترجم)

[←32]

باللاتينية، وتعني «إنما يتجلى الإله، أكثر ما يتجلى، في أصغر الأشياء». (المترجم)

[←33]

سبتوليت Septolete: اسم تجاري لأقراص تستخدم في علاج التهاب الحلق. (المترجم)

[←34]

مفارقة زينو: مفارقة فلسفية مفادها أن أخيل، أسرع العدائين، لا يمكن أن يلحق بسلحفاة في سباق، إذا أعطيت السلحفاة أفضلية في البدء. والمعنى أن أي نقطة يصل إليها أخيل ستكون السلحفاة قد سبقته إليها. (المترجم)

[←35]

غريغور سامسا: بطل رواية «المسخ» لفرانز كافكا. (المترجم)